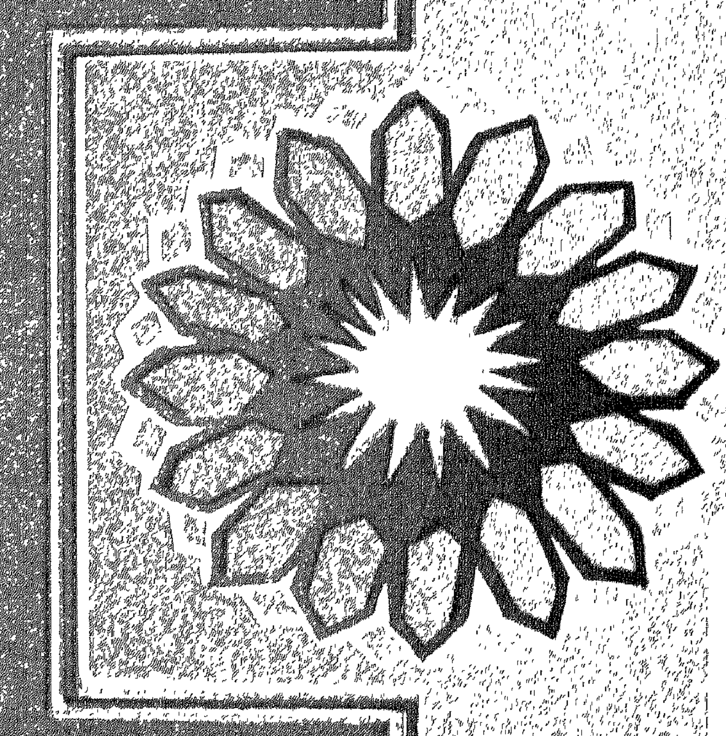
ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط



المجلد الثاني

١٩٨٣

تحرير :

دكتور قاسم عبده قاسم

دكتور رأفت عبد الحميد



ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط

المجلد الثاني

١٩٨٣

تحرير :
دكتور قاسم عبده قاسم
دكتور رأفت عبد الحميد



دار المعارف

الناشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج٠م٠ع٠

المحتويات

	صفحة
مقدمـــة	٧
أولا : الدراسات والبحوث :	١١
١ ـــ عقد مراجعة من العصر الفاطمى للدكتور أحمد عبد الرازق	١٣
٢ ـــ حول اتخاذ السواد ورفع الألوية والاعلام السوداء فى المغرب والأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم	٤٩
٣ ـــ الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب فى العصور الوسطى للدكتور رأفت عبد الحميد	٨٣
٤ ـــ صليبية الأطفال للدكتور عبد الغنى محمود عبد العاطى	١٤٥
٥ ـــ الدوافع الاجتماعية فى الحركة الصليبية للدكتور قاسم عبده قاسم	١٨٧
٦ ـــ الفتح النورمانى لانجلترا ـــ ملحمة فريدة فى تاريخ انجلترا ونورمانديا فى العصور الوسطى للدكتور محمد محمد الشيخ	٢٣٥
٧ ـــ الحضارة الأندلسية : مرحلة التكوين للدكتور محمد عبد الحميد عيسى	٢٦٣
٨ ـــ قوانين الملكية الزراعية فى الامبراطورية البيزنطية فى القـــرن العاشر الميلادى : دراسة تحليلية . للدكتور وسام عبد العزيز فرج	٢٩٩

صفحة

ثانيا : الكتب والدراسات الجديدة ٣٤٣

١ ـ تقرير عن معرض القاهرة الدولى للكتاب ١٩٨٣م

محمد مؤنس عوض ٣٤٥

٢ ـ عرض ونقد كتاب « تاريخ المغرب ـ محاولة فى التركيب » .

سنوسى يوسف ابراهيم ٣٥٥

ثالثا : رسائل الدكتوراه والماجستير المسجلة فى التاريخ

الاسلامى والوسيط بالجامعات المصرية

اعداد محمد مؤنس عوض ٣٧٧

١ ـ رسائل الدكتوراه والماجستير التى نوقشت ٣٧٩

٢ ـ رسائل الدكتوراه والماجستير المسجلة ٤٠٩

٣ ـ الرسائل التى نوقشت بين يناير ١٩٨٢ وابريل ١٩٨٣ ٤١٥

« ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط »

كتاب سنوى يشترك فيه مجموعة من الأساتذة

المراسلات باسم :

الدكتور قاسم عبده قاسم : كلية الآداب ــ جامعة الزقازيق ــ قسم التاريخ •

الدكتور رأفت عبد الحميد : كلية الآداب ــ جامعة عين شمس ــ قسم التاريخ •



بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

اننا اذ نحمد الله أن وفقنا لاصدار المجلد الثانى من « ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط » ، نود أن نشير الى أن هذا المجلد قد جاء خطوة أكثر تقدما عن المجلد الأول . ففى طياته الدراسات والبحوث الى جانب نقد الكتب وعرض لأحدث ما ظهر من دراسات فى العام الماضى ، فضلا عن سجل برسائل الدكتوراه ورسائل الماجستير التى سجلت ، والتى نوقشت ، فى ميادين التاريخ الاسلامى وتاريخ العصور الوسطى فى الجامعات المصرية ، وهى خطوة نرجو أن تليها خطوات أكثر تقدما فى الاعداد التالية ان شاء الله ؛ لأن فى طموحنا ان نعد سجلا كاملا بالدراسات التى جرت فى هذين الفرعين على امتداد وطننا العربى الكبير .

يضم هذا العدد ثمانى دراسات أولها : عبارة عن وثيقة تتضمن عقد مراجعة من العصر الفاطمى ينشرها الدكتور أحمد عبد الرازق نشرا ثانيا بعد أن كان جروهمان قد نشرها ضمن بردياته الشهيرة ، ولكن الدراسة التى قام بها الدكتور احمد عبد الرازق استكملت كثيرا من جوانب الصورة التى كانت ناقصة عند جروهمان . وأهم ما فى هذه الدراسة أنها تكشف عن جوانب جديدة فى الحياة الاجتماعية بمصر ابان الشدة المستنصرية . والدراسة الثانية قام بها الدكتور السيد عبد العزيز سالم عن دلالة اللون الأسود فى الصراع السياسى عند المســلمين ، والأبعاد التاريخية للمدلول اللغوى للسواد ، وكيف كانت الألوية السوداء والسواد فى المغرب والأندلس ، وسيلة لشرعية الولاية ، أو شــعارا للانفصال السياسى أو المذهبى عن السلطات الحاكمة ، أو اقرارا بالتبعية الاسمية للخلافة العباسية بهدف لم الشعث ، والوحدة ، فى ظل رمز روحى هو الدعوة للخليفة العباسى .

أما الدراسة الثالثة التى قام بها الدكتور رأفت عبد الحميد فتتناول موضوعا محوريا فى تاريخ أوربا العصور الوسطى ، وهو الصراع السياسى

الذى دار حول مبدأ الانتخاب الجرمانى ، وحق وراثة العرش فى الملكية الألمانية فى العصور الوسطى .. وأهمية الدراسة تكمن فى أنها تكشف النقاب عن مدى ما يمكن للبيئة أن تلعبه فى تشكيل التاريخ السياسى لبلد ما ، كما أنها توضح لنا بجلاء الدور المدمر الذى لعبته البابوية فى السياسة الأوربية ابان فترة تمتد حوالى ثلاثة قرون ما بين الحادى عشر والثالث عشر . والدراسة الرابعة يطرحها الدكتور عبد الغنى محمود عن صليبية الأطفال . هذه الدراسة تتناول جانبا هاما من تاريخ الحركة الصليبية ، وهو الجانب المتعلق بالتدين العاطفى لدى شعوب الغرب الأوربى ، ومدى ما اتسم به هذا التدين من حماسة وتعصب ضد أصحاب الديانات الأخرى . كما يكشف الدكتور عبد الغنى كيف أن هذا التعصب قد أعمى الغرب الأوربى بالدرجة التى جعلت الناس يلقون بفلذات أكبادهم فريسة سهلة للمشعوذين والمصابين بالهوس الدينى ، بالشكل الذى جعل حملة الأطفال تنتهى نهايتها المأساوية الشهيرة .

الدراسة الخامسة قام بها الدكتور قاسم عبده قاسم عن الدوافع الاجتماعية فى الحركة الصليبية . وهى دراسة تستهدف كشف النقاب عن العوامل الحقيقية التى حفزت أبناء المجتمع الأوربى فى أخريات القرن الحادى عشر لحمل راية الصليب والسير على طريق القدس . وأهم ما فى هذه الدراسة انها توضح أن الصليبيين الذى شاركوا فى الحملة الأولى قد ساروا تحت راية ايديولوجية واحدة ، ولكن الأهداف الحقيقية لكل طبقة فى مجتمع غرب أوربا كانت تختلف عن أهداف الطبقة الأخرى بل وتتناقض معها . الدراسة السادسة يطرحها الدكتور محمد الشيخ عن الفتح النورمانى لانجلترا ، وهى دراسة تكشف عن حقيقة تاريخية هامة مؤداها أن فتح انجلترا على يد وليم الفاتح سنة ١٠٦٦ ، بعد معركة هاستنجز الشهيرة ، كان منعطفا هاما فى مسار التاريخ الانجليزى ، وتاريخ منطقة نورماندى على الجانب الآخر من القنال الانجليزى . والدراسة تحمل كثيرا من المعلومات الهامة عن الأوضاع السياسية فى انجلترا قبيل الغزو النورمانى .

أما الدراسة السابعة فقد طرحها الدكتور محمد عبد الحميد عيسى عن موضوع فائق الأهمية ، وهو الحضارة الأندلسية فى مرحلة التكوين ، وعلى الرغم من صعوبة البحث فى مثل هذه الموضوعات فان الدكتور عيسى قد عالجها بقدر كبير من اليسر والبساطة ، لا سيما وأن اهتمامه بالجوانب الأدبية

فى الدراسة قد سهل عليه رصد علامات كثيرة فى هذا الميدان . هذه الدراسة تشير الى أن البحث فى مثل هذه الموضوعات قد بات ضرورة ملحة أمام الباحثين المهتمين بتاريخ هـذه الفترة من تاريخنا العربى الاسـلامى . أما الدراسـة الثامنة التى قـام بها الدكتور وسـام عبد العزيز فرج ، فتتناول موضوعا هاما وطريفا ، وهو القوانين المنظمة لملكية الأرض الزراعية فى الامبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر الميلادى . هذه الدراسة تكشف عن كثير من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصـادية ، بل والسـياسية والعسكرية ، فى بيزنطة ابان هذه الفترة الحرجة من تاريخها . واهميـة الدراسة تنبع من كونها دراسة بعيدة تماما عن التاريخ السياسى الـذى مازال بعض الباحثين يعولون عليه . وعلى الرغم من أن موضوع الدراسة حافل بالصعوبات ؛ فان الوثائق التى استعان بها الدكتور وسام ، وقدرته على التحليل والاستنباط جعلت قراءة البحث أمرا ممتعا .

فى هذا العدد أيضا نقد وتحليل كتاب « تاريخ المغرب — دراسة فى التركيب » للدكتور عبد الله العروى ، قام بها السيد / سنوسى يوسـف ابراهيم المدرس المساعد بآداب عين شمس . وهذا النقد يعارض كثيرا من الأفكار التعميمية التى اشتهر بها الدكتور عبد الله العروى ، ويرد كثيرا من الأمور الى صحتها التاريخية . أما الجهد الكبير الذى قام به السيد / مؤنس عوض المعيد بقسم التاريخ بآداب عين شمس سواء فيما يتعلق بتحليله الذكى للكتب الجديدة ، أو عرضه للرسائل التى نوقشت أو حرده ه ودقته — هذا كله يبشر بباحث واعد يمتلك كل مقومات النجاح .

هذا العدد ، بكل ما فيه ، خطوة اخرى على الطريق نعترف أنها قاصرة ؛ ولكننا نرجو أن نحقق الكمال ، أو نقترب منه ، فى الأعداد القادمة ان شاء الله ، ولكن ذلك لن يكون ميسورا اذا لم يساعدنا القراء بملاحظاتهم ونقدهم وما يشيرون به . والله الموفق والمستعان ؟

دكتور قاسم عبده قاسم

دكتور رأفت عبد الحميد



اولا :

الدراسات والبحوث

عقد مراجعة من العصر الفاطمى

للدكتور أحمد عبد الرازق
أستاذ التاريخ والحضارة الاسلامية
بآداب عين شمس



عقد مراجعة من العصر الفاطمى

تحتوى مجموعة دار الكتب المصرية من أوراق البردى العربية على عدد كبير من عقود الزواج من بينها عقد مؤرخ فى العشر الأخير من شهر جمادى الآخرة سنة ٤٦١ هـ / ١٧ — ٢٦ أبريل ١٠٦٩ م باسم حسن بن المكنا بابى البدر وضياء ابنة غنائم الطوائف (لوحة ١) قام بنشره للمرة الأولى الاستاذ جروهمان عام ١٩٣٤ ضمن مجموعة من عقود الزواج التى تنسب الى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى (١) . ونظرا لأهمية هـذا العقد فقد رأينا من المناسب اعادة نشره من جديد بهدف تصحيح بعض القراءات الخاصة بنصوصه ولالقاء مزيد من الضوء على نواحى الحياة الاجتماعيـة والاقتصادية فى مصر ابان هذه الفترة الحرجة من التاريخ الفاطمى المعروفة بالشدة المستنصرية التى عانت منها البلاد قرابة سبع سنين ٤٥٧ — ٤٦٤هـ/ ١٠٦٥ — ١٠٧١ م (٢) ، وكذا لمقارنته بعقود الزواج المعاصرة التى دونت

---

(1) A. Grohmann, Arabic Papyri, Cairo, 1934, I, pp. 101-106, pl. V. fig. 45.

(٢) المقريزى ، اغاثة الأمة بكشـف الغمة ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٢٤ — ٢٧ ؛ المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، القاهرة ١٢٧٠ هـ ، ج ١ ، ص ٣٣٥ — ٣٣٨ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، القاهرة ١٣١١ هـ ، ج ١ ، ص ٦٠ — ٦٢ ؛ محمد عبد الله عنان ، مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة ١٩٣١ ، ص ٨٨ — ٩٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، الامام المستنصر بالله الفاطمى ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٥٦ — ١٥٨ .

على النسيج ووصلنا نموذج منها خاص بالطبقة الحاكمة (٣) .

والعقد الذى نحن بصدده مدون على صحيفة رمادية ضاربة الى الصفرة يرجح انها جاءت من مدينة الأشمونين تبلغ مقايسها ٢٣×٨ر٢٠ سم ، ومدون عليها ثلاثة وعشرين سطرا بالمداد الأسود نقشت بخط النسخ الذى كان متداولا فى المكاتبات اليومية فى سطور متزاحمة خاصة ابتداء من السطر السادس عشر بحيث تداخلت بعض كلمات الأسطر التالية مما يزيد من صعوبة قراءتها ، ومع هذا فالوثيقة فى حالة جيدة من الحفظ باستثناء بعض أطرافها العليا التى تآكلت بفعل الزمن ، وكذا بعض الثقوب التى أصابت الأسطر الأولى من جانبها الأيمن .

وفيما يلى نص هذا العقد :

١ ـ (بسم الله) الرحمن ا (لرحيم) .

٢ ـ هذا ما أصدق حسن بن المكتا بابو (كذا) البدر (٤) الساكن يومئذ مدينة (الأشمونين) .

٣ ـ ضيا (ء) ابنة غنائم (٥) الطواف (٦) الساكن يومئذ بهذه المدينة المذ (كورة ...) .

٤ ـ وتزوجها به تزويجا مستأنفا اذ كانت زوجته ... . (٧)

٥ ـ ودخل بها واصابها وطلقها طلقة واحدة واسترجعها بهذا .

---

(٣) A. Grohmann, Arabische Paläographie, Vienne, 1967-1971, I, p. 106, pl. XIV; Yusuf Ragib, Un contratde mariage sur soie d Egypte fatimide, Annales Islamologiques, XVI, (1980), pp. 31-37, pl. xiii.

(٤) قرأها جروهمان التدر أنظر : Arabic Papyri, I, p. 102.

(٥) قرأها جروهمان عثام بالرغم من وجود نبرة واضحة تعلو حرف الميم انظر : Arabic Payri, I, p. 102.

(٦) قرأها جروهمان الطراف Arabic Payri, I, p. 102.

(٧) هناك مكان لأربع كلمات قرا منها جروهمان كلمتى به ، وهذا ، بيد أننا لا نوافق على هذه القراءة انظر : Arabic Payri, I, p. 102.

٦ ـــ الصداق أصدقها أربعة دنانير مستنصرية جياد العيون نقدها.

٧ ـــ م [ن] ذلك دينارا واحدا قبضته منه لنفسها نقدا فى يدها تاما وافيا .

٨ ـــ وأبرأته منه ومن اليمين عليه برا[ء] ة قبض واستيفى [كذا] واخرت الثلاثة دنانير .

٩ ـــ الباقى [كذا] مهرها عليه الى انقضى [كذا] خمســة ليلى متواليات أولهن تاريخ .

١٠ـــ هذا الكتاب وعليه أن يتقى الله عز وجل فيها ويحسن صحبتها بالمعروف.

١١ـــ كما أمر الله سبحانه فى كتابه وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وعلى آله.

١٢ـــ وسلم تسليما وله عليها مثل ذلك ودرجة (كذا) زائدة وولى تزويجها اياه بذلك .

١٣ـــ الشيخ أبو الفضل العباس بن هبة الله بن عفيف بأمر القاضى أبو القاســم .

١٤ـــ عبد الله بن على بن عبد الرحمن خليفة القاضى أبى الحسن مسرة بن عبد الله .

١٥ـــ على الحكم والصلاة والخطابة والقضا (ء) والمظالم بمدينة الأشمونيين. واعمالها اليه .

١٦ـــ بكشــف حالها وتزوجها وكيل المتولى ذلك وكشــف عن حالهــا فوجدها (٨) مستحقة .

١٧ـــ الناكحة فزوجها من الزوج المسما معها فيه باذنها ورضاها بالمهر (٩) المذكور عاجله .

١٨ـــ وآجله المذكورين فى هذا الكتاب وشاهدى (كذا) عدل شهدا له عليها بالرضا وقبل

١٩ـــ الزوج من المتولى هذا النكاح ورضى به وألزمه نفسه بمخاطبة جرت بينهما على جميعه

---

(٨) قرأها جروهمان فوجبها انظر : Arabic Payri, I, p. 102.

(٩) قرأ جروهمان العبارة الأخيرة ورضا وبالمهر انظر : Arabic Payri I, p. 103.

٢٠ـ شهد على اقرار الزوجين والمتولى الشيخ بجميع ما فيه بعد أن قرىء عليهم فاقروا بفهمه

٢١ـ ومعرفته (١٠) جميعه واكتب فى العشر الأخير من جمادى الآخر سنة احدى وستين واربعمائة .

٢٢ـ اشهد (١١) على بن نجيب (١٢) بن على المغربى على اقرار الزوجين والمتولى وكتب فى تاريخه أشهد (١٣) على بن حفص بن على بن حفص على اقرار الزوجين

٢٣ ـ والمتولى بما فيه وكتب فى تاريخه .

لعل أول ما يلفت النظر فى هذا العقد هو أنه خاص ببعض أفراد طبقة العامة بدليل خلوه من المقدمة أى خطبة الصداق التى تميزت بها العقود الخاصة بالطبقة الارستقراطية الحاكمة ، والتى كانت تختلف فى الطـول والقصر بحسب مكانة صاحب العقد اذ كانت « تطال للملوك وتقصر لمن دونهم بحسب الحال (١٤) » . ويتجلى ذلك بوضوح من عقد زواج معاصر باسم أبى المنصور هاشم بن ماكنون بن شبيب وسلامة ابنة الأمير ناصح الدولة الصيادى (لوحة ٢) المحفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة تحت رقم ٩٣٨١ ، والمدون على قطعة نسيج حريرية (١٥) ، اذ يحتوى هذا العقد

(١٠) قراها جروهمان بمعرفة أنظر : Arabic Papyri, I, p. 103.
(١١) قراها جروهمان شهد أنظر : Arabic Papyri, I, p. 103.
(١٢) قراها جروهمان نجيد أنظر : Arabic Papyri, I, p. 103.
(١٣) قراها جروهمان شهد : Arabic Papyri, I, p. 103.
(١٤) القلقشـندى ، صبح الاعشى فى صناعة الانشـاء ، القاهرة ١٩١٤ — ١٩٢٨ ، ج ١٤ ، ص ٣٠٠ .

(١٥) تنوعت المواد التى سجلت عليها عقود الزواج الفاطمية ، اذ يلاحظ أنها دونت على البردى والورق والنسيج . كما وصلنا عقد من نفس الفترة مدون على قطعة من الرق انظر :

G. Levi Della Vida, A marriage contract on parchment from Fatimite Egypt, in L.A. Mayer Memorial volume, Ertz-Israel, VII, 1964 pp. 64-6٤.

على خطبة صداق تحتل سبعة أسطر من مجموع أسطر العقد البالغ عددها ستة عشر سطرا أى ما يقرب من نصف المتن تقريبا (١٦) . وهذه الخطبة عبارة عن مجموعة من العبارات الدعائية وبعض الاحاديث النبوية المتعلقة بالزواج والحاضة عليه ، فضلا عن بعض العبارات الشيعية التى ذاعت بصفة خاصة ابان العصر الفاطمى مثل « ... وأشهد أن محمدا رسوله المصطفى وأمينه المرتضى ... صلى الله عليه وعلى وصيه على أمير المؤمنين ، وعلى ابنته فاطمة سيدة نساء العالمين ، وعلى سبطيه الحسن والحسين بابى الرحمة ، وعلى الأئمة من ولد الحسين بدور الدجى وشموس الضحا وأمناء الله على الورى ... » . وذلك فى الوقت الذى اقتصر فيه متن العقد الذى نحن بصدد دراسته على صلب العقد فقط مما يشير بوضوح الى انتماء صاحبيه الى طبقة العامة من الشعب المصرى (١٧) .

ويفهم ايضا من متن هذا العقد انه عقد مراجعة اى تجديد نكاح بمعنى أن المدعو حسن كان متزوجا من قبل ببيضاء هذه ثم طلقها طلقة واحدة ، ويبدو انه رغب بعد ذلك فى استراجاعها فأعادها الى عصمته بموجب هذه الوثيقة التى بين ايدينا الآن ولكن بعد انقضاء عدتها (١٨) بدليل انه أصدقها صداقا جديدا (١٩) مقداره اربعة دنانير مستنصرية ، عجل لها بدينار

---

(١٦) Yûsuf Râgib, Un contrat de mariage, Annales Islamicologiques, XVI, pp. 34-35.

(١٧) استمر هذا التقليد متبعا طوال العصرين الأيوبى والملوكى

انظر A. Dietrich

Eine arabische Eheurkunde aus der Aiyûbiden zeit, in Documenta Islamica Inedita, Berlin 1952, pp. 121-154;

Ahmed Abd ar-Râziq, Un document concernant le mariage des esclavs au temps des Mamlûks, in JESHO, XIII/3, 1970, pp. 309-314.

(١٨) العدة المقررة حسب الشريعة الاسلامية هى ثلاثة قروء أى ثلاث حيضات ، انظر سورة البقرة ، آية رقم ٢٢٨ .

(١٩) ابن عابدين ، رد المحتار على المختار ، شرح تنوير الأبصار فى فقه مذهب الامام الأعظم أبى حنيفة النعمان المعروف بحاشية ابن عابدين ، القاهرة ١٩٠٥ ، ج ٢ ، ص ٤٤٠ — ٥٢٤ ؛ محمد زيد الابيانى ، الأحكام الشرعية فى الاحوال الشخصية ، القاهرة ١٩١٩ ، ص ١١٥ .

واحد قبضته بيدها تاما وافيا ، وآخر لها الثلاثة الباقية الى حين انقضاء خمس ليال متواليات من تاريخ هذا النكاح .

والحق أن ظاهرة تأجيل جزء من الصدق تعد من الأشياء المألوفة فى عقود الزواج التى وصلتنا من أيام الطولونيين بل واستمرت أيضا حتى أيام الأيوبيين والمماليك تشهد بذلك العقود الأثرية التى تحت أيدينا الآن والتى نص بعضها على ضرورة سداد الجزء المتبقى من الصداق على أقساط معلومة تدفع فى نهاية كل سنة (٢٠) خلافا لما جرى عليه العرف فى الوقت الحاضر (٢١) الذى نقضى بتأجيل باقى الصداق لأقرب الاجلين الطلاق أو الموت (٢٢) .

ويسترعى الانتباه فى صيغة هذا العقد العملة التى تقرر بها الصداق وهى الدنانير المستنصرية (٢٣) الجياد العيون ، وكذا قيمة هذا الصداق . أما عن العملة فالمقصود بها الدنانير الذهبية التى أصدرها الخليفة الفاطمى المستنصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر لاعزاز دين الله ، خامس خلفاء الفاطميين فى مصر الذى ولى الخلافة بعد وفاة أبيه فى الخامس عشر من شعبان سنة ٤٢٧ هـ / ١٣ يونيو ١٠٣٦ م وبقى شاغلا لها الى حين وفاته

---

(٢٠) حسن الهوارى ، عقد زواج على قطعة من الحرير ، مجلة كلية الحقوق ، أكتوبر ١٩٢٧ ، ص ٥١ ؛ سعاد ماهر ، عقود الزواج على المنسوجات الأثرية ، القاهرة (بدون تاريخ) ، ص ٦ ، ١١ ، ١٨ ، ٣٠ ؛ عبد الله مخلص ، عقدا نكاح كتبا فى أواسط القرن الثامن ، مجلة المجمع العلمى العربى ، ج ٢١ ، (١٩٤٦) ، ص ٤٢٠ ، ٤٢٢ ؛
Grohmann, Arabic Papyri, I pp. 67-68, 83, 86, 92, 97; Ahmed Abd ar-Râziq, Un document, JESHO, XIII/3, p. 309; La Femme au temps des Mamlûks en Égypte, Le Cairo, 1973, p. 130-133.

(٢١) سعاد ماهر ، عقود الزواج ، ص ١٢ .

(٢٢) عمر عبد الله ، أحكام الشريعة الاسلامية فى الأحوال الشخصية القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٩٢ .

(٢٣) أشار جروهمان الى ورود لفظة الدنانير المستنصرية فى العديد من الوثائق البردية انظر : Grohmann, Arabic papyri, 1, p. 105.

فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٤٨٧ هـ / ١٠ يناير ١٠٩٤ م بعد أن اقام فيها ستين سنة وأربعة أشهر وثلاثة أيام (١٤) أصدر خلالها مجموعة كبيرة من العملات الذهبية بعضـــها من ضرب مصر والاسكندرية والبعض الآخر من ضرب دمشق ، وفلسطين ، وطرابلس ، والمهدية ، وصقلية ، وصلنا منها بالفعل مجموعة طيبة محفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة بيانها كالآتى حسب تاريخ اصدارها :

مسلسل	سنة الضرب	مكان الضرب	الـــوزن	رقم السجل بالمتحـــف
١	٤٢٨هـ/١٠٣٦ م	مصر	١٢ر٤ جرام	٤٣٦٠
٢	٤٢٩هـ/١٠٣٧ م	مصر	٢٤ر٤ جرام	١/١٧٠٨٠
٣	٤٣٠هـ/١٠٣٨ م	مصر	٢٠ر٤ جرام	٤٣٦١
٤	٤٣٢هـ/١٠٤٠ م	مصر	١٤ر٤ جرام	٩/١٧٠٨٠
٥	٤٣٥هـ/١٠٤٣ م	مصر	٣٠ر٤ جرام	١٢/١٧٠٨٠
٦	٤٣٦هـ/١٠٤٤ م	مصر	٠٠ر٤ جرام	١٤/١٧٠٨٠

---

(١٤) عن هذا الخليفة أنظر ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق امدروز ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ٨٣ — ٨٤ ؛ ابن ميسر ، المنتقى من أخبار مصر ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ٥٥ ؛ ابن ظافر ، أخبار الدول المنقطعة ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٦٧ — ٨١ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٦٩ — ١٩٧٢ ، جـ ٥ ص ٢٢٩ — ٢٣١ ؛ النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٥٩ معارف عامة ، جـ ٢٦ ، ورقة ٦٢ ؛ ابن أيبك ، كنز الدرر وجامع الغرر : الدرة المضيئة فى أخبـــار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح المنجد ، القاهرة ١٩٦١ ، جـ ٦ ، ص ٣٤٢ — ٤٤٠ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٥٥ — ٣٥٦ ؛ اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ١٨٤ — ٣٣٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١٩٣٠ — ١٩٧٢ ، جـ ٥ ، ص ١ — ٢٣ ، ٢٤ — ١٤١ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٧٥ ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢١٥ — ٢٢٠ .

مسلسل	سنة الضرب	مكان الضرب	الـــوزن	رقم السجل بالمتحـــف
٧	٤٣٧هـ/١٠٤٥ م	مصر	٤ر٠٢ جرام	٣/١٧٠٨٠
٨	٤٣٨هـ/١٠٤٦ م	مصر	٤ر١٠ جرام	١٧/١٧٠٨٠
٩	٤٣٩هـ/١٠٤٧ م	مصر	٤ر٢٥ جرام	٩٧٣٢
١٠	٤٤٠هـ/١٠٤٨ م	مصر	٤ر٠٨ جرام	٤/١٧٠٨٠
١١	٤٤١هـ/١٠٤٩ م	دمشق	٤ر١٠ جرام	٤٣٧٠
١٢	٤٤٢هـ/١٠٥٠ م	الاسكندرية	٤ر٠٢ جرام	٢٣٥٤٦
١٣	٤٤١هـ/١٠٥٠ م	فلسطين	٤ر١٠ جرام	٤٣٦٢
١٤	٤٤٣هـ/١٠٥١ م	مصر	٤ر٠٠ جرام	٨/١٧٠٨٠
١٥	٤٤٤هـ/١٠٥٢ م	صقلية	٤ر٢٠ جرام	٤٣٦٣
١٦	٤٤٥هـ/١٠٥٣ م	مصر	٣ر٨٨ جرام	١٠/١٧٠٨٠
١٨	٤٤٦هـ/١٠٥٤ م	مصر	٤ر٣٠ جرام	١٦/١٧٠٨٠
١٧	٤٤٧هـ/١٠٥٥ م	مصر	٤ر٢٨ جرام	٤٣٦٤
١٩	٤٤٨هـ/١٠٥٦ م	مصر	٤ر١٥ جرام	١٦٥٢٧
٢٠	٤٥١هـ/١٠٥٩ م	دمشق	٤ر٠٢ جرام	٧٠٩٧
٢١	٤٥١هـ/١٠٥٩ م	طرابلس	٤ر٣٩ جرام	٤٣٦٥
٢٢	٤٥١هـ/١٠٥٩ م	المهدية	٤ر٢٠ جرام	٤٣٦٧
٢٣	٥٤٣هـ/١٠٦١ م	فلسطين	٤ر١٠ جرام	٤٣٦٨
٢٤	٤٥٤هـ/١٠٦٢ م	مصر	٤ر٢٢ جرام	١٥/١٧٠٨٠
٢٥	٤٥٥هـ/١٠٦٣ م	المهدية	٤ر٢٠ جرام	٤٣٦٩
٢٦	٤٥٦هـ/١٠٦٤ م	مصر	٣ر٩٤ جرام	١٧/١٧٠٨٠
٢٧	٤٥٧هـ/١٠٦٥ م	مصر	٤ر٠٢ جرام	٩٧٣٣
٢٨	٤٥٨هـ/١٠٦٦ م	مصر	٤ر٠٠ جرام	٠٢/١٧٠٨٠
٢٩	٤٦٠هـ/١٠٦٧ م	مصر	٤ر١١ جرام	٢٤/١٧٠٨٠
٣٠	٤٦١هـ/١٠٦٨ م	مصر	٤ر٠٣ جرام	٣٨٧٦
٣١	٤٧٢هـ/١٠٧٩ م	الاسكندرية	٤ر١١ جرام	٢٣٥٩٠
٣٢	٤٨٠هـ/١٠٨٧ م	مصر	٤ر٣٠ جرام	٩٠٩٧
٣٣	٤٨٢هـ/١٠٨٩ م	الاسكندرية	٤ر٢٥ جرام	٢٣٥٤٧
٣٤	٤٨٣هـ/١٠٩٠ م	مصر	٤ر٠٢ جرام	١٨٤٤٧
٣٥	٤٨٤هـ/١٠٩١ م	الاسكندرية	٤ر٠٣ جرام	٣٨٧٥

من هذا العرض يتضح لنا أن الخليفة المستنصر بالله قد جرى على سنة غيره من الخلفاء الفاطميين من حيث تعميم دور سك النقود الشيعية ليس فى مصر وحدها بل أيضا فى شمالى آفريقيا والشام وطرابلس وفلسطين وصور وصقلية بدليل تلك الدنانير التى وصلتنا من عصره من كل هذه الأقاليم والتى تذخر بها المتاحف ودور الكتب ضمن غيرها من العملات الفاطمية المحفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ودار الكتب المصرية (٢٥)، ومتحف دمشق الوطنى ، والمتحف العراقى ببغداد ، ومتحف استنابول ، والمكتبة الأهلية بباريس ، والمتحف البريطانى بلندن ، ومتحف اشموليان باكسفورد ، ومتحف جمعية النميات الأمريكية بنيويورك (٢٦) ، ومتحف برلين ، ومتحف كوبنهاجن ، ومتحف بالرمو بصقلية (٢٧) وغيرها من المتاحف والمجموعات الخاصة التى يحتاج الأمر للتعرف على ما فيها من مسكوكات الى اتصال شخصى باصحابها من الهواة (٢٨) .

---

(٢٥) عن هذه المجموعة انظر كل من

Lavoix, Catalogue ds monnaies
musulmanes de la Bibliothèque Nationale, III, Egypte et Syrie, Paris, 1896; Lane-Poole, Catalogue of the Collection of Arabic Coins preserved in the Khedivial Library at Cairo, London, 1897.

(٢٦) حاول ميلز فى سنة ١٩٥١ اعطاءنا احصاء دقيق لمجموعة المسكوكات الفاطمية فى جمعية النميات الامريكية وجامعة بنسلفانيا فى كتاب أشار فيه الى المراجع المقارنة للنقود الفاطمية التى قام بنشرها انظر :

Miles, Fatimide Coins New-York, 1951.

(٢٧) أنظر ما كتبه كل من لاجومينا وبالوج عن هذه النقود

Lagumina, Catalogo
delle monete arabe esistenti nella Biblioteca comunale
au Parlermo.

(٢٨) قام الدكتور عبد الرحمن فهمى بنشر بعض الدنانير الفاطمية المحفوظة ضمن مجموعة الدكتور فتحى سلام بيد ان هذه الدنانير تخلو من نقود مستنصرية انظر ، عبد الرحمن فهمى ، اضافات جديدة فى مسكوكات الفاطميين ، مجلة المجمع العلمى المصرى ، المجلد ٥٢ ، موسم ١٩٧٠ / ١٩٧١ ، ص ٣ — ٢٤ .

ويستشف أيضا من دراسة هذه القائمة الخاصة بالدنانير المستنصرية جودة الدينار المستنصرى من حيث الوزن ، اذ كان وزنه يفوق عادة الوزن الشرعى للدينار وهو ٤٫٢٥ جرام ، بدليل انه وصلنا دينار من ضرب طرابلس فى سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م يزن ٤٫٣٩ جرام (٢٩) ، وآخر من ضرب مصر فى سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م زنته ٤٫٣٠ جرام ، الأمر الذى يفسر لنا عبارة « جياد العيون » المصاحبة للفظة الدنانير المستنصرية الواردة فى عقد الزواج الذى نحن بصدد دراسته ، والتى يقصد بها الدنانير المستنصرية الجيدة الذهب ، ولا عجب فى هذا فقد كان العرب يطلقون على الدنانير لفظة التبر والعين (٣٠) — ولعل المقصود بهذه العبارة أيضا الدنانير التامة الاستدارة ، لأنها كانت تضرب مدورة على شكل عين الحيوان (٣١) وهى الصفة الغالبة على دنانير الخليفة المستنصر بالله التى وصلتنا والمحفوظة حاليا بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة وبدار الكتب المصرية اذ يتراوح قطر كل منها فيما بين ١٩ مم ، ٢٢ مم .

والحق أن اختلاف حجم دنانير هذا الخليفة ينقلنا الى الحديث عن طرازها ، اى الكتابات الواردة عليها ، ولذا فقد وقع اختيارنا على أربعة قطع من مجموعة متحف الفن الاسلامى بالقاهرة وقطعتان من دار الكتب المصرية ، الأولى من ضرب سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م ، والثانية من ضرب سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م ، والثالثة مؤرخة بسنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م ، والرابعة

---

(٢٩) وصلنا دينار من ضرب مصر فى سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م ضمن مجموعة متحف فيلاديلفيا يزن ٤٫٨٤ جرام ، وآخر من ضرب فلسطين سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م ضمن مجموعة جمعية النميات الامريكية يزن ٤٫٨٢ جرام
انظر : Miles, Fatimide Coins pp. 32, 34, no. s 314, 320.

(٣٠) عبد الرحمن فهمى ، النقود العربية ماضيها وحاضرها ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٢٣ .

(٣١) الكرملى ، النقود العربية وعلم النميات ، القاهرة ١٩٣٩ ، ص ١٤٩ .

من ضرب سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م تنشر هنا للمرة الأولى (٣٢) . أما الخامسة والسادسة فهما من اصدار سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م وفيما يلى عرض لهم :

١ — دينار من ضرب مصر سنة ٤٢٩ هـ (لوحة رقم ٣)

وجـــه	ظهـــر
مركـــز :	مركـــز :
لا اله الا الله	الامـــــام
وحده لا شريك له	معد أبو تميم
محمد رسول الله	المستنصر بالله
عـــلى ولى الله	أمير المؤمنين
هــــــامش	هــــــامش :
محمد رسول الله ارســـله بالهدى	الدينر بمصر ســـنة تســـع وعشرين
ودين الحـــق ليظهـــره عـــلى الدين	بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا
كله ولو كـــره المشركـــون	وأربعمائة

القطـــــر : ٢٢ مم
الـــوزن : ٤ر٢٤ جـــرام
متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٢٣٥٤٥ .

---

(٣٢) انتهز هذه الفرصة لأسجل شكرى لكل من الاستاذ عبد الرؤوف على يوسف مدير متحف الفن الاسلامى بالقاهرة وللســـيدة سهام المهدى أمينة قسم العملة بالمتحف لتفضلهما بالموافقة على منحى حق نشر هذه القطع .

٢ ـــ دينار من ضرب مصر سنة ٤٤٥ (لوحة رقم ٤)

وجه	ظهر
هامش خارجى :	هامش خارجى :
محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون	بسم الله ضرب هذا الدين بمصر سنة خمس واربعين وأربعمائة
هامش أوسط :	هامش أوسط :
وعلى أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين	دعا الامام معد لتوحيد الاله الصمد
هامش داخلى :	هامش داخلى :
لا اله الا الله محمد رسول الله	المستنصر بالله أمير المؤمنين

القطر : ٢٠ مم

الوزن : ٤٫٢٣ جرام

متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٧٠٨٠/١٠

٣ ـــ دينار من ضرب مصر سنة ٤٥٨ هـ (لوحة ٥)

وجه	ظهر
هامش خارجى :	هامش خارجى :
محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون	بسم الله ضرب هذا الدينر بمصر سنة ثمان وخمسين وأربعمائة
هامش أوسط :	هامش أوسط :
وعلى افضل الوصيين ووزير خير المرسلين	دعا الامام معد لتوحيد الاله الصمد

هامش داخلى :	هامش داخلى :
لا الــــه الا الله محمد رســـول الله	المستنصر بالله أمير المؤمنين

القطر : ٢١ مم

الوزن : ١٢ر٤ جرام

متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٢٠/١٧٠٨٠

٤ ـــ دينار من ضرب صور سنة ٤٦١ هـ

وجه	ظهــر
مركـــز :	مـــركز :
عـــــلى	معــد
لا اله الا الله	عبد الله ووليه
وحده لا شريك لـــه	الامام أبو تميم
محمد رســـول الله	المستنصر بالله
ولى اللــــه	أمير المؤمنين
هـــامش :	هامش :
محمد رســـول الله أرسله بالهدى	بســـــم الله الرحمن الرحيم ضرب
ودين الحـــق ليظهره عـــلى الدين	هـــذا الدينر بصـــور سنة احـــدى
كله ولو كره المشركون	وستين وأربعمائة

القطر : ٢٢ مم

الوزن : ١٢ر٤ جرام

دار الكتب المصرية رقم السجل ١١٦٨/١٥٤٧

٥ ــ دينار من ضرب مقر سنة ٤٦١ هـ

وجــه	ظهــر
هامش خارجى :	هـــامش خارجى
محمد رسول الله أرســله بالهدى	بسم الله ضرب هـــذا الدينر
ودين الحـــق ليظهره عـــلى الدين	بمدر ســـــنة احـــدى وســـتين
كله ولو كره المشركون	وأربعمائة
هـــامش اوسط :	هامش أوســط :
وعلى افضل الوصيين	دعا الامام معـــد لتوحيد
ووزير خير المرســلين	الالـــه الصـــمد
هـــامش داخلى :	هـــامش داخلى :
لا اله الا الله محمد رسول اللـــه	المستنصر بالله أمير المؤمنين

القطر : ٢١ مم

الوزن : ٤٫٠٣ جرام

دار الكتب المصرية رقم السجل ١١٦٨/١٥٤٦.

٦ ــ دينار من ضرب مصر سنة ٤٨٣ هـ (لوحة رقم ٦)

وجــه	ظهـــر
مركـــز :	مركـــز :
عـــلى	معـــــد
لا اله الا الله	عبد الله ووليـــه
وحده لا شريك له	الامام معد أبو تميم
محمد رسول الله	المستنصر بالله
ولى اللـــــه	أمير المؤمنين
	عـــال

هـامش :

محمد رسول الله أرسله بالهدى
ودين الحق ليظهره على الدين
كله ولو كره المشركون

هـامش :

بسم الله الرحمن الرحيم ضرب
هذا الدينر بمصر سنة ثلث
وثمانين وأربعمائة

القطر : ٢١ مم

الوزن : ٤ر٠٢ جرام

متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٨٤٤٧ .

من هذه الدراسة يمكننا القول بأن الدنانير المستنصرية كانت تضرب على طرازين مختلفين : الأول يتألف من كتابات مركزية تسير على كلا الوجهين فى سطور أربعة أو خمسة متوازية ، يحيط بها هامش خارجى تدور كتاباته عكس اتجاه عقرب الساعة ويفصلها عنه دائرتان من خطين بارزين (اللوحتان ٣ ، ٦) ، وهذا الطراز متأثر الى حد كبير بالعملة التى ضربها الخلفاء الفاطميون فى شمالى افريقيا قبل مجيئهم الى مصر . أما الطراز الثانى فقد بدا أكثر زخرفة ، اذ اتخذت النصوص المكتوبة عليه شكل دوائر متتالية تسير فى عكس اتجاه عقرب الساعة ويحيط بها حلقات من خطوط بارزة على وجهى الدينار (اللوحتان ٤ ، ٥) وهذا الطراز مطابق بدوره للنقود الفاطمية التى ضربت بالمنصورية التى أسسها الفاطميون فى تونس الحالية سنة ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م . والى جانب ذلك التشابه بين اشكال ونصوص الدنانير المستنصرية والسكة الفاطمية فى المغرب ، نجد تشابها آخر فى العيار فقد وصل عيار النقود الذهبية فى مصر الفاطمية بصفة عامة الى ٥ر٢٣ قيراط وهو عيار جيد جدا يتمشى أيضا مع عيار النقود الفاطمية التى ضربت فى المغرب ويعكس لنا العهد القديم الذى قطعة جوهر على نفسه للمصريين عند استيلائه على مصر فى سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م بتعيير النقود وتجويدها ومنع الغش فيها وصرفها الى العيار الذى عليه النقود المنصورية فى شمالى افريقيا (٣٣) .

---

(٣٣) عبد الرحمن فهمى ، النقود العربية ، ص ٥٩ ، ٦١ ؛
A. Ehrenkreutz The Crisis of Dinar in the Egypt of Saladin, JAOS, 76, pp. 178-180.

ننتقل بعد ذلك الى الحديث عن الصداق نفسه أى الدنانير الأربعة التى أصدقها حسن الى زوجته ضياء وهو مبلغ ضئيل فى نظرنا خاصة لو تذكرنا أن هذا الزواج قد تم ابان سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م التى روى المؤرخ ابن ميسر بصددها ما نصه « وفيها اشتد الغلاء بمصر وقلت الأقوات فى الأعمال ، وعظم الفساد واكل الناس الجيف والميتات ، ووقفوا فى الطرقات فقتلوا من ظفروا به وأخذوا ماله » (٣٤) . وابن ميسر يشير هنا الى بعض أحداث المجاعة الكبرى التى حدثت بمصر بسبب تقصير النيل واستمرت سبع سنين من ٤٥٧ — ٤٦٤ هـ / ١٠٦٥ — ١٠٧١ م حتى عرفت باسم الشدة المستنصرية وشبهت بسنى يوسف الصديق بسبب ما ترتب عليها من آثار وخيمة وصلت آثارها الى العراق والحجاز بل وبلاد ما وراء النهر (٣٥) وعظم الأمر خلالها حتى تعذر وجود الأقوات وارتفعت الأسعار حتى بيع رغيف فى زقاق القناديل كما تباع الطرف بأربعة عشر دينارا ، وقيل أربعة عشر درهما ، وبيع أردب القمح بمائتى (٣٦) ، وبذا لم تعد للأموال اهمية من أجل الحصول على الطعام بدليل ان حارة سميت بحارة الطبق بعد أن بيع فيها عشرون دارا لقاء طبق من الطعام (٣٧) . وتتحدث المصادر أيضا عن امرأة من أرباب البيوتات ، باعت عقدا لها قيمته ألف

---

(٣٤) ابن ميسر ، المنتقى من أخبار مصر ، ص ٣٥ .

(٣٥) ابن أيبك الدوادار ، كنز الدرر ، جـ ٦ ، ص ٣٦٩ .

(٣٦) ابن ميسر ، المنتقى من أخبار مصر ، ص ٥٨ ، انظر ايضا كل من المقريزى ، اغاثة الأمة ، ص ٢٤ ؛ ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدرر ، جـ ٦ ، ص ٣٧١ ، حيث أشار الى بيعه بثمانين دينارا فقط ، على حين أشار ابن تغرى بردى الى بيعه بمائة دينار ، النجوم ، جـ ٥ ، ص ١٧ ؛ Ashtor, Histoire des prix et des salaires dans l'Orient médiéval, Paris, 1969; pp. 125, 132.

(٣٧) ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدرر ، جـ ٦ ، ص ٣٧١ ؛ عبد المنعم ماجد ، الامام المستنصر بالله ، ص ١٥٧ ؛ ظهور الخلافة الفاطميين وسقوطها ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٣٣٥ .

دينار بتليس دقيق ، نهب منها أثناء الطريق بعد أن استطاعت أن تأخذ منه ما يعجن قرصة ، ثم أخذتها ووقفت فى مكان مرتفع ورفعتها فى يدها بحيث يراها الناس ونادت بأعلى صـوتها : « يا أهل القاهرة ، ادعوا لمولانا المستنصر ، الذى أسعد الله الناس بأيامه ، وأعاد عليهم بركات حسن نظره حتى تقومت على هذه القرصة بألف دينار (٣٨) » . ونقرأ أيضا عن حبة القمح التى وقفت على صاحبها بدينار كامل (٣٩) ، وعن البيضــة التى صارت تباع بنفس المبلغ (٤٠) مما اضطر أعيان الدولة ورؤساءها الى خدمة الناس لقاء كسرة من الخبز يسدون بها رمقهم ، بل ولم يكن الخليفة نفسه يجد ما يقتات به فكانت الشريفة بنت صاحب السبيل ترسل اليه برغيفين أو بقعب من فتيت ، يقتات منه مرة واحدة فى اليوم (٤١) .

كذلك اضطر الناس الى أكل الميتة من الكلاب والقطط والبغال وأخذوا فى البحث عنها فى كل مكان حتى بيع الكلب بخمسة دنانير ، والقط بثلاثة دنانير (٤٢) ولم يعد يصل اليها الا اهل السعة والثراء وزادت المسغبة حتى

---

(٣٨) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٩٦٥ — ١٩٦٧ ، ج١٠ ، ص٥٨—٥٩ ؛ النويرى نهاية الأرب ، ج ٢٦ ، ورقة ٦٦ ؛ ابن ميسر ، المنتقى من اخبار مصر ، ص ٥٧ ؛ الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، الكويت ١٩٦٠ ، تحقيق صلاح المنجد ، ج ٣ ، ص ٢٥٧ — ٢٥٨ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٣٧ ؛ اغاثة الأمة ، ص ٢٥ — ٢٦ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ص ١٧ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢١٧ — ٢١٨ .

(٣٩) ابن ميسر ، المنتقى من اخبار مصر ، ص ٥٧ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٦ ، ورقة ٦٩ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢١٨ .

(٤٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٥ ، ص ١٧ ؛ زكى حسن ، كنوز الفاطميين القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٥ .

(٤١) المقريزى ، اغاثة الأمة ، ص ٢٥ ؛ عبد المنعم ماجد ، الامام المستنصر بالله ، ص ١٥٨ .

(٤٢) المقريزى ، اغاثة الأمة ، ص ٢٤ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٦٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين ، ص ٣٦٨ .

حتى اضطر سكان القاهرة الى أكل لحم الانسان ، فقد أشارت بعض المصادر الى قصة الوزير الذى نزل يوما عن بغلته ، فغفل عنها الغلام المكلف بحراستها بسبب ضعفه من الجوع فاستولى عليها ثلاثة نفر وذبحوها واكلوا لحمها ، فقبض عليهم وتم صلبهم ، فلما أصبح الناس لم يروا سوى عظامهم لأن الناس أكلوا اثناء الليل لحومهم . وقيل أيضا أن الرجل صار يأخذ ابن جاره ويذبحه ويشويه ويأكله ولا ينكر ذلك . بل صارت طائفة من الناس تجلس بأعلى بيوتها ومعها سلب وحبال فيها كلاليب ، فاذا مر بهم احد القوها ونشلوه فى أسرع وقت وشرحوا لحمه وأكلوه حتى عرف الزقاق الذى يجلسون فيه بزقاق القتل (٤٣) . ورغم ما فى هذه الروايات من مبالغات واضحة (٤٤) قد تكون من افتعال بعض مؤرخى السنة الذين راوا فيما أصاب البلاد من كوارث كانت بمثابة انتقام الهى لما ارتكبه الوزير البساسيرى حين ثار فى العراق وجعل الخطبة والسكة فى بغداد باسم الخليفة المستنصر بالله (٤٥) ، فانه من المسلم به أن هذه الشدة قد صاحبها ارتفاع ملحوظ فى الأسعار فقدت معه النقود قيمتها الفعلية وبذا

---

(٤٣) المقريزى ، خطط ، ج ١ ، ص ٣٣٧ ؛ اغاثة الامة ، ص ٢٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٥ ، ص ١٧ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٦٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، الامام المستنصر بالله ، ص ١٤٨ .

(٤٤) قارن بين أحداث هذه الشدة وبين ما حدث ابان السنين الأولى من حكم السلطان العادل الأيوبى (٥٩٦ — ٦١٥ هـ / ١٢٠٠ — ١٢١٨ م) حيث اشتد الجوع بالناس حيث كلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والاروات ، تعدوا ذلك الى أن أكلوا صغار بنى آدم فكثيرا ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون . أنظر عبد اللطيف البغدادى ، الافادة والاعتبار فى الأمور والمشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، ص ٦٢ وما بعدها . أنظر أيضا المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ١٣٢ ، ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٤٥) ابن ميسر ، المنتقى من أخبار مصر ، ص ١٩ .

يكون الصداق المقدم من المدعو حسن الى زوجته ضياء مبلغا رمزيا (٤٦) لأنه لم يكن يكفى لشراء رغيف من الخبز بلغة هذا العصر نتيجة لما حدث فيه من تضخم .

والواقع أنه من الصـــعب أن نقرر هنا عما اذا كانت الدنانير الأربعة تمثل الحد الادنى للصداق الذى كان يقدم للمرأة من عامة الشعب زمن الدولة الفاطمية ، كما أنه من الصعب علينا ان نتعرف فى الوقت نفسه على أكبر صداق قدم لنساء هذه الطبقة بسبب ندرة عقود الزواج التى وصلتنا من هذه الفترة . ومن المستحيل كذلك أن نعقد مقارنة هنا بين ما كـــان يقدم لنساء عامة الشعب وبين ما كان يقدم لنساء الطبقة الحاكمة بسبب خلو عقود هذه الطبقة ، التى تحت أيدينا الآن ، من قيمة الصداق (٤٧) ، وان كان بالامكان أن نشير الى أن عقود الطبقة الأولى كانت تسجل على البرديات بخط الرقاع ، على حين كانت عقود الطبقة الأرستقراطية تسجل على قطع من النسيج المغموس فى مادة نشوية بالخط الكوفى الذى شاع استخدامه على تحف العصر الفاطمى (لوحة رقم ٢) .

أما فيما يختص بالشيخ أبى الفضل الذى تولى عقد هذا النكاح بأمر من القاضى أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن ، خليفة القاضى أبى الحسن مسرة بن عبد الله ، فلم نعثر على ترجمة لأحد منهم فى المصادر المعاصرة ، باستثناء الاخير اذ ورد اسمه على بردية محفوظة بمتحف برلين تحت رقم ١٥٠٢٢ / ١٢ ، وبالتالى فاننا نجهل عما اذا كانوا من الشيعة أو الســنة وان كان المقريزى يشير الى أن قضــــاة الولايـــات كانوا يقومون بعملهم

---

(٤٦) اختلف الفقهاء فيما بينهم بصدد الحد الأدنى للصداق فهو ثلاثة دراهم عند المالكية ، وعشرة عند الشافعية انظر :

D. Santillana, Istituzioni di diritto musulmano Malichita con riguardo anche al sistema sciafiito, Roma, 1926, I, pp. 170-173; Shorter Enc. Isl., art. nikâh, 'urs; D. et J. Sourdel, La Civilisation de l'Islam classique, Paris, 1968, p. 585.

حيث نجد ان الحد الأدنى له يجب الا يقل عن عشرة دنانير .

(٤٧) انظر : Yûsuf Râgib, Un contrat, Ann. Ist., pp. 34-35.

القضائى نائبين عن رؤسائهم فى القاهرة (٤٨) ، كما نعلم فى الوقت نفسه أن أهل القرى المصرية كان معظمهم من اهل السنة المحافظين ، الذين لم يكن من السهل تحويلهم عن مذهبهم التقليدى (٤٩) .

ونستشف أيضا من هذا العقد أن مدينة الاشمونين وهى من أعمال الصعيد (٥٠) وموضعها حاليا احدى قرى مركز ملوى (٥١) ، كانت مجلسا للحكم وان القاضى بها كان بمثابة الوالى عليها وعلى أعمالها لجمعه بين الحكم والصلاة والخطابة والقضاء والمظالم فى آن واحد كما جـاء فى نص العقد ، وذلك على الرغم مما ذكره القلقشندى من وجود ولاية واحدة بالصعيد هى قوص التى يحكم متوليها على جميع بلاد الصعيد (٥٢) . وهذا يعنى أنه كان يعين بسجل من قبل الخليفة ، وان كان الوضع قد تبدل بعد ضعف سلطة الخلفاء وصار تعيين الولاة من قبل وزراء السيف ، كما بطل عزل الولاة عند وفاة الخيفة ، بل صارت تجدد لهم الولاية (٥٣) .

بقى أن نشير فى نهاية هذه ادراسة الى أن هذا العقد قد توافرت فيه أركان العقد وشروطه من حيث العناية بالاشهاد اذ نجـد فى صلب العقد شاهدى عدل شهدا على موافقة الزوجة على هذا الزواج باذنها ، وقبولها للصداق المذكور عاجله وآجله . كما شهدا أيضا على اقرار الزوجين معا وكذا المتولى لهذا الزواج أى الشيخ أبو الفضل العباسى بن هبة الله ، وذلك بعد أن قرأ عليهما صيغة هذا العقد ، الذى أقرا بفهمه وبمعرفة جميع ما جاء فيه ثم قام كل منهما باثبات شهادته واسمه فى نهاية العقد . أما الشيخ

---

(٤٨) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٦٣ .

(٤٩) عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ ١ ، ص ١٣٤ .

(٥٠) أنظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٣٩٤ .

(٥١) محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، القاهرة ١٩٦٣ ، القسم الثانى ، جـ ٤ ، ص ٥٩ — ٦٠ .

(٥٢) القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ ٣ ص ٤٩٧ — ٤٩٨ .

(٥٣) القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ ٨ ، ص ٢٣٩ — ٢٤١ ؛ عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ ١ ، ص ١٣٢ — ١٣٣ .

المتولى للعقد وكذا العاقدان فلا توقيع لهم هنا ولعلهم قد اكتفوا بتوقيع الشاهدين فقط .

وهذه العناية بالاشهاد على عقود الزواج بصفة خاصة ، ترجع الى عناية الشارع نفسه لخطره وعظم شأنه فهو وان كان كغيره من العقود أركانه الايجاب والقبول الا أنه خصه من بينها باشتراط حضور شاهدين لصحته ، وذلك لقول الرسول ﷺ « لا نكاح الا بشهود » (٥٤) . ومن المعروف أن الشهود كانوا يكونون زمن الدولة الفاطمية طائفة متميزة خضعت لنظام دقيق ، اذ كان يشرف عليها رئيس يعرف « بوجه الشهود » أو « مقدم الشهود » (٥٥) ، أما بقية الشهود العدول ، فكانت مراتبهم تختلف حسب تقدم أو تأخر تعديلهم ، وقد درج بعض القضاة على احاطة مجلس حكمهم بعدد كبير من الشهود رغبة فى اعلاء شأنهم (٥٦) .

وهكذا تكشف لنا هذه الوثيقة عن بعض النواحى الاجتماعية المتعلقة بالزواج وقيمة الصداق الذى كان يقدم لنساء الشعب وعن بعض الفوارق الاجتماعية الشائعة تحت حكم الفاطميين فى مصر من حيث طريقة صياغة عقود الزواج ، وأيضا المادة المستخدمة لتسجيل هذه العقود ، وطراز الكتابة التى كانت تدون بها نصوص العقود التى كانت تختلف من طبقة الى أخرى .

كما أسهمت هذه الوثيقة فى التعريف ببعض العملات التى كانت سائدة وقت صياغة هذا العقد والتدليل على مدى جودتها ، كذلك كشفت عن التعريف ببعض التقاسيم الادارية باقليم الصعيد وما بها من وظائف متنوعة . والأساليب المتبعة بصددها من حيث الجمع بين هذه الوظائف ، وكذا التعريف بأسماء بعض من كان يشغلها ممن أغفلت المصادر الفاطمية الاشارة اليهم والتعريف بهم وبوظائفهم المحلية المتنوعة .

---

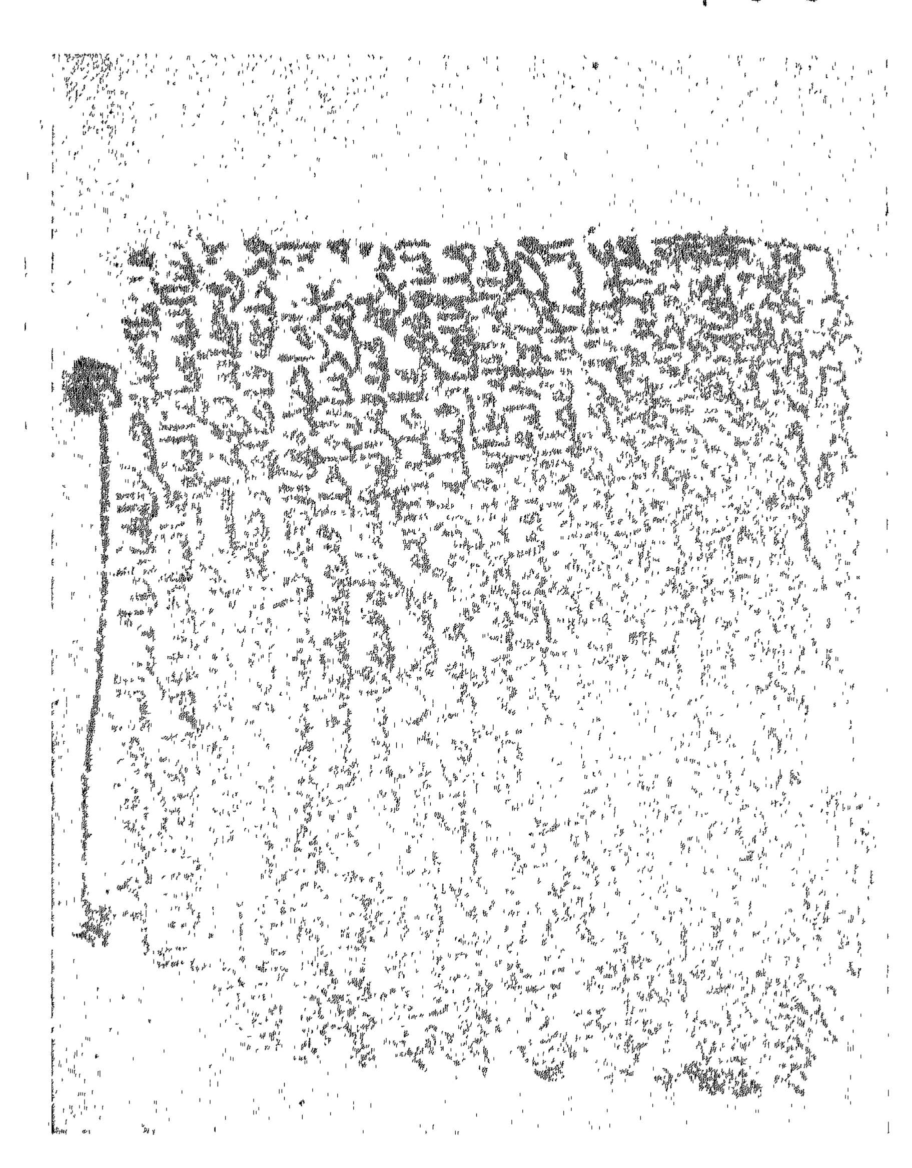
(٥٤) سعاد ماهر ، عقود الزواج ، ص ١٣ .

(٥٥) الكندى ، الولاة والقضاة ، تحقيق رفن جست ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ٥٨٨ ، ٥٨٩ .

(٥٦) عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ، ص ١٤٨ .

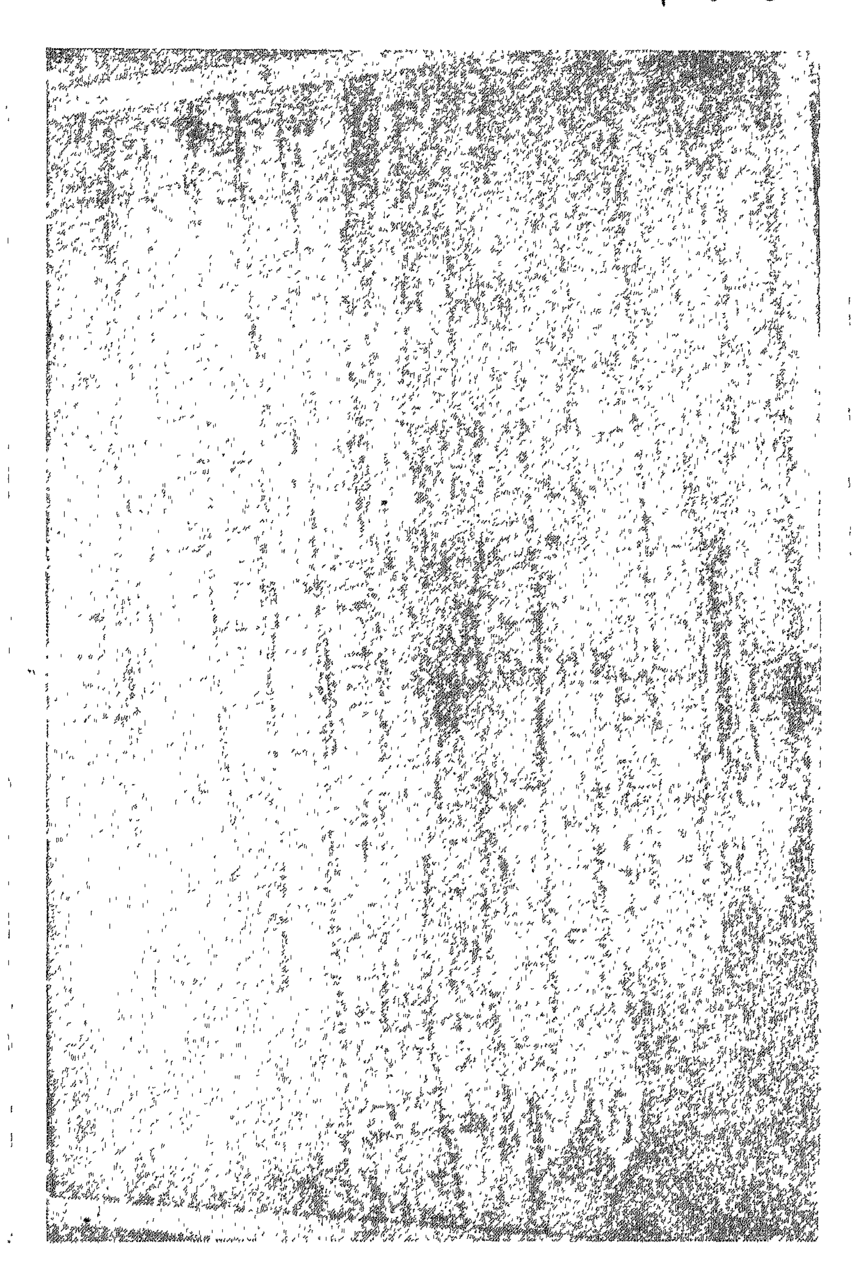


لوحة رقـــم ١



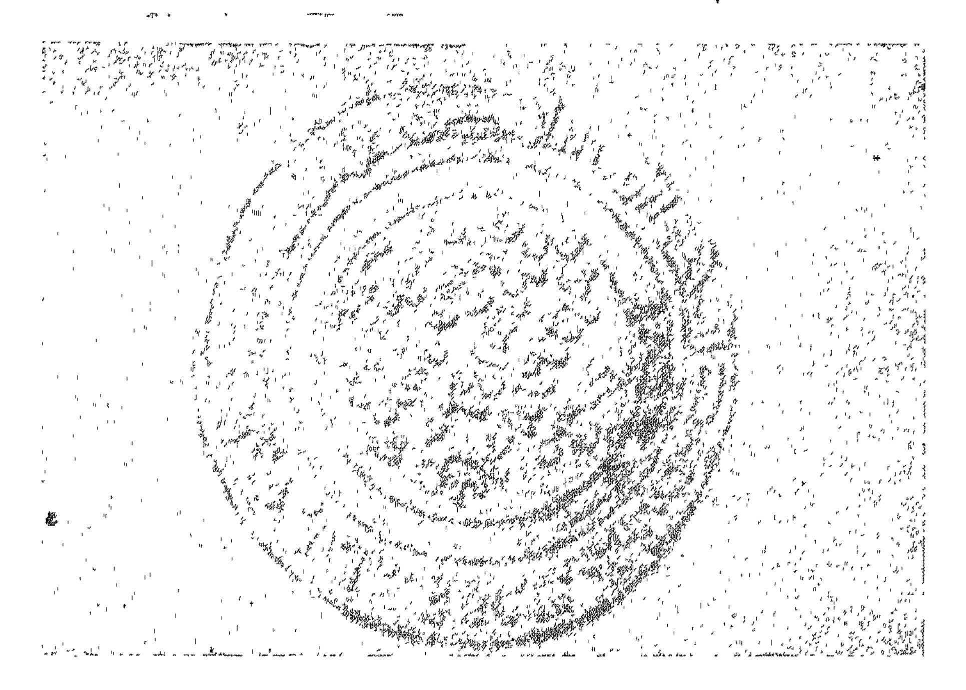


لوحة رقـــم ٢.

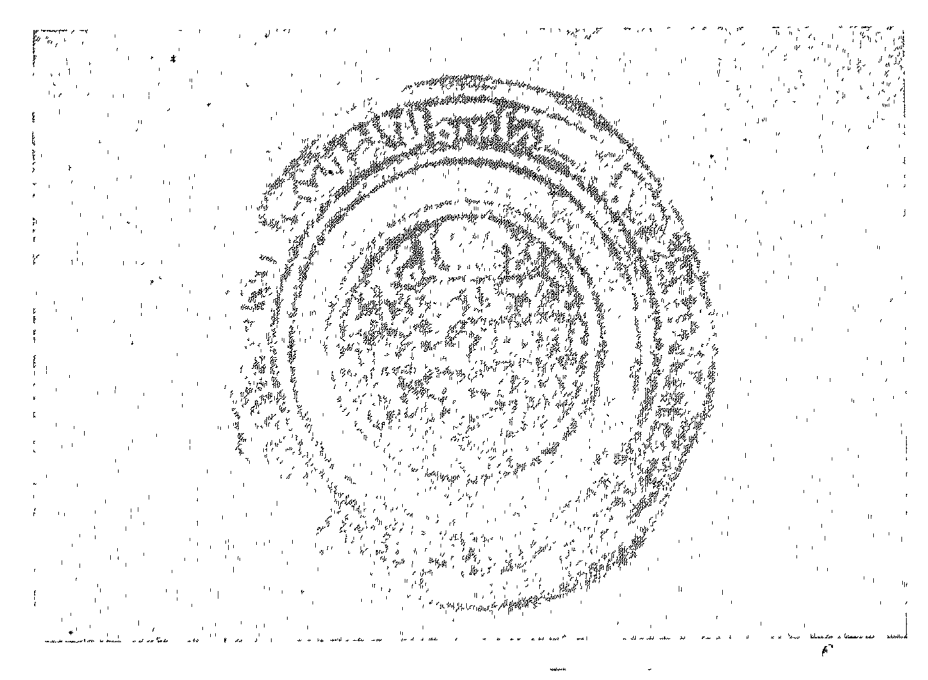




لوحة رقـــم ٣



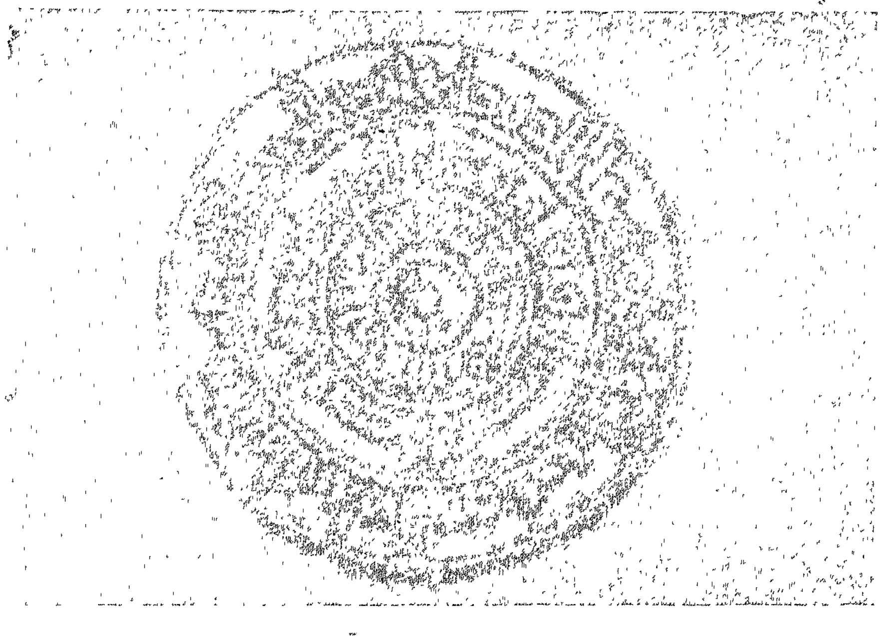
وجـــــه



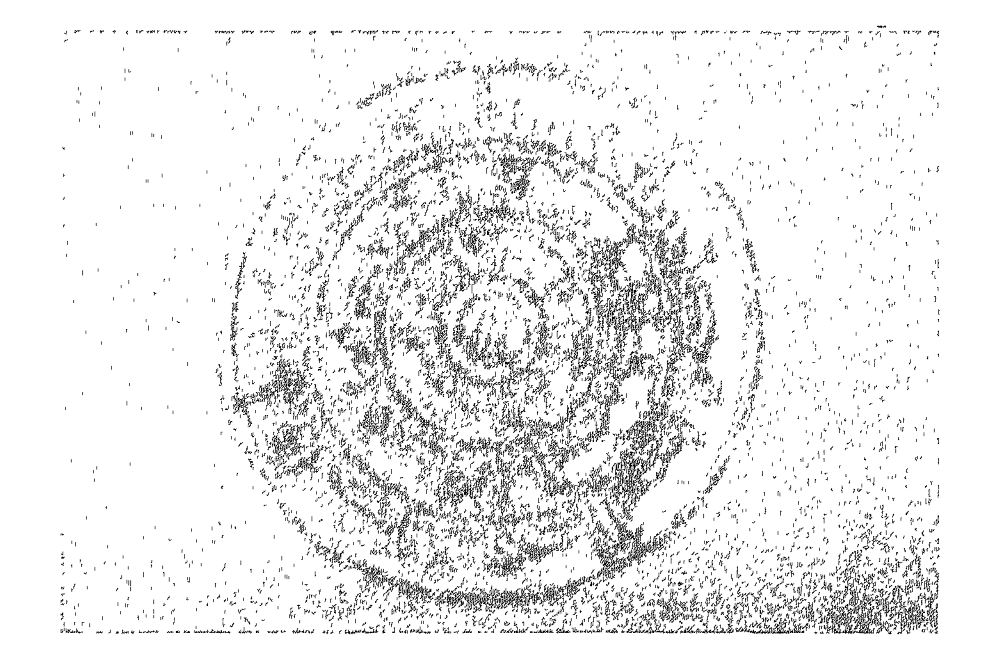
ظهـــــر



لوحة رقم ٤



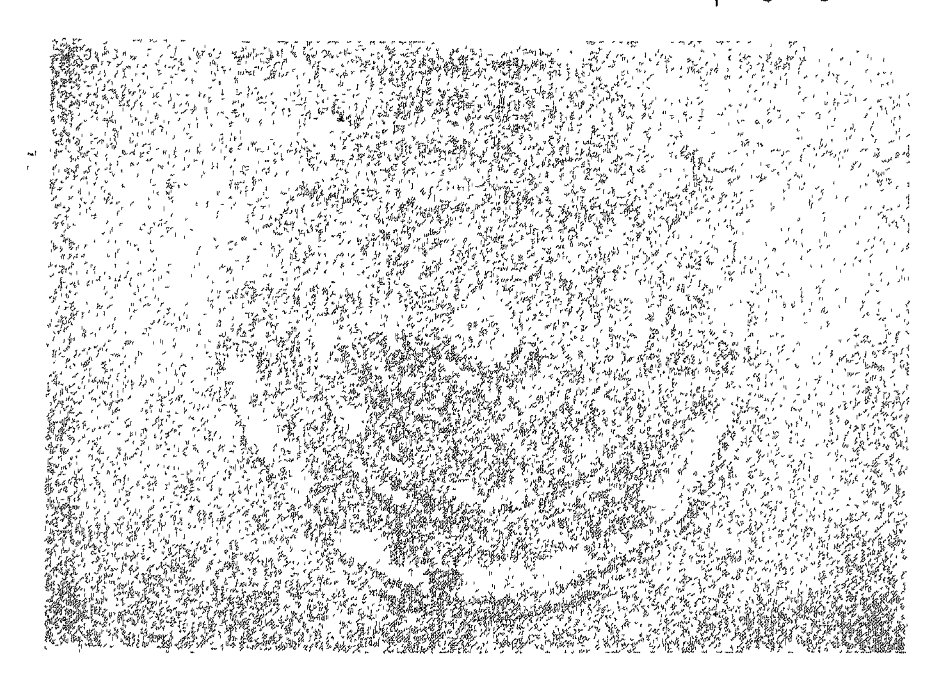
وجـــه



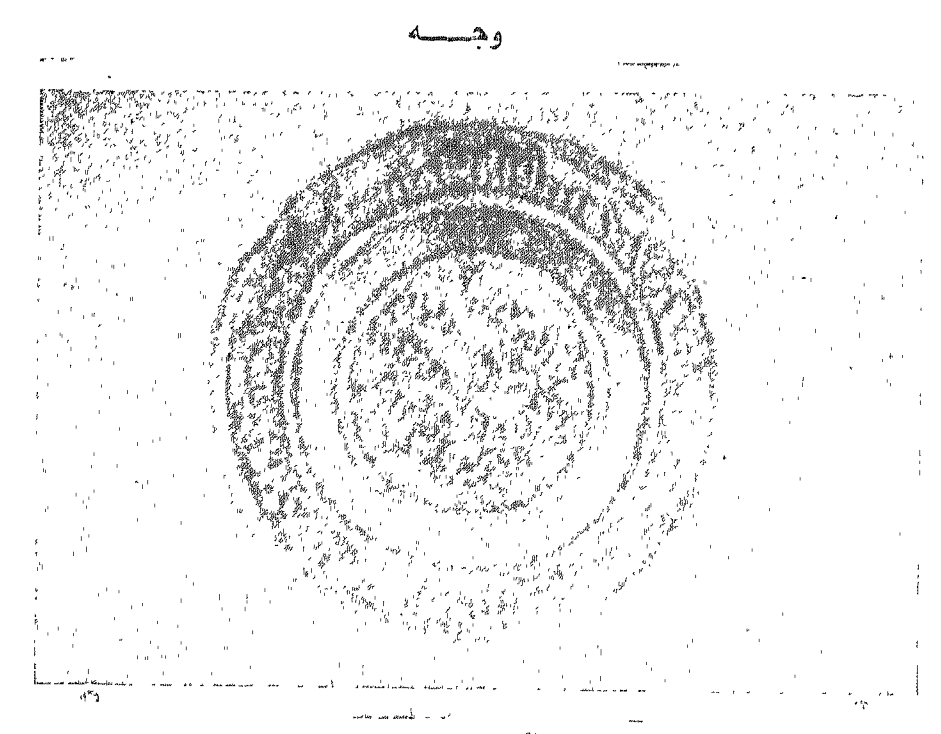
ظهـــر



لوحة رقم ٥



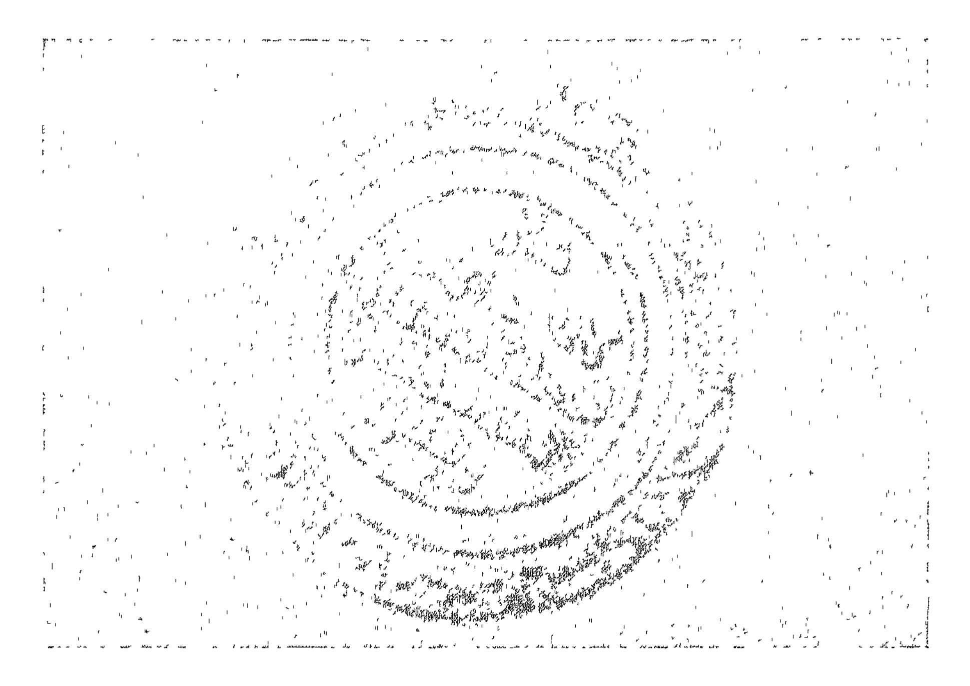
وجه



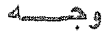
ظهر

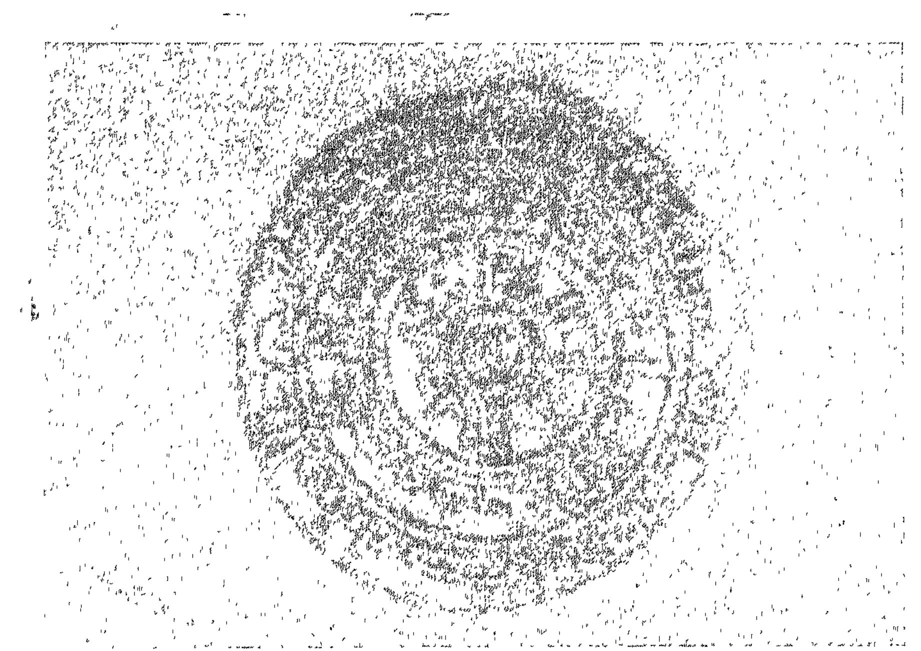


لوحـــة رقم ٦



وجـــه





ظهـــر



حول اتخاذ السواد ورفع الألوية
والأعلام السوداء فى المغرب والاندلس

للدكتور السـيد عبد العزيز سالم أستاذ التاريخ
الاسلامى والحضارة ورئيس قسمى التاريخ والوثائق
والمكتبات بجامعة الاسكندرية



حول اتخاذ السواد ورفع الألوية والأعلام السوداء في المغرب والأندلس

كان لألوان الألوية والأعلام فى التاريخ الاسلامى معان ورموز تشير اليها ، فكان التبييض ، أى رفع الرايات البيضاء ، والتسويد ، والتحمير والتخضير شعارات لها معان ومدلولات (١) ، فماذا ما رفع العلم الأسود ،

---

(١) يعتبر اللونان الأبيض والأسود ، وكلاهما نقيض للآخر ، من الألوان الرئيسية عند العرب ، أما الألوان الأخرى فكانت أقل شأنا ، فالأخضر درجة من السواد ، والأحمر درجة من البياض ، والخضرة عند العرب السواد ، فكانوا يعبرون عن كثرة النخل والشجر بالسواد لخضرته واسوداده ، وقيل ان ذلك لأن الخضرة تقارب السواد ، وأرض السواد يقصد بها المناطق الخضراء من العراق . وكان العرب اذا أرادوا الأبيض من اللون قالوا احمر ، ومنه كلمة حميراء (تصغير حمراء) التى وسمت بها السيدة عائشة أم المؤمنين بمعنى بيضاء ، والحمراء العجم لبياضهم ولأن الشقرة أغلب الألوان عليهم (ابن منظور الأفريقى المصرى ، لسان العرب ، مادة سود ، وحمر ، وخضر — الزبيدى ، تاج العروس من جواهر القاموس ، مادة خضر وسود) والمحمرة الخرمية هم اتباع المازيار بجرجان ، سموا كذلك لأنهم يحمرون راياتهم خلاف المسودة من بنى هاشم (عبد القاهر بن طاهر البغدادى ، الفرق بين الفرق ، القاهرة ، تحقيق الأستاذ محيى الدين عبد الحميد ، ص ٢٦٨ — الزبيدى ، تاج العروس ، مادة حمر) ، وربما ترمز الحمرة عندهم بسفك الدماء لرغبتهم فى قتل اعدائهم العباسيين أما الصفرة فتقابل السواد ، والأصفر الأسود (تاج العروس ، مادة صفر ، وراجع : أبو الحسن على بن اسماعيل الأندلسى المعروف بابن سيدة =

شعار العباسيين فى الأندلس أو المغرب فى فترة ما من التاريخ الاسلامى ، دل ذلك على قيام ثورة على الحكم القائم ، استند فيها الثوار على شرعية هذا الرمز ، ولذلك فان اللون الأسود للعلم يعبر من حيث مدلوله اللغوى عن أمور لها أبعادها التاريخية ، ومن هنا كانت اللغة الاطار الذى يحدد مدلولات الأشياء . فالبياض ، نقيض السواد ، كان لون لواء المسلمين الذى حمله مصعب بن عمير يوم غزوة بدر الكبرى ، وكان لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم دخول مكة أبيض الأصفر (٢) ، وكان البياض أيضا شعار الأمويين فى المشرق وفى الأندلس (٣) ، وقد ظل رمزا لهم حتى بعد سقوط دولتهم فى المشرق ، فكان انصارهم الثائرون على أبى العباس السفاح ، أول خلفاء بنى العباس ، يرفعون الألوية البيضاء رمزا للنضال ضد الدولة العباسية (٤) ، وكذلك كان يقال للحرورية ، الخوارج ،

= المرسى ، كتاب المخصص ، طبعة بيروت ، السفر الثانى ، المجلد الأول ص ١٠٥)

(٢) عبد الحى الكتانى ، كتاب التراتيب الادارية فى المدينة المنورة العلية، طبعة بيروت ، نسخة مصورة عن طبعة الرباط ١٣٤٦ هـ ص ٣٢٠ . ومن المعروف أن لواء رسول الله (ص) كان أبيض اللون ورايته سوداء (ابن هشام ، السيرة النبوية ، طبعة بيروت ، ١٩٧٥ ، ج ٢ ، ص ١٨٦ — عبد الحى الكتانى ، كتاب التراتيب الادارية ، ص ٣١٨ ، ٣٢٢) وزاد ابن عباس أنه كان مكتوبا على لوائه صلى الله عليه وسلم « لا اله الا الله محمد رسول الله (راجع ابن الجوزى ، الوفا بأحوال المصطفى ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، القاهرة ، ج ، ص ٦٧٠ — عبد الحى الكتانى ، التراتيب الادارية ، ص ٣٢٢)

(٣) أحمد مختار العبادى ، فى التاريخ العباسى والأندلسى ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٢١ .

(٤) بيض حبيب بن مرة المرى فى البثنية وحوران سنة ١٣٢هـ ، وبيض أبو الورد مجزاة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابى قائد أبى محمد عبد الله بن يزيد بن معاوية ، المعروف بالسفيانى فى قنسرين ، كما بيض أهل الجزيرة وشقوا عصا الطاعة على أبى العباس السفاح ، وزحفوا نحو =

المبيضة لأن راياتهم فى الحروب كانت بيضاء (٥) ، كما كان المسلمية الرزامية والمقنعية الناقمون على العباسيين يبيضون فى بلاد مـــا وراء النهر (٦) .
والبياض عند الأمويين وربما عند غيرهم قد يعنى النقاء والطهارة والصفاء ، اذ أن اللون الأبيض عند العرب يعنى النقى الخالى من العيوب (٧) ، وقد يكون ذلك هو السبب فى اختيار الأمويين للون الأبيض شعارا لهم . أمـــا العباســـيون ، فقد اتخذوا السواد شعارا لهم منذ أن لبسه أبو مســـلم الخراسانى فى رمضان سنة ١٢٩هـ ، وجعله لون لوائه (٨) ، ربما تعبيرا عن حزنهم (٩) على الشهداء من آل البيت الذين سقطوا ضحايا المطالبة بحقهم فى الخلافة ، وهو حق انتزعه الأمويون منهم ، وان كان العباسيون بدورهم قد فعلوا نفس الشىء مع الطالبيين ، وينسبون فى ذلك التفسير الى بكير بن ماهان ، داعى العباسيين فى الكوفة (١٠٥ ـــ ١٢٧هـ) قوله : « قد تتابعت على آل رسول الله مصائب لا ينكر معها لأتباعهم لباس السواد حتى يدركوا بثأرهم » . ولكن عددا من الباحثين لا يقر هذا التفسير ، ويعتقدون انه

= حران ، وبيض أهل قرقيسياء ، والرقة ، ودارا ، وماردين ، والرها ، وسمسياط فى نفس الفترة ، تمسكا بولائهم للدولة الأموية البائدة (السيد عبد العزيز سالم ، دراســـات فى تاريخ العرب ، ج ٣ : العصر العباسى الأول ، الاسكندرية ١٣٩٨هـ ، ص ٥٧) .

(٥) الزبيدى ، تاج العروس ، مادة حمر .

(٦) عبد القاهر بن طاهر البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٥٧ .

(٧) الزبيدى ، تاج العروس ، مادة حمر .

(٨) ولهذا السبب عرف العباسيون بالمسودة ، فكانوا يخرجون وقد حملوا الرايات السوداء (راجع اصطلاح المسودة فى اخبار مجموعة فى تاريخ الأندلس ، نشره لافونتى القنطرة ، مدريد ١٨٦٧) .

(٩) جرت العادة فى العصر العباسى أن يتخذ اللون الأسود أو الأزرق علامة للحداد والحزن على الموتى من الأقارب ، فعندما بلغ زبيدة أم الأمين نبأ مصرع ابنها ، أمرت بثيابها فسودت ولبست مسحا من شعر (المسعودى ، مروج الذهب ، طبعة بيروت ، ج ٣ ، ص ٤١٥) كذلك لبس الرشيد يوم وفاة أمه الخيزران طيلسانا أزرق اللون (الاربلى ، خلاصة التبر المسبوك ، بغداد ١٩٦٤ ، ص ١١٢) .

لا توجد ثمة صلة بين اللون الأسود وبين احزان العباسيين على شهداء اهل البيت استنادا الى أن بعض المعارضين للحكم الأموى أمثال أبى حمزة الخارجى والحارث ابن سريج سبقوا العباسيين فى حمل اللواء الأسود فى حروبهم ضد الأمويين ، فالكميت يخاطب الحارث بن سريج بقوله :

والا فارفعوا الرايات سودا .·. على أهل الضلالة والتعدى (١٠)

ويكون للسواد فى تلك الحالة علاقة بأهل الضلالة والبغى ، فيرمز للحق والعدالة (١١) . ويستندون فى ذلك الى أن رسول الله ﷺ كانت له راية تسمى العقاب (١٢) مصنوعة من صوف أسود مربعة ، رسم فيها هلال أبيض ، كان يحملها فى غزواته وحروبه ضد المشركين (١٣) . وذكر ابن حجر العسقلانى

---

(١٠) احمد مختار العبادى ، المرجع السابق ، ص٢٦ . والمقصود بأهل الضلالة والتعدى الأمويون .

(١١) عبد العزيز الدورى ، العصر العباسى الأول ، بغداد ، ١٩٤٥ ص٣٦ .

(١٢) جاء فى المخصص لابن سيده أن العقاب العلم الضخم شبهت بالعقاب من الطير ، وهى اللواء (راجع ابن سيده ، المخصص ، السفر السادس ، المجلد الثانى ، ص٢٠٤) .

(١٣) عبد الحى الكتانى ، كتاب التراتيب الادارية ص٣٢٠ وما يليها . وربما استهدف العباسيون من اتخاذ السواد شعارا لهم وحمل الألوية السوداء فى حربهم مع الأمويين الاقتداء برسول الله ﷺ فى حربه مع المشركين اهل الضلالة والكفر ، فان هشام فى السيرة النبوية يذكر نقلا عن ابن اسحق ، أنه كانت لرسول الله ﷺ رايتان سوداوان احداهما مع على بن أبى طالب يقال لها العقاب والأخرى مع الأنصار (ابن هشام ، السيرة النبوية ج ٢ ص١٨٦ أبو الربيع سليمان بن روس الكلاعى الأندلسى ، الاكتفاء فى مغازى رسول الله ج ٢ تحقيق دكتور مصطفى عبد الواحد ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٨ ، عبد الحى الكنانى ، المرجع السابق ص ٣٢١) وذكر ابن الجوزى أن راية الرسول كانت سوداء من مرط لعائشة من مرحل وكانت على شكل مربع من الصوف تسمى العقاب (أبو الفرج بن الجوزى) .

فى الاصابة عند ترجمته لسعد بن مالك الأزدى ، أنه وفد على النبى ﷺ ، فعقد له راية على قومه سوداء فيها هلال ابيض (١٤) ، وذكروا أنه عندما قدم عمرو بن العاص من غزوة ذات السلاسل ، كانت تخفق بالمسجد النبوى فى المدينة رايات سود ، وكانت لعلى بن طالب (رضى الله عنه) راية سوداء حملها له الحضين بن المنذر بن الحارث بن دعلة المعروف بصاحب راية ربيعة ، يوم صفين وفى ذلك يقول على (رضى الله عنه) :

لمن راية سوداء تخفق ظلها .. اذا قيل قدمها حضين تقدما (١٥)

وقد يرمز السواد للسيادة والمجد والشرف ، فيقال ساد يسود سودا وسؤددا وسيادة ، والأسود من القوم على هذا النحو سيدهم وأجلهم قدرا وأعظمهم (١٦) . وقد يرمز للغلبة والتفوق ، لأن السواد يعنى الكثرة العددية ، وسواد الناس عامتهم . وأعتقد أن للسواد علاقة بقتل السادة والأخذ بالثار منهم من قول الشاعر :

فان أنتم لم تثأروا وتسودوا .. فكونوا بغايا فى الاكف عيابها (١٧)

واللواء الأسود فى هذه الحالة يرمز الى الدعوة لقتال السادة طلبا

=

الوفا بأحوال المصطفى ، ج ٢ ص٦٦٩) . ويصفها الشيخ عبد الحى الكتانى بأنها شملة مخططة من صوف ، وقيل فيها مثال الأهلة ، وقال نقلا عن ابن جماعة فى مختصر السير ، وكان لرسول الله ﷺ راية سوداء مربعة يقال لها العقاب (كتاب التراتيب الادارية ، ج ١ ص٣٢٢) .

(١٤) ابن حجر العسقلانى ، كتاب الاصابة فى تمييز الصحابة ، ج ٢ ، طبعة مصورة بالأوفست ، عن طبعة مصر ١٣٢٨هـ ، ص٣٢ ، ترجمة ١٣٩٢ .

(١٥) عبد الحى الكتانى ، المرجع السابق ، ص ٣٢١ (١٠) ابن حزم القرطبى ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق د. عبد السلام هارون ، القاهرة ص٣١٧ .

(١٦) الزبيدى ، تاج العروس ، مادة سود — ابن منظور ، لسان العرب ، مادة سود .

(١٧) نفس المصدر .

للثأر أو استعادة للحق من أهل البغى والتعدى والظلم • ويفهم هـذا المعنى بوضوح تام فى قول بكير بن ماهان سالف الذكر : « قد تتابعت على آل رسول الله مصائب لا ينكر معها لاشياعهم لباس السواد حتى يدركوا بثارهم » ، بل اننى أعتقد أن نفس هذا المعنى يتضمنه بيت الشعر الذى استشهد به القائلون بأن الراية السوداء ترمز للحق والعدالة :

والا فارفعوا الرايات سودا .·. على أهل الضلالة والتعدى

وعلى ضوء ما سبق ، وفى نفس الاطار يمكن أن نفسر اللون الأسود لراية الرسول ﷺ بعد تشريع الجهاد ضد المشركين الذين ظلموا المسلمين واخرجوهم من ديارهم ، من قوله تعالى عز وجل : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير .. الذين اخرجوا من ديارهم بغير حـق الا أن يقولوا ربنا الله » (١٨) وكان محمد بن على العباسى يقول : « عليكم بالسواد فليكن لباسكم » (١٩) • وقد أخذ خلفاء بنى العباس بذلك ، فكانوا لا يلبسون فى الرسميات الا الثياب السود ، وذكروا أن الرشيد كان يلبس بطوس يوم وفاته جبة سـوداء ، خز بغير قميص ، وعليها فنك ، وفوقها دراعة خز سوداء مبطنة بفنك ، وعلى راسه قلنسوة طويلة وعمامة خز سوداء ، وكان متطلسا بطيلسان أسود •

وكان من أصحاب أبى جعفر المنصور عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وكان ممن يلبس السواد ويلازمه حيث كان (٢٠) ، أما اللون الأخضر ، فكان رمزا للتشيع ، فعندما بايع المأمون العباسى الامام على الرضا بن موسى الكاظم بولاية العهد فى سنة ٢٠١هـ ، طرح السواد من الثياب والاعلام ولبس الثياب

---

(١٨) القرآن الكريم ، سورة الحج ٢٢ ، آية ٣٩ ، ٤٠ •

(١٩) مجهول ، اخبار الدولة العباسية ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدورى ، بيروت ، ١٩٧١ ص ٢٤٥ •

(٢٠) الجهشيارى ، كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا وآخرين ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص٢٢١ •

الخضر فى رمضان من تلك السنة ، وأمر الناس بتغيير لباس آبائه بلباس الخضرة (٢١) . وعلى الضد من ذلك ، فان المعز بن باديس ، أمير افريقية ، من بنى زيرى بن مناد الصنهاجى (٢٢) ، أمر بحرق بنوده الخضراء فى سنة ٤٤٠ﻫ فور اعلانه الانفصال المذهبى والسياسى عن الخلافة الفاطمية فى مصر (٢٣) .

---

(٢١) ابن طباطبا ، كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية . القاهرة ١٣١٧ﻫ . ص١٩٨ وما يليها . وفى ذلك يقول : « وامر المامون بخلع لباس السواد ولبس الخضرة ، فلما سمع العباسيون ببغداد ما فعل المأمون من نقل الخلافة من البيت العباسى الى البيت العلوى وتغيير لباس آبائه واجداده بلباس الخضرة ، أنكروا ذلك » (المرجع السابق ، نفس الصفحة) . وفيه يقول المسعودى : « وأمر بازالة السواد من اللباس والأعلام ، وأظهر بدلا من ذلك الخضرة فى اللباس والأعلام وغير ذلك » مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٣ طبعة بيروت ، دار الأندلس ، ص ٤٤١) . فلما عاد المامون الى قصره ببغداد بعد مصرع الأمين ، كان الناس يختلفون اليه فى كل يوم مسلمين ولباسهم الثياب الخضر ، ولم يكن احد يدخل عليه الا فى خضرة ، وساد اللون الأخضر زى أهل بغداد جميعا ، وكان الناس يخرقون ويمزقون ما لديهم من الأردية السوداء باستثناء القلانس ، ومع ذلك فكان بعضهم يلبس القلانس السوداء متخوفا ، ولم يكن احد يتجرأ على لبس اقبية أو طيالس أو يرفع اعلاما سوداء . فلما حادثه بنو هاشم فى ذلك ، وقدم طاهر بن الحسين وخاطبه هو وقواده اهل خراسان ، استجاب لهم ، واستدعاهم ، فقدموا ، فدعا « بسواد فلبسه ، ودعا بخلعة سوداء ، فكساها طاهر بن الحسين ، وخلع على عدة من قواده اقبية وقلانس سوداء ، فلما خرجوا من عنده وعليهم السواد ، طرح سائر القواد الخضرة ، ولبسوا السواد » (راجع ابن طيفور ، كتاب بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية ، بغداد ، ١٩٦٨ ص ٢) . وهكذا عاد المأمون الى اتخاذ السواد فى ٢٣ صفر سنة ٢٠٤ﻫ ، أى بعد ما يقرب من ثلاث سنوات من الغائه (السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص٨٦).

(٢٢) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ص١٠٦ .

(٢٣) ابن عذارى ، البيان المغرب فى اخبار المغرب ، طبعة صادر — بيروت ، ج ١ ، ١٩٥٠ ص ٣٩٩ . وممن نزع الى السواد فى المغرب الأدنى

=

ويضاف الى هذه الألوان الثلاثة اللون الأصفر الذى اتخذه أبو زيد مخلد بن كيداد اليفرنى الخارجى الثائر على الدولة الفاطمية فى المغرب فيما بين عامى ٣٢٢ ، ٣٣٧هـ ، لبندين من بنوده ، سجل فى أحدهما البسملة وعبارة « محمد رسول الله » ، وفى الآخر عبارة « نصر من الله وفتح قريب على يدى الشيخ أبى يزيد . اللهم انصر وليك على من سب أولياءك » (٢٤) . وقد سبق أن رأينا أن اللون الأصفر من فصيلة الأسود شعار الدولة العباسية . ويهمنا من هذه الألوان الأربعة اللون الأسود بالذات الذى أصبح اللون الرسمى فى الثياب عند العباسيين ، واتخذوه فى طيالسهم وعمائمهم وقلانسهم والويتهم ، واصبح هذا اللون فى المغرب والأندلس — موضوع هذا البحث — شعارا للثورة على الأوضاع السياسية السائدة فى هذين الصقعين ، المجافية لطبيعة الأمور ، أو مظهرا من مظاهر الشرعية فى الولاية ، أو التماسا للتبعية الاسمية للخلافة العباسية ، أو اقرارا لعمل مخالف لارادة المحكومين . وقد تمثلت هذه الحالات جميعا فى فترات مختلفة من تاريخ الأندلس تكرر فيها اتخاذ السواد ورفع الألوية السوداء ، والدعاء باسم الخليفة العباسى المعاصر للواقعة .

وأول من رفع اللواء الأسود فى المغرب عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبدة بن عقبة بن نافع الفهرى ، أحد أحفاد عقبة بن نافع مؤسس القيروان ، تأييدا للثورة العباسية التى أطاحت بدولة بنى أمية ، وربما كسبا لسند شرعى يدعم دولته فى افريقية . ولقد ظهرت أطماع عبد الرحمن بن حبيب الفهرى فى الامارة منذ يوم بقدورة الذى انهزم فيه العرب على أيدى البربر فى طليعة عام ١٢٤ هـ ، فانحاز ابن حبيب الى الأندلس مع بلج بن بشر بن عياض

=

أحد رجالات العرب المعارضين للحكم الأغلبى فى عهد إبراهيم بن الأغلب ويدعى حمديس ، ولكن ثورته انتهت بالفشل ، وتمكن عمران بن مجالد ، قائد ابن الأغلب من استرجاع تونس (ابن الأثير ، الكامل التاريخ ، ج ٥ طبعة القاهرة ١٣٥٧ هـ ص ١٠٤ — ابن خلدون ، كتاب العبر ، طبعة بيروت ، ج ٤ ص ٤١٩) .

(٢٤) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص٣٠٨ وما يليها .

القشيرى والطالعة البلجية المنسوبة اليه عساه يجد فى الأندلس سبيلا يوصله الى تحقيق أمنيته ، ولكن أبواب الامارة فى الأندلس كانت موصدة ، فلم يوفق فى التماس مجال له هناك بسبب الصراعات العنيفة التى احتدمت فى الأندلس أولا بين العرب والبربر ، ثم بين البلديين من العرب والبربر وبين الشاميين الطارئين ، فلما وجه حنظلة بن صفوان والى المغرب أبا الخطار الحسام ابن ضرار الكلبى الى الأندلس أميرا ، يئس عبد الرحمن من تحقيق أمنيته ، وخاف أن يقع فى قبضة الأمير الجديد (ابى الخطار) ، فركب سفينة أقلته الى تونس (٢٥) ، فنزلها فى جمادى الأول سنة ١٢٦هـ املا فى الدعوة الى نفسه بين جماعات البربر الذين ينتسب اليهم عن طريق أمه . ثم دعا الناس اليه فى ٢٧ جمادى الآخرة من نفس السنة ، فأجابوه ، وجمع حشودا منهم لقتال حنظلة بن صفوان واخراجه من افريقية ليخلو له الجو ، ويعلن نفسه اميرا على افريقية . ونجح عبد الرحمن بن حبيب بعد محاولات خسيسة فى حمل حنظلة بن صفوان على الخروج من افريقية الى دمشق فى جمادى الآخرة من نفس السنة (٢٦) ، ومن افريقية بعث عبد الرحمن بيعته الى مروان بن محمد مع بعض الهدايا (٢٧) ، فأقره مروان بن محمد على ولاية افريقية . ولم يكن ابن حبيب فى واقع الأمر فى حاجة الى مثل هذا الاقرار ، اذ كان قد اغتصب الولاية بالفعل من حنظلة بن صفوان ، وكان مروان بن محمد واقعيا ، فلم يكن امامه سوى اقراره على ما بيده فى الظروف

---

(٢٥) يعبر ابن الأبار عن ذلك بقوله : « فلم يزل عبد الرحمن بها (أى الأندلس) يحاول التغلب عليها الى أن دخل أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى واليا ... فخافه عبد الرحمن وخرج مستترا ، فركب البحر الى تونس » (ابن الأبار ، الحلة السيراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، ج ٢ ص ٣٤١) .

(٢٦) راجع تفاصيل هذه المحاولات وما اصطنعه ابن حبيب من الغدر والمخاتلة فى حمل صفوان على الرحيل من ارض المغرب فى : السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الاسلامى ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ ص٢٣٤ — ٢٣٧ .

(٢٧) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ج ١ ص٦٧ .

الصعبة التى كان يواجهها فى الشرق الاسلامى ، وبهذا الاقرار أصبح ابن حبيب أميرا شبه مستقل عن الخلافة الأموية المحتضرة ، وتمكن من التغلب على جميع خصومه السياسيين فى افريقية ، وبطش بأعدائه البربر الاباضية فى اقليم طرابلس وافريقية . ولكن هذا الانتهازى المغامر لم يكد يعلم بانتصار الثورة العباسية ومصرع مروان بن محمد ، وقيام دولة بنى العباس فى سنة ١٣٢هـ حتى بادر باعلان دخوله فى طاعة أبى العباس السفاح ، فلما توفى السفاح فى سنة ١٣٦هـ وخلفه أبو جعفر المنصور فى تلك السنة اقر ابن حبيب الفهرى على ولاية افريقية ، وأرسل له خلعة سوداء ، **وهو أول سواد دخل افريقية** . والظاهر أن ابن حبيب كان يسعى الى كسب تأييد شرعى من وراء هذه الخلعة ، بدليل أنه ما كاد يستوثق من تمكين سلطانه فى البلاد وثبات قدمه فى الامارة ، حتى بادر بخلع طاعته للمنصور ، وأمر بتمزيق خلع المنصور . ولكن انصار الدولة العباسية تآمروا على قتله ، وتنصيب أخيه الياس — المتعطش الى الامارة — مكانه ، واعادة الدعوة لأبى جعفر المنصور ، وتولى الياس نفسه تنفيذ المؤامرة وقتل أخاه عبد الرحمن فى سنة ١٣٧هـ ، ولما يهنأ بالامارة ، ولم يلبث الياس أن أعاد الدعاء على منابر افريقية لأبى جعفر المنصور لحاجته الى تأييد عباسى يشد أزره ، ويدعم شرعيته فى الحكم بعد جريمته الشنعاء ، ولم يتردد فى أن يبعث بطاعته الى المنصور مع وفد من العرب من بينهم عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قاضى افريقية (٢٨) .

وواضح مما سبق أن دخول بنى حبيب فى طاعة العباسيين ، واتخاذهم السواد ، كان ضرورة سياسية حتمتها الظروف لتدعيم مركزهم المتأرجح فى الداخل ، والاستناد فى امارة افريقية على سند شرعى فى تلك المرحلة الانتقالية الحرجة بين سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية . وربما كان عبد الرحمن بن حبيب يستهدف تحقيق استقلال ذاتى فى افريقية قريب الشبه

---

(٢٨) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ٤ ص٢٨٠ — ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ص٤٠٩ .

باستقلال الأغالبة بهذا القطر فيما بعد ، مع الابقاء على ولائهم للعباسيين ، فلما طالبه المنصور بالتبعية المباشرة ، لم يتردد ابن حبيب فى تحديه ولعنه ، وأقدم على خلع السواد ، واحراق اللواء والخلع .

ثم ظهر اللواء الأسود فى الأندلس للمرة الأولى فى ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، ويبدو أن يوسف كان قد استقل عن الخلافة الأموية فى السنين الأخيرة من عصر مروان بن محمد ، فبعث أبو جعفر المنصور عند بدء قيام الدولة العباسية الى عامر بن وهب بن عمرو بن المصعب بن أبى عزيز بن عمير — وكان له فى الأندلس قدر — سجلا ولواء بولاية الاندلس ، وقام بسرقسطة ، ولكن يوسف الفهرى قتله (٢٩) . واعتقد أن يوسف كان يرغب فى الاستئثار بولاية الأندلس مهما كلفه الأمر ولهذا أراد أن يكسب شرعية فى الحكم فخطب لأبى جعفر المنصور الى أن دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس وأسس دولة بنى أمية فى الأندلس . ثم رفع اللواء الأسود من جديد فى سنة ١٤٦هـ لتقويض دعائم الحكم الأموى فى الاندلس لصالح العباسيين ، رفعه العلاء بن مغيث اليحصبى على الأمير عبد الرحمن الداخل ، وذلك بعد ثمان سنوات فقط من مبايعة الأخير بالامارة . ومن المعروف أن عبد الرحمن بن معاوية كان يدعو فى بدء توليه الامارة لأبى جعفر المنصور على نحو ما كان يفعل يوسف بن الرحمن الفهرى ، والى الأندلس السابق ، ويذكر ابن الأبار فى الحلة السيراء ان عبد الرحمن أقام الدعوة باسم المنصور لمدة تقل عن العام ، ممتثلا فى ذلك يوسف الفهرى فى دعائه للعباسيين (٣٠) ، فى حين يحددها المقرى بعشرة أشهر فقط . واعتقد ان المنصور كان يتوقع اقدام

---

(٢٩) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص١٢٦ .

(٣٠) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، تحقيق د. حسين مؤنس ، جـ ١ ، ص ٣٥ . ويقول ابن الأبار « أقام أشهرا دون السنة يدعو لأبى جعفر المنصور متقبلا فى ذلك يوسف الفهرى الوالى قبله ». وواضح أن عبد الرحمن الداخل لم يشأ أن يقطع الدعاء للخليفة العباسى بمجرد توليه الامارة ، وانما تعمد الاستمرار فى الدعاء له الى أن ترسخ قواعد امارته ويثبت سلطانه . واعتقد أن عبد الرحمن كان موفقا فى تلك السياسة الحكيمة التى تدل على ذكائه والمعيته وهو ما شهد له به أبو جعفر المنصور نفسه ، ألد أعدائه .

عبد الرحمن بن معاوية على اسقاط اسمه من الخطبة فى الأندلس ، بل انه لم يكن يتوقع اطلاقا أن يواصل عبد الرحمن ، خصمه اللدود ، وسليل خلفاء بنى أمية فى المشرق ، الدعاء له على منابر الأندلس ، ولهذا فان قطع الدعاء له فى الأندلس لم يكن مفاجأة للمنصور ، ولم يكن لذلك ادنى أثر لديه ، ولم يحدث أى ردود فعل سريعة ، اذ كان فى نيته القضاء على دولة عبد الرحمن بن معاوية سواء تابع الدعاء له أم توقف عنه . واعتقد أن انتظار المنصور الطويل ولمدة ثمان سنوات ، على عبد الرحمن بن معاوية لم يكن يعنى اغفاله لأمره ، وانما كان انتظارا لفرصة مواتية ولظروف ملائمة للاطاحة بدولته . وجاءت اللحظة التى كان ينتظرها المنصور العباسى ، وتهيأت له الفرصة عندما سير الى المغرب الأدنى قوة عباسية بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعى ، تمكنت من القضاء على الاباضية فى طرابلس وسائر المغرب الأدنى ، ودخول القيروان فى غرة جمادى الأولى من سنة ١٤٤هـ (٣١) ويبدو أن المنصور كان قد عهد الى أحد قادة هذه الحملة وهو العلاء بن مغيث اليحصبى برفع لواء الثورة فى الأندلس ضد عبد الرحمن الداخل ، مستغلا الظروف الداخلية السيئة التى كانت تجتازها البلاد فى هذه الفترة ، ليجمع حوله الأنصار والمؤيدين للدولة العباسية ، ويتمكن بهم من السيطرة على قرطبة . فالفترة التى دخل فيها ابن الأشعث الخزاعى بقواته العباسية — سنة ١٤٤هـ — والفترة التى قامت فيها ثورة العلاء بن مغيث فى الأندلس — سنة ١٤٦هـ — متقاربة ، الأمر الذى يدعونا الى الاعتقاد بأنه كان من بين قواد هذه القوة ، لا سيما وأن المغرب قبل وصول القوة العباسية كان قد أصبح اباضيا بربريا ، بحكم انتصار الخوارج الاباضية والصفرية من أقصى المغرب الى أدناه فى طرابلس . وأيا ما كان الأمر فقد عبر العلاء بن مغيث البحر من افريقية الى تدمير مركز جند مصر ، وأقرب المعابر البحرية فى الأندلس الى افريقية . والظاهر أنه عبر فى بداية سنة ١٤٥هـ ، وأنه أقام بعض الوقت فى تدمير لتنظيم ثورته واعداد قوته . وأعتقد أنه كان يعتمد على أنصار له فى تدمير من جند مصر ، فان انتقاله الى باجة فى أقصى الجنوب الغربى من

---

(٣٠) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٨٤ .

الأندلس ، والمركز الثانى لجند مصر ، له مغزى هام ، وواضح أن ثمة علاقة تربط بين باجة وتدمير وبين العلاء بن مغيث ، الأمر الذى يدعونا الى الاعتقاد بأنه قدم من مصر وأنه اشترك مع القوة العباسية التى قادها ابن الأشعث الخزاعى الوالى السابق للعباسيين على مصر وافريقية . وبذلك تكتمل حلقات الخطة التى دبرها المنصور ، ونلخصها فى أنه اختار لقيادة الثورة قائدا يمنيا ، وفد الى افريقية مع عسكر العباسيين الذين سيرهم بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعى لاستنقاذ افريقية من عبث البربر الاباضية والصفرية ، وأنه اسند اليه مهمة الاتصال بالمعارضين للحكم الأموى فى الأندلس من اليمنية المستقرين فى تدمير من جند مصر ، وأنه زوده بالأعلام السوداء وبسجل الولاية ، ليرفعها فى الوقت المناسب .. ثم اختار العلاء الزمان والمكان المناسبين لثورته ، فقد كانت الثورات تجتاح الأندلس فى الشمال والجنوب ، وشغل الأمير عبد الرحمن الداخل باخمادها ، وكان وقت نزول العلاء مشغولا بقمع ثورة قام بها القيسية فى طليطلة عندما بلغه قيام العلاء بن مغيث برفع اللواء الأسود ، شعار العباسيين ، فى باجة ، وهذا ينقلنا الى توفيقه فى اختيار المكان الملائم لثورته وهو مدينة باجة . فهذه المدينة تقع فى أقصى الجنوب الغربى من الأندلس غير بعيد من قرطبة الحاضرة وعن اشبيلية وماردة موطن الثورات اليمنية والبربرية المتواصلة (٣٢) . ثم ان باجة كانت بالاضافة الى موقعها الاستراتيجى الهام لقيام الثورة كانت المركز الثانى لجند مصر ، حيث يمكنه أن يعتمد على تأييد أهلها للثورة ، ولهذا السبب ، ما كاد العلاء ينزل بباجة ويلبس السواد ويدعو لأبى جعفر المنصور ويرفع الألوية والأعلام السوداء ، حتى اجتمعت اليه حشود ضخمة من الناقمين على عبد الرحمن ، الموتورين منه والراغبين فى خلعه (٣٣) والتخلص

---

(٣٢) كانت اشبيلية وما يليها من غرب الأندلس وأكبر مدنه اذ ذاك باجة وماردة . على حد قول الدكتور حسين مؤنس ، من مراكز الثورة الكبرى على عبد الرحمن الداخل الذى كان قد تمكن فى العام السابق على ثورة العلاء (١٤٥ هـ) من القضاء على ثورة قام بها اليمنية فى اشبيلية بزعامة عبد الغافر اليمانى رئيس عرب اليمنية الذى اضطر الى الفرار الى المشرق حوالى سنة ١٤٥ هـ (ابن الأبار ، ج ١ ، ص٢٤٦ ، هامش ٣) .

(٣٣) ابن القوطية القرطبى ، تاريخ افتتاح الأندلس ، نشره خليان ريبيرا مدريد ١٩٢٦ ، ص ٣٣ — اخبار مجموعة فى تاريخ الأندلس ، ص ١٠٧ — ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص٧٧ — ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ٥ ، ص٥٧٥ .

منه ومعظمهم من جماعات اليمنية المستقرين بكثرة فى بلاد غرب الأندلس .

وما ان علم عبد الرحمن بن معاوية بأمر العلاء حتى ترك حصاره لطليطلة وبادر بالانسحاب ، فأقبل نحوه العلاء بجموعه ، وتحرك فى اتجاه قرطبة الحاضرة ، فلاذ ابن معاوية بحصن قرمونة القريب من اشبيلية ، وعندئذ اطبق عليه العلاء بحشوده الضخمة وأحكم عليه الحصار . ومضى نحو شهرين ، نفدت خلالهما الأقوات والمؤن فى قرمونة بسبب الحصار الطويل ، ودب اليأس فى نفوس المحصورين من أتباع عبد الرحمن ، وفى نفس الوقت كان معظم أنصار العلاء قد انخذلوا عنه لطول أمد الحصار ، فاغتنم عبد الرحمن هذه الفرصة وعزم على مفاجأة قوات العلاء بهجوم خاطف سريع ، فجمع قواته داخل المدينة فى موضع قريب من بابها المعروف بباب اشبيلية ، ثم أمر بنار فأوقدت ، وأمر باغماد السيوف فطرحت فى النار ، ثم خاطب رجاله وأمرهم بالخروج معه خروج من وطن نفسه على القتال حتى الموت ، وسل سيفه فى مقدمة أصحابه واندفع من باب المدينة ، وانقض هو ورجاله على جيش العلاء ، فمزقوه شر ممزق ، وأذرعوا السيوف فيمن بقى منهم فى ساحة المعركة ، فسقط العلاء نفسه صريعا ، فبعث عبد الرحمن برأسه بعد أن لفه فى السجل واللواء الى مكة ليوضع أمام سرادق المنصور (٣٤) .

ثم عاد اللواء الأسود يرتفع من جديد فى افريقية سنة ٤٤٠هـ ، وكان ظهوره فى هذه المرة لتأكيد الانفصال المذهبى والسياسى للمغربين الأدنى والأوسط فى آن واحد عن الدولة الفاطمية فى مصر . ومن المعروف أن المعز لدين الله كان قد استخلف على المغربين الأدنى والأوسط قبل رحيله النهائى الى القاهرة فى سنة ٣٦٢هـ أبا الفتوح يوسف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى (٣٥) . وظل أبو الفتوح يوسف وبنوه يتوارثون امارة المغربين الى

---

(٣٤) ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص٣٤ — ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص٧٨ .

(٣٥) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٦ ، ص٢١٧ — ابن الخطيب ، كتاب أعمال الأعلام ، القسم الثالث تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى والأستاذ محمد ابراهيم الكتانى ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤ ، ص٦٥ .

ان تم انفصال المغرب الأوسط عن الأدنى فى عهد نصير الدولة باديس بن المنصور بن يوسف فى سنة ٣٩٥ : فانفرد حماد بن يوسف وبنوه بامارة المغرب الأوسط من حاضرته القلعة المنسوبة اليه فى حين ظل بنو يوسف بن زيرى يتولون المغرب الادنى بين المهدية . ويذكر ابن خلدون أن حمادا دعا للخلفاء العباسيين، وانه اعاد دولته الى المذهب السنى (٣٦) ، وانه بذلك قد سبق المعز بن باديس فى اعلان انفصاله المذهبى والسياسى عن الخلافة الفاطمية بمدى بنحو ثلاثين عاما (٣٧) . وكانت دولة يوسف بن زيرى فى افريقية موالية للدولة الفاطمية منذ ان استنابه المعز لذين الله على ولايتها ، ولكن ما أن خلف ابو انفتح المنصور بن بلكين يوسف أباه (٣٧٤ — ٣٨٦هـ) على امارة افريقية حتى بدأ يجنح الى التفكير فى الانفصال عن الخلافة الفاطمية فى مصر ، ولكن العزيز بالله الفاطمى لم يترك له الفرصة لذلك ، فقد كان يبث القلاقل والفتن فى افريقية حتى يصرفه عن التفكير فى الانفصـــال ، وظلت العلاقات بين الدولتين الفاطمية والزيرية ودية فى الظاهر ، وكان العاهلان يتبادلان الهدايا حفاظا على ظواهر الأمور ، فكانت تلك العلاقات أشبه بقناع زائف يخفى وراءه ما كان يعتمل فيها من التوتر والتحفز . ثم تولى المعز بن باديس فى ٢١ ذى الحجة سنة ٤٠٦هـ ، وهو ابن ثمان سنوات ، وكان قد نشأ نشأة سنية على يد أستاذه ووزيره أبى الحســن بن أبى الرجال ، ولهذا فقد كان يكره التشيع ويضطهد الشيعة فى افريقية ، وحمل الكثير منهم على الخروج من افريقية الى صقلية فى سنة ٤٠٩هـ (٣٨) ، بل انه أخذ يحمل الناس على نبذ المذهب الاســماعيلى واعتناق المذهب المالكى مســتهدفا من ذلك تحقيق الانفصال المذهبى ثم السياسى عن مصر الفاطمية . ومع ذلك فقد كان الحاكم بأمر الله — رغم كله ما قيل عنه — يداريه ويسترضيه ، ويهادنه ويوادعه ،

---

(٣٦) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٦ ص ٣٢٤ .

(٣٧) Marçais, La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen âge, Paris, 1946, p. 164.

(٣٨) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص٣٨٨ . وكان قد قتل فى أيامه عدد كبير من الشيعة ، وكان ذلك من الأسباب التى حملتهم عــلى الرحيل الى صقلية فرارا من اضطهاد الزيريين لهم .

وكان ينعم عليه بالألقاب التشريفية والهدايا النفيسة حتى يغلق عليه كل المنافذ المؤدية الى ذلك الانفصال . وتختلف الروايات فى تحديد تاريخ انفصال المعز بن باديس عن الدولة الفاطمية والسنة التى دعا فيها للخليفة القائم بأمر الله العباسى ، فبينما يذكر ابن عذارى أن المعز خرج عن طاعته للفاطميين فى سنة ٤٣٣هـ (١٠٤١م) وانه دعا فى هذه السنة للخليفة العباسى القائم بأمر الله (٣٩) يؤرخ المقريزى لهذا الحادث فى سنة ٤٣٥هـ ، ويذكر أيضا أن الخليفة أرسل اليه فى تلك السنة الخلع من بغداد على طريق القسطنطينية (٤٠). ثم يأتى المقريزى بعد ذلك بروايتين أخريين متناقضتين داخل اطار حوادث سنة ٤٤٣هـ ، جاء فى الرواية الأولى أن المعز ابن باديس — بعد أن تبادل معه اليازورى وزير المستنصر بالله الفاطمى الاهانات — أقسم ليحولن الدعوة الى بنى العباسى ، وأنه « لج فى ذلك ، وقطع الدعاء للمستنصر ، وأزال اسمه من الطرز والرايات ، ودعا للقائم أبى جعفر بن القادر فى سنة اربعين وأربعمائة ، وكتب اليه بذلك ، فكتب اليه بالعهد صحبة أبى الفضل بن عبد الواحد التميمى ، فقرأ كتابه بجامع القيروان ، ونشر الرايات السود ، وهدم دار الاسماعيلية ، ووصل الخبر بذلك الى القاهرة ، فأشار اليازورى بتجهيز أحياء هلال بن جشم والأثروزينية ورياح وعدى وربيعة الى المغرب وتولية مشايخهم أعمال افريقية ، فقبلت مشورته وارسل اليهم فى سنة احدى وأربعين ، فوصلوا افريقية سنة ثلاث وأربعين » (٤١) .

---

(٣٩) ابن عذارى ، نفس المصدر ، ج ١ ص٣٩٧ .

(٤٠) المقريزى ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق د. محمد حلمى محمد أحمد ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٧١ ص١٩٠

ونفس النص نشره د. أحمد مختار العبادى عن النسخة المحفوظة بمكتبة سراى احمد الثالث باسطنبول ضميمة لمقاله بعنوان « سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس » ، المنشور بصحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ، ١٩٥٧ ، ص ٢٢٢ .

(٤١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ص٢١٦ .

أما الرواية الثانية فتتضمن النص التالى : « وفيها (أى فى سنة ٤٤٣هـ) اظهر المعز بن باديس صاحب افريقية الخلاف على المستنصر ، وسير رسولاً الى بغداد ليقيم الدعوة العباسية ، واستدعى منهم الخلع ، فاجيب الى ذلك ، وجهزت الخلع على يد رسول يقال له أبو غالب الشيزرى ومعه العهد واللواء الأسود ، فمر ببلاد الروم ليعدى منها الى افريقية ، فقبض عليه صاحب الروم ، وبلغ ذلك المعز بن باديس ، فأرسل الى قسطنطين ملك الروم فى أمره ، فلم يجبه رعاية لحق المستنصر . واتفق قدوم رسول طغرلبك يستأذنه فى مسيره الى مصر ، فاظهر المودة التى بينه وبين المستنصر ، وانه لا يرخص فى اذيته ، واتفق قدوم رسل المستنصر اليه بهدية عظيمة ، فبعث معه برسول القائم بما على يده ، فدخل الى القاهرة على جمل ، واحرق العهد واللواء والهدية فى حفرة بين القصرين » (٤٢) .

وواضح ان المقريزى يناقض نفسه فى الروايتين ، فيقحم اليازورى فى الرواية الأولى التى يحدد فيها سنة ٤٤٠هـ للدعوة للخليفة القائم بأمر الله ، مع أن اليازورى لم يتول الوزارة الا فى ٧ المحرم سنة ٤٤٢هـ (٤٣) ، ويؤرخ الانفصال وقطع الدعوة للخليفة الفاطمى فى الرواية الثانية فى سنة ٤٤٣هـ . هذا التناقض الواضح يجعلنا فى حيرة حول التاريخ الصحيح من بين التواريخ الثلاثة التى أثبتها المقريزى للسنة التى دعا فيها المعز بن باديس للخليفة العباسى ، وهى ٤٣٥ ، ٤٤٠ ، ٤٤٣ . ويتفق كل من ابن الأثير وابن عذارى وابن خلدون على أن تاريخ سنة ٤٤٠هـ (٤٤) هو الذى تم فيه اعلان

---

(٤٢) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ص٢١٤ .

(٤٣) نفس المصدر ، ص٢١٢ .

(٤٤) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ٨ ص ٥٥ — ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص٣٩٩ — ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٦ ص٣٢٥ . ويذكر ابن عذارى أن المعز بن باديس اتبع حركته الانفصالية بقطع الدعوة للخليفة الفاطمى المستنصر بالله فى الخطبة واحراق بنوده الخضراء والدعوة على المنابر الافريقية للعباس بن عبد المطلب .

الدعوة للخليفة العباسى وانقطعت فيه عن الخليفة الفاطمى . وأمام هذا الاختلاف فاننى أميل الى تصور حوادث الانفصال على النحو التالى :

١ — فى سنة ٤٣٥ (وليس فى سنة ٤٣٣ كما يذكر ابن عذارى) (٤٥) بلغ أبا القاسم أحمد الجرجرائى (ت ٤٣٦) وزير المستنصر بالله نبأ اقدام المعز بن باديس على قطع الخطبة عن المستنصر والدعوة ببلاد افريقية للخليفة القائم بأمر الله العباسى ، كما بلغه ما كان يقوم به المعز من اضطهاد للعناصر الشيعية فى افريقية والدعوة للمذهب المالكى . فخاطب المعز بن باديس محذرا وهو يراجعه بالتعريض بخلفائه والقدح فيهم « حتى أظلم الجو بينه وبينهم » (٤٦) .

٢ — عندما استقر أبو البركات الحسين بن عماد الدولة بن محمد بن أحمد الجرجرائى فى الوزارة بعد أن صرف المستنصر عنها أبا منصور صدقة الفلاحى فى سنة ٤٣٩هـ ساد التوتر العلاقات القائمة بين القاهرة والمهدية ، ولم يحاول المستنصر بالله من جانبه أن يسترضى المعز بن باديس كما كان يفعل كل من الظاهر لاعزاز دين الله أو الحاكم بأمر الله من قبل ، وانما تعمد اغفال شأنه استخفافا به ، فازدادت بذلك هوة الخلاف اتساعا وعمقا . وذكروا أنه لما بلغ المستنصر ما قام به المعز بن باديس من قطع الخطبة له والدعوة للخليفة القائم العباسى كتب الى المعز يتهدده (٤٧) ، وأورد ابن خلكان أن المستنصر كتب الى المعز يتهدده ويذكره بالتزام آبائه الطاعة والولاء للفاطميين ، فرد عليه المعز مؤكدا حق أسرته فى الاستقلال ، وقال له : « ان آبائى وأجدادى كانوا ملوك المغرب قبل أن يملكه أسلافك ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم » (٤٨) . وهكذا تحطم كل أمل فى ايجاد تسوية ودية بين الطرفين .

---

(٤٥) ابن عذارى ، البيان ص ٣٩٧ .

(٤٦) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٦ ص٣٢٥ .

(٤٧) ابن خلدون ، نفس المصدر ، ج ٤ ص١٣١ .

(٤٨) ابن خلكان ، وفيات الأعيان .

٣ — وفى اثناء ذلك كان المعز بن باديس قد سير رسولا من قبله الى الخليفة العباسى القائم بأمر الله يلتمس منه الخلع واللواء الأسود والعهد ، فأجابه الخليفة الى طلبه ، وعهد بحمل الخلع والعهد واللواء الأسود الى أبى غالب الشيزرى رسولا من قبله الى المعز ، وكانت رحلة أبى غالب الى افريقية تتطلب منه أن يمر ببلاد الروم ربما ليركب من أحد موانيها سفينة تبحر الى افريقية لطول الطريق البرى عبر بلاد الشام ومصر وبرقة الى افريقية ، وأثناء مروره وقع فى قبضة السلطات البيزنطية باعتباره موفدا من قبل الدولة العباسية العدو الأول للدولة البيزنطية . فلما علم المعز بذلك سير عثمان بن أبى بكر بن حمود بن احمد الصدفى السفاقسى المعروف بابن الضابط رسولا (٤٩) من قبله الى القسطنطينية فى تاريخ يسبق سنة ٤٤٠هـ التى توفى فيها هذا السفير وهو عائد من مهمته أو حسب تعبير ابن بشكوال « صادرا أو واردا » . والظاهر أن عثمان هذا حاول اقناع المسئولين فى بيزنطة بالافراج عن رسول الخليفة العباسى وعدم التعرض مستقبلا لسفراء العباسيين الى افريقية حفاظا على العلاقات الطيبة بين الزيريين والبيزنطيين ولكن البيزنطيين لم يوافقوا على طلب المعز بن باديس حرصا على العلاقات الودية القائمة بالفعل بين دولتهم والدولة الفاطمية (٥٠) ، وتظاهرا بعدم قبولهم الاضرار بمصالح الفاطميين .

---

(٤٩) ابن بشكوال ، كتاب الصلة ، القسم الأول ، القاهرة ١٩٦٦ ، ترجمة رقم ٨٨٢ .

ويؤكد قيام المعز بارسال هذه السفارة الى الخليفة العباسى ، نص المقريزى فى اتعاظ الحنفا الذى سبق الاشارة اليه ، وجاء فيه « وبلغ ذلك المعز بن باديس ، فأرسل الى قسطنطين ملك الروم فى أمره » (ص٢١٤) .

(٥٠) كانت العلاقات بين الدولتين البيزنطية والفاطمية قد تحسنت فى عهد المستنصر بالله الذى عقد مع الامبراطور ميشيل الرابع هدنة فى سنة ٤٢٩ هـ (المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ص١٨٢ ، ١٨٧) ، كما تبادل مع قسطنطين التاسع الهدايا سنة ٤٣٧هـ (محمد جمال الدين سرور ، سياسة الفاطميين الخارجية ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص٢٤٥) .

واعتقد أنهم وافقوا رسول المعز بعدم التعرض مستقبلا لأى من سفراء الخليفة العباسى الى افريقية ، فقد كانت للدولة البيزنطية مصالح فى جنوبى ايطاليا وكان يهمها فى نفس الوقت الابقاء على صلاتها الطيبة مع الزيريين .

٤ — اتفق قدوم رسل المستنصر بالله الفاطمى بهدية نفيسة الى الامبراطور البيزنطى ، فبعث معهم السفير العباسى الأسير مع كل ما كان يحمله معه من الخلع واللواء والعهد ، فأحرقها المستنصر فى ساحة بين القصرين فى سنة ٤٤٠هـ .

٥ — كانت العلاقات بين المستنصر بالله والمعز بن باديس قد ساءت فى تلك السنة الى اقصى درجة بحيث لم يعد هناك أى مجال للتفاهم ، وعدمت كل وسيلة لعلاج الموقف المتدهور . وكان المعز قد بلغه نبأ احراق الخلع العباسية والعهد واللواء فى ساحة بين القصرين بالقاهرة ، كما علم أن الخليفة العباسى بصدد ارسال خلع أخرى عن طريق القسطنطينية أيضا . ولكنه لم يستطع الانتظار أكثر من ذلك واضطر الى التعجيل باعلان الانفصال المذهبى والسياسى عن الدولة الفاطمية رسميا فى نفس سنة ٤٤٠ مدفوعا فى ذلك بضغوط شعبية من أهل القيروان المعادين للمذهب الاسماعيلى .

٦ — استعاض المعز عن الأعلام والخلع بثياب بيضاء أمر باخراجها من فندق الكتان بالقيروان وصبغها باللون الأسود الحالك ، وجمع الخياطين وأمرهم بقطعها أثوابا ، ثم جمع الفقهاء والقضاة الى قصره ، وخطيبى القيروان وجميع المؤذنين ، وكساهم ذلك السواد . ثم انصرفوا جميعا الى الجامع حيث أعلن انفصاله رسميا عن الدولة الفاطمية مذهبيا وسياسيا (٥١) وأمر بلعن الخلفاء الفاطميين .

---

(٥١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص٤١٥ .

٧ ــ ثم وصلت الخلع الجديدة والعهد واللواء الأسود ــ فيما يبدو ــ صحبة أبى الفضل بن عبد الواحد التميمى الى القيروان (٥٢) فى سنة ٤٤١هـ ، فقرأ المعز بن باديس كتاب الخليفة بجامع القيروان ، ونشر الرايات السود ، وهدم دار الاسماعيلية ، وأمر بسبك ما لديه من الدنانير والدراهم والقطع التى تحمل اسماء بنى عبيد الله ، وازالة أسمائهم من الرايات والطرز (٥٣) .

٨ ــ أمر المعز بن باديس فى آخر سنة ٤٤١هـ أو بداية سنة ٤٤٢هـ بتبديل السكة ، فضرب عملات أزيلت من نقوشها العبارات الدالة على المذهب الشيعى (٥٤) . وقد وصلت الينا عملة قيمتها ½ دينار من عهده ، نقوشها على النحو التالى :

مركز الوجه	مركز الظهر
ومن يبتغ (غير)	لا اله الا الله
الاسلام د (ينا)	وحده لا شريك له
فلن يقبل منـ (ـه)	محمد رسول الله

دائرة الوجه

محيت الكتابة ولم يبق منها سوى رقم « اربعين »	محيت الكتابة ولم يعد مميزا منها كلمة « شاهدا » وواضح انها آية قرآنية من سورة الأحزاب

وبسك العملة الجديدة اتخذ الانفصال السياسى والمذهبى صفة

(٥٢) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص٢١٦ .
(٥٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص٢٠٤ .
(٥٤) Henri Lavoix, Catalogue des Monnaies musulmanes de la Bibliothèque Nationale : Espagne et Afrique, Paris, 1891, p. 407, No. 934.

نهائية ، وتبع ذلك رد الفعل الفاطمى ممثلا فى الغزوة الهلالية ، فقد أخذ المستنصر بمشورة وزيره أبى محمد اليازورى بارسال أحياء من عرب بنى هلال وسليم ورياح وعدى وغيرها الى افريقية لاشباع انتقامه من الزيريين ، فوصلت طلائعهم الى افريقية فى أواخر سنة ٤٤٣هـ (٥٥) .

ذلك هو تصورى لحوادث الانفصال الزيرى عن الدولة الفاطمية ، وهو انفصال ارتبط بالسواد لونا للثياب والخلع والرايات .

واذا كان اتخاذ السواد ورفع الرايات والألوية السوداء فى افريقية قد لبى حاجة سياسية ومذهبية بالنسبة للدولة الزيرية الصنهاجية ، وخلص افريقية التى تأصل فيها المذهب المالكى من السيطرة الاسماعيلية فانه اتخذ بعد قيام دولة المرابطين ورسوخ قواعدها فى أعقاب انتصارهم الحاسم فى الزلاقة على قوى المسيحية فى أسبانيا ، للتعبير عن طابع الزهد ، والروح الجهادية التى غلبت على عصر هذه الدولة ، وتبريرا لاسقاط دويلات الطوائف التى تسبب وجودها فى تجرؤ الدول المسيحية على أراضى المسلمين وفى انحسار رقعة الاسلام فى الأندلس ، ولم يكن كسبا لتأييد شعبى أو التماسا لسند شرعى يدعم لصاحبه سلطانه ، فقد جاء التسويد المرابطى من منطلق القوة ، وبعد سنوات من انتصار المرابطين فى الزلاقة . ويذكر صاحب الحلل الموشية نصا يشير الى أن ابن تاشفين لم يكن يطمع فى التلقب بألقاب الخلافة ، فعندما طالبه بعض أصحابه باتخاذ لقب أمير المؤمنين قال : « حاشا لله أن نتسمى بهذا الاسم ، وانما تسمى به خلفاء بنى العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، ولأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة ، وأنا راجلهم ، والقائم بدعوتهم » (٥٦) . ولهذا اكتفى يوسف بن تاشفين بأن يتلقب بأمير المسلمين وناصر الدين ، وهو لقب خلعه على نفسه فى سنة ٤٦٦هـ (١٠٧٣م) دون

---

(٥٥) راجع التفاصيل فى : السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الاسلامى ، ص٥٨٠ وما بعدها .

(٥٦) مجهول ، كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، طبعة تونس ، ص١١ .

الرجوع الى الخليفة العباسى ، وسنرى أن الخليفة لم يخاطبه فى رسالته بهذا اللقب ، ويعنى هذا أنه لم يقره عليه . والمعروف أن يوسف أصدر لهذا اللقب منشورا رسميا أورد صاحب الحلل الموشية نصه (٥٧) .

وأعتقد أن تسويد يوسف بن تاشفين كان نابعا من رغبته الملحة فى اسقاط ملوك الطوائف عن عروشهم واعادة دولة الاسلام فى الأندلس الى سابق قوتها ووحدتها . فقد صبر يوسف طويلا على سفه ملوك الطوائف وسلوكهم المشين فيما بينهم ، وصبر على استهتارهم بالقيم الدينية ، واستعانتهم بعضهم على بعض بقوى المسيحية فى أسبانيا ، ويؤكد ابن خلدون أن المرابطين لم يقدموا على قتل المتوكل عمر بن الأفطس وولديه الا بعد أن ثبت لديهم مداخلتهم لألفونسو السادس مقابل التخلى عن بعض حصون المملكة الأفطسية له (٥٨) ، وكان قد بلغ ابن تاشفين وهو بحاضرته مراكش أن الأمير عبد الله الزيرى صاحب غرناطة ، اتفق مع البرهانش وكيل الفونسو السادس فى جهات غرناطة والمرية ، وتعاقد معه على نصرته مقابل ثلاثين الف دينار يقدمها له ، كما ثبت ليوسف بن تاشفين تعاون ابن رشيق صاحب مرسية مع النصارى أثناء حصار المسلمين لحصن لييط بشرق الأندلس (٥٩) . كان ذلك الدافع الرئيسى الذى أدى الى اقدام ابن تاشفين على استئصال ملوك الطوائف والاطاحة بعروشهم ، غيرة على دولة الاسلام فى الأندلس ، ورحمة باهل الأندلس الذين ابتزهم ملوكهم بغير حق وأرغموهم على بذل الأموال ليقدمها هؤلاء الأمراء والملوك للملوك المسيحية ، وبحجة أنه لاينفى للمسلمين قتال الروم ويتركوا وراءهم الأعداء ممن يواسى عليهم معهم (٦٠) . ويؤكد ذلك ما ورد فى رسالة الامام أبى حامد الغزالى الى يوسف بن تاشفين وتتضمن فتوى بشرعية تصرفاته مع ملوك الطوائف ، من ذلك قوله : « ... بسبب

---

(٥٧) نفس المصدر ، ص١٨ ، ١٩ .

(٥٨) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٦ ص١٨٧ .

(٥٩) ابن بلقين ، مذكرات الأمير عبد الله الزيرى المسماة بكتاب « التبيين » ، تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥ ص١٧٥ .

(٦٠) نفس المصدر ، ص١٧٥ .

استيلاء اهل الشرك وامتداد أيديهم الى اهل الاسلام بالسبى والقتل والنهب ، وتطرقهم الى اهتضام أهل الاسلام بما حدث بينهم من تفرق الكلمة ، واختلاف آراء الثوار (أى ملوك الطوائف) المحاولين للاستبداد بالامارة ، وتقاتلهم على ذلك ، حتى اختطف من بينهم حماة الرجال ، بطول القتال والمحاربة والمنافسة ، وافضاء الأمر بهم الى الاستنجاد بالنصارى حرصا على الانتقام ، الى أن أوطنوهم بيضة الاسلام ، وكشفوا اليهم الأسرار ، حتى اشرفوا على التهايم والأغوار ، فرتبوا عليهم الجزا ، وجزوهم بشر الجزا . ولما استنفذوا من عندهم الأموال ، أخذوا فى نهب المناهل ، وتحصيل المعاقل ، واستصرخ المسلمون عند ذلك بالأمير ناصر الدين وجامع كلمة المسلمين ... عن مداراة المشركين ، فلبى دعوتهم .... وذكر أن أولئك الثوار لما أيقنوا قوة الأمير ناصر الدين ، وغلبته لحزب المشركين ، وسألهم رفع المظالم عن المسلمين ، التى كانت مرتبة عليهم بجزية المشركين ، وامدادهم بمالهم ، مداراة لبقاء امرتهم ، عادوا الى ممالأة المشركين ، وألقوا اليهم القول فى جهة الأمير ، وجرأوهم على لقائه ، وصح ذلك عنده وعند المسلمين ، فسأله المسلمون عند ذلك انزال هؤلاء الثوار عن البلاد ، وتداركها ومن فيها من المسلمين قبل أن يسرى الفساد ، ففعل ذلك ، ولما تملكها رفع المظالم ، واظهر فيها من الدين المعالم ، وبدد المفسدين ، واستبدل بهم الصالحين ، ورتب الجهاد ، وقطع مراد الفساد ... » (٦١) .

وكان يوسف بعد أن تحقق له توحيد الأندلس بخلع ملوك الطوائف ، وربطها بدولته فى المغرب ، وقد عاد الى حضرة ملكه وجمع الفقهاء وأحسن اليهم ، فقال له علماء الأندلس : « انه ليست طاعته بواجبة حتى يخطب للخليفة ، ويأتيه تقليد منه بالبلاد » ، فأرسل الى الخليفة المقتدى بأمر الله ببغداد ، فأتاه الخلع والأعلام والتقليد (٦٢) ، ومنذ ذلك الحين اتخذ المرابطون

---

(٦١) مجموعات وثائقية دورية تصدرها مديرية الوثائق الملكية ، المجموعة الأولى ، وثيقة ٧٣ ، الرباط ١٣٩٦هـ ، ص٢٠٥ وما يليها .

(٦٢) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، طبعة صادر — بيروت ، ١٩٦٦ ، ج ١٠ ، ص١٥٥ .

السواد شعارا لهم فى ملابسهم واعلامهم (٦٣) ، وهـذا يعنى أن الأعلام والخلع والتقليد وافته قبل سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) التى توفى فيها المقتدى بالله العباسى (٦٤) • ويفهم من اجتماع يوسف بن تاشفين بعلماء الأندلس أن أمرا ما خطيرا تعرض له يوسف وأراد أن يشرك فيه علماء الأندلس ويطلب مشورتهم بشأنه ، فأفتوه بسرعة التماس التقليد والخلع والأعلام ، واعتقد — كما سابين فيما بعد — أن المسألة تتعلق بشرعيته فى حكم الأندلس بعد أن اقدم على اسقاط ملوك الطوائف •

وأيا ما كان الأمر ، فقد ضرب يوسف بن تاشفين بأغمات الدينار المرابطى الجديد بعد وصول التقليد والخلع بطبيعة الحال ، وقد وصل الينا دينار مرابطى ضرب فى أغمات سنة ٤٨٧هـ (٦٥) نقوشه الكتابية كما يلى :

مركز الوجه	**مركز الظهر**
الامام	لا اله الا الله
عبد	محمد رسول الله
الله	الأمير يوسف بن
أمير المؤنين	تاشفين

ونقش فى دائرة الوجه « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » ويذكر ابن خلدون أن يوسف كتب ، فى شأن تقليده ، الى الخليفة المستظهر بالله ولد المقتدى بالله، وخلفه ، وانه بعث اليه فى ذلك الغرض سفارة ، على رأسها الفقيه عبد الله بن محمد بن العربى المعافرى الاشبيلى وولده القاضى الحافظ ابو بكر بن العربى ، فى سنة

---

(٦٣) احمد مختار العبادى « نظام الخلافة فى المغرب الاسلامى فى العصور الوسطى » فصله من كتاب فلاسفة الاسلام فى المغرب العربى ، ص١٥٦ •

(٦٤) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، القسم الأول ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص٤٠ •

(٦٥) La voix, Catalogue des monnaies musulmanes, p. 202. No. 516.

٤٨٥هـ ، فتلطفا فى القول وأحسنا فى الابلاغ ، وطلبا من الخليفة أن يعهد ليوسف على المغرب والأندلس ، فصدر له عهده بذلك ، وعاد أبو بكر الى المغرب ومعه التقليد بولاية يوسف على ما تحت نظره من الأقطار والاقاليم (٦٦)، فأذيعت محتويات هذا التقليد بين الناس . وأعتقد — مع ذلك — أن السفارة التى ذكرها ابن خلدون انما تتعلق باستصدار فتوى بشرعية يوسف فى اسقاط عروش ملوك الطوائف كما سبق أن أوضحت ، وقد تحقق ذلك فى رسالة أبى حامد الغزالى ، سالفة الذكر ، ثم استصدار تقليد من الخليفة العباسى بتوليه ما كان يتولاه بالفعل من المغرب الأقصى والقسم الغربى من المغرب الأوسط ، وما انضاف الى ذلك فى الأندلس بعد اسقاط دويلات الطوائف باستثناء بنى هود بسرقسطة ، وأعتقد أن سبب اهتمام يوسف بن تاشفين بالتقليد المذكور والفتوى أن ملوك الطوائف كانوا قد طعنوا فى شرعية امارته ، وزعموا أن طاعته غير واجبة لأنه لس من قريش ، وكتبوا الى ملك قشتالة وزعماء النصارى فى اسبانيا رسائل بهذا المعنى ، وقع بعضها بين يدى يوسف . وهذا يفسر اجتماعه بعلماء الأندلس فى مراكش ، واستشارته لآرائهم ، فأفتوه بارسال سفارة الى الخليفة العباسى لالتماس تقليد خلافى بحكم ما بنظره بالاضافة الى الأندلس . وقد اجتمع الفقيه عبد الله بن العربى وولده أبو بكر سفيرا يوسف بن تاشفين الى بغداد بأبى حامد الغزالى وأبى بكر الشاشى وغيرهم ، وأوضحا لهم جهاد يوسف لنصارى الأندلس ، وجهوده فى توحيد كلمة المسلمين ؛ واستطاع ابن العربى أن يستصدر فتوى الغزالى لصالح يوسف ، وتقليده من الخليفة المستظهر العباسى بتوليته على ما بيده وتحت نظره من الأقطار . وقد كتب كل من الامام الغزالى (٦٧) والقاضى أبو بكر الطرطوشى (٦٨) الى يوسف رسالة يدعوه الطرطوشى فيها الى تطبيق العدالة والتمسك بالخير ، ويفتيه الغزالى

---

(٦٦) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٦ ص١٨٨ — عنان ، المرجع السابق ، ص٤٢ .

(٦٧) وثيقة رقم ٧٣ من « مجموعات وثائقية دورية » ، الرباط ، ١٣٩٦هـ

(٦٨) وثيقة رقم ٧٤ من نفس المجموعة .

بشأن ملوك الطوائف . والمعروف أن الفقيه ابن العربى وولده قد رحلا الى بغداد فى مستهل ربيع الأول سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) ، وواضح أن رسالة الغزالى كتبت قبل سنة ٤٩٣هـ والتى توفى فيها ابن العربى بثغر الاسكندرية ، فعاد ابنه أبو بكر الى المغرب فى نفس السنة ومعه الرسالة والتقليد العباسى الصادر من المستظهر بن المقتدى بالله ، يقره فيه على حكم المغرب والأندلس .

ولابد لنا ، بعد هذا العرض ، أن نميز بين سفارتين : الأولى كان يوسف قد أرسلها الى المقتدى بأمر الله قبل سنة ٤٨٥هـ ، ويطلب فيها الأعلام والخلع والتقليد بحكم المغرب ، فوافاه ذلك قبل سنة ٤٨٧هـ التى توفى فيها المقتدى، والثانية ، ومثله فيها ابن العربى وولده بعد سنة ٤٨٥هـ ، وكان هدفه اقرار الخليفة العباسى سواء المقتدى بالله أو المستظهر بالله الذى خلفه ، بحكم المغرب والأندلس ، واستصدار فتوى من كبار الأئمة بشرعية ما أقدم عليه بالفعل منذ سنة ٤٨٣ وحتى ٤٨٨ (التى نفى فيها المعتمد وآله الى اغمات، وقتل المتوكل وولديه) من عزل ملوك الطوائف والجهاد فى الأندلس ، ومن المؤكد فيه أن الخليفة المقتدى كان قد أقر يوسف على امارة المغرب ، وأنه أرسل اليه التقليد والخلع والألوية ، ولكنه لم يخاطبه بلقب أمير المسلمين الذى كان قد تلقب به يوسف منذ سنة ٤٦٦هـ (٦٩) . وهناك رسالة أخرى صادرة من الخليفة العباسى المستظهر بالله الى على بن يوسف بن تاشفين ، لم يخاطبه فيها بلقب أمير المسلمين (٧٠) .

وبقيت بعد ذلك حالتان ارتفعت فيهما الألوية السوداء شعار الخلافة العباسية : احداهما حدثت فى المغرب الأدنى والأوسط فى عهد يعقوب المنصور ، والثانية فى شرق الأندلس فى نهاية عصر هذه الدولة . أما الحالة

---

(٦٩) الحلل الموشية ، ص١٨ ، ١٩ .

(٧٠) حسين مؤنس ، سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم فى الأندلس ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الثانى ، ١٩٥٤ ، ص٦٦ — ٦٨ .

الأولى فتتعلق بالأمير على بن اسحاق بن محمد بن غانية المسوفى صاحب ميورقة ، واحد المخلصين لدولة المرابطين البائدة ، وكان قد خرج بأسطول ميورقة فى سنة ٥٧٩هـ بعدأن آلت اليه امارة الجزائر الشرقية اثر وفاة ابى ابراهيم اسحاق بن محمد بن غانية (٧١) ، متجها الى العدوة ، ثم قصد مدينة بجاية عندما راسله جماعة من اعيانها ، وهناك وجد ابن غانية واتباعه الميورقيون فى افريقية حلفاء جمعتهم بهم الظروف السياسية وقتئذ والهدف المشترك ، وهو القضاء على نفوذ الموحدين فى افريقية والمغرب الأوسط ، والدعوة باسم الخليفة العباسى . هؤلاء الحلفاء هم عرب بنى هلال وسليم ورياح وزغبة ثم المماليك الغز أتباع بهاء الدين قراقوش الأسدى التقوى ، مملوك تقى الدين عمر ابن اخى صلاح الدين . ولم يلبث على بن اسحاق أن دخل بجاية فى ٦ شعبان من تلك السنة ، واقام بها سبعة أيام ، صلى خلالها صلاة الجمعة ، ودعا فى الخطبة لبنى العباس ثم للامام أبى العباس أحمد الناصر (٧٢) . ثم بعث على بن اسحاق ابنه مع كاتبه عبد البر بن مرشان الى الخليفة العباسى يلتمس منه الخلع والأعلام السوداء (٧٣) . ولم يكن ابن غانية يبغى من وراء السواد كسبا أدبيا أو شرعيا يعتمد عليه فى حكم افريقية بقدر ما كان يهمه أن يحافظ على التقاليد المرابطية فى اظهار الولاء للعباسيين ، فكان كلّ هدفه أن يحرر المغربين الأدنى والأوسط من السيطرة الموحدية ، ويقيم على تلك المناطق السيادة المرابطية ، التى تتمثل فى السواد أو التبعية الاسمية للخلافة العباسية .

وأما الحالة الثانية ، فتتعلق بسيف الدولة أبى عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامى ، الذى ينتمى الى بنى هود أصحاب سرقسطة فى عصر

---

(٧١) هو مؤسس أسرة بنى غانية أصحاب الجزائر الشرقية : ميورقة ومنورقة ويابسة ، وينتسبون الى محمد بن على المسوفى المعروف بابن غانية والد اسحق المذكور ، وكان قد استقل بمملكة الجزائر الشرقية وضبطها لنفسه ، وأقام فيها جاريا على أمر لمتونة الأول ، داعيا لبنى العباسى (عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى اخبار المغرب ، تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص٣٤٤) .

(٧٢) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص٣٤٧ .

(٧٣) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الاسلامى ، ص ٧١٧ .

الطوائف ، وكان قد استقل بمرسية ثم خطب للعباسيين واتخذ السواد شعارا (٧٤) . ولم يلبث ابن هود ابن بسط سلطانه على معظم شرق الأندلس بالاضافة الى عدد من مدن الأندلس الجنوبية والجنوبية الغربية ، ومن بينها مالقة والمرية وغرناطة وجيان والجزيرة الخضراء وقرطبة وبطليوس وماردة وأخيرا اشبيلية (٧٥) .

وكان ابن هود قد شرع حركته فى رجب سنة ٦٢٥هـ (١٢٢٨م) عندما تمكن من ايقاع الهزيمة بالسيد أبى العباس بن أبى عمران موسى بن يوسف بن محمد بن يوسف الموحدى ، وكان يتولى بلنسية ، فخرج اليه بقوات بلنسية ، فهزمه ابن هود ، واستولى على محلته ، ثم دخل ابن هود مرسية وهو يرفع راية سوداء عباسية ملتمسا من وراء رفعها جمع صفوف المسلمين وراء رمز اسلامى روحى ، وتكوين جبهة اسلامية متحدة يمكنها أن تواجه العواصف والأنواء التى اثارها الدفع السريع لحركة الاسترداد المسيحى آنذاك للاطاحة بدولة الاسلام فى الأندلس فى أعقاب انهيار دولة الموحدين ، وكانت هذه الحركة موجهة من مملكة أرغون نحو شرق الاندلس ، ومملكة قشتالة وليون نحو جنوب الأندلس ، ومملكة البرتغال نحو غرب الأندلس ، فالهدف اذن من التسويد التأييد الشعبى الأندلسى وخلق جبهة للتصدى أمام الضغوط النصرانية ، ولم شعث ما تبعثر من قوى الاسلام فى الأندلس على أثر هزيمة الموحدين فى العقاب (٧٦) . وأصبح

---

(٧٤) عبد الواحد المراكشى ، المصدر ، ص٤١٧ .

(٧٥) دخلت اشبيلية فى طاعة ابن هود فى سنة ٦٢٩هـ (السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة الأموية فى الأندلس ، بيروت ١٩٧٠ ، ح ١ ص١٥٢ — تاريخ مدينة المرية الاسلامية قاعدة أسطول الأندلس ، بيروت ١٩٦٩ ص٩٩) .

(٧٦) يعتقد الأستاذ محمد عبد الله عنان أن فكرة ابن هود فى الانضواء تحت راية الخلافة العباسية أن يتشح بثوب من الشرعية فى انتحال الولاية وفى محاربة الموحدين ، بدليل أنه أعلن أنه سوف يعمل على تحرير الأندلس من نير الموحدين ومن عدوان النصارى معا ، وأنه سوف يعمل على احياء الشريعة وسننها وبعدما دزست فى ظل الموحدين (انظر : محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، القسم الثانى ، ص ٣٩١) .

رفع الشعار الأسود يرمز للمجتمع والوحدة والصمود . ونجح ابن هود في اجتذاب الجماهير وراءه ، ثم بويع له في مرسية في أول رمضان سنة ٦٢٥هـ ، فدعا للخليفة المستنصر بالله العباسي ، وكتب اليه يلتمس الخلع والتقليد والأعلام (٧٧) ، فبعثها اليه ، وسماه « مجاهد الدين ، سيف امير المؤمنين ، عبد الله المتوكل على الله » ، وعرف ابن هود في المصادر الاسبانية بسيف الدولة Zafadola . وفي نفس الوقت الذي قام فيه ابن هود بتوحيد شرق الأندلس قامت في بلنسية ثورة أخرى تزعمها رئيس من سلالة بني ابن مردنيش الذين ناوءوا سلطان الموحدين في شرق الأندلس في عهد عبد المؤمن بن على ، وفي عهد ولده أبي يعقوب يوسف ، هو أبو جميل زيان بن أبي الحملات مدافع بن يوسف بن سعد بن مردنيش في سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م) ، فبعد أن انهزم السيد أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن يوسف الموحدى أمام ابن هود في مرسية ، اضطرمت الثورة في بلنسية ، والتف اهل المدينة حول أبي جميل زيان الذي ذكرهم برئيسهم القديم ابن مردنيش ، فنادوا برئاسته ، وكان أبو جميل هذا وزيرا للسيد أبي زيد والي بلنسية ، ولم يسع هذا الأخير الا ان يرحل عن بلنسية أمام الهيج في أوائل صفر سنة ٦٢٦هـ ، ولاذ ببعض الحصون القريبة ، وعندئذ قدم أبو جميل من مقره بحصن أنده ، فدخل المدينة في ٢٦ صفر سنة ٦٢٦هـ ، ونزل بالقصر ، وعقد البيعة لنفسه في غرة ربيع الأول ، وحذا حذو ابن هود ، فدعا للخليفة

---

(٧٧) جاء في مخطوطة شواهد الخلة والأعيان في مشاهير الاسلام والبلدان ، لأبي بكر محمد بن العربي المعافرى ، المحفوظة بالخزانة الملكية بالرباط ، تحت رقم ١٠٢٠ د ، أن ابن هود كتب الى خليفة بغداد ، فكتب له الخليفة « التقديم على بلاد المغرب وبعثها له مع الخلعة التي مسحت ببردة النبي صلى الله عليه وسلم المعروفة لبنى العباسى . قال : وفي يوم الجمعة الخامس عشر (من رمضان) قرىء التقليد الشريف الذي خطت فيه يمين ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم علامته المنيرة المشرفة ... وخرج المتوكل في الخلعة الواصلة بالسواد المعروف لخلافة بنى العباسى » (نسخة ميكروفيلم رقم ١١٩٨ بمكتبة مركز البحث العلمي واحياء التراث الاسلامي ، كلية الشريعة جامعة أم القرى بمكة المكرمة) .

العباسى المستنصر بالله ، ودخلت فى طاعته دانية وجنجالة وعدد من الحصون ، وذاع أمره (٧٨) وظل اميرا على بلنسية الى أن سقطت هذه المدينة فى يد خايمى الأول ملك أرغون بعد حصار طويل فى ١٧ صفر سنة ٦٣٦ هـ .

وهكذا كانت الألوية السوداء والسواد فى المغرب والأندلس وسيلة لشرعية الولاية أو شعارا للانفصال السياسى أو المذهبى عن السلطات الحاكمة ، أو اقرارا بالتبعية الاسمية للخلافة العباسية بهدف لم الشمث ، والوحدة ، فى ظل رمز روحى هو الدعوة للخليفة العباسى .

---

(٧٨) محمد عبد الله عنان ، ص ٣٩٤ وما يليها .

الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب
فى العصور الوسطى

للدكتور زأفت عبد الحميد ـ أستاذ تاريخ العصور
الوسطى المســــاعد بآداب عين شمس

الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب

فى العصور الوسـطى

وصفت المانيا فى القرن السابع عشر ؛ بأنها « فوضى شاءتها العناية الالهية » ! وما ذلك القول عن ادراك الدارسين لتاريخ المانيا ببعيد ... ولا غلواء فيه ولا غرابة ؛ فقد تشكلت المانيا آنذاك مما يزيد عن ثلاثمائة دويلة وكيان سياسى ! .

فعلى الحدود الغربية عند الراين لا نجد الا أطلالا لولايات كانت تعد فى الماضى هـامة ، مثل بادن وورتمبرج .. أما الألزاس واللورين فقد وقعتا فى قبضة الفرنسيين منذ أواخر القرن ذاك . على حين تبدت الفوضى بعينها فى الولايات الكنسية الواقعة على الراين أو بالقرب منه ، حيث كان رجال الاكليروس يمارسون حكما يفتقر تماما الى الكفاية والاقتدار ، ويفسح الطريق فى يسر وسهولة أمام ضربات الجيران الأقوياء . بينما كان الشرق يبدو متماسكا وعلى قدر من القوة ، متمثلا فى هانوفر وسكسونيا ، والى الجنوب عند أعالى الدانوب توجد بافاريا ، الشديدة التمسك بكاثوليكيتها ، والتى تملكتها الغيرة الشديدة من جارتها الشمالية القوية ، بروسيا .

على هذا النحو كانت المانيا — أو بتعبير أدق — ما يسـمى المانيا فى القرن السابع عشر ، وبانت كذلك أيضا على امتداد القرن الثامن عشر ، خليطا غريبا يجمع بين دول كبرى ودويلات صغرى ، علمانية وكنسية ، حرة واستبدادية ، ولم يكن ثمة فوق هذا الخليط المتلاطم سـلطة فعالة على الاطلاق ؛ فالامبراطور كان اسما كبيرا فحسب ، والامبراطورية كانت كيانا شرفيا ، لا قوة تستطيع السيطرة على زمام الأمور ، ذلك أن السـلطة الحقيقية لم تكن تتمثل فى الامبراطورية ككل ، وانما فى أجزائها المختلفة ، وفى حكام الدويلات التى تتكون منها الامبراطورية ، مثل النمسـا وبروسيا وبافاريا وهانوفر وسكسونيا وغيرها . وهكذا كانت المانيا فى مجموعها وفى أجزائها ، تعانى من التفسخ السياسى ، وتعجز بل وربما ترغب عن ابداء

اية مقاومة جدية فعالة تجاه نوايا جارتها القوية الطامعة .. فرنسا . حتى نعتها فولتير بسخريته اللاذعة بأنها « ليست امبراطورية ولا رومانية ولا مقدسة » . وان كان ما يعنينا هنا الآن فقط .. الشق الأول من هذا النعت « الثلاثى » .. أعنى الامبراطورية .

غير أن الذى يدعو للعجب والاعجاب فى الوقت نفسه ، أنه رغم هذه الفوضى السياسية الضاربة اطنابها فى ألمانيا ، الا أن النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، شاهد ازدهارا رائعا للفكر والفن الألمانيين ؛ فقد ظهرت منذ منتصف ذلك القرن حركة بعث قومى عظيمة فى هذين المجالين ، كان المساهمون الرئيسيون فيها « لسنج » Lessing و « جوته » Goethe و « شيلر » و « كانت » Kant . وفى الموسيقى رفع خلفاء « باخ » الذين يؤلفون صفا من المشاهير يضم « هايدن » و موزارت و « بيتهوفن » رأس البلاد التى تتحدث الألمانية عاليا فى أوروبا . ولا شك أن ما أبدعه هؤلاء المفكرون والفنانون يقف على النقيض من الضعف السياسى للدويلات الألمانية فى تلك الفترة .

وفى آخر سنى القرن الثامن عشر ، فى أعقاب الحرب التى نشبت بين فرنسا الثورة ، وألمانيا ، وانتهت بهزيمة الأخيرة ، وانسحاب كل من بروسيا والنمسا وعقد صلحين منفردين فى عامى ١٧٩٥ و ١٧٩٧ على التوالى ، ثم فرض تسوية من جانب فرنسا وحليفتها روسيا ، أمليت فيها شروطهما وعقدتا المعاهدات مع كل دولة على حدة ، وانتهى الأمر فى فبراير ١٨٠٣ بقبول الريشستاغ الألمانى لهذه التسوية التى غيرت الى حد كبير وجه الخريطة الألمانية ؛ فقد اختفت من الوجود مائتا واثنتا عشر دويلة ابتلعتها جاراتها الكبيرة ، وتوارى تماما معظم فرسان الامبراطور وجميع المدن الامبراطورية عدا ست منها ، وازيلت الولايات الكنسية باستثناء ميتز ، وان كان قد بقى الفرسان التيوتون وفرسان القديس يوحنا بعض الوقت .

لم يمض على ذلك أكثر من ثلاث سنوات ، حتى اقدم الامبراطور الفرنسى نابليون ، والذى كان قد بلغ أوج مجده آنذاك ، على اتخاذ قرار

من جانبه بقيام اتحاد الراين ، ودعا حكام المانيا لاعلان انضمامهم أو رفضهم في غضون أربع وعشرين ساعة . وكان هذا التنظيم يقوم على أساس انشاء اتحاد من بعض الدول Confederation لا قيام دولة اتحادية . وفى السادس من اغسطس ١٨٠٦ أعلن الامبراطور فرنسوا الأول تخليه عن اللقب الامبراطورى القديم ، فانتهت بذلك الامبراطورية الألمانية ، أو ما ذاع فى التاريخ باسم الامبراطورية الرومانية المقدسة ! .

غير أن هذا الاتحاد « الممسوخ ، الذى قصد به أساسا فرض «الحماية» الفرنسية على المانيا ، لم يقدر له أن يعمر طويلا ، اذ سرعان ما انحل بزوال سلطان نابليون ؛ ولم يكن « الاتحاد » الذى رسمه مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ باحسن حظا من قرينه ، وان كان العدد الاجمالى للدويلات الألمانية الداخلة فى هذا « الاتحاد » الأخير أو بعبارة ادق ، هذا « المجمع » أو « الديت » Diet قد هبط الى تسع وثلاثين ، لكل منها حق مباشرة سياستها الخارجية بنفسها ، وأن تمنع وحدها اجازة وتنفيذ كل قرار هام يتخذه هذا المجلس التعاهدى ، وباختصار ، لم يكن ثمة رابطة سياسية بين الولايات المنتظمة فى هذا « الديت » . ولا شك كانت العلة الكبرى لهذه المحنة ناجمة عن اختلاف الألمان انفسهم فيما بينهم فى رسم خطة انشائية لمستقبل بلادهم . فالبعض منهم يصبو الى قيام دولة المانية تحت حكم بروسـيا ، والبعض الآخر يرمى الى دولة المانية تدين بالولاء للتاج النمساوى ، وثالث يروم اتحادا تعاهديا تستطيع فيه النمسا وبروسيا والولايات الصغرى ، أن تكون فرقا متكافئة تتبادل التعاون فيما بينها . وهكذا لاحت المانيا كأنها تتحرك وتسير فى ضباب فلسفى ، أو كما وصفها المؤرخ الفرنسى ميشليه Michelet بأنها « آسية أوروبا » ! .

ولا شك كانت فرنسا والنمسا هما أكثر الدول الأوروبية افادة من هذا الوضع المتردى فى المانيا ؛ الأولى ضمنت عدم قيام دولة قوية عـلى حدودها الشرقية ، والثانية اطمأنت الى سيادتها على هذه المنطقة ، وكان هذا مما آذى مشاعر الألمان ؛ خاصة وأن النمسا لم تكن من قبل سـوى

دوقية أوستريا Austria التى تشاكلت بصورة رسمية فى منتصف القرن الثانى عشر عـلى يد فردريك بربار وسـا (١) Frederick Barbarossa وكان هذا دافعا لبروسيا ، ذات الطبيعة الاسبرطية ، العسكرية ، والتى وجدت فى التآلف بين فرنسـا والنمسا اعتداء عـلى حقوق كانت تدعيها بالزعامة ، كى تتحين الفرصة السانحة لتأكيد زعامتها تلك ، وساعدتها الظروف بتولى بسمارك Bismarck منصب المستشارية فيها .

وعبر أحداث طويلة وجهود مضـنية بذلها الرجل ، ولا مكان هنـا لذكرها ، كان يهدف بها أساسا الى توحيد ألمانيا بزعامة بروسيا ، خاض حربين حاسمتين ؛ الأولى ضد النمسا فى عام ١٨٦٦ ، تمكن على اثرها فى العام التالى من توحيد شمالى المانيا ، والثانية سنة ١٨٧٠ ضد فرنسا ، وهى التى ذاعت شهرتها بالحرب السبعينية ، تمخضت عن قيام الاتحاد الألمانى ، أو الامبراطورية الألمانية . وعلى الرغم من ذلك ، فان الذى يعنينا ، أنـه رغم وجود اناس عديدين رأوا أن الوقت مناسب لاقامة دولة مركزية قوية فى المانيا ، فان بسمارك لم يكن واحدا منهم ! فقد كان يردد دائما « اننا لا نروم أن تنضم الينا بافاريا وهى غير راضية ، بل نبتغى دولة تنضـم الينا بملء اختيارها وحريتها » . ويدرك أن هذه « الذاتية » المتمثلة بوضوح فى الدويلات الألمانية تضرب فى الأرض بجذورها وصـولا الى العصـور الوسطى ، وعبر عن ذلك صراحة بقوله : « ان السلطة المطلقة للأمراء كانت اكتسابا جذريا تحقق على حساب الدولة ووحدتها » (٢) .

ومن هنا كان سلوكه تجاه الدول الألمانية فى الجنوب بعد الحـرب السـبعينية ، لكى يجعلها تقبل على الاتحاد وهى راضـية ؛ وفيما يتعلق ببافاريا بصفة خاصـة ، كان على استعداد أن يمنحها حقوقا واسعة :

---

(١) Thompson and Johnson, An introduction to Medieval Europe, p. 394.

(٢) Mayer, The historical foundations of the German Constitution, p. 30.

كالهيمنة على جيشها أيام السلم ، واسماع صوتها فى الشئون الخارجية ، وتخويلها نظاما مستقلا للبريد والتغلراف . وهـــذه كلها تمثل بشىء من التفاوت بمقتضى التطور التاريخى ، حقوق الأمراء الألمان فى العصـــور الوسطى . وليس ثمة ما هو أدل على حكمته ونفاذ بصيرته من ان ملك بافاريا رضى أن يضع بنفسه التاج الامبراطورى على مفرق وليم الأول ملك بروسيا فى حفل تتويجه امبراطورا على المانيا . وان يكن الدستور الألمانى الجديد الذى صدر فى عام ١٨٧٣ قد جاء مؤكدا « للذاتية » أو روح «الانفصالية» الكامنة فى الأرض الألمانية ، بل لقد دعي رئيس الاتحاد أو الامبراطور : القيصر الألمانى ، وليس قيصر المانيا . وتلك لها مغزاها العميق الدال على حقيقة الاتحاد . ولم يكن « القيصر » يستمد سلطته من كونه « رئيسا للاتحاد الألمانى » ، بل من كونه ملكا على بروسيا . لقد كان الأمر — على حد تعبير المؤرخين : جرانت Grant وتيمرلى Temperley « اشبه بشرذمة من الحيوانات المنتظمة فى سرب للصيد ، يتصدرها جميعا ذئب رمادى ضـــخم هو بروســـيا ، يجرى فى أعقابه أبناءآوى من أمثـــال بافاريا وسكسونيا وفر تمبرج ، ويسير فى ركابه خمسة وثلاثون حيوانا أصغر ، تتفاوت أحجامها بين الجرذان الكبيرة والفئران الصغيرة » .

بل ان الحال حتى ثلاثينيات القرن العشرين ، لم تختلف كثيرا عنهـــا فى القرون التى سبقتها الى قلب العصور الوسطى ، عندما علت من جديد نغمة « الانفصالية » بين الفيدراليين وأنصار الدولة الموحدة ، وانصبت الاتهامات على رأس مؤسس الاتحاد الألمانى فى القرن التاسع عشر ، وعلى بروسيا . مما دفع الزعيم النازى هتلر أن يكتب فى كتابه « كفاحى » مدافعا عن سلفه بســـمارك ، مؤكدا أن الرجل كـــان يعلم يقينا حقيقة النزعات الانفصالية فى دويلات المانيا ودويلاتها آنذاك ، وأنه « أحل هذه الحقائق محلها من التقدير ، فجعل تمثيل دول الاتحـــاد فى مجلس « البوندسرات » متناسبا وأهمية كل منها ، ولزم جانب الحكمة والاعتدال فى تعزيز ســـلطة الاتحاد على حساب الدويلات التى يتألف منها ، فما أخذ منها الا ما كان الاتحاد بحاجة ماسة اليه ، وحرص فى الوقت نفسه على احترام العادات

والتقاليد المحلية .. لقد آثر المستشار الحديدى مداراة الدويلات الألمانية تاركا للزمن أن يكمل ما بدأه هو ، لأن الطفرة غير مأمونة العواقب ، فدلل بهذا النهج القويم على بعد نظره وسلامة منطقه » (٣) .

والباحث فى تاريخ ألمانيا عبر هذه القرون الطوال من ماضيها الى العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين ، يجد نفسه مواجها بعلامة استفهام كبيرة .. كيف وصل الحال بألمانيا حتى أوليات هذا القرن الى تلك الحالة من الاعتزاز بـ « الذاتية » أو حتى « الانفصالية » ، والتى صدق عليها قول المؤرخ طومسون : « ان الفا من السنين ويزيد قد شهد محاولات جادة أخرى لإضعاف ولاء الألمانى تجاه نزعته القبلية ، فالبافارى أو السكسونى كان يميل دائما الى اعتبار نفسه هكذا ، على أن تدعوه ببساطة ألمانيا » (٤) . والذى يزيد الأمر حيرة أنه فى الوقت الذى بدت فيه فرنسا وبريطانيا فى القرن العاشر الميلادى ملكيات مهلهلة ، كانت ألمانيا تشكل أقوى دولة أوروبية

---

(٣) للوقوف على تفاصيل هذه الأحداث ، والحال التى آلت اليه ألمانيا عبر هذه القرون من الثامن عشر حتى العشرين ، والتى عرضنا لها فى هذه الصفحات السالفة فى ايجاز شديد ، كنتيجة حتمية ، ومقدمة طبيعية لألمانيا العصور الوسطى ، يمكن الرجوع الى هذه الكتب :

ـــ بول هازار ، الفكر الأوروبى فى القرن الثامن عشر ، جزءان . ترجمة الدكتور محمد غلاب ، القاهرة ١٩٥٨ ـــ ١٩٥٩ ؛ بيير رنوفان ، تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥ ـــ ١٩١٤ ، ترجمة الدكتور جلال يحيى . القاهرة بدون تاريخ ؛ جرانت وتمبرلى ؛ تاريخ أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين . جزءان . الجزء الأول ترجمة بهاء فهمى ، القاهرة . بدون تاريخ ؛ فيشر ، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ١٧٨٩ ـــ ١٩٥٠ . القاهرة ١٩٥٨ ؛ هتلر ، كفاحى ، ترجمة لويس الحاج . بيروت ١٩٦٨ ؛ دكتور محمد كامل ليلة ، النظم السياسية ، القاهرة ١٩٦٣ . ومن الجدير بالذكر أن مجموعة من فلاحى بافاريا شاركت بحماس فى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وهم يعتقدون انهم ذاهبون لحرب أعدائهم القدامى .. البروسيين ! راجع

Thompson and Johnson, op. cit., p. 353.

(٤) Thompson and Johnson, op. cit., p. 353.

آنذاك ، لكن ما لبث أن تبدل الحال ، فما أن وافى القرن الثالث عشر ، حتى خرجت فرنسا من تجربتها الاقطاعية ملكية قوية ، الملك فيها صاحب السلطة المطلقة . بينما افلح النظام الاقطاعى فى انجلترا ، والمنقول من أرض القارة بصورة منتقاة على يد وليم الفاتح النورمانى وخلفائه الأنجويين ، فى اخراج ملكية قوية مقيدة ، أو بتعبير حديث .. دستورية . منذ صدر العهد الأعظم فى عام ١٢١٥ . هذا على حين أمست المانية ملكية ممزقة ، تتقاذف سفينتها انواء طموحات أمراء الاقطاع من العلمانيين والاكليروسيين على السواء ، هذا على الرغم من أن السمات العامة للنظام الاقطاعى الأوروبى فى العصور الوسطى كانت واحدة ، متمثلة فى انحلال السلطة المركزية لحساب السلطات المحلية ، من جميع النواحى السياسية والعسكرية والاقتصادية والتشريعية (٥).

---

(٥) للمزيد من التفاصيل عن السمات الاقطاعية للمجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى يمكن الرجوع الى الكتب التالية :

H. Pirenne, Economic and Social history of Medieval Europe, pp. 58-66.

G. A. Hodgett, A Social and economic history of Medieval Europe, pp. 24-35.

وايضا F. Ganchof, Feudalism, Hong Kong 1976

وكذلك Stephenson, Mediaval History, pp. 199-241.

P. Vinogradoff, Feudalism, (in C.M.H. Vol. III, pp. 458-484)

وله ايضا بالاشتراك مع الأستاذ كوبلاند ، الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٥٨ . وللاستاذ كوبلاند كذلك . الفنية والاقطاعية (مقال فى تاريخ العالم الذى اشرف على نشره السير جون أ . هامرتن ، المجلد الخامس ، ص ٣ — ٢٢ ؛ دكتور اسحق عبيد : الفرسان والأقنان فى مجتمع الاقطاع ، بيروت ١٩٧٥ ؛ دكتور سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، ج ٢ ص٤٣ — ٨٨ ؛ دكتور ابراهيم العدوى : المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى ، ص١١١ — ١٢٦ . أما عن النظام الاقطاعى فى انجلترا فيمكن الرجوع الى :

F. Barlow, The feudal Kingdom of England, 1042-1216, London 1974.

وايضا D. Douglas, William the conqueror, London, 1969.

هذه التساؤلات التى تطرح نفسها الآن ، تدفعنا دفعا الى أن نعود بفكرنا الى ذلك التاريخ البعيد ، وعلى وجه التجديد عام ٩١١ عندما انتهت سلالة البيت الكارولنجى الحاكم فى الجزء الشرقى من الامبراطورية الكارولنجية، المانيا ، بوفاة لويس الطفل . هنا وجد الأمراء الألمان انفسهم أمام اختيارين لا ثالث لهما ، اما الالتجاء الى فرع الأسرة الآخر فى فرنسا ، واما العودة الى التقليد الجرمانى القبلى القديم باختيـار مليكهم . ولما كان الملوك من أسرة شارلمان ، لم يحققوا لألمانيا خلال نصف القرن الأخير أو يزيد ، الحماية ضد أعدائها الخارجيين ، الذين استباحوها من الشمال والشرق (٦) ، فقـد اثروا اتباع الطريق الأخير ، ورغبوا فى أن يختاروا أوتو Otto دوق سكسونيا القوى ملكا عليهم ، غير أن الرجل اعتذر لتقدم العمر به ، ورشح لهم قرينه كونراد Conrad دوق فرنكونيا Franconia فتم اختياره بـلا معارضة . فأصبح كونراد الأول بذلك أول ملك المانى ، جرى تنصيبه بأيدى الأمراء (٧) .

هذه الحادثة تمثل نقطة فاصلة فى تاريخ المانيا . فالملك الجديد لـم يكن بمقدوره ادعاء انه ينحدر من الأسرة الكارولنجية ، ولم يكن باستطاعته انكار أنه تم رفعه على العرش الألمانى بيد أقران له ، لا يقلون عنه مكانة أو مرتبة .. بتعبير آخر ، هم الذين صنعوه ملكا . من هذا المنطلق ، وبمقتضى هذه الخلفية وراء كل من الجانبين ، تحددت العلاقة الجديدة بين الملك والأمراء فى المانيا ، ورسمت الخطوط الغائرة فى جبهة التاريخ الألمانى تمثل صراعا مريرا بين هؤلاء وبينه ، بتعبير أدق .. بين الملك بحرصـه ودفاعه المستميت فى سبيل اقرار حقه فى تعيين خليفته على العرش من بين أبنائه أو أفراد أسرته ، أي جعل الملكية وراثية ، يستمد منها بمقتضى حق الارث سلطانه وقوته ، والأمراء باستمساكهم بكل صلابة وعناد بحقهم فى

---

(٦) Barraclough, The Origins of Modern Germany, pp. 15-19.

(٧) Schmediler, Franconia's place in the Structure of Medieval Germany, p. 80.

اختيار الملك ، من واقع ممارستهم له الآن (٩١١) ، وامتدادا لتقليد جرمانى قبلى كان لدى الأجداد قائما ، وحرصا على تحقيق ذواتهم ومطامحهم .

ومن ثم لم يكن غريبا أن يطفو ذلك على السطح منذ الوهلة الأولى لممارسة هذه التجربة ؛ اذ راح كونراد على الفور يبذل قصارى جهده لتثبيت سلطانه كملك على الأدواق ، وتدعيم نفوذه فى الداخل ، لكن الخطأ الذى ارتكبه كونراد ، انه وضع هذا الهدف نصب عينيه دون أن يسلك الدرب الصحيح بلوغا الى تحقيقه ؛ فبدلا من قيادة الجهود الألمانية بنجاح ضد المجيار والصقالبة والدانيين ، ترك كل دوقية تتعامل مع الغزاة بطريقتها الخاصة (٨)، مادامت فرنكونيا بعيدة عن متناول أيديهم ، فبدا فى أعين الأدواق كما لو كان حاكما لدوقية وليس ملكا (٩) . بل ان مغامراته الخارجية وجهت أساسا لقهر اللورين لسلطانه . وحتى هذه فقد فشل فيها (١٠) . وزاد الأمر سوءا ، أنه بغية توطيد سلطانه ، أعتمد بصفة أساسية على الكنيسة ، يدفعه الى ذلك ما ارتآه فى نفسه وعلاقاته المطردة سوءا مع الأمراء ، فهو باعتباره دوقا لفرنكونيا لا يستطيع أن يمد سلطانه — كعلمانى — خارج حدود دوقيته فى ظل هذه الظروف التى تحيط به ، أما باعتماده على رجال الاكليروس يصبح ممكنا ممارسة سلطة أوسع نسبيا عبر المانيا . ومن هنا القى بحظه كله دفعة واحدة فى كف الكنيسة ممثلة فى أساقفة مينز Mainz وكونستانس Constance وسالزبورج Salzburg .. خاصة وأن الأخيرين على الأقل كانا فى عداء مع دوقى منطقتيهما .

ولما كان العاقل ، على حد تعبير المؤرخ سكوت M. Scott هو الذى يتأكد من انه لن يستطيع أن يستغنى عن عون أولئك الذين يدين هو نفسه لهم بالتاج الذى يضعه على مفرقه ، فقد كان طبيعيا فشل سياسة كونراد

---

(٨) Scott, Medieval Europe, p. 61.

(٩) Z. N. Brooke, A history of Europe, p. 21; G.M.H. III,. p. 69.

(١٠) Scott, op. cit., p. 61.

الأول فشلا ذريعا ، تلك التى لم يجن من ورائها الا سخط الأمراء العلمانيين الذين وضعوا انفسهم على هذا النحو منذ البداية فى مواجهة التاج ، الى الحد الذى دفع أوتو دوق سكسونيا الذى لعب الدور الأساسى فى اختيار كونراد ملكا ، الى التخلى عنه وهجر جانبه بل وتحديه ، وفعل الأدواق الآخرون مثل فعله ، ووجهوا طاقاتهم لتدعيم نفوذهم المحلى فى دوقياتهم ، واثبات ذواتهم وسلطانهم بين أناسهم الذين يحكمونهم ، وتحويل ولاء هؤلاء اليهم شخصيا ، فراحوا بذلك يبنون حول شخصياتهم نوعا من الهيراركية ، وما أن وافى عام ٩١٨ حتى أصبحوا قوة يحسب حسابها فى دوقياتهم ، واضحت هذه تشبه ممالك صغيرة ، وامسى كونراد قبل أن يوافيه أجله فى العام نفسه ، ملكا اسميا فقط ، بل حتى دوقا فاشلا لفرتكونيا ذاتها (١١). ولكنه كان يدرك أن خير من يضمن لسياسته النجاح فى مواجهة تحديات الأمراء ، خصمه اللدود هنرى دوق سكسونيا ، ولذا جاءت آخر كلماته وهو على فراش الموت : « ان مستقبل المملكة معلق بالسكسون » (١٢) ، ولهذا أيضا جاءت توصيته باختيار هنرى خلفا له ، وللمرة الثانية خلال جيل واحد ، مارس الأمراء تقليدهم الجرمانى باختيار الملك ، وعلى الرغم من انه لم يشترك فى اختيار هنرى غير أمراء سكسونيا وفرنكونيا ، الا ان هنرى بذل جهودا مضنية عبر جولات من الصراع والمفاوضات لفرض سلطان الملكية على الأدواق الآخرين (١٣) . وعلى هذه الصورة بدت الملكية الألمانية — كما جاء على لسان المؤرخ جيسبرخت Giesebrecht اتحادا فيدراليا من ولايات متعددة ، قاد اليه ذلك المفهوم الفرنجى عن الملكية ، والفكـرة الجرمانية القديمة عن الاتحاد الحر ، والتى من خلال الاتحاد « القبلى » لكل منها ، ادت الى علاقات تدعيم سيادة اسرة بعينها ، بحيث يمكن أن نسمى ذلك

---

(١١) Barraclough, op. cit., p. 22; Scott, op. cit., p. 63.

(١٢) C.M,H. Vol. III, p. 174.

(١٣) قاد هنرى الأول حملة لاكراه ارنولف دوق بافاريا على الخضـوع له ، ولم تخضع له اللورين الا فى عام ٩٢٥ . راجع

C.M.H. Vol. III, pp. 179-180

فيدراليا . وأصبحت المشكلة قائمة فى التساؤل حول .. هل يؤدى ذلك الى أن يقود التنظيم الجرمانى الى اقامة نظام فيدرالى حقيقى ؟ أو احياء الملكية الفرنجية ؟ وهذا بالفعل ما تبدى لهنرى الأول ، بحيث تمكن بشىء من العنف والادراك الواقعى ، أن يحقق كسبا معينا من أجل سيادة دوقيته ، تاركا المستقبل لشأنه (١٤) .

هكذا .. وعلى امتداد ثلاثة قرون قادمة ، شهدت المانيا صراعا طويلا بين سلطان التاج وسلطات الأمراء ، خفيا حينا ، سافرا أحايين كثيرة ، كل يسعى لتدعيم نفوذه ، وتأكيد ادعاءاته ، فى ملكية وراثية شأن الممالك الأوربية الأخرى خاصة فى انجلترا وفرنسا ، أو ملكية انتخابية ، الملك فيها ليس الا الأول بين أقرانه primus inter pares ، مما طبع تاريخ المانيا كله حتى سنيها المعاصرة بهذه النزعة « الانفصالية » العميقة الجذور فى تربتها أرضا وسكانا . ولا شك أن هناك عوامل متعددة ، متباينة ، تكاتفت كلها لتعمل سويا على تعميق هذا الاتجاه « القبلى » أو « الانفصالى » بين الدوقيات الألمانية .

يتساءل الجغرافيون .. ما هى المانيا ؟ ويجيبون .. هى كما يعرفها القوميون الألمان « وطن الألمان » Deutchland . وهذا الوطن لم يتحد فى دولة واحدة الا منذ عام ١٨٧١ . وهو يتسع ليشمل غربا الألزاس واللورين ، ويمتد شرقا ليحاذى ساحل البحر البلطى . فالسهل الألمانى جزء من سهل أوروبى أعظم يمتد عبر شرق أوروبا فبولندة فالمانيا حتى هولندا ، وكذلك المرتفعات الهرسينية جزء من اقليم جيولوجى أكبر وهكذا . اذ أن النطاقات الطبيعية فى وسط أوروبا نطاقات شرقية غربية ، بينما المانيا تقطع هذه النطاقات من الشمال الى الجنوب . وأبسط التقاسيم التضاريسية لألمانيا تنحصر فى اقليمين .. القسم الشمالى السهلى المنبسط ، والقسم الجنوبى المرتفع ، المكون من هضاب قديمة وأحواض

---

(١٤) Joachimsen, The investiture contest and the German constitution, p. 97.

داخلية . واذا رسم خط متعرج من آخن فى الغرب الى هانوفر وليبزج وجورلتز على نهر نيسى Neisse فانه يفصل بين هذين القسمين التضاريسيين لألمانيا . فشمال هذا الخط تمتد السهول الشمالية التى تعتبر جزءا من السهل الأوربى الأعظم ، مموج السطح ، ينحدر انحدارا تدريجيا نحو بحر الشمال ، ولايزيد ارتفاع الأرض فيه عن سبعمائة قدم ، بينما يزيد ارتفاع الجزء الجنوبى عن هذا القدر ، ليصل فى كثير من اجزائه الى ألفى قدم . بل أن القسم الشمالى السهل ينقسم بدوره الى ثلاثة اقسام رئيسية ؛ غرب نهر الب Elbe وهو سهل صغير تنحدر أنهاره نحو بحر الشمال ، وشرق نهر الب وهو أكثر اتساعا وينقسم بدوره الى عدة أقسام صغرى ، وتجرى أنهاره نحو البحر البلطى ، ثم منطقة انتقالية بين السهل والجبل ، متداخلة فى الاقليم الجنوبى لألمانيا ، الذى تجرى أنهاره هو الآخر نحو الشرق أو الغرب (١٥) . يضاف الى هذا عامل على جانب كبير من الأهمية ، هو عدم وجود حدود طبيعية منيعة تحيط بالوطن الألمانى الأصلى ، ومن ثم لم تظهر فكرة الحدود الطبيعية فى ألمانيا ، لأن ألمانيا لم تقترن فى ذهن الألمانى ، منذ القرون الأولى للميلاد ، بوطن معين ذى حدود طبيعية ، هذا على عكس الحال فى فرنسا تماما (١٦) . وتلك نقطة جديرة بالأهمية يوليها أصحاب النظريات السياسية اهتماما خاصا ، ويعتبرونها ركنا أساسيا من أركان قيام الدولة (١٧) .

---

(١٥) للمزيد من التفاصيل عن هذه النواحى — أنظر : دكتورة دولت صادق ، جغرافية العالم ، دراسة اقليمية ، الجزء الأول ، ص٤٧٣ — ٤٨٥ .

(١٦) دكتورة دولت صادق والدكتور محمد السيد غلاب ، الجغرافية السياسية ، ص٢٤٠ — ٢٤١ .

(١٧) دكتور عبد الحميد متولى ، الوجيز فى النظريات والأنظمة السياسية ومبادئها الدستورية ، ص ١٢٤ — ١٢٨ . ودكتور محمد كامل ليلة ، النظم السياسية ، ص١٩ — ٤٠ وأيضا : هارولد لاسكى ، أصول السياسة ، الجزء الأول ص٥ — ٣٩ . ومن الجدير بالملاحظة أن النظرية الألمانية عن الدولة تأثرت الى حد كبير جدا بالواقع الألمانى ، حيث ترى ان العبرة فى قيام الدولة هى وجود حكومة تملك سلطة اصدار أوامر ملزمة فى قدر معين من الشئون المتصلة بنظام الحكم ، ولو لم تكن لها السيادة بالمعنى المطلق فى =

هذه الطبيعة الجغرافية المتفاوتة ، واختفاء الحدود الطبيعية ، فرضت نفسها على الألمان بصورة واضحة ، فى التنافر الظاهر بين سكان هذه المناطق وتلك ، ساعد على التباعد جريان الأنهار من القلب الى الأطراف هنا وهناك ، فجذب الناس بتجارتهم من المركز ، الذى لم يكن له وجود أصلا ، كجزيرة فرنسا Ile de France وباريس فى وسطها الى الأطراف ، كل يسعى بتجارته حسب تيار النهر . وكان هذا عاملا هاما فى ازدياد هوة « الانفصالية » فى المانيا . فاذا أضفنا الى ذلك عنصرا آخر خاصا بالتكوين البشرى ، أدركنا مدى عمق هذه النزعة . فبينما كان اندماج العناصر السكانية يسير فى فرنسا بصورة سريعة جدا ، كان فى المانيا على العكس من ذلك ، حيث كانت القبائل المنفصلة عن بعضها قد بقيت لها قوتها وكيانها كوحدات عرقية قوية (١٨) ، وحيث كان الاتجاه القبلى فى المانيا قويا يتمثل فى اقامة وحدات سياسية المانية على أساس قبلى (١٩) ؛ ذلك أن ألمانيا مع نهاية القرن العاشر ، كانت مقسمة الى خمس دوقيات كبيرة ؛ لوثارنجيا ، سكسونيا ، بافاريا ، فرنكونيا ، وسوابيا ، تتفق حدود الأربع الأخيرة تماما مع تجمعات القبائل الجرمانية القديمة : السكسون والبافاريين والفرنجة والأليمانى . وراحت هذه السلالات الجرمانية تدعم قوتها داخل أراضيها التى تملكتها ، وحتى داخل نطاق الامبراطورية الكارولنجية بصورة لا تعرف الملل . وبينما كانت سكسونيا تحتل فى الشمال بصفة دائمة ، مركزا مؤثرا وحيويا فى الحياة السياسية الانفصالية ، كان هناك فى الجنوب مركزان كبيران هما سوابيا وبافاريا اللتان خضعتا لملكة الفرنجة بعد مقاومة عنيفة ، ولكنهما مع ذلك بقيتا كيانين مستقلين . ولا نجد تعبيرا أدق وصفا لحالة التنافر بين هذين العنصرين ، أفضل مما يذكره المؤرخ الألمانى « شميدلر » (٢٠)

=

تلك الشئون كافة . وهى نظرية لم تلق أى قبول . أنظر ، دكتور محمد كامل لبابه ، المرجع السابق ، ص ٤١ ـ ٤٢ .

(١٨) Mayer, op. cit., p. 8.

(١٩) Strayer and Munro, The Middle Ages, p. 148.

(٢٠) Schmeidler, Francia's place in the structure of Medieval Germany, pp. 74-5.

في قوله : « قلما تجد بين قبيلتين المانيتين من الكراهية Schmeidler ، ما تجده السوابيين والبافاريين . لقد راح العداء بينهما يزداد نموا واضطرادا ، ويتمثل في مظاهر واضحة ؛ أبرزها العداء بين الولفيين والهوهنشتاوفن Hohenstaufens فمع نهاية القرن الحادى عشر كان الولفيون هم البافاريين ، والهوهنشتاوفن هم السوابيين ، وخلف هذا العداء الأسرى كان يكمن العداء الموروث بين الشعبين . وكانت ايطاليا مادة دسمة للشجار بينهما بصفة دائمة .

ولقد حاول شارلمان تذويب هذه العصبية القبلية ، غير أن نجاحه كان محدودا ومؤقتا ، لم يلبث أن ضاع بوفاته . ولما كانت فترة النجاح تلك قصيرة شاحبة ، لدرجة لم يكن ممكنا معها قهر الشعور القبلى ، فقد ازداد هذا الشعور رسوخا من جراء الضعف الذى كان عليه خلفاؤه ، والذين شغلوا أنفسهم بمشروعات تتسم بالأنانية ، وهجروا بالتالى سياسته . ولما بدا عجزهم عن التصدى للهجمات الخارجية واضحا ، أصبح الجو مهيأ لظهور قوى جديدة تتولى مهمة رد هذه الاعتداءات (٢١) . بل لعله مما يلفت النظر أن الحكام الكارولنجيين أنفسهم ، خلفاء شارلمان ، ساعدوا بصورة مباشرة على تعميق النزعات القبلية . ففى عام ٨٦٩ قسم لويس الألمانى جيشه بصورة تحمل طابع التفسخ الواضح ، فوجه الثورنجيين لحرب الصرب ، والبافاريين ضد مورافيا ، والسوابيين والفرنكونيين تحت قيادته ، ولما كان السكسون قد انشغلوا بالدفاع عن أراضيهم ضد الصقالبة ، فقد تحرروا على يد لويس الألمانى من الالتزام بالمشاركة فى حملاته العسكرية . وكان هذا دافعا لهم كى يركزوا كل جهودهم لحماية الحدود الشرقية (٢٢) .

ونتيجة لظروف الغزو هذه التى تعرضت لها المانيا ، واعتماد الدوقيات على قواها الخاصة فى هذا المجال ، جاءت نشأة الأدواق نشأة عسكرية ،

---

(٢١) Thatcher and McNeal, 8 Source book for Mediaeval history, pp. 69-71.

(٢٢) Barraclough, op. cit., p. 19.

حيث اعترفت كل قبيلة من القبائل المختلفة أو الأفخاذ Stems كما كان يطلق عليها ، بزعامة محارب كبير من القادة الذين استطاعوا الحصول على لقب دوق من الناحية الادارية ، وحولوه الى لقب دال على التفوق الاجتماعى ابان الفترة الكارولنجية ، خاصة فى فترة الضعف التى شهدها عهد لودفيج Ludwig الطفل ، وقد لقى هذا الاغتصاب للقب «دوق» قبولا حسنا ، حيث نظر الناس فى كل دوقية الى هذا « الدوق » باعتباره ممثلا لوحدتهم القبلية (٢٣) . ففى سكسونيا برزت عائلة « ليودولف » Liudolfinger والتى منها انحدر ملوك ألمانيا السكسون فيما بعد ، باعتبار أفرادها القادة العسكريين للحدود الشرقية duces orientalium Saxonum . وفى بافاريا جاءت العائلة الحاكمة من ليوتبولد Liutpold الذى قتل فى احدى المعارك ضد المجيار ، وخلفه ابنه أرنولف الذى قرن لقبه بـ « العناية الالهية » Dei providentia dux . أما سوابيا فقد حمل زعيم الأسرة الحاكمة فيها من البداية لقب دوق رائيتيا dux Raetianorum يعنى حماة ممرات الألب السويسرية . على حين احتلت عائلة كونرادين الزعامة فى فرنكونيا بعد الصراع الداخلى الذى دار بينها وبين عائلة بيبين ، وانتهى بتحطيم الأخيرين عام ٩٠٦ ، وليصبح زعيمها أول ملك لألمانيا (٢٤) .

وهذه النقطة الأخيرة بالذات تعتبر حجر الزاوية فى السياسة الاستقلالية للأمراء الألمان فى مواجهة الملكية ، فحقوق المقاطعات الخاصة لم تأت من جانب سلطة حكومية مركزية ، بل جاءت ملكيتها نتاجا محليا خالصا . وبالتالى فان النبلاء الألمان حققوا لأنفسهم السيادة على ضياعهم وممتلكاتهم ، ليس عن طريق الحصول عليها من التاج بل بمجهودهم الخاص واعتمادهم

---

(٢٣) كانتور ، التاريخ الوسيط . ترجمة دكتور قاسم عبده قاسم . الجز الأول ، ص٣٥٥ وانظر أيضا :
Thatcher and McNeal, op. cit., pp. 69-71.

(٢٤) للمزيد من التفاصيل عن النشأة العسكرية للدوقات الألمانية ، يمكن الرجوع الى :
Z. N. Brooke, op. cit., p. 7. وأيضا Schmeidler, op. cit., p. 79.
وكذلك Barraclough, op. cit., p. 19. ودكتور نور الدين حاطوم ، تاريخ العصر الوسيط فى أوروبا ، ص٤٤٨ — ص٤٥١ .

على العصبية القبلية (٢٥) . ومن هنا يمكن تفسير غيرتهم على هذه الحقوق ، ومن هنا أيضا تتضح الحقيقة القائلة بأن النبالة الألمانية كانت دائما متمردة ، بل ومتآمرة فى عهود الملوك الأقوياء ، على حين تظل على ولائها ازاء ملك ضعيف ! ويعود ذلك فى المقام الأول الى أن زعماء الجرمان المبكرين كانوا يقودون شعوبا تتكون أساسا من الأحرار ، ونسبيا من أرقاء لا يرتبطون مباشرة بالحاكم ، بل يخضعون للسادة المباشرين . وأثناء فترات الاضطراب التى صاحبت حركات الهجرة التى استمرت قرابة القرون الأربعة ، راحت طبقة الأحرار تتناقص (٢٦) ، فلما خضعت الأراضى الألمانية للفرنجة ، ولم يكن هذا الخضوع قد حدث دفعة واحدة ، بل على فترات متباعدة ، ولقى الفرنجة زمن شارلمان مقاومة عنيدة وتحديا لسياسة الضم هذه خاصة من جانب السكسون (٢٧) ؛ كان ينظر الى كل فرد يمتلك أرضا يؤدى عنها ضريبة ، باعتباره حرا ، ويمنح كل الحقوق التى تخول للمواطن الحر . ومن بين هؤلاء ظهرت طبقة ارستقراطية وعائلات ثرية راحت تزداد تباعدا عن الأحرار ، الذين لم تكن ملكياتهم تتعدى مساحات صغيرة محدودة (٢٨) . وبمرور الزمن أصبح هؤلاء الأحرار يشكلون جماعات الخدمة العسكرية ، بينما الآخرون يكونون الكونتات أو القادة . ولما كانت الملكيات الزراعية لهؤلاء واسعة ومبعثرة فى انحاء كثيرة من المانيا ، بل وربما أحيانا عبر الحدود فى فرنسا أو ايطاليا ، أصبحت هذه الطبقة الأرستقراطية هى

---

(٢٥) Bryce, The holy Roman Empire, pp. 121-122.

(٢٦) Freiherr V. Dungern, Constitutional reorganization and reform, pp. 204-206.

(٢٧) ليس هناك شعب من الشعوب قاوم الغزو الفرنجى والادماج فى الامبراطورية الفرنجية ، كما فعل السكسون تحت قيادة زعيمهم الأشهر فيدوكيند Widukind . وكان من نتيجة حروب شارلمان التى استمرت من ٧٧٢ حتى ٨٠٤ فناء جيل بأكمله ، ولم تنته الا بعد أن أكره عدد كبير من السكسون مع اسرهم على ترك سكسونيا والاستقرار فى الأقاليم الفرنجية . انظر : Barraclough, op. cit., p. 8.

(٢٨) Freiherr V. Dungern, op. cit., p. 205.

المهيأة لممارسة الوظائف العامة ، فأضحت الكونيات والأسقفيات والأديرة في أيديهم ، والقيادة في الحرب (٢٩) .

حقيقة ان الكونتات على عهد شارلمان ، كانوا موظفين ملكيين ، يمكن — على الأقل من الناحية النظرية — تغييرهم بيد الامبراطور ، حتى اذا جاء القرن العاشر الميلادى ، كان خلفاء هؤلاء الكونتات يحكمون المانيا باعتبارهم ادواقا ، يتمتع الدوق منهم داخل حدود دوقيته بسلطان يفوق سلطة الملك ، وأصبح منصبه وراثيا ، وبالتالى أصبح من المهام الصعبة على الملك احلال غيره محله (٣٠) . ويعبر المؤرخ الألمانى ماير Mayer عن هذه الحال بقوله : ان الدوقيات الألمانية لم تكن تعتبر لشاغلها وظائف استمدت سلطتها من التاج ، بل وحدات تعود الى أصول مستقلة (٣١) وأخذ استقلال الدوقيات يزداد بفعل التقاليد والعادات القبلية المختلفة في كل دوقية عن الأخرى ، بل وحتى الأهداف . وراح هؤلاء الأدواق ينظرون الى أنفسهم باعتبارهم حماة غيورين على هذه الادعاءات والاختلافات (٣٢) .. وليس أدل على ذلك من أنه في أثناء فترة الحرب الأهلية التى دارت بين الاخوة الاعداء أبناء لويس التقى ، ما بين عامى ٨٣٢ — ٨٤٠ ، لم تكن المانيا موحدة في اتجاهاتها ؛ فبينما كانت بافاريا وحدها تؤيد لويس الابن ، تأرجحت سكسونيا وثورنجيا وسوابيا وفرنكونيا في مواقفها ، وان ظلت على ولائها للويس الأب .. التقى . فلما مات هذا .. بقى الأمر معقدا خلال الحرب الأهلية الثانية . ففى سكسونيا مثلا ، ونتيجة لصراعات طبقية ، اختلفت الأهواء ؛ فالأرستقراطية النبيلة أيدت لويس الألمانى (الابن) ، لأن الأغلبية العظمى المكونة من الاحرار أيدت لوثر ! لم تكن هناك اذن وحدة في الهدف في المانيا ابان هذه الحرب الأهلية التى انتهت بمعاهدة فردان Verdun عام ٨٤٣ ، ولا حتى بعد أن خضعت كلها للويس الألمانى بمقتضى المعاهدة . لقد اعتمد أولا على

---

(٢٩) Ibid, p. 206.

(٣٠) Scott, op. cit., p. 60.

(٣١) Mayer, op. cit., pp. 15-16, 27.

(٣٢) Davis, A history of Medieval Europe, pp. 210-211.

بافاريا ، وبعد عام ٨٥٢ لم يقدم هو أو أحد من خلفائه على أن تطأ قدمه سكسونيا ! .

وعلى عكس ما كان عليه الحال فى فرنسا ، خلت ألمانيا من وجود جهاز ادارى بها ، فلقد كان كونتات الفرنجة هنا مجرد نواب عن الملك ، وكان هذا فى حد ذاته يعد الشكل الأول من اشكال النظام الادارى فى ألمانيا ، كما أن الظروف التى عينوا فيها كانت تختلف تماما فى سكسونيا وبافاريا مثلا عنها بالنسبة للجزء الغربى من الامبراطورية الكارولنجية ، نعنى فرنسا . لقد كان الكونت فى ألمانيا لا يعدو كونه مبعوثا ملكيا عين ليفرض ويؤكد الحكم الفرنجى فوق شعب مهزوم ، ينحصر واجبه الأساسى فى تحقيق رغبات سيده الملك الفرنجى ، ومن ثم كان عمله فى المقام الأول سياسيا ولم يكن اداريا (٣٣). وكان وجود الملك فى غالة بعيدا عن ألمانيا ، التى لم يكن بها — كما أسلفنا — سوى نوابه ، عاملا أساسيا فى ضعف سلطان الحكومة المركزية بها ، يله عدم اعتياد الألمان الخضوع لحكم مركزى مباشر ، ومن هنا يمكن القول انه لم يكن هناك فى ألمانيا ميراث لحكومة ملكية يمكن الاعتماد عليه . وهكذا فانه تحت سطح الوحدة الظاهرية التى تكونت بقيام الامبراطورية الكارولنجية، فان كل اقليم من أقاليم الامبراطورية كان يحتفظ بحياته الخاصة وتاريخه ومشاكله وخصائصه الجغرافية ، فغدت الامبراطورية على هذا النحو دولة غير متجانسة مع تقاليدها السياسية .

ويعود ذلك فى المقام الأول الى أنه فى الوقت الذى كانت فيه فرنسا احدى ولايات الامبراطورية الرومانية ، لم تكن ألمانيا كذلك . ولذا فان النظام السياسى فى الأولى ، لم ينم مستقلا من التربة الفرنسية ، بل فرض على أرضها بأيدى الرومان ، فلما غزا الفرنجة غالة ، وجد كونتات الفرنجة أنفسهم وسط نظام ادارى رومانى قائم بالفعل ، كان قد أضحى أمرا طبيعيا راسخا خلال خمسة قرون من الحكم الرومانى ، فوجهته الطبقة الحاكمة الجديدة حسبما تقتضى مصالحها (٣٤) . وظل نظام الحكومة الرومانية ،

---

(٣٣) Barraclough, op. cit., pp 8-9

(٣٤) Mayer, op. cit., p. 5.

والمبادىء الأساسية للجهاز الادارى للدولة ، على حالهما دون أن يتعرضا للتخريب ، وبقيت للقانون الرومانى هيبته ، واصبحت له صلاحياته للسكان الغال ـــ الرومان Gallo-Roman، كما بقى النظام الضرائبى للدولة حيا فى اسسه ومبادئه ، بل وحتى وقت متأخر ، الى القرن العاشر ، عندما كانت تجبى ضريبة الدانيين (٣٥) Danegeld خلاصة القول ، ان مفهوم الوحـــدة السياسية للدولة ، الذى تمثل فى هذا النموذج الرومانى ، لم يدمر فى فرنسا ، واثبتت النظم الرومانية أنها الأسس الحية للدولة الفرنسيـــة فى العصور الوسطى بل والأزمنة الحديثة . أما المانيا فلم ينضو منها تحت السيـــادة الرومانية الا جزء ضئيل ، ولم تمارس الامبراطوربة فيها عملية التوحيد التى طبقتها فى غالة . وحتى عندما خضعت المناطق الألمانية لامبراطورية الفرنجة ، لم يحدث ذلك دفعة واحدة ، بل على فترات ، كما أسلفنا ، ولم يجد الفرنجة ميراثا اداريا لدى هذه القبائل ورثوه عن الرومان ، وكان عليهم أن يتعاملوا ـــ عندما أخضعوا سكسونيا مثلا ـــ مع اناس لم يكونوا قد وصلوا بعد الى مرحلة الحكومة الملكية ، ولا يعرفون شيئا مطلقا عن النظام الادارى الرومانى ولم يكونوا قد تحولوا حتى ذلك الوقت الى المسيحية (٣٦) . ولذا فان الكنيسة هنا لم تكن تمثل الحفيظ على التقاليد الرومانية كما كان عليه الحال فى فرنسا ؛ ذلك أن البعثات التبشيرية التى قدمت الى الأراضى الألمانية ، جاءتها من مملكة الفرنجة ، وكانت الكنائس والأديرة الكبيرة التى شـــيدها بونيفاس Boniface واتباعه ، بمثابة الطلائع التى مهدت للتوسع الكارولنجى بعد أن قام الرهبان بتنصير الناس ، وتأسيس مراكز للتعليم والحضارة ، فأوجدوا بذلك الكنيسة الألمانية التى عرفت بهذا طريقها الى الوجود قبل أن توجـــد

---

(٣٥) للمزيد من التفاصيل عن النظم الرومانية فى غالة الفرنجية ، راجع البحث القيم الذى كتبه الأستاذ Ch. Pfister تحت عنوان
Gaul under the Meovingian Franks. C.M.H. Vol. II, pp. 133-158
وايضا ، موس : ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، ص ٣١٩ ـــ ٣٢٢ .

(٣٦) Barraclough, op. cit., p. 7.

أية زعامة ملكية ألمانية فعالة . وهى بهذه الصورة تعد عملا فرنجيا وليست ميراثا رومانيا "(٣٧) .

كانت ألمانيا اذن أرضا تم غزوها من جانب الفرنجة ، وطبقت فيها النظم الفرنجية ، فالدوق فى أية دوقية ألمانية لم يكن خليفة للمحافظ الرومانى ، كما كان عليه الحال فى فرنسا ، بل خليفة الموظف الفرنجى . وحتى هذه لم يكتب لها السيادة هناك . وبالتالى فان النظرية الرومانية عن الدولة ، لم تكن الأساس الذى قامت عليه الحكومة الألمانية (٣٨) . وباختصار .. فان الوحدات الألمانية المستقلة ، والتى لعبت دورا معينا فى المهام الحكومية ، ولم تستمد سلطانها من التاج ، بقيت منذ البداية عنصرا رئيسيا فى الحياة العامة . وساعد على ذلك أن نظام المبعوثين الملكيين الفرنجى لم يكن من الميسور أن يحقق أى نجاح فى أى من بافاريا وسوابيا وسكسونيا . وسرعان ما هوى وفقد رؤساء البلاط اهميتهم منذ بواكير القرن التاسع . كما أنه لم يكن هناك نظام ضريبى واضح فى ألمانيا ، حتى قبل نهاية العصور الوسطى . يضاف الى هذا كله أن التشريعات الكنسية والزمنية كلها توقفت فى ألمانيا بعد تقسيم الامبراطورية الفرنجية مباشرة (٣٩) .

وفى دولة لم يكن النظام السياسى فيها ثابتا ، ولا الادارة فيها معروفة ، يصبح الارتباط والولاء الشخصى أهم العناصر فى ادارتها وحياتها السياسية ، ومن ثم اعتمد الحكام على أشخاص بعينهم ، وركنوا الى ولائهم ، بالاضافة الى اعتمادهم على مساحات واسعة من الأراضى تحت تصرفهم يبنون عليها سلطانهم الملكى ، دون أن ينجحوا أو حتى يحاولوا اقامة جهاز ادارى كامل يمكن أن ينجز حقيقة مشروعاتهم . وكان هذا يعنى بالتالى فقدان التاج الألمانى للدعامة الأساسية التى يرتكز عليها الأمراء أنفسهم ؛ ففى خلال

---

(٣٧) كانتور : التاريخ الوسيط ، ترجمة دكتور قاسم عبده قاسم ، ص ٣٥٩ .

(٣٨) Mayer, op. cit., p. 7.

(٣٩) Ibid. p. 8. وأيضا Pirenne, A history of Europe, p. 319.

الفترة الممتدة من عام ٨٧٠ حتى عـــام ٩١٨ كانت أراضى التاج قد تـــم اغتصابها ، بالاضافة الى أن ما تبقى منها كان مبعثرا فى مختلف الدوقيات الألمانية (٤٠) . وكان هذا على عكس الحال فى فرنسا ؛ فرغم أن النظام الاقطاعى كان سائدا فيها ، ضاربا بجذوره فى تربتها ، الا أن الملك كانت له أراضيه الخاصة ، وأصبح منذ القرن الثانى عشر قادرا على أن يسترد الامتيازات التى منحت من قبل لأفصاله ، وأن يتخذ عاصمة مستقرة لملكه ، تتركز فيها الادارات الحكومية ، وتتجه اليها كل الأنظار .

وهذه النقطة الأخيرة بالذات تعد على جانب كبير من الأهمية ؛ فتغير موطن الأسرة الحاكمة فى ألمانيا من دوقية الى أخرى ، كان كفيلا أن يتبعه بالتالى التغير الكامل فى كل مرافق الدولة وأجهزتها ، سعيا وراء الملك من دوقية الى أخـــرى ؛ فاذا كان الملك من سكسونيا ، شأن هنرى الأول والأوتويين ، شكلت كل من سكسونيا وفرنكونيا قاعدة حكمهم ، وصخرة قوية فى الشمال ، ووقفت مثلا كل من بافاريا وسوابيا بينهما وبين ســـيادة الملك فى ايطاليا . واذا كانت قوة الملك فى بافاريا ، شأن هنرى الثانى ، كان قادرا على عزل سوابيا المعادية دائما عن كل من بوهيميا وسكسونيا . أما اذا كان الملك ســـوابيا ، مثل أسرة الهوهنشتاوفن ، ارتبطت أراضيه بفرنكونيا وامتدت تجاه ثورنجيا حتى تصل الى الالب ، مكونة حاجزا بين بافاريا وبوهيميا من ناحية وسكسونيا من ناحية أخرى (٤١) ؛ ذلك انه لـــم تكن هناك عاصمة ثابتة لألمانيا ، ولا مركزا مستقرا للحكومة . حقيقة كانت

---

(٤٠) يمكن احصاء ما تبقى من هذه الضياع الملكية عند اعتلاء الأسرة السكسونية العرش ، على النحو التالى ؛ ٨٣ فى فرنكونيا ، ٥٠ فى سوابيا ، ٢١ فى بافاريا ، ١٢ فى اللورين ، ٥ فى كل من سكسونيا وفريزيا . راجع
Barraclough, op. cit. p. 31.
وأنظر أيضا Pirenne, Economic and Social history of Medieval Europe, pp. 8, 113.
وكذلك Hodgett, op. cit., p. 24.

(٤١) للمزيد من التفاصيل عن الصراعات بين هذه الدوقيات ، أنظر :
Schmeidler, op. cit., pp. 82-93.

للملوك قصورهم ، لكنها لم تكن لهم مستقرا ومقاما ، فحيثما وجـد الملك توجد الحكومة (٤٢) . بل ان المشكلة لم تكن قاصرة فقط على عدم وجود مركز جغرافى يمكن الوصول اليه من هذا الخليط الهائل من الأقاليم ، بل ان ألمانيا افتقدت أيضا أى شىء يمكن اعتباره مركزا روحيا تتجه اليه الأنظار ويعتبر قبلة الألمان (٤٣) .

ولما كان وجود عاصمة دائمة يؤدى بصـورة طبيعية الى قيام حكومة مركزية ، عـلى غرار باريس ، كان من البديهى أن يتصدى الأمراء الألمان لأية محاولة فى هذا السبيل ، لأنهم يعلمون يقينا مدى تأثير ذلك فى الحد من نفوذهم وسلطانهم . ومن هنا نفهم مغزى اجهاض المحاولة الجريئة التى اقدم عليها هنرى الرابع ، بهدف تقوية سلطة التاج وتدعيم نفوذ الملك ، باتخاذ سكسونيا وبداخلها جوتسلر Goslar عاصمة له ، وبنى من حولها القلاع العسكرية فى منطقة مرتفعات هارتز Harz ، متمثلا فى ذلك آل كابيه الذين اتخذوا عاصمة ملكهم فى جزيرة فرنسـا (٤٤) Ile de France . الا أن سياسة كهذه كان لابد أن تقابل بالاحتجاج من جانب السكسون والثورنجيين ، الذين كانوا اقل الشعوب الألمانية اندماجا فى الدولة الألمانية (٤٥) . فاذا علمنا ان هذه المنطقة كانت غنية بمناجم الفضة التى عثر عليها زمن أوتو الأول ، وأن ذلك يعنى اعطاء الملك الألمانى مصدراً للدخل مستقرا بعيدا عن تحكم الأمراء ، ادركنا الأسباب البعيدة للعداء السافر تجاه سياسة هنرى الرابع من جانب السكسون (٤٦) .

---

(٤٢) Z. N. Brooke, op. cit., p. 20.
وايضا Pirenne, A history of Europe, p. 320.
وراجع ايضا D. Waley, Later Medieval Europe, pp. 73-74.
(٤٣) Joachimsen, op. cit., p. 99.
(٤٤) Ibid. pp. 110-111.
وايضا Freiherr V. Dungern, op. cit., p. 211.
(٤٥) Thompson and Johnson, op. cit., pp. 374-375.
(٤٦) Barraclough, op. cit., pp. 83-84.

لا ريب اذن فى أن الأمور التى عرضنا لها على هذا النحو ، ترسم لنا صورة واضحة عن الأحوال العامة فى المانيا ابان تلك الفترة من العصور الوسطى ، وتبين الدوافع الحقيقية التى حدت بالأمراء الألمان الى التمسك بحقوقهم الموروثة بحكم النظام الجرمانى القبلى ، والمكتسبة بمقتضى الضعف الذى انتاب الملكية فى ألمانيا خلال القرن التاسع ، والغزوات الخارجية الشرسة التى تعرضت لها ، والتى تحققت من خلالها سلطتهم المتزايدة داخل دوقياتهم ، مما استتبع بالتالى حرصهم الشديد على أن تكون سلطة الملك مجردة من أى سلطان يمكن أن ينتقص ولو قليلا من امتيازاتهم الواسعة ، ولن يتأتى هذا الا اذا استمرت الملكية الألمانية انتخابية بأيدى الأمراء ، بعيدة كل البعد عن اقرار مبدأ وراثة العرش . لقد كان اختيار الملك بالنسبة للأمراء — على حد قول بروك Brooke — حقا أساسيا بصفة دائمة ، ولم يسمح أبدا أصحاب مبدأ الاختيار هؤلاء ، بالاعتراف بحق الارث كما جرى التقليد فى فرنسا (٤٧) . ومن الجدير بالذكر أن سياسات عدد من الملوك الألمان فى الداخل ، والظروف والمشكلات الخارجية التى تورطوا فيها جميعا فى الخارج ، أعنى المشكلة الايطالية ، كانت من العوامل الهامة التى عمقت مبدأ الانتخاب فى الملكية الألمانية ، وجعلت حق وراثة العرش مع اخريات القرن الثانى عشر نسيا منسيا .

فالاختيار الذى تم عام ٩١١ وجاء بكونراد الى العرش كأول ملك المانى ، ثم الاختيار الثانى الذى حدث سنة ٩١٨ وثبت ما ارتآه الملك الراحل من خلافة هنرى الأول السكسونى له ، كانا لابد أن يضعفا من البداية مبدأ الوراثة فى الحكم ، وهو الشىء الذى كان مطلوبا آنذاك للاستقرار الداخلى فى العصور الوسطى . غير أن هنرى الأول الصياد تمكن بسياسته الداخلية ، وجهوده الخارجية التصدى للهنغاريين والدانيين ، من تثبيت دعائم نفوذه ، والتمكين لأسرته فى حكم ألمانيا . واتضح ذلك جليا عندما اقدم هنرى ، وقد حضرته الوفاة — على دعوة الأمراء والناس فى ارفورت Erfurt للتصديق على تعيين ابنه أوتو Otto خلفا له . ولم

(٤٧) Z. N. Brooke, op. ct., p. 19. وأيضا Waley, op. ct., p. 73.

يلبث أن تدعم هذا ثانية باختيار الأمراء الحر بعد وفاة هنرى ، ومباركة الاكليروس ، وموافقة الناس . وقد تم ذلك فى آخن Aachen ، حيث اجتمع الأدواق وكبار الكونتات والفرسان الذين أقسموا يمين الولاء له ، ثم قام رئيس أساقفة مينز ، واخذ بيده وقاده الى صحن الكنيسة مخاطبا الناس على هذا النحو : « أقدم لكم أوتو ، الذى اختير electum من قبل الله ، وعين بواسطة هنرى ، السيد الراحل للمملكة domino rerum واصبح الآن ملكا بيد كل الأمراء ، فاذا كان هذا الاختيار electio يسركم ، فلتعلنوا رضاكم بأن يرفع كل منكم يده اليمنى » (٤٨) . هكذا — وعلى حد تعبير باراكلاف — نجح أوتو الأول عن طريق ارادة أبيه ، وارادة الله . بحقوق الوراثة ، وبحق الانتخاب ، وبالحق الالهى ، نجح فى استخدام كل تأكيد رمزى ودينى كان متاحا فى ذلك القرن (٤٩) . وبدا للجميع ساعتها أن مبدأ الوراثة قد أخذ يستقر فى الأرض الألمانية على حساب مبدأ الانتخاب أو بتعبير آخر ، تدعيم سلطان الملكية فوق سلطة الأمراء .

ولا شك أن السياسة التى اتبعها أوتو الأول اثناء عملية اختياره ملكا ، وبعدها ، تفصح عن نيات الملك الألمانى الجديد تجاه الأمراء ؛ فاختياره آخن بصفة خاصة لتجرى فيها عملية تنصيبه ، توحى بأن العاهل الجديد يترسم خطى سلفه العظيم شارل . كما أن الوليمة التى أعقبت مراسم التتويج ، على الصورة التى جرت بها (٥٠) وان كانت عند الأمراء لا تعدو امتدادا للتقليد الجرمانى القديم ، الا انها لدى أوتو كانت تعنى حقيقتها لا رمزها فقط ، أى اعتبار الأمراء « خداما ملكيين » ، تابعين تبعية مطلقة للتاج . وقد ظهر ذلك واضحا بعد عامين فقط ؛ اذ أن ابرهارد Eberhard دوق بافاريا ، والذى كان قد خلف أباه أرنولف منذ

---

(٤٨) Widukind, History of the Saxons, in A Source book for Medieval history, by Thatcher and McNeal, pp. 72-75).

(٤٩) Barraclough, The origins of Modern Germany, p. 73.

(٥٠) للمزيد من التفاصيل عن المراسم والصورة التى جرت بها هذه الوليمة ، راجع Widukind, Loc cit.,

عام ٩٣٥، وحصل على ولاء البافاريين (٥١) رفض دعوة التاج له بالحضور اعتمادا على هاتين الدعامتين : التعيين بحق الارث عن ابيه ، وولاء دوقيته . فكانت اجابة أوتو على ذلك ، العزل . ولم يعط بافاريا لأحد من ابناء أرنولف الآخرين ، بل أعطاها لعمهم برتولد الكارنثى Berthold of Carinthia الذى تعهد أمام الملك بعدم تعيين أى أسقف أو كونت ، وأصبحت أراضى التاج فى بافاريا تابعة مباشرة للتاج ، وعين الى جانب الدوق ، رئيس بلاط يراقب تصرفاته داخل الدوقية . وكانت دلالة العزل الهامة هى القضاء على الاعتقاد السائد بحق الارث فى الدوقية للأبناء (٥٢) وهو الحق الذى كان يناضـــل الملوك من أجله لجعله المبدأ الوحيد فى اعتلاء عرش الملكية الألمانية . ولم يضع أوتو وقتا ، فخطا خطوة واسعة عام ٩٦١ عندما تغاضى عن مسألة اشراك الأمراء فى اختيار الملك الجديد ، وأقدم على تعيين ابنه وسميه حاكما شريكا . يضاف الى هذا كله اعتماد أوتو والأسرة السكسونية من بعد ، اعتمادا كاملا على الكنيسة ورجال الاكليروس فى معظم أمور الدولة ، كقوة منافسة لتحطيم نفوذ الأمراء العلمانيين ، بعد الثورات وحركات التمرد التى نشبت ضد أوتو الأول ، وكانت أخطرها بين عامى ٩٥٣ — ٩٥٥ واستهدفت اغتياله . وتلك التى واجهت أوتو الثانى وهنرى الثانى ، حتى غدت الكنيســـة الألمانية هيئة دنيوية .

ومهما يكن من أمـــر ، فان الجهود التى كللت بالنجاح فى مواجهـــة المجيار ، والاستقرار الداخلى الذى تحقق ، كان عاملا رئيسيا فى أن يظل مبدأ الوراثة محترما ومرعيا على امتداد أربعة اجيال متعاقبة ، ابتداء بأوتو الأول وحتى هنرى الثانى (٩٧٣ — ١٠٢٤) . وحتى عندما لم يكن هناك وريث شرعى مباشر للعرش ، كما حدث عند وفاة أوتو الثالث دون أن يعقب خلفا ، أقدم الأمراء على اختيار هنرى الثانى ، احتراما للأسرة التى قدمت كل ما فى مقدورها لرفعة المانيا ، باعتبار هنرى أحد أفراد البيت

---

(٥١) عن سياسة أرنولف البافارى المستقلة ، وانتزاعه يمين الولاء لابنه من البافاريين ، راجع Heinrich Mitteis, Feudalism and the German constitution, pp. 236-237.

(٥٢) Barraclough, op. cit., p. 28.

السكسونى . بل ان ما حدث بعد ذلك عقب ارتحال هنرى هذا عن الدنيا ، يبين مدى نجاح الأسرة السكسونية فى تعزيز مبدأ الوراثة فى اعتلاء العرش ؛ ذلك أنه فى عام ١٠٢٤ كان المتنازعان على العرش يدعيان انحدارهما من سلالة ابنة أوتو الأول ، ليوتجارد Liutgard وقد فاز كونراد (الثانى) لأن أرملة هنرى الثانى ، كونيجوند Kunigunde سلمته الأشعرة الامبراطورية عقب وفاة زوجها ، فعد ذلك تعيينا له باعتباره أفضل المرشحين .

هكذا بدا عام ١٠٢٤ أن المواجهة بين مبدأى الوراثة والانتخاب ، قد حسمت فى هذه الجولة لصالح الوراثة ، وأن النزعة الاقليمية لدى الأمراء ، والتى كانت واضحة تماما خلال القرن التاسع والعقود الأولى من القرن العاشر ، قد أخذت تخبو ، وان النظرية التيوتونية عن الاختيار ، قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى من النسيان . خاصة وأن سنوات القرن الحادى عشر — اذ استثنينا فترة الحرب الأهلية على عهد هنرى الرابع (١٠٧٧ — ١٠٨١) — والعقدين الأولين من القرن الثانى عشر ، شهدت استقرار مبدأ الوراثة بصورة بدت ثابتة ، بعد أن أمكن كونراد الثانى لابنه هنرى الثالث ، وهذا لوريثه — الطفل — هنرى الرابع ، وهذا لابنه هنرى الخامس .

وقد اتضح منذ الوهلة الأولى لاعتلاء كونراد الثانى العرش ، تصميم الأسرة السالية الفرنكونية على ترسيخ جذور مبدأ الوراثة ، جريا على سنة الأسرة السكسونية ، وتدعيما لسلطان التاج على الأمراء . ففى عام ١٠٢٦ ، ولم يمض على اعتلاء كونراد العرش سوى عامين فقط ، أقدم فى أوجزبرج Augsburg على تعيين ابنه هنرى [الثالث] ذى التسع سنوات ، وريثا له ، ووافق الأمراء على ذلك . وفى عام ١٠٢٨ تم تتويجه ملكا فى اكس لاشابل Aix-La-Chapelle وهى السنة التى أعقبت تتويج كونراد نفسه امبراطورا فى روما (٥٣) . وهكذا يعلن الملك امبراطورا ، وما ان يصل الى العرش الامبراطورى حتى يعين ملكا جديدا خلفا له ، مما يوحى

---

(٥٣) C.M.H. Vol. III, p. 269.

بأن الأمر لم يكن فقط مجرد اسـتمرارية ، ولكن تثبيتا للحقوق التاريخية للملكية . بل ان هذا الحق امتد الى الامبراطورية ذاتها ؛ فمنذ عهد كونراد هذا اتضحت الحقيقة القائلة بأن الملك الألمانى هـو بحكم الواقع ipso facto حاكم ايطاليا ، وذهبت مع الريح حقوق الناخبين اللمبارد ، ومنذ عام ١٠٥٤ ظهر مصطلح Rex Romanorum in imperatorem promovendus الذى يعنى أن الملك الألمانى ، وان لم يكن قد تلقى بعد التاج الامبراطورى فى رومـا ، الا انه بالطبع يعد « ملك الرومـان » Rex Romanorum بحقوق ثابتة لايمكن انتهاكها فى وراثة الامبراطورية ، حتى أن أحد فقهاء القانون فى القرن الحادى عشر ، عبر عن ذلك بقوله : « ان من تم اختياره من جانب الأمراء ، يصبح امبراطورا حقا ، حتى قبل أن يثبت البابا هذا الاختيار »(٥٤).

وانطلاقا من السياسة العامة التى انبعتها الأسرة الفرنكونية ، والتى وضع خطوطها العريضة كونراد الثانى ، أقدم هذا الملك على وقف استنزاف أراضى التاج ، وذلك بعدم اتباع السياسة التى درج عليها أسلافه بتقديم هذه الأراضى هبات الى الكنيسـة ، بل أنفقها لضرب كبرياء طبقة كبار النبلاء ، وذلك بالاعتماد على النبالة الدنيا ، أو صغار النبلاء الذين أغدق عليهم هباته ، ليصنع بهذا الاجراء قاعدة عريضة من الموالين والأتباع . وتمثل ذلك بصورة واضحة فى اعترافه بحق هؤلاء فى توريث اقطاعاتهم (٥٥). وتجسد هذا بصورة عملية فى مواجهة للثورة التى اشعلها ارنست Ernst دوق سوابيا ، فقد تحالف الملك مع الكونتات ضد الدوق (٥٦) . ولا شك أن اعتماد كونراد على النبالة الدنيا ضد الارستقراطية النبيلة ، مسألة تثير الاهتمام ، لأنها تشير للوهلة الأولى الى العداء الاجتماعى الآخذ فى الظهور خلال القرن الحادى عشر ، غير أن خطورة هذا الأمر تعود الى أنه اذا كان كونراد قد اسـتطاع بذلك تقوية سلطانه فى الداخل ، واضعاف

---

(٥٤) Barraclough, op. cit., pp. 73-74.

(٥٥) Thompson & Johnson, op. cit., p. 372.

(٥٦) عندما طلب الدوق من الكونتات مناصرته ضد الملك اجابوه بأن طاعتهم له مرهونة بطاعته للملك ، قائلين : « نحن أحرار ، والحارس الأعلى لحريتنا هو مليكنا وامبراطورنا ، فاذا هجرنا جانبه فقدنا حريتنا » .

شوكة الأدواق وكبار الأمراء ؛ فان هذا كان أمرا مؤقتا ، لانه أدى بسياسته هذه على المدى الطويل الى تفتيت المانيا الى اقطاعات صغيرة .

وتمشيا مع هذا الاتجاه ، وخروجا عن الخط الذى رسمه الأوتويون بالاعتماد الكامل على رجال الاكليروس ، سعى كونراد وخلفاؤه الفرنكونيون الى الاعتماد على طبقة جديدة لا تمت الى النبالة بصلة ، وجعلوا منهم الموظفين الاداريين والفرسان المسلحين ، وهذه الطبقة عرفت باسم ministeriales وليس لها نظير فى المجتمعات الاقطاعية الأخرى فى فرنسا أو انجلترا (٥٧) . وأصبحت هذه الطبقة الجديدة تعتمد بصورة أساسية على التاج فى وظائفها ودخولها . واذا كانوا يشبهون الافصال فى أنهم ينالون مكافآتهم بمنحهم الأراضى والمراتب ، الا أنهم كانوا يفتقدون الحرية الشخصية للفصل الاقطاعى ، ولا يمكنهم ادعاء نفس الامتيازات الخاصة بتلك الطبقة . وكان هدف الفرنكونيين من ذلك واضحا ، وهو أن هذه الطبقة من « محدثى النعمة » أقل خطرا من النبلاء وأسهل انقيادا ، لاعتمادهم أو ارتباطهم المباشر بالملك . وقد جعل كونراد الثانى منهم العمود الفقرى لجهازه الادارى الجديد ، ولم يكن هنرى الرابع من بعد بأقل منه استنادا اليهم ، حتى أن الشكوى التى سرت آنذاك ضده من أنه يحيط نفسه بمجموعة من ذوى الأصول المتضعة Vilissimi et infimi homines وأنه يسمع فقط لنصائح مستشاريه من طبقات متدنية ، ويزدرى آراء الأمراء ذوى الأصول النبيلة ، كانت تعبر عن الواقع « الادارى » الجديد باعتماد الفرنكونيين على هؤلاء « الموظفين » ministeriales دون غيرهم .

ولم يحاول كونراد الثانى أن يعهد بالدوقيات الشاغرة الى الأسرات المحلية ، بل وضعها جميعا فى يد ابنه هنرى ، حتى اذا جاءت كونراد رسل الموت تتوفاه ، كان هنرى يسيطر بالفعل على كل الدوقيات الألمانية عدا اللورين وسكسونيا . فلما أصبح هنرى الثالث هذا ملكا عام ١٠٣٩ حرص

---

(٥٧) للمزيد من التفاصيل عن أصل هذه الطبقة ووجودها فى ألمانيا ، راجع Davis, op. cit., pp. 334-33.

على بسط سلطانه على كلّ الدوقيات ، فعهد بسكسونيا الى رئيس أساقفة بريمن Bremen ، أدالبرت Adalbert عام ١٠٤٣ ، بهدف اضعاف جانب عائلة بيلونج Billonger ، ولما كان رئيس الأساقفة مواليا للتاج ، فقد تحول العداء بينه وبين أدواق سكسونيا الى عداء هؤلاء الأخيرين للملك . وان كان هنرى قد تمكن من اخماد الثورات بها ، وأمضى فيها خمس سنوات يحاول تدعيم نفوذ الملكية وتقوية سلطانها هناك . أما اللورين فقد تعرضت للتقسيم بين ولدى جوتزيلو Gozilo بعد وفاته سنة ١٠٤٤ . الا أن وفاة هنرى المفاجئة سنة ١٠٥٦ عصفت بمشروعاته هذه جميعها . خاصة وأن وريثه كان طفلا صغيرا . الا أن الملك الجديد هنرى الرابع ، بعد أن باشر مهام سلطانه ، بذل جهودا كبيرة فى اتمـــام خطط أسلافـــه الفرنكونيين فى اقامة دولة المانية قوية .

عمد هنرى الى استعادة كل حقوق الملكية وامتيازاتها التى تم اغتصابها على أيدى الأمراء ، العلمانيين والاكليروسيين على السواء ، ابان الفترة التى كان يعانى فيها غض العمر وسن القصور ، ولو أخذنا سكسونيا مثالا واحدا فقط ، لعلمنا أنه خلال هذه الفترة ، أقدم فلاحوها على استغلال ممتلكات التاج من الغابات والمراعى جهارا ، فقطعوا أخشابها ، ورعوا انعامهم ، وأورثوها أبناءهم . وكان الاتجاه الذى انتواه فيما يختص باعادة تأكيد امتيازات التاج فوق الأراضى ، وتحريم الاستغلال الخاص لهـــا ، وتخصيص انتاجها لدخل الملك ، وبيع التصاريح الخاصة بالانتفاع بهـــا سواء فى قطع الاخشاب أو الرعى أو اقامة الطواحين . كل هذا بدا لأعين السكسون طغيانا جائرا . وفوق هذا وذاك ، فانه ضمانا لاخماد الثورات التى يمكن أن يقوم بها أهالى هذه المناطق ، فان هنرى ، وقد ترسم فى ذلك خطى أبيه ، اقام فى أراضى التاج فى سكسونيا وثورنجيا عددا من القلاع ، شحنها بالمخلصين له من السوابيين ، الذين حظوا بمقت السكسون وكراهيتهم باعتبارهم دخلاء يعملون فى خدمة ملك ، عد عندهم طاغية . وما أن وافى عام ١٠٧٣ حتى كان هنرى الرابع قد سار فى هذه السياسة شوطا بعيدا ،

فقاد بذلك السكسون الى حافة الثورة (٥٨) .

وقد القى المؤرخ الألمانى هانز هيرش Hans Hirsh الضوء على محاولة أخرى قام بها هنرى الرابع ، دفعت الأمراء دفعا الى عدم التردد فى الاطاحة به ، عندما اشتدت حمى الصراع بين الامبراطور والبابوية ، فقد سعى الى أن يكون القضاء الجنائى ، أهم الحقوق العامة ، مستندا الى السلطة الملكية . بمعنى أن تكون الادانة من الملك نفسه ، وبهذه الصورة يمكن نقلها الى سلطان الدولة ، وكان هذا يعنى فى حالة تمامه ، التدخل المباشر فى حقوق وامتيازات النبالة الألمانية ، وهى من أهم الحقوق التى كانوا يمارسونها (٥٩) . ويبدو أن هنرى الرابع كان متأثرا فى هذه الناحية ، بما أقدم عليه ويبو Wipo مستشار كونراد الثانى والذى امتدحه بأنه واهب السلام العام pacis ubique dator ومعلم ابنه هنرى الثالث ، من تقديم اقتراح الى هنرى الثالث ينصحه فيه بأن يصدر مرسوما عند تعيينه امبراطورا ، يجبر النبلاء الألمان على ارسال أبنائهم الى المدارس لتدريبهم هناك على احترام القانون . فالايطاليون — على حد قوله — يدرسون منذ زمان بعيد ، القانون ، مما جعل من روما سيدة العالم (٦٠) وبهذا وضع ويبو يده على مواطن الضعف فى الملكية الألمانية زمن الأوتوويين والفرنكونيين . فقد كانت السلطات التشريعية والقضائية من أهم جوانب السيادة التى يتمتع بها الأدواق فى دوقياتهم . وكان اقتراح ويبو يمثل المعارضة القائمة من جانب التاج ضد اتجاهات الأمراء العلمانيين، الذين تجنبوا دوما أى قانون مكتوب كلما أمكنهم ذلك ، وراحوا يؤكدون فى تثقيف بنيهم على الخلال الفروسية والخلقية ، والتى تقابلنا فى الملاحم

---

(٥٨) للمزيد من التفاصيل عن سياسة هنرى الرابع الداخلية هذه ، راجع
Strayer & Munro, op. cit. pp. 207-208.
وأيضا Ch. Brooke, Europe in the Central Middle Ages, pp. 181-184.
وكذلك Thompson & Johnson, op. cit., pp. 374-375.
(٥٩) Mayer, op. cit., pp. 27-28.
(٦٠) Joachimsen, op. cit., 103.

البطولية (٦١) . هذه الآراء المتباينة تكشف بوضوح عن العداء الكامن والقائم بين الأحزاب المتصارعة خلال ارساء النظم الملكية الألمانية . ابان تلك الفترة ، لأن ايجاد قانون مكتوب ، وهيكل ثابت ، لن يخدم فقط قضية القانون فى ألمانيا ، بل سيدعم بالتالى مركز الملكية الألمانية داخل ألمانيا (٦٢).

كانت البدايات كلها على هذا النحو تشير الى أن الملكية الألمانية ، راحت تأخذ طريقها الى الاستقرار ، وأن ألمانيا ستغدو قوة كبيرة فى أوروبا العصور الوسطى ، وأن مبدأ الوراثة قد حقق نجاحا بعيدا فى التجربة الألمانية متفوقا على منافسه الخطير ، والكامن فى نفوس الألمان ، وهو مبدأ الانتخاب للجالس على العرش . وبدا أن هنرى الرابع سوف يوضع فى عداد اقوى ملوك أوروبا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، هنرى الثانى ملك انجلترا ، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا . لكن الظروف التى وجد هنرى نفسه محاطا بها ، أضاعت جهوده وجهود أسرته وأسلافه عبثا ، وذهبت مع الصمت الرهيب محاولات الأسرة السكسونية والفرنكونية ، وحتى اسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen فى اقامة دولة ألمانية موحده ، على رأسها ملك قوى ، يدعمه حق طبيعى تقليدى فى وراثة العرش ، دون تدخل من جانب الأمراء .

ذلك أن هنرى كان معاصرا لواحد من أقوى بابوات العصور الوسطى ، جريجورى السابع ، الذى تجسدت فيه كل مبادىء نظرية السمو البابوى منذ جلازيوس الأول Gelasius فى نهاية القرن الخامس ، وحتى حركة الاصلاح الكلونى على المبادىء الجريجورية ، والتى استهدفت فى النهاية وجود امبراطور واحد هو البابا (٦٣) . ولا شك أن هذا لا يتفق وسيادة

---

(٦١) Id.

(٦٢) Ibid., p. 104.

(٦٣) للمزيد من التفاصيل عن اراء جريجورى السابع ، راجع
Ullmann, A short history of the papacy in the Middle Ages, pp. 142-161.
وايضا Bryce, op. cit., pp. 156-158.

الامبراطور الألمانى الذى كان يرى وجهة نظر مخالفة عن الاصلاح الكنسى (٦٤) وقد حمى اتون الصراع بادىء الأمر حول مشكلة التقليد العلمانى ، فلما أسقطت اتفاقية وورمز عام ١١٢٢ هذا القناع ، سعر لهيب الجدل بين البابوية والامبراطورية حول السيادة العالمية ، وانعكس هذا الصراع بصورة مباشرة على سلطان الملك الألمانى فى ألمانيا ذاتها . وانتهى الأمر بتحطيم الامبراطورية فى القرن الثالث عشر ، وخروج ألمانيا دولة لا تحمل من حقيقتها الا اسمها فقط دون أى معنى سياسى .

كانت الكنيسة تميل دائما الى تأييد مبدأ الانتخاب فى الملكية عن الوراثة ، لأن ذلك كان هو ايضا نظامها الذى تقوم عليه ، وقد رأينا أسقف مينز يباشر شيئا من هذا عند اختيار الملك الألمانى . ولكن الشىء المؤكد أنها كانت ترى فى ذلك تحقيقا لصالحها الخاص . وكان جريجورى السابع بصفة خاصة من أشد البابوات تحمسا لهذا الاتجاه ، خاصة وقد رأى بعينى رأسه ما فعله الامبراطور السابق هنرى الثالث من عزل ثلاثة من البابوات المرتشين والمارقين ، وتعيين خمسة آخرين على التوالى ممن توسم فيهم التمسك باصلاح أحوال الكنيسة . وتفصح رسائل جريجورى عن القاعدة التى بنى عليها بصفة أساسية هجومه على الحقوق الوراثية للملك ، واعتبر ان الأمراء يشكلون جماعة أو هيكلا واحدا ، وهم لذلك يمثلون المملكة . وقد تحمس جريجورى جدا لآرائه هذه ، وقد رأى فيها عاملا هاما لتحقيق فكرته عن « صلاحية » idoneitas الحاكم (٦٥) . وقد اعتمد

وأيضا Ullmann, The growth of papal government in the Middle Ages, pp. 262-309.

وكذلك Tout, The Empire and the Papcy, pp. 110-114, 124-136

وانظر بصفة خاصة Dictatus Papae (in, Henderson, H. D. pp. 366, 7.

وراجع ايضا Barry, The Papal Monarchy, pp. 190-227.

(٦٤) أفردنا للصراع بين البابوية والامبراطورية بحثا خاصا تحت « السمو البابوى بين النظرية والتطبيق » .

(٦٥) Joachimsen, op. cit., pp. 127-129.

رجال القانون الكنسى بصفة دائمة على عبارة وردت فى احدى رسائل القديس جيروم Jerome يصف فيها نظام البيعة السكندرية ، حيث يقوم اكليروسها باختيار واحد من بينهم ليكون أسقفا ، « كما يفعل الجيش بالنسبة للامبراطور » (٦٦) .

كان قرار الحرمان الذى أصدره البابا جريجورى السابع ضد الملك هنرى الرابع فى الثانى والعشرين من فبراير ١٠٧٦ ، اشارة البدء للأمراء كى يطرحوا وراء ظهورهم تماما ، هذا التقليد الذى جرى على امتداد قرابة قرن ونصف من الزمان (٩٣٦ — ١٠٧٦) ، أعنى احترام مبدأ الوراثة فى الملكية الألمانية ، وأن يبعثوا من جديد ذلك التقليد الجرمانى القديم باختيار الملك ، والذى مارسوه فى بواكير القرن العاشر الميلادى . ولم يكن هذا سلوكا عفويا .. لكن التراكمات الطويلة الناتجة عن سياسة الأسرة السكسونية ثم الفونكونية من بعد ، والتى ابتغت تدعيم سلطان التاج وتأكيد الحق الوراثى فى العرش ، ثم ما لجأ اليه كونراد الثانى وهنرى الرابع بصفة خاصة من الاعتماد على طبقات اخرى ذوى أصول غير معروفة ، لخلق منافس قوى تجاه النبالة الأرستقراطية ، ومحاولة اقامة عاصمة دائمة للمملكة فى سكسونيا ، وتجريد الأمراء ثانية من الامتيازات التى اغتصبوها ابان فترة قصور هنرى الرابع . كل هذا جعلهم يستشعرون خطورة الأمر اذا ما قدر للملك أن يحقق انتصاره على البابوية فى صراعهما حول مشكلة التقليد العلمانى .

دفع قرار الحرمان ضد هنرى ، بالمانيا الى حالة من الفوضى العارمة ، تمثلت فى تحطيم وحدة الكنيسة الألمانية ، ودفعت بالأساقفة المرتعشين أن يهرولوا الى البابا طالبين الصفح والغفران . وكان اضفاء صفة القداسة على الثورة فى المانيا ، عاملا هاما فى تشجيع مختلف العناصر ، أفرادا وجماعات على اظهار سخطها (٦٧) ، وامتدت الثورة فى مختلف أنحاء المانيا

---

(٦٦) Mundy, Europe in the high Middle Ages, p. 330.

(٦٧) Thompson & Johnson, op. cit., p. 382.

بصورة واسعة ، عجز معها هنرى عن التصدى لها . وعقد الأمراء الألمان مؤتمرا فى مدينة تريبور Tribur حضره مندوبان عن البابا ، اضطر هنرى على أثره أن يلعق كل ما قاله آنفا فى حق البابا ، ووعد بأن يرعى فى كل شيء الطاعة الواجبة للكرسى الرسولى والبابا جريجورى (٦٨) .. وكان عليه أن يمضى أيامه الآتية فى الدير حتى يأتيه عفو البابا . واعلن الأمراء أنه اذا لم يتمكن هنرى ، حتى الثانى والعشرين من فبراير سنة ١٠٧٧ من أن يضع عن نفسه قرار الحرمان الكنسى ، فانهم سوف يعلنون آنئذ عدم اعترافهم به كملك من بعد . ورتب الأمراء أمورهم على أن يعودوا للاجتماع ثانية فى فبراير فى مدينة أوجزبرج ، حيث وجهوا الدعوة الى البابا لرئاسة هذا المؤتمر المقترح ، بحيث اذا ما تقرر عدم صلاحية هنرى الرابع للبقاء على عرشه ، اختار المؤتمرون ملكا بديلا ..

لا شك أن اغتباط جريجورى بهذه الأنباء كان يفوق كل وصف ، فليس احب الى قلبه من أن يصبح وسيطا وحكما فى الشئون الألمانية . فاتخذ سبيله على مهل الى المانيا فى ديسمبر عام ١٠٧٦ . واذا كان هنرى قد فوت عليه هذه الفرصة ، بسعيه هو اليه ، ولقائه المهين فى كانوسا Canossa فى يناير ١٠٧٧ ، وحصوله على العفو والمغفرة قبل الموعد الذى ضربه الأمراء ، الا أن ذلك كله لم يثن هؤلاء عن عزمهم ، فاجتمعوا فى مارس من العام نفسه وقرروا عزل هنرى ، بعد أن اتهموه بأنه خدعهم ولم يلتزم بالبقاء فى الدير حسب ما قرروه فى تريبور من قبل ، واختاروا ملكا مضادا هو رودلف Rudolph دوق سوابيا .

هكذا عاد الأمراء من جديد الى ممارسة التقليد الجرمانى القاضى باختيار الملك . والتقت مطامحهم وأطماعهم بالمصالح البابوية ، حتى أن المؤرخ

---

(٦٨) انظر Henry IV, Promise of the King to offer obedienne to the Pope.

وايضا Henry IV, edict Cancelling the Sentence against Gregory VII, (in Henderson, Select historical documents of the Middle Ages, pp. 384-385).

كريستوفر بروك Christopher Brooke يرى أنه كانت هناك خطة موضوعة بين جريجورى السابع والأمراء ، بعد أن اصبح واضحا فى عـام ١٠٧٦ لكل من البابا وعدد كبير من زعماء الكنيسة الألمانية ، أن هنرى الرابع لم يعد على وفاق مع الأمراء ، ولاضفاء صفة العدالة على خطتهم القاضيـة بعزل هنرى ، عادوا الى ما جاء فى الكتاب المقدس ، من أن صموئيل عين داود ملكا بينما شاول كان ما يزال على قيد الحياة . ويذكر أن هذه الرؤية كانت مرضية جدا بالنسبة لجريجورى ، وهى التى ألهمته من بعد نبوءته الشهيرة عام ١٠٨٠ ، بأن هنرى لن يلبث أن يموت ، ابان صراعه مع رودلف السوابى . أما بالنسبة للأمراء فقد كان من الصـعب عليهم الاعتماد فقط على ما جاء فى العهد القديم ، والا وضعوا أنفسـهم تحت رحمة اكليروس عنيف لا يرحم ، هو البابوية . ومن ثم أقدموا منفردين على اختيار رودلف دون مشورة البابا (٦٩) . ويدعم أولمان Ullmann هـذا الرأى ايضا حين يقول ان الأمراء فوجئوا بما أقدم عليه البابا فى كانوسا ، من العفو عن هنرى دون أن يستشيرهم فى هذا الأمر ، ولمـا كانوا قد ووجهوا بالأمر الواقع . fait accompli فقد تصرفوا هم الآخرون بنفس الصورة عند اختيارهم لرودلف السوابى (٧٠) . ولعل هذا هو الذى يفسر مغزى الرسالة التى بعث بها جريجورى السابع الى الأمراء الألمان عقب اذلال كانوسا (٧١) .

كان طبيعيا أن يفصـح الأمراء عن نياتهم الحقيقية باختيار رودلف السوابى للعرش الألمانى ، فهم من ناحية اكدوا من جديد حقهم فى « اختيار » الملك ، ومن الأخرى ضمنوا أن يحققوا من خلال الملك الجديد ، الذى صنعته

---

(٦٩) Ch. Brooke, Europe i nthe central Middle Ages, pp.154, 283.

(٧٠) Ullmann, A short history of the Papcy in the Middle Ages, p. 119.

(٧١) Gregory VII, Letter to the German princes giving an account of the incident at Canossa (in Brian Tierney, The Crisis of Church and State, pp. 62-63).

أيديهم ، كل ما كانوا يشكون من ضياعه على عهود هنرى الرابع وأسلافه ، الفرنكونيين بخاصة . ولذا كان رودلف ملكا مفضلا لدى الأمراء ، فقد كان عليه قبل أن يتم اختياره أن يتعهد باعادة حقوق هؤلاء الأمراء ، وظهر هذا واضحا خلال مرحلة المفاوضات التى سبقت اختياره . وكانت الوعود التى قطعها على نفسه تكشف بوضوح — على حد قول المؤرخ الألمانى Mitteis — الاتجاه الى منح رودلف مركز السيد الاقطاعى وليس مركز الملك (٧٢) . ومن ثم كان أهم ما تمخضت عنه عملية اختيار رودلف السوابى ، أن الملكية الألمانية — كما يراها الأمراء ، يجب أن تبقى انتخابية ، وأن يتولى الى الظل مبدأ وراثة العرش . ولذا فقد كان حرص الأمراء باديا على أن يتعهد لهم رودلف بعدم الاقدام على احياء مبدأ وراثة العرش من جديد .

ونتيجة لحرب التقليد العلمانى ، تحطمت محاولة الأسرة الفرنكونية لاقامة ملكية قوية ، فقد ألقت البابوية بثقلها فى الميدان ، واستغلت الأرستقراطية هذا النزاع لتدعيم مصلحتها ونفوذها ، ولعبت الحروب الأهلية (١٠٧٧ — ١٠٨١) دورا كبيرا فى تمزيق وحدة ألمانيا ، واستغلت فترة الثلاثين عاما ، الواقعة بين ١٠٧٦ — ١١٠٦ ، وهى التى لم يكن فيها هنـاك من الناحية القانونية ، ملك معترف به من الألمان جميعا ، فى ممارسة سلطات متزايدة للأرستقراطية ، وبدلا من النظام الفرنكونى للحكومة ، أقامت الأرستقراطية نظاما يتفق ومصـالحها هى ، وأهملت تماما حقوق الملكية . وهكذا شهد المجتمع الألمانى تحولا خطيرا فى تركيبه الاجتماعى خاصة فى الفترة ما بين اتفاقية وورمز سـنة ١١٢٢ واعتلاء فردريك الأول بربروسا العرش عام ١١٥٢ ، بحيث يمكن القول ان ألمانيا تحولت بالفعل الى مجتمع اقطاعى ، بعد أن انتشرت القلاع فى كل مكان ، واختفى الفلاحون الأحرار ، وتحول النبلاء الصـغار الى فرسان وارتبطوا بالسادة بروابط الفصلية (٧٣) . وساعدت الحرب الأهلية فى ألمانيا على التمكين لهذه القوى الجديدة ، وكان كل كسب يحققه الأمراء ، يعد بالتالى خسارة للتاج ؛ ذلك أنه كان عـلى الملوك أن يقدموا باستمرار تنازلات متزايدة لهؤلاء الأمراء لكسب تأييدهم ،

(٧٢) Heinrich Mitteis, Feudalism and German Constitution, p. 241.

(٧٣) Barraclough, op. cit., p. 136.

خاصة التأييد العسكرى . وكان هـذا يعنى اعترافا متزايدا بطموحاتهم الخاصة وبحقوقهم السيادية فى مناطق سيادتهم ، بما فيها سلطانهم على النبالة الدنيا ، وحقهم فى الوراثة . وهكذا أصبح من السهل انتقال لقب الدوق أو الكونت من الأب الى ابنه وكذا الأراضى . وأمست فكرة اقامة دولة لها كيانها السياسى ، خاصة الالتزام العسكرى تجاه الملك ، أمرا عبثا (٧٤) . كما أن الادعاءات الخاصة بالامبراطورية أثرت الى حد كبير فى كفاءة ومقدرة الملكية الألمانية ، بعد أن أغرق الملوك الألمان أنفسهم فى مشكلات ايطاليا ، وتعددت سنوات غيابهم هناك بعيدا عن المانيا ، مما أعطى الفرصة للأمراء الألمان كى يمارسـوا سلطانهم وسيادتهم بعيدا عن أعين الملوك (٧٥) .

كان اختيار رودلف السوابى اذن ، نقطة البدء فى طريق اللا عودة الى مبدأ وراثة العرش ثانية ، واذا حدث من بعد فلن يمثل الا الاستثناء ، كما سنرى زمن أسرة الهوهنشتاوفن . بل لقد استعر الهجوم على الملكية الوراثية عقب موت رودلف السوابى عام ١٠٨٠ ، اذ لقى اقتراحا بتعيين كونراد ابن هنرى الرابع بدلا من أبيه ، رفضا جامحا من أوتو كونت نوردهيم Otto of Nordheim الذى قال : « لا أرى الا عجلا شاردا يولد من ثور هائج ، لذا ، فأنا لا أريد الابن ولا الأب !! » (٧٦) . وكان تمرد هنرى [الخامس] ضد أبيه ، وقبوله التاج واعلان نفسه ملكا بيد الأمراء عام ١١٠٥ ، يعنى اعترافا منه بالسمات الأرستقراطية للمجتمع الألمانى ، وبما وصل اليه سلطان الأمراء . وباختصار ، فان حقوق الارث الملكى والامتيازات التى لا تقبل المناقشة بالنسبة للملكية ، قد انهارت تماما من جراء الصراع حول التقليد العلمانى ، والحرب الأهلية بين عامى ١٠٧٦ — ١١٠٦ وظهر ذلك واضحا فيما قاله أسقف مينز ، الذى طالما أدعى ومارس حق تنصيب الملك ، وراح يناضل الآن من أجل أن يجعل من نفسه « صانع الملوك » ، كى يتحكم فى مصائر المملكة وأقدارها . قال فى عام ١١٠٦ وهو يسلم الأشعرة الملكية الى هنرى الخامس : « اذا لم تغد حاكما عادلا ، حاميا لكنيسة الله ، فانه مصيبك حتما ما أصاب من قبل أباك ! » (٧٧) .

---

(٧٤) Z.N. Brooke, op. cit., p. 506.

(٧٥) أفردنا بحثا خاصا عن هذه الناحية تحت عنوان : « المشكلة الايطالية فى السياسة الألمانية » ، منشور بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد ٣٠ .

(٧٦) Barraclough, op. cit., p. 15, n. 1

(٧٧) Ibid. pp. 153 — 154

ولقد كان على هنرى الخامس أن يقدم بدوره التعهدات على نفسه والتى لا تخرج عن تلك التى أعطاها صاغرا من قبل ، رودلف . فقد وعد هنرى السكسون حتى يحصل على ولائهم عام ١١٠٦ ، وعدا بأن كل فرد سوف يحظى بالعدالة at omnibus iustum indicium faciat . وفى عام ١١١٩ أحنى رأسه للعاصفة ، وجدد وعوده فى عبارات محددة واضحة تجاه المملكة جميعا . لقد كانت النتيجة الطبيعية للانتخاب ، باختصار ، الاعتراف بالحقوق المقررة لأمراء الاقطاع » (٧٨) .

ولو ان الأمور جرت على نحو طبيعى كما كانت تسير قبل عام ١٠٧٦ ، لوجدنا أن السابقتين اللتين جريتا فى عام ١٠٠٢ باختيار هنرى الثانى باعتباره وريثا لأوتو الثالث ، وعام ١٠٢٤ باختيار كونراد الثانى ، لكونه مرشحا من قبل زوجة المالك الراحل هذا ، ليمكن أن تشيرا الى أن الأمراء سوف يقدمون الآن فى سنة ١١٢٥ بعد وفاة هنرى الخامس ، على اختيار فردريك السوابى الهوهنشتاوفنى الوريث الشرعى لهنرى ، والمرشح من قبله قبل وفاته . غير أن هذا أصبح الآن شيئا مستحيلا ، اذ لو حدث لرأى فيه الأمراء عودة الى مبدأ الوراثة ، ولذا فقد عمدوا الى اختيار لوثر Lothar دوق سكسونيا . وكان أدالبرت رئيس أساقفة مينز ، والعدو اللدود لهنرى الخامس ، هو المحرك الأساسى وراء هذا الاختيار ، فقد أغرى الناخبين بعدم احترام وصية هنرى الأخيرة ، بالاضافة الى أن لوثر كان معروفا بعدائه الشديد لسلفه ابان حياته ، ولم تكن لديه أية ادعاءات وراثية فى العرش (٧٩) ولذا كان يضع نصب عينيه أن امتلاكه للتاج راجع فقط الى الانتخاب وحده . وشجع الأمراء على ذلك ، انه كان قد بلغ الخمسين من عمره ، ولم يكن له وريث ذكر ، ولم يبد عليه أى علامة من علامات الطموح فى تكوين أسرة ملكية أو التدخل فى حقوق الأمراء وامتيازاتهم . لقد كان لوثر باختصار أحد أفراد تلك الطبقة الجديدة التى ظهرت نتيجة لحرب التقليد العلمانى (٨٠) .

وطيلة عهد لوثر (١١٢٥ — ١١٣٧) كان يتصرف بما لا يزيد عن كونه

---

(٧٨) Ibid. p. 155

(٧٩) عن دور رئيس أساقفة مينز ، راجع Adalbert, letter to the bishop of Bamberg, (in S.B.M.H., pp. 167).

اما لوثر فكان ابنا لأحد صغار الكونتات فى سكسونيا ، وان كان قد حصل على حكمها سنة ١١٠٦ ، عن طريق اصهاره الى أسرة بيللونج Billung راجع Scott. op. cit., p. 116.

(٨٠) Davis, op. cit., p. 317.

زعيما لجماعة النبلاء أكثر منه ملكا المانيا . ولما ووجه بعداء اصحاب الحق الشرعيين فى العرش ، الهوهنشتاوفن ، ركن الى تدعيم نفسه باقامة حزب قوى الى جواره ، دون أن يدخل فى اعتباره أنه حاكم لملكة . فوزعت الأراضى الملكية لجذب الأنصار ، وارتمى فى أحضان الكنيسة ، وابتاع رضاها بما قدمه من تنازلات باهظة ، وخسرت الملكية الألمانية كل ما كانت قد حققته زمن هنرى الخامس بمقتضى اتفاقية وورمز عام ١١٢٢ . لكن الخسارة الكبرى تمثلت فى تنازله للكنيسة عن أملاك الكونتيسة ماتيلدا ، وقبوله بادعاءات البابوية عليها ، وتلقيها من انوسنت الثانى Innocent II اقطاعا بابويا ، فى مقابل حصوله على التاج الامبراطورى سنة ١١٣٣ ! (٨١) .

وكان هنرى المتكبر Henry the Proud الولفى دوق بافاريا ، من اكبر مؤيدى لوثر عند تتويجه ملكا ، وتدعم التحالف بينهما عام ١١٢٧ بزواج هنرى من ابنة لوثر الوحيدة ووريثته ، وجاء هذا الزواج فى نفس العام الذى حمل فيه الهوهنشتاوفن ، الأعداء التقليديون للولفيين والملك ، السلاح ، وأقاموا ملكا منافسا ، وظلت لهم اليد العليا حتى عام ١١٣٠ ، وان كان التحالف بين لوثر وهنرى قد أدى الى تحسن موقف الملك وانتصاره على خصومه عام ١١٣٥ . وكان لابد أن يكافىء صهره على حسن صنيعه ، فجعله ماركيزا لتوسكانيا وعهد اليه ادارة أملاك الكونتيسة ماتيلدا ، مما جر على الملك غضب الكنيسة فى أخريات سنى حياته . وزاد المسألة تعقيدا فى المانيا ، أن لوثر ضم الى هنرى أيضا دوقية تسكانيا ، فغدا بذلك عند وفاة صهره أقوى المرشحين للعرش ، بسيطرته على بافاريا وسكسونيا فى المانيا، وتوسكانيا فى ايطاليا ، وبتلقيه للأشعرة الملكية من لوثر الذى بعث بها اليه عندما حضرته الوفاة . كما انه عن طريق زوجه جرترود Gertrude ورث ضياع لوثر الخاصة ، التى تشمل أملاك أكبر عائلتين فى سكسونيا قديما ، بينما توجد الأملاك الوسيعة لأسرته فى بافاريا تحت ادارة اخيه ولف Welf (٨٢) .

---

(٨١) راجع Lother, Coronation Oath, 1133. وأيضا الوثيقة الخاصة بمنح اراضى الكونتيسة ماتيلدا كاقطاع بابوى الى لوثر Innocent II grants the land of Countess Matilda to Lothar II, 1133, (in Thatcher & McNeal, A Source book for Mediaeval history, pp. 169-171).

(٨٢) للمزيد من التفاصيل عن المركز المتميز للولفيين ، راجع Z. N. Brooke, op. cit., p. 278.

أضحىٰ من الممكن في ظل هذه الظروف ، قيام حكومة المانية مستقرة ، وأن تغدو الدولة الألمانية قوية . لكن شيئا من هذا لم يحدث ، لأن قيام ملكية ألمانية قوية لم يكن في مصلحة أي من النبلاء او الكنيسة . وكانت شخصية هنرى المتكبر ، بلقبه الذى اقترن باسمه ، تنفر الأمراء والاكليروس من الاقدام على اختيار ملك لابد أن يصبح « متعجرفا » مزهوا بقوته . وهكذا تكرر من جديد ما حدث عام ١١٢٥ بعد وفاة هنرى الخامس ، اذ ضرب بعرض الحائط آراء النفر القليل الذى كان ينادى باعادة مبادىء الشرعية والوراثة ، رغبة في تقوية الملكية (٨٣) ، ولعبت الدوافع الشخصية دورها حاسما ، متمثلة في المندوب البابوى الذى بعث به البابا على عجل ، ليعمل قدر طاقته في المانيا لصرف التاج عن هنرى ، ووقع اختيار الأمراء والمندوب البابوى على كونراد الهوهنشتاوفنى دوق سوابيا ، ليكون ملكا . ولما كان منصب رئيس أساقفة ميتز شاغرا ، بينما تم اختيار رئيس أساقفة كولون لتوه ، فقد تزعم اسقف ترير Trier ادالبرو Adalbro الدعوة لمنع وجود ملك قوى ، يمكن أن ينقض كل التنازلات التى حصلت عليها الكنيسة من قبل على عهد لوثر (٨٤) .

هكذا اكد الأمراء خلال أقل من خمسة عشر عاما ، وعلى مرتين متتاليتين ، حقهم في انتخاب الملك ، وتأكيد كون الملكية الألمانية انتخابية . ولكنهم في الوقت ذاته حكموا عليها بأن تظل ضعيفة ، ودفعوا بألمانيا الى عداء اقطاعى مدمر بين الولفيين والهوهنشتاوفن (٨٥) زاده ضراما ضعف شخصية كونراد ، ولجوئه الى نفس الأسلوب الخاطىء ، قصير النظر الذى سار عليه سلفه لوثر ، فأقام الى جانبه حزبا مناوئا للولفيين ، فعين

---

(٨٣) Barraclough, op. cit., p. 158.

(٨٤) Z. N. Brooke, op. cit., pp. 278 — 79.

وايضا Thompson & Johnson, op. cit., p. 393.

(٨٥) Scott, op. cit., p. 119.

البرت الدب Albert the Bear على سكسونيا ، وليوبولد Leopold الأخ غير الشقيق للملك ، دوقا على بافاريا ، بعد أن انتزعهما من هنرى المتكبر . غير أن ذلك لم يؤد الا الى اشعال نيران الحرب الأهلية ، فلما فشلت محاولاته ، وانتصر الحزب المؤيد لهنرى الأسد ، ابن هنرى المتكبر ووريثه ، لجأ الى عملية تغذية هـذه النيران ، فحرض برانبدبرج ضد سكسونيا ، وأوستريا (النمسا) ضد بافاريا . غير أن هذه السياسة كشفت الى أى مدى أمست الملكية الألمانية الى ضياع .

ولم يكن أمام الملك من طريق سوى استرضاء الأمراء ، حتى أنه عند اعتلاء كونراد الثالث العرش ، كانت كل الضياع قد أصبحت وراثية ، بينما تحولت أراضى التاج الى رقع مبعثرة ، خاصـة فى شمالى المانيا ، سواء من حيث المساحة أو الامتداد (٨٦) . وفى عام ١١٢٥ حمل التغيير فى الأسرة الحاكمة الى مزيد من التدمير لأراضي التاج ، فقد ذهب جزء كبير منها الى اسرة الهوهنشتاوفن ، بمقتضى الظن عند هنرى الخامس بانتقال العرش اليها عن طريق فردريك السوابى الذى بعث اليه هنرى بالأشعرة الملكية . ثم ازدادت المشكلة تعقيدا عام ١١٣٨ بذهاب أراضى التاج الى هنرى المتكبر ، بحكم الظن أيضا بانتقال العرش اليه بعد وفاة لوثر . حتى أن هنرى — كما أسلفنا — غدا بالأراضى الواقعة تحت سلطانه ، أقوى من كونراد الثالث نفسه عند اعتلاء العرش . ولا ريب أن ضعف الدعائم المادية للملكية ، مع ازدياد وتقوية الحقوق الخاصة بالأمراء ، يعد السمة الرئيسية للفترة الواقعة ما بين عامى ١١٠٦ و ١١٥٢ ، حيث أصبح الملك يعد عند الأمراء الأول بين أقرانه Primus inter pares (٨٧) . ولقد أصـاب أوتو الفريزى Otto of Freising كاتب سيرة فردريك الأول Gesta Frederici عندما ذكر أن الملكية التى كانت زمن الفرنكونيين وراثية عملا ، أمست فى

---

(٨٦) Bryce, op. cit., p. 162.

(٨٧) Barraclough, op. cit., pp. 159-162.

عام ١١٥٢ انتخابية تتم حسب رغبات الأمراء ؛ ذلك ان العمد التى ارتكزت عليها الملكية الفرنكونية كانت قد ولت ، فالكنيسة غدت اقطاعية ، ولم يعد الأساقفة على ولائهم للتاج ، والموظفون الملكيون الذين اعتمد عليهم هنرى الرابع فى برنامجه ، تأرجحت أهواؤهم بفعل عدم استمرارية الأسرة الحاكمة أو سياستها (٨٨) .

وفى عام ١١٥٢ مات كونراد الثالث ، وتغاضى الأمراء عمدا عن ابنه الأكبر ، وتحولوا الى اختيار ابن أخيه فردريك دوق سوابيا ، ورغم أن الأمر بدا على هذا النحو يمثل تأرجحا بين الوراثة والانتخاب ، الا ان الأمراء كانوا يدركون تماما ، أن البديل لذلك هو الوقوع تحت سطوة زعيم البيت الولفى ، الشخصية القوية الصارمة ، هنرى الأسد . يضاف الى ذلك ان الأمراء رأوا فى فردريك شخصية قد توقف نزيف الحروب الأهلية والصراعات الداخلية بين العائلات الأرستقراطية الكبيرة ، فقد كان فردريك ودودا مع الولفيين ، كما أن أمه جوديث Judith كانت أختا لهنرى المتكبر (٨٩) . لذا لم يلق اختيار فردريك بربروسا الهوهنشتاوفنى معارضة ، كما حدث لسلفيه من قبل . وكان أول شىء أقدم عليه الملك الجديد اظهار حسن النية من جانبه تجاه الولفيين ، فاعترف بحق هنرى الأسد فى الأراضى التى يسيطر عليها بالفعل عبر نهر الالب ، وكذلك سكسونيا ، ورد عليه دوقية بافاريا ، وأقطع الولفيين ايضا أراضى امبراطورية فى توسكانيا ، فاستطاع بهذه العلاقات ان يجعل من الأمراء الألمان قوة الى جانبه (٩٠) .

غير أن هذه السياسة التى لجأ اليها فردريك بربروسا فى أول عهده ، لم تكن تنم عن شخصيته أو أهدافه الحقيقية ، بل جاءت ترضية لخواطر

---

(٨٨) Ibid, p 162.

(٨٩) Z.N. Brooke, op. cit., p. 287.

(٩٠) Thompson & Johnson, op. cit., p. 394.

الأمراء وتهدئة للأمور فى المانيا بعد فترة عصيبة ، لعبت بها النزعات والأهواء الشخصية كثيرا منذ حرمان هنرى الرابع حتى وفاة كونراد الثالث (١٠٧٦ ــ ١١٥٢) . لقد كان فردريك يدرك تماما حقوقه الملكية ومدى سلطانه ، شأن اى سيد اقطاعى ، ولم يكن يدخر وســعا فى سبيل تثبيت هذه الحقوق ، ولذا فقد أضحى البلاط الملكى على عهده بتوالى السنين ، شيئا يثير الرهبة فى النفوس ويبعث عــلى الاحترام . وكان زواجه من بياتريس Biatrice وريثة كونتية برجنديا ، قد حمل اليه أرضا جديدة وافصالا تابعين (٩١) أما فيما يختص بالكنيسة ، فان فردريك ، بعد التبعية والخضوع الذى كان قد أظهره كل من لوثر وكونراد تجاهها ، عاد بصورة متطرفة الى تلك السياسة التى انتهجها الأوتوويون من قبل . فأعلن عزمه على التمسك بكل الحقوق التى أعطيت للتاج بمقتضى اتفاقية وورمز ١١٢٢ ، وكان الســبيل الذى انتهجه فى ذلك يدور حول استبدال الأساقفة المصلحين الذين يرغبون فى تركيز السلطة الكنسية فى يد روما ، بغيرهم من الأساقفة السياسيين ، من المدرسة الألمانية القديمة ، والذين لم يهجروا جانبه مطلقا ، بما يتميزون به من العناد . وكان من أبرز هــذه الشخصيات رينالد Rainald رئيس اساقفة كولون ، وقد ظل حتى اليوم الأخير من حياته يعمل فى خدمة الدولة ، ويستحث فردريك على الدفاع عن حقوقه الى درجة ربما أبعد مما كــان يسعى اليها فردريك نفسه . كما أنه وجد فى كريستيان رئيس أســاقفة مينز ، عقلا متقدا ونصيرا غيورا (٩٢) .

وكان من بين الدعامات التى لجأ اليها فردريك لتدعيم نفوذه وأسرته ، حرصه على أن يوجد الى جواره ادارة تنفيذية تعمل بأمره ، وأراضى واسعة للتاج وخاضعة له مباشرة ، ورغبته فى تطبيق مبادىء القانون الاقطاعى ،

---

(٩١) Ibid. p. 395.

(٩٢) Ibid. pp. 395-6. وأيضا C.M.H. Vol. V, pp. 392-397.

بجعل الهيراركية العسكرية Heerschild ونظام القيادة العسكرية مرتبطا أيضا بالتاج • وكان هذا يعنى مدخلا طبيعيا لمفهوم وحدة monistic الدولة فى المانيا (٩٣) • وهذا يستتبع بالتالى العودة الى اقرار مبدأ الوراثة فى العرش ، والذى كان قائما أيام الأسرتين السكسونية والفرنكونية • وهذا بدوره سوف يقود حتما مقضيا الى الصراع مع الأمراء والكنيسة جميعا • وقد تهيأت الفرصة لفردريك بربروسا فى عام ١١٨٠ عند تحطيمه لقوة خصمه هنرى الأسد ، وكان الأخير قد استغل التفوق الضخم الذى حازه ، بما أغدقه عليه فردريك فى البداية ، فراح يطبق نظاما عسكريا صارما فى سكسونيا ، واهتم بتأسيس المدن فى مناطق نفوذه مثل برونزويك Brunswick وميونخ Munich ويمارس سياسة خارجية مستقلة ، فأصهر الى هنرى الثانى ملك انجلترا وتزوج ابنته ، وقام برحلة الى الأراضى المقدسة ، واستقبل رسل الامبراطور البيزنطى ، الذى كان على عداء مع الملك الألمانى • فلما استشعر فى نفسه القوة ، رفض الاشتراك فى الحملة الخامسة التى قام بها الامبراطور الى ايطاليا عام ١١٧٦ ، وكان لغيابه أثره الكبير فى هزيمة فردريك فى موقعة ليناتو Legnano ، وما ترتب عليها من اعادة تكرار مشهد كانوسا ثانية فى البندقية ، على يد البابا اسكندر الثالث • فلما عاد الملك الى المانيا ، راح يستجمع قواه وقوى الامراء الحاقدين على هنرى الأسد ، وتمكن من تحطيمه سنة ١١٨٠ (٩٤) •

غير أن فردريك فوت على نفسه وأسرته فرصة اقامة ملكية ألمانية وراثية قوية ؛ وذلك بالأسلوب الذى اتبعه بعد تدمير قوة خصمه ؛ ذلك أن عقابه جرى فى اطار النظام الاقطاعى ، فباعتبار هنرى فصلا اقطاعيا

---

(٩٣) Mayer, op. cit., pp. 28-29.

(٩٤) عن تفاصيل هذه الأحداث ، راجع
Z.N. Brooke, op. cit., pp. 51, 501-503.

متمردا ، أدين بمقتضى القانون أو النظم الاقطاعية ، فجرد من ممتلكاته كعقوبة اقطاعية أيضا . وبدلا من ضم هذه الأراضى والممتلكات الى التاج لتقويته ، وزعت على صغار النبلاء الذين ساعدوه فى محاكمة هنرى والقضاء عليه . وكانت هذه سابقة خطيرة ، بحيث لم يستطع اى ملك المانى فيما بعد أن يضم أراضى مصادرة لفصل متمرد الى ملكية التاج ، هذا على عكس ما حدث بعد ذلك بعشرين عاما فى فرنسا ، عندما أقدم فيليب أوغسطس بعد هزيمة جون ملك انجلترا ، على ضم نورماندى الى أراضى أسرة كابيه (٩٥) . لكن الشىء الجدير بالذكر أن سياسة فردريك هذه بتوزيع ممتلكات هنرى الأسد ، غيرت الخريطة السياسية والاجتماعية لألمانيا ، واذا كانت قد ضمنت له السيادة على المانيا طيلة عهده ، بعدم وجود قوة كبيرة تماثل قوة هنرى الأسد ، الا أنها عملت على تفتيت وحدة ألمانيا تماما ؛ فقد اختفت أو كادت الدوقيات الكبيرة القوية ، وحلت محلها دوقيات صغيرة هزيلة ، وأصبح لقب الدوق ومنصبه وليس له نفس البريق الذى كان من قبل ، وظهرت نبالة جديدة لم تكن ضمن طبقة الأرستقراطية النبيلة من العائلات العريقة . وترك ذلك آثاره السيئة على مستقبل المانيا فيما بعد ... وأثبت فردريك بذلك انه لم يكن رجل سياسة من الطراز الأول (٩٦) .

ومع أن الحملات العسكرية المتتالية التى قادها فردريك الى ايطاليا ، قد أرهقت المانيا من أمرها عسرا ، الا ان ما حصل عليه فردريك فى النهاية بمقتضى نجاحه فى زواج ابنه هنرى السادس من الأميرة كونستانس وريثة عرش النورمان فى صقلية ، عوضه كثيرا عن جرح كبريائه أمام مدن العصبة اللومباردية فى شمالى ايطاليا ، والبابوية . وضمان فردريك العرش الألمانى من بعده لابنه هنرى السادس ، يعد هو الآخر نجاحا وان كان مؤقتا لمبدأ الوراثة ؛ ذلك أن العمر القصير الذى أمضاه الملك الجديد على العرش (١١٩٠ — ١١٩٧) ، وانشغاله المستمر بتثبيت دعائم ملكه فى

---

(٩٥) Barraclough, op. cit., pp. 189, 193-4.
وراجع أيضا Slesser, The Middle Ages in the West, p 113.
(٩٦) Z. N. Brooke, op. cit., pp. 503-506.
وأيضا Freiherr V. Dungern, op. cit., p. 221.
وراجع كذلك Ganshof, Feudalism, pp. 160-161.

صقلية ، وحروبه فى ايطاليا ، وطفولة ابنه ووريثه ، وضعف خلفه فيليب السوابى ، والحرب الأهلية الضروس التى استمرت ستة عشر عاما ، كل هذا أطاح لقرون طويلة آتية بامكانية قيام ملكية وراثية قوية فى ألمانيا .

لقد شهدت نهاية القرن الثانى عشر ، وبواكير القرن الثالث عشر ، قمة المأساة فى الصراع الطويل بين مبداى الوراثة والانتخاب للعرش الملكى فى ألمانيا . وحسمت لصالح الانتخاب . ولعبت فيها البابوية دورا رئيسيا الى جانب الأمراء الألمان ، ان لم يكن الدور كله . فقد كان يعنيها فى المقام الأول فرض سلطانها وسيادتها على ألمانيا فى اطار نضالها من أجل السيادة العالمية . ولقد كان أنوسنت الثالث — على حد تعبير باراكلاف (٩٧) — على استعداد ليس فقط لتدمير السلام فى ألمانيا ، بل لجعل دول أوروبا جميعها تعلن الحرب ضد بعضها بعضا . هذا على الرغم مما كان يعلنه من أنه لا يريد بالامبراطورية شرا . لكن الامبراطورية التى كان يعنيها ، كانت شيئا غير ذلك تماما . لقد كان يعنى امبراطورية بمفهومه الخاص ، وليست تلك الامبراطورية التاريخية التى نهضت من وحل مشكلة التقليد العلمانى بفضل عبقرية الهوهنشتاوفن . كما أن امتداحه للوثر الثانى ، يكشف عن افكاره التى تعود بنا الى جريجورى السابع ، وهى تقوم على أساس أن يختار الملك بواسطة الأمراء ، ولا يصح له ممارسة سلطاته الا بعد أن يتم التمحيص الواجب من جانب الكرسى الرسولى ، كى يحصل على الموافقة والتثبيت والرضى من قبل البابا .

وهذا هو ما حدث تماما ابان الأزمة التى تفجرت بالموت المبكر لهنرى السادس ، بينما ابنه ووريثه فردريك (الثانى) يحبو فى عمر الطفولة . لقد بذل هنرى قصارى جهده لاغراء الأمراء الألمان لجعل العرش وراثيا ، بحيث يخلفه ابنه بصورة تلقائية امبراطورا وملكا على صقلية . ونجح فى مارس ١١٩٦ من الحصول على تأكيد من جانب اثنين وخمسين أميرا ، اجتمعوا فى فيرزبرج Wursburg بقبول مبدأ الوراثة على العرش . ولكن لم يكن

---

(٩٧) Barraclough, op. cit., p. 207.

هناك تجربة سابقة يمكن أن تكون ضمانا مؤكدا على أن الأمراء سوف يلتزمون بما عاهدوا عليه هنرى ، اذا ما مات قبل أن يصل ابنه الى سن الرشد (٩٨) . وهنا يبدو الخلاف كبيرا بين ما آلت اليه الملكية فى ألمانيا ، وما كانت قد بلغته فى انجلترا وفرنسا . فهنا كان الملوك قادرين على فرض هذا المبدأ بمقتضى التقليد الذى أصبح متوارثا جيلا بعد جيل . أما هنرى فقد اضطر الى أن يشترى موافقتهم بمزيد من التنازلات ، فاعترف لهم بحق الوراثة كاملة فى اقطاعاتهم ، وامتد ذلك ليشمل أيضا الاناث والأصهار . أما بالنسبة لرجال الاكليروس ، فقد منحهم حقوقا مساوية لهذه فيما يتعلق بالتصرف فى الوصية . لقد كانت أسرة الهوهنشتاوفن بدءا بكونراد الثالث ثم فردريك الأول ، فابنه هنرى السادس ، فابنه فردريك الثانى ، تسعى حقيقة الى تدعيم نفوذها كأسرة قوية ، لكن الوسائل التى استخدمها التاج فى سبيل ذلك ، استخدمها الأمراء أيضا فى أراضيهم ، وهى القواعد الأساسية فى سيادة الأمراء وازدياد نفوذهم (٩٩) . وحتى هذه التنازلات التى قدمها هنرى ، لم ترض جميع الأحزاب ، فعدد من الأمراء ، ومن بينهم دوق النمسا ، كانوا قد حققوا بالفعل هذه الحقوق الوراثية بامتيازات خاصة .

وتمثلت المصالح والدوافع الشخصية خير تمثيل فى موقف كل من البابا كلستين الثالث .Celestine ورئيس أساقفة كولون . فهذا الأخير ، شأن قرينه أسقف مينز (١٠٠) ، كان يدعى حقا قديما فى تتويج الملك المختار لألمانيا بيد الأمراء ، رأى أن نجاح هنرى فى ضمان العرش من بعده لابنه ، يعنى تهديدا لسلطانه . أما البابا والذى كان متفقا مع أسقفه أول الأمر ، فقد أقدم على تتويج فردريك الثانى ملكا ، متخطيا حق أسقف كولونى فى هذا

(٩٨) Waly, op. cit., p. 74 وايضا Scott, op. cit., pp. 256-257.

(٩٩) Freiherr V. Dungern, op. cit., p. 221.

(١٠٠) هناك وثيقة خاصة بأسقف مينز فى هذا الشأن تعود الى سنة ١٢٩٨ ، وصادر عن الملك البرت Albert راجع ذلك فى Thatcher & McNeal, A Source book for Mediaeval history, pp. 276-277.

السبيل ، ضاربا عرض الحائط بغضبه ، وذلك عندما لوح له هنرى باستعداده للخروج فى حملة صليبية ، وبالدخل الذى كان يحصل عليه البابا بمقتضى الاتفاق بين أبيه فردريك الأول والبابا لوقا الثالث ، من جميع كنائس الامبراطورية بدلا من المناطق المتنازع عليها فى وسط ايطاليا (١٠١) ، وهو الذى لابد أن يسيل له لعاب البابوية . ومع أن البابا قد رفض مقترحات هنرى باقامة ملكية وراثية ، بعد أن رأى اشتداد المعارضة من جانب الأمراء خاصة دوق اللورين ، الا أن هنرى سرعان ما اكتسب ثقة الأمراء ، وزعامة المانيا عندما أعلن اعتزامه الخروج بالحملة الصليبية التى كان قد وعد بها ، وبمزيد من التنازلات ، وافق الأمراء فى ٢٥ ديسمبر ١١٩٦ على تعيين فردريك ابنه ملكا (١٠٢) . ومع أن هذا الذى تحقق لم يكن يمثل نجاحا لكل مشروعات هنرى السادس ، الا انه ضمن على الأقل استمرارية الأسرة على العرش . وان كانت هذه الأحداث كشفت بجلاء عن حقيقتين هامتين : قوة الأمراء وازدياد نفوذهم ، وارتباط مصالحهم بالمصالح البابوية .

على أن الشىء الذى يستلفت الانتباه حقا ، هو أن الأمراء الألمان كانوا فى حالة تعرض المانيا لخطر خارجى يهددها ، يتناسون — الى حين — خلافاتهم ونزعاتهم الشخصية ، حتى وان كانت مسألة ظاهرية . وقد تمثل ذلك عند الموافقة على اختيار هنرى الأول الصياد ، ثم الموافقة الاجماعية عند تعيين أوتو الأول ملكا ، وكذلك الرضى العام الذى صحب اختيار فردريك الأول برباروسا . وقد تكرر نفس الشىء الآن بعد وفاة هنرى السادس المفاجىء والمبكر عام ١١٩٧ : فالأمراء الذين يحملون راية الصليب فى الشرق ، اعلنوا ولاءهم لفردريك الثانى . وفى صقلية أظهر ماركوارد Markward أمير انويلر Anweiler الحليف القوى والموالى لهنرى السادس ، قوة كبيرة فى الدفاع عن الحقوق الألمانية فى صقلية (١٠٣) . أما

---

(١٠١) للمزيد من التفاصيل ، راجع Ullmann, A short history of the Papacy in the Middle Ages, pp. 204-206.

(١٠٢) Barraclough, op. cit., p. 203.

(١٠٣) C.M.H. Vol. V, p. 479, VI, 12.

فيليب السوابى ، أخو هنرى السادس ، تقدم لتوه من توسكانيا وأعلن وقوفه الى جانب فردريك ، وأغرى زعماء سكسونيا وبافاريا باختياره وصيا على العرش ، حتى يبلغ فردريك سن الرشد (١٠٤) . وهكذا فان حقوق الوراثة فى أسرة الهوهنشتاوفن ، والتى تحداها الأمراء عام ١١٩٦ ، وهنرى السادس بعد حى ، قد ارتضوها الآن سنة ١١٩٨ عندما اختاروا رودلف السوابى ملكا بعد أن أعطى المواثيق والضمانات بعدم المساس بحقوق فردريك الثانى ابن أخيه .

كان من الممكن جدا أن تفيق ألمانيا من صدمتها العنيفة بوفاة هنرى السادس، وأن تستجمع قواها من جديد فى ظل ملكية موحدة كما أرادها الهوهنشتاوفن ، لكن عاملين هامين قلبا كل هذه الاحتمالات وبدداها ، أولهما تدخل البابوية بصورة سافرة متمثلة فى شخصية انوسنت الثالث الذى يعيد الى الأذهان ذكرى سلفه جريجورى السابع ، والذى وضع نصب عينيه منذ اليوم الأول لاعتلائه العرش تحطيم أسرة الهوهنشتاوفن ، وبالتالى تحطيم الامبراطورية ، لتتحقق للبابوية السيادة العالمية الكاملة . وثانيهما التدخل الأجنبى فى شئون ألمانيا من جانب فرنسا وانجلترا ، ولم يكن ذلك راجعا لمصالح لهما فى ألمانيا ذاتها ، بقدر ما كان انعكاسا للصراع الطويل بينهما حول الوضع القانونى لمنطقة نورماندى ، بعد أن أصبحت مشكلة غاية فى التعقيد فى أعقاب فتح دوقها وليم لانجلترا فى عام ١٠٦٦ واعلان نفسه ملكا عليها ودوقا لنورماندى . ولما كانت عائلة الولفيين ترتبط برباط المصاهرة مع البيت الانجليزى الحاكم ، منذ أصهر هنرى الأسد الى هنرى الثانى ملك انجلترا ، بالاضافة الى ما كان من أمر وقوع ريتشارد الأول ملك انجلترا فى أسر هنرى السادس ، فى طريق عودته من الأراضى المقدسة ، واستمرار بقائه أسيرا طيلة عامين . ازاء هذا كان طبيعيا أن تلقى فرنسا بثقلها الى جانب الهوهنشتاوفن حتى لا تدع لانجلترا فرصة الانفراد باحراز نصر سياسى لها عن طريق انصارها فى ألمانيا . الا أن عاملا ثالثا كان له أكبر الأثر فى نجاح مسعى هذين العاملين ، الا وهو طفولة الوريث الشرعى فردريك الثانى ،

(١٠٤) C.M.H. Vol. VI, pp. 45-46.

ممـــا أعطى الفرصـــة الســـانحة للحزبين الكبيرين فى المانيـــا ، الولفيين والهوهنشتاوفن ، أن يصطرعا حول العرش . وعلى البابوية أولا واخيرا تقع مسئولية هذه الفترة العصيبة من تاريخ المانيا ، والتى كانت نقطة فاصلة فى تحويل مسارها التاريخى الى دولة ممزقة الأشلاء مهلهلة ، كما أرادتها البابوية ! .

ولقد ظهر ذلك واضحا من تلك اللهجة العنيفة والتوبيخ ، الذى وجهه انوسنت الثالث الى كونراد رئيس أساقفة مينز سنة ١٢٠٠ ، عندما حاول جاهدا ايقاف نزيف الدم المتدفق فى المانيا من جراء التطاحن بين الأحـــزاب المتصارعة ؛ لأن هذا يعنى ــ كما أفصـــح البابا ــ أن تقف المانيا جبهة موحدة ، وهذا يجرد البابوية من حجية التدخل فى شئون الامبراطورية (١٠٥). أما الأمر الثانى فيتمثل فى تلك الأوامر البابوية الصادرة الى المندوب البابوى فى الغرب فى نفس العام ، ببذل كل جهد لعرقلة اتمام الصلح الذى كـــانت المفاوضات تدور بشأنه بين فرنسا وانجلترا ، لان اتمامه ســـوف يوقف تسابقهما على التدخل فى الشئون الألمانية ، ويوقف بالتالى الفوضى الحادثة فى المانيا ، ويجعلها تلتئم تحت سيادة الهوهنشتاوفن ، أصـــحاب الحق الشرعى فى العرش ، وهذا لا شك يؤلم البابوية ! (١٠٦) .

وكان عدد كبير جدا من أمراء المانيا ، ممن يمثلون الأرستقراطية النبيلة ، قد اجتمعوا على اختيار فيليب الســـوابى ، أخى هنرى السادس ، ملكا على المانيا عقب وفاة هنرى مباشرة ، وتم تتويجه فى مينز فى الثامن من سبتمبر ١١٩٨ . وفى مايو من العام التالى ، التقوا فى سباير Speyer وكتبوا الى البابا انوسنت الثالث ، يخبرونه أن اختيارهم للملك أمـــر لا رجعة فيه ، وحق لا يمكن نقضه ، ويوضحون له أنهم سوف يظهرون فى روما قريبا لاتمام الاجراءات الرسمية لتتويجه امبراطورا . وارتج الأمر

---

(١٠٥) Barraclough, op. cit., p. 207.
(١٠٦) Id.

على انوسنت الذى كان يرى فى هذا التصرف خروجا على طاعته بمقتضى السلطة البابوية التى يدعيها الجالسون على الكرسى الرسولى فى روما ، وحاول أن يوضح لهم اعترافه بحقهم فى اختيار الملك ، لكنه ذكرهم أن التاج الامبراطورى يمنح من البابا وحده ، وأنه فى حالة تنازع مرشحين على العرش ، فان المسألة تحتاج الى تمحيص دقيق ، وهذا يستدعى بعض الوقت . وكان هدف انوسنت من ذلك واضحا ، كى يدفع كلا المرشحين لطلب عونه ، وبالتالى تقديم تنازلات واسعة (١٠٧) . لكن اجتماع سباير فى جوهره أعاد الى الأذهان من جديد ، ذلك المفهوم القديم جدا عن الامبراطورية ، والذى أحياه فردريك برباروسا ، متحديا ادعاءات البابوية ، معلنا — كما أسلفنا — أن من يتم اختياره من جانب الأمراء ، يصبح امبراطورا شرعيا ، حتى قبل أن يحصل على موافقة البابا (١٠٨) .

وفى مقابل فيليب السوابى ، اجتمع عدد قليل من انصار البيت الولفى ، واختاروا أوتو الرابع دوق برنسويك ، ابن هنرى الأسد ، ملكا منافسا ، وتوجوه فى آخن فى الثانى عشر من يولية ١١٩٨ . ولعبت الرشوة التى قدمها ملك انجلترا للأمراء الألمان فى الشمال الغربى دورا كبيرا فى هذا الاختيار ، حتى غدا الأمراء — كما وصفهم باراكلاف — مجرد جنود مرتزقة من كثرة ما دفع لهم من فرنسا وانجلترا (١٠٩) . وقد حمل هذا الترشيح معه نذر شر مستطير بالنسبة لألمانيا ، فقد أفقدها لأمد بعيد امتد حتى القرن التاسع عشر ، أملها فى دولة موحدة . وكان أوتو غريبا عن الأرض الألمانية ، اذ لم ير أرض آبائه من قبل ؛ فقد ولد فى نورماندى ، ونشأ فى بلاط انجلترا ، وأعلن ايرلا على يورك ١١٩٠ ، وكونتا لبواتو Poitou فى ١١٩٦ . وصفه أحد المعاصرين بأنه كان « غطريسا غبيا » (١١٠) . ولما كان لا يملك أى حق أو سند شرعى يؤهله لاعتلاء العرش ، فقد أعلن على الفور قبوله لكل شروط البابا ونظريات البابوية فى السيادة .

---

(١٠٧) Stephenson, op. cit., p. 406.

(١٠٨) راجع صفحة ١٠٩

(١٠٩) Barraclough, op. cit., p. 210.

(١١٠) Slesser, The Middle Ages in the West, p. 128.

ودون أن نخوض فى تفاصيل الصراع الداخلى والحرب الأهلية التى استمرت ما بين عامى ١١٩٨ و ١٢١٤ أى ستة عشر عاما (١١١) ، فان ما يعنينا منها تلك الوثيقة الهامة ، التى سجلها على نفسه البابا انوسنت الثالث والتى تفصح دون أدنى ريب عن أهداف البابوية ومصالحها ومطامعها فى المانيا ، وتشجيعها لاستمرار هذه الحرب الأهلية الطاحنة ، واصرارها على ان تظل الملكية الألمانية انتخابية وليست وراثية ، حتى تتاح لها الفرصة للتدخل فى شئونها .

والوثيقة خاصة بقرار المفاضلة بين المرشحين الثلاثة ، فيليب السوابى ، وأوتو الرابع ، وفردريك الثانى (١١٢) ، وصدرت عن البابا سنة ١٢٠١ ، أى بعد ثلاث سنوات من الانتظار والترقب من جانب الأحزاب المختلفة ، والتعمد من جانب البابا . وقد جاء فى ديباجتها أن من مهام البابا النظر فى توفير الأمان والخيرية للامبراطورية ، وأنه « مادام الأمر قد انعقد باختيار ثلاثة ملوك من جانب الأحزاب المختلفة ... فان أمورا ثلاثة أيضا لابد أن توضع فى الاعتبار عند المفاضلة بينهم ، وهى الشرعية والصلاحية واسلوب الاختيار » . وراح انوسنت يطبقها على المرشحين واحدا بعد الآخر ، واعترف صراحة بأن « الشاب — يعنى فردريك الثانى — ليس هناك أى سبب قانونى للاعتراض على انتخابه ، لأنه قد حظى من قبل بالأيمان التى أخذها أبوه على الأمراء .. وان الأمراء قد صدروا عن ذلك بمحض اختيارهم .. ليس من الحق اذن معارضته » . ورغم هذا الاعتراف الصريح ، الا أنه رفض تاييده ، « لأن الأمراء عندما اختاروه ، اختاروا للامبراطورية شخصا لا يصلح لها ولا لأى منصب آخر ، لأنه لم يكن قد تجاوز من العمر عامين ... ولما كان لا يمكن حكم الامبراطورية عن طريق وصى على العرش ، أو نائب ،

---

(١١١) تراجع تفاصيل هذه الأحداث فى بحثنا الذى افردناه لذلك تحت عنوان « السمو البابوى بين النظرية والتطبيق » .

(١١٢) Innocent III, The decision of the disputed election of Frederick, Philip of Suabia, and Otto, 1201, (in Thatcher & McNeal, A Source book for Mediaeval history, pp. 220-227).

ولما كانت الكنيسة لا ترغب ولا تقدر على أن تمارس رعايتها دون امبراطور ، لذا كان من الضرورى اختيار شخص آخر » .

أما فيما يتعلق بفيليب السوابى ، « فلا يبدو أن هناك أيضا من الناحية الشرعية والقانونية مـــا يعترض اختياره » ، حيث اختاره عدد كبير من الأمراء ، من ذوى المرتبة الرفيعة ، وهكذا « فان اختياره يبدو شرعيا ... ولكن دون اختياره عقبات ... فهو قد حرم كنســيا لأنه استولى على اراضى القديس بطرس فى توسكانيا ودمرها ورفض المصالحة » . لكن أهم ما فى الأمر هنا قول انوسنت الثالث ؛ **« وليكن واضحا أيضا ، أنه ربما يكون من اللائق أن نعترض على اختياره ، لأنه باعتلائه العرش ، سوف يرث الأخ اخاه ، كما ورث الابن من قبل اباه ، عندما سلم فردريك الأمر الى ابنه هنرى السادس ، وحاول هنرى أن يسلمه أيضا لابنه فردريك الثانى . وهكذا فان الامبراطورية سوف تنحو الى أن تصبح وراثية ، وبالتالى سوف تغدو المفسدة قانونا بحكم طول العادة !! »** .

وهذا هو بيت القصيد فى القضـــية كلها .. فالبابوية لا يعنيها قرار الحرمان هذا . فقد كان بمقدورها أن تضعه عن كاهل من حملته اياه ، ولا تقيم وزنا للشرعية أو الصلاحية أو اسلوب الاختيار ، وهى القواعد الثلاث التى وضعها بنفسه انوسنت فى البداية معيارا للمفاضلة . وهـــذا يتضح على الفور من حديثه عن أوتو الرابع حين يقول : « انه يبدو للوهلة الأولى انه ليس من اللائق قانونا الوقوف الى جانبه ، لأنه اختير على يد نفر قليل ، كما أن حزبه قليل وضعيف » (١١٣) . ومع ذلك فهو يؤيد اختياره ويعتبره افضل المرشحين الثلاثة ، ويعلنه ملكا على المانيا .

كان هذا القرار من جانب انوسنت الثالث ، ضربة قاضية وجهت الى مبدأ الوراثة فى الملكية الألمانية ، وانتصار ساحقا لمبدأ الانتخاب . لكن الضحية فى حلبة الصراع كانت المانيا ذاتها التى حرمت قيام دولة قوية موحدة ، حتى

---

(١١٣) كان عدد الأمراء الذين اختاروا فيليب السوابى ، ٢٦ أميرا ، بينما أيد أوتو ستة أمراء فقط . راجع Slesser, op. cit., p. 129.

سبعينيات القرن التاسع عشر ، على النحو الذى عرضنا له فى مقدمة بحثنا ؛ ذلك أن البابوية لم تقف عند حد اصدار القرار ، بل مارست التدخل العلنى السافر ، وراحت تنقل تأييدها — دون مراعاة لأية مبادىء — من فريق الى آخر حسبما تقتضى مصالحها . فها هى تؤيد أوتو الرابع ، فيقدم لها تنازلات مهينة على حساب الملكية الألمانية ، حتى اذا احسست أن قضيته امست خاسرة ، وأن كفة فيليب هى الراجحة ، قلبت لحليفها الأول وصنيعها ظهر المجن ، واعطت خصمها الهوهنشتاوفنى كل تأييدها ، وحصلت منه بالتالى على تنازلات أشد مهانة (١١٤) . حتى اذا اختطفه الموت غيلة عام ١٢٠٨ ، والتف الأمراء حول أوتو الرابع ثانية ، بعد أن سئموا هذه الحرب الطويلة ، أعلنت من جديد وقوفها الى جواره ، لكنها سرعان ما سعرت لهيب الحرب ضده عندما رأت فيه هوهنشتاوفنى السياسة ، رغم أصله الولفى ، وانه يسعى لاقامة المانيا قوية مرة أخرى . وعادت تستدعى ذلك « الشاب » — كما يصفه البابا — فردريك ، الذى نبذته مكانيا قصيا ، واعلنته ملكا ، ولم يتوان فردريك هو الآخر عن تقديم المزيد من التنازلات الأقصى مهانة (١١٥) . وخلال هذا كله كانت فرنسا وانجلترا تستبقان من أجل تحقيق نصر سياسى فى المانيا ، يحقق بالتالى كسبا فى نورماندى ، حتى تمكنت القوات الفرنسية المناصرة لفردريك ، من انزال هزيمة قاسية عند بوفان Bouvines سنة ١٢١٤ بالقوات الانجليزية الولفية المشتركة ، اضحت فرنسا على اثرها ، اكبر قوة سياسية فى أوروبا ، بينما انحطت المانيا الى السفح تضمد من نفسها الجراح ! .

ورغم أن فردريك الثانى (١٢١٢ — ١٢٥٠) بعث قوة أسرة الهوهنشتاوفن ثانية ، ونفخ فى روح المانيا من جديد ، الا أن عهده كان بريقا خاطفا سرعان ما خبا فى الظلام ، فقد ناصبته البابوية العداء السافر

(١١٤) Philip of Suabia, Concession to Innocent III, 1203 (in Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 228-230).

(١١٥) Frederick II, promise to Innocent III, 1213; Promise to resign Sicily 1216, (in Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 230-233).

حتى مات . واضطر هو فى سبيل ضمان تأييد الأمراء ، الى اعطائهم الكثير من الامتيازات والتنازلات على حساب التاج الألمانى (١١٦) ، فلما مات عام ١٢٥٠ ، مات معه كل أمل فى دولة المانية قوية ، وتولت البابوية الاجهاض على مبدأ الوراثة تماما ، بعد أن سددت له الضربة القاضية من قبل ، وغرقت المانيا فى بحر من الفوضى ، استمرت ثانية ثمانية عشر عاما (١٢٥٠ — ١٢٦٨) ، رشحت البابوية خلالها ملوكا لألمانيا ، ليسوا من بينها على الاطلاق ، ريتشارد ايرل كورنول Richard of Cornwall والفونسو العاشر ملك قشتالة Alfonso X of Castile وحتى تطمئن البابوية الى أن مبدأ الوراثة فى الملكية الألمانية قد أدخل القبر ، سيق الصبى الصغير كونرادنيو Conadino حفيد فردريك الثانى ، وآخر سلالة أسرة الهوهنشتاوفن ، الى نابولى ، حيث أعدم بموافقة البابوية ! .

ولعل خير مثال يوضح لنا الحال التى ترددت فيها المانيا آنذاك ، اقدام الأمراء فى عام ١٢٧٣ على اختيار رودلف الهابسبورجى Rudolf o Habsburg اذ رأى فيه الأمراء شخصا ينتمى الى عائلة لا تستطيع أن تطاولهم قوة . حقيقة كانت للهابسبرج أراضيهم فى الألزاس ، وأعالى الراين . ولم تكن هناك دلائل تشير الى مستقبل ما لهذه الأسرة . لقد كان رودلف يعتمد على الأمراء بصورة جعلتهم يظفرون منه بوعود قاطعة ، بأنه لن يقدم على التصرف فى أى جزء من أراضيه ، هبة ، دون موافقتهم (١١٧) . ولدينا وثيقة دامغة على هذه الناحية ، جاءت على قلم رئيس أساقفة مينز ، تقول : « وارنر Werner رئيس أساقفة مينز بفضل الله ... لما كنا نرغب دائما فى أن نكون مطيعين ومتفقين مع سيدنا الجليل ، رودلف ،

---

(١١٦) Frederick II, Statute in favor of the princes, 1231-1232; Concessions to the ecclesiastical princes, 1220 (in Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 238-240, 233-36).

(١١٧) Waley, op cit., pp. 76-78.

الملك ، فانا قد أعطيناه بصورة تامة وصريحة موافقتنا على أن يهب كاقطاع قرى لنكرشايم Lenkersheim وايرلباخ Erlebach وبروك Brucke وكل متعلقاتها الى فردريك حاكم نورنبرج Nurnberg حيثما رغب فى ذلك » (١١٨) .

لقد كان الانتخاب فى الفترة المبكرة ، محط اهتمام كبار النبلاء ، باعتبارهم ممثلين للدوقات الألمانية ، وان كانت قد جاءت فترات معينة ، حولت فيها الوراثة ، مسألة الانتخاب الى مسألة نظرية فقط . فلما توفى هنرى السادس ، ودست البابوية فى ألمانيا أنفها وذراعيها وقدميها ، أصبح الانتخاب حقيقة واقعة ، وتخلفت ألمانيا عن انجلترا وفرنسا سبعة قرون سويا .

---

(١١٨) Werner, electoral letter of Consent, 1282 (in Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 265-266.

وراجع ايضا وثيقة اختيار هنرى السابع سنة ١٣٠٨ ليتضح مدى دور الأمراء فى ذلك Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 277-278).

الوثائق والمراجع

اولا : الوثائق

Adalbert, Archbishop of Mainz :

Letter to the bishop of Bamberg.

Albert, German King : The archbishop of Mainz is Confirmed as archchancellor of Germany, 1298.

Frederick II, Emperor : Promise to Innocent III, 1213.

— Promise to resign Sicily, 1216.

— Concessions to the ecclesiastical princes, 1220.

— Statute in favor of the princes, 1213-1232.

Gregory VII, Pope : Dictatus papae.

Letter to the German princes giving an account of the incident at Canossa.

Henry IV, Emperor : Promise of the King to offer obedience to the Pope.

— edict cancelling the sentence against Gregory VII.

Henry VII ,German King : Declaration of the election of Henry VII 1308.

Innocent II, Pope :

Innocent III grants the land of Countess Matilda to Lothar II, 1133.

Innocent III, Pope : The decision of the disputed election of Frederick, Philip of Suabia, and Otto, 1201.

Philip of Suabia, German King : Concessions to Innocent III, 1203.

Werner, Archbishop of Mainz : Electoral «letter of Consent». 1282.

Widukind, History of the Saxons (in. S.B.M.H.)

وهذه الوثائق موجودة ضمن مجموعات الوثائق التالية :

Hinderson (E. F.), Select historical documents of the Middle Ages, London, 1925.

Thatcher (O. J.), McNeal (E. H.),

A Source book for Mediaeval history, New York.

Tierney (B.), The Crisis of Church and State 1050-1300, U.S.A. 1964.

— The Middle Ages, Vol. I, Sources of Medieval history, New York, 1978

ثانيا : المراجع الأوروبية

Barlow (F.), The feudal Kingdom of England, 1042-1216, London, 1974.

Barraclough (G.), Mediaeval Germany, 911-1250; essays by German Historians, translated and ed. by Barraclough, Oxford 1948

— The Origins of Modern Germany, Oxford 1947.

Barry (W.) The Papal Monarchy, from st. Gregory the Great to Boniface VIII, New York 1906.

Brooke (Ch.), Europe in the central Middle Ages, 962-1154, London 1966.

Brooke (Z.N.), A history of Europe from 911 to 1198, London 1966.

Bryce (J.), The Holy Roman Empire, London 1950.

Cambridge Medieval History, 8 Vols. planned by J.B. Bury, Cambridge 1962. Vols. II, III, V, VI.

Davis (R.H.G.), A history of Medieval Europe, from Constantine to St. Louis, London 1957.

Douglas (D.C.), Wiillliam the Conqueror, London 1969.

Freiherer (O.), Constitutional reorganization and reform under the Hohenstaufen, trans. from German by Barraclough, in Mediaeval Germany, Vol. II, pp. 203-233). Oxford 1948.

Ganchof (F.), Feudalism, Honk Kong 1976.

Hodgett (G.A.), A Social and economic history of Medieval Europe, London 1972.

Joachimsen (p.), The investiture contest and the German Constitutions, trans. from German by Barraclough in (Mediaeval Germany, Vol. II, pp. 95-129), Oxford 1948.

Mayer (Th.), The historical foundations of the German Constitution, trans. from German by Barraclough in (Mediaeval Germany, vol. II, pp. 1-34), Oxford 1948.

Mitteis (H.), Feudalism and the German Constitution, trans. from German by Barraclough, in (Mediaeval Germany, vol. II, pp. 235-279). Oxford 1948.

Hundy (J.H.), Europe in the high Middle Ages, 1150-1309, London 1973.

Pfister (ch.), Gaul under the Merovingian Franks, in (C. M. H. vol. II, pp. 133-158

Pirenne (H.), A history of Europe London 1951.

Schmeidler (B.), Franconia's Place in the structure of Mediaeval Germany, trans. from German by Barraclough in (Mediaeval Germany, vol. II, pp. 71-94). Oxford 1948.

Scott (W.), Medieval Europe, London 1975.

Slesser (H.), The Middle Ages in the West, London.

Stephenson (C.), Mediaeval History, New York, 1962.

Strayer (J) & Munro (O.), The Middle Ages, 395-1500, New York 1970.

Thompson (J. W) & Johnson (E.N.), An introduction to Medieval Europe, 300-1500, New York 1966.

Tout (T.F.), The Empire and the Papacy, London 1924.

Ullmann (W.), The growth of Papal government, in the Middle Ages, London 1955.

— A short history of the Papacy in the Middle Ages, London 1974.

Vinogradoff (P.), Feudalism, in (C.M.H. vol. III, pp. 458-484).

Waley (D.), Later Medieval Europe, from St. Louis to Luther, London 1976.

ثالثا : المراجع العربية

ابراهيم العدوى (دكتور) ــ المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى ــ القاهرة ١٩٦١ .

اسحق عبيد (دكتور) : الفرسان والأقنان فى مجتمع الاقطاع ــ بيروت ١٩٧٥

جرانت (أ . ج) و تمبرلى (هـ)

تاريخ أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، جزءان . الجــزء الأول ترجمة الأستاذ بهاء فهمى . القاهرة بدون تاريخ .

دولت صادق (دكتورة) ــ جغرافية العالم ، دراسة اقليمية . الجــزء الأول . القاهرة ١٩٥٩ ــ الجغرافية السياسية . القاهرة ١٩٦٥ .

رنوفان (بيير) : تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥ ــ ١٩١٤ . ترجمة دكتور جلال يحيى . القاهرة ، بدون تاريخ .

سعيد عاشور (دكتور) : أوروبا العصور الوسطى .. الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٦٣ .

عبد الحميد متولى (دكتور) : الوجيز فى النظريات والأنظمة الســياسية ومبادئها الدستورية . القاهرة ١٩٥٨ ــ ١٩٥٩ .

فيشر (هـ) : تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ١٧٨٩ ــ ١٩٥٠ . ترجمة دكتور أحمد نجيب هاشم ، وديع الضبع . القاهرة ١٩٥٨ .

كانتور (ن) : التاريخ الوسيط ، قصة حضارة : البداية والنهاية . الجزء الأول ، ترجمة دكتور قاسم عبده قاسم . القاهرة ١٩٨١ .

لاسكي (هـ) : اصول السياسة ، أربعة اجزاء ، ترجمة محمود فتحى عمر .
القاهرة بدون تاريخ .

كوبلاند (ج . و) : القنية والاقطاع ، مقال فى « تاريخ العالم » ، الذى
أشرف على نشره السير جون أ . هامرتن ، المجلد الثانى ،
ص ٣ — ٢٢ . القاهرة ١٩٥٧ .

كوبلاند (ج . و) و فينوجرادوف (ب) :
الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا ، ترجمة دكتور
محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٥٨ .

محمد كامل ليلة (دكتور) : النظم السياسية ، القاهرة ١٩٦٣ .

موس (هـ) : ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ،
القاهرة ١٩٦٧ .

نور الدين حاطوم (دكتور) : تاريخ العصر الوسيط فى أوروبا . لبنان ،
١٩٦٧ .

هتلر : كفاحى . ترجمة لويس الحاج . بيروت ١٩٦٨ .

صليبية الأطفال ١٢١٢م

للدكتـــور عبد الغنى محمود عبد العـــاطى
مدرس تاريخ العصور الوسطى بآداب المنصورة

صليبية الأطفال ١٢١٢م (*)

لاشك ان الحروب الصليبية كانت صداما خطيرا بين الغرب اللاتينى والشرق الاسلامى ، استمر قرنين من الزمان • وكان تاثير هـذه الحـروب على شعوب الغرب الأوربى يختلف تماما عنه على شعوب الشرق الاسلامى • لقد كان المسلمون يعايشون هذا الواقع معايشة يومية ، وكانوا ينظرون الى الهزائم والانتصارات ومعاهدات الهدنة بين الطرفين كأمر طبيعى متكرر الحدوث، مما جعل مفهومهم عن تلك الحروب أقرب الى الحقيقة وابعد عن شطحات الخيـال •

أما أحداث الحروب الصليبية ووقعها على شعوب الغرب فقد امتزجت فيها الأسطورة والخيال بالحقيقة • لقد ترك معظم الصليبيين منازلهم وأسرهم وخرجوا للاستيلاء على الأرض المقدسة أو للدفاع عن مستعمراتهم فيها ، وسار الأخ أو الأب بأسلحته فى يده ربما ليعود اليهم بعد سنوات ، أو ربما لا يعود • عندئذ جلست الأمهـات والأخوات والزوجـات فى أكواخهن يحكين للأطفـال عن الأخطار التى تهـدد المدافعين عن الصليب ، وعن الدوافـع والأسـباب التى أدت الى خروج الرجال الى الشرق • وعندما كان يعود المقاتل الصليبى الى وطنه ، كان يقص على أهل بيته وأهل قريته عن البطولات التى حققها فرسان الصليبيين ، وعن الغنائم والأسلاب التى استولوا عليها ، ويثير خيال سامعيه بالكثير من قصص المغامرات ، وعن الأرض المقدسة ، والمعجزات الألهية التى تحققت ، كما انه بلا شك كان يحكى الكثير من القصص والروايات عن حياة أعدائهم من المسلمين ، وعن الحياة فى بلاد الشرق الساحرة • أما اذا مات المقاتل الصليبى فى الشرق ، عندئذ كان يأمل ولده الصغير أو أخوه فى الانخراط

(*) معظم مصادر هذا البحث مأخوذة عن مجموعة • M.G.H. SS.
(Monumenta Germania Historica Scriptores)

فى قائمة المحاربين (١) •

ولاشك أن الأطفال والمراهقين كانوا اكثر الفئات تأثرا بهذه الروايات التى الهبت حماستهم وحركت خيالهم ، وهم بطبيعتهم اقرب الى عملية الاستهواء • فخيال الأطفال يجعلهم يعتقدون انهم قادرون على أن يأتوا بمعجزات فى شتى المجالات ، ربما يعجز آباؤهم الكبار عن ان يأتوا بها • خاصة وأن الأطفال والمراهقين يميلون بشدة الى تجسيد الخيال ، وتسيطر عليهم احلام اليقظة ، ويظنون أن كثيرا من الأعمال الخارقة سهلة وفى متناول أيديهم • بالاضافة الى ما كانوا يعيشون فيه ويسمعون عنه من اساطير وخيالات عما حققه المقاتلون فى الشرق ، مما اكد لديهم ما يعتقدونه •

ويجب التأكيد مرة أخرى على أن اهم ما يميز مرحلة الطفولة هو ما اكدته الدراسات النفسية ، وهو أن الطفل يحاول أن يجد ما يجول فى خياله ، كأن يتخيل انه يركب حصانا يطير به ، أو انه بضربة واحدة من يده يستطيع أن يقتل عشرات الرجال ، أو أن ركلة واحدة من قدمه تهدم أقوى الحصون •

واذا كان خروج حملة صليبية تتشكل غالبيتها من الأطفال لتخليص القدس من المسلمين يعد أمرا غريبا مثيرا للدهشة ، فانه فى نفس الوقت يدعو الى التساؤل والبحث عن الظروف والأسباب التى ادت الى خروج قافلتين من الأطفال من مكانين مختلفين ، وفى نفس الوقت تقريبا • فهل كان خروج هؤلاء الأطفال تعبيرا عن السخط الذى ساد بين العامة فى أوربا نتيجة لفشل القيادات السياسية فى أداء واجبها تجاه الحركة الصليبية ؟ أم أنها كانت استجابة لظروف اجتماعية عاشها أولئك الأطفال ؟

الحقيقة لا يمكن الاجابة على هذه الأسئلة الا بعد الرجوع الى الوراء ، وتتبع الحركة الصليبية وابراز ما أصابها من نجاح وفشل • ومن المعروف أن البابا أوربان الثانى نجح فى أن يحشد عددا كبيرا من المقاتلين من كل الفئات • اذ راح يمنى كل طائفة بأن هذه الحملة ستحقق لها من الآمال العراض ما عجزت عن تحقيقه فى واقعها الأليم • ومع الانتصارات العسكرية الكبيرة التى حققها الصليبيون فى الحملة الصليبية الأولى والتى نتج عنها تأسيس ثلاث

---

(١) Reinhold Rohricht, «Der Kinderkreuzzug» Historishe Zeitschrift, xxxvi (1876), pp. 2-3.

امارات صليبية فضلا عن مملكة بيت المقدس ، فان هناك كثيرا من الشك فى أن تكون قد حققت ما كان يصبو اليه البابا أوربان الثانى • اذ أن الحملة قد حققت أحد أهدافها فقط وهو الاستيلاء على الأرض المقدسة ، ولكنها فى نفس الوقت باعدت بين كنيستى روما والقسطنطينية ووسعت بينهما شقة الخلاف •

على أن الانجازات السياسية التى حققتها الحملة الصليبية الأولى سرعان ما بدأت تتداعى ، وبدأ المسلمون يستخلصون أراضيهم من قبضة الصليبيين• فبعد استيلاء المسلمين على الرها عام ١١٤٤م ، تحركت أوربا يدفعها شعور بالعار والرغبة فى الانتقام ، وخرجت الحملة الصليبية الثانية وعلى رأسها لويس السابع ملك فرنسا ، وكونراد الثالث ملك ألمانيا بغية استرداد الرها • وقد انتهت الحملة الصليبية الثانية بالفشل ، على حين بقيت الرها مدينة اسلامية •

وقد يتبادر الى الذهن أن الرها لم تكن تمثل أهمية دينية كبيرة بالنسبة للغرب الأوربى ، لكنه بعد استرداد صلاح الدين لمدينة بيت المقدس والعديد من المدن الأخرى عقب معركة حطين سنة ١١٨٧م • انطلقت الدعوة الى خروج صليبى جديد فى شتى أرجاء الغرب الأوربى ، وتولى الامبراطور فردريك الأول بربروسا قيادة القوات الألمانية ، كما قاد ريتشارد قلب الأسد قوات انجلترا ، على حين كان فيليب أغسطس يقود قوات فرنسا • وتحرك الى الشرق أيضا عدد كبير من المع نبلاء أوربا • ولكن سرعان ما تحولت التوقعات الكبيرة التى كانت منتظرة من الحملة الصليبية الثالثة الى يأس واتهامات حادة للزعامة الصليبية • ذلك أن العامين اللذين استغرقتهما الجهود الأوربية لم تكن لتقارن بالانجازات الهزيلة التى حققتها الحملة ، وبدأت الشكوك تساور البعض حول الالهام الالهى الذى يزعمه الصليبيون ويدعونه (٢) •

وكان الأمل لا يزال باقيا فى استخلاص الضريح المقدس من أيدى المسلمين• وقد تبنى هذا المشروع البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦) الذى وضع

---

(٢) يوشع براور ، عالم الصليبيين ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، محمد خليفة حسن • (القاهرة ، ١٩٨١) ، ص ٧٨ ، ٧٩ •

الكنيسة وللبابوية برنامجا ضخما ، على رأسه محو آثار حروب صلاح الدين فى الشرق (٣)) ٠

ومن ثم فقد بدأت فى منتصف ١١٩٨م الدعوة للحملة الصليبية الرابعة ٠ ولكن قادة هذه الحملة بدلا من الاتجاه بها نحو مصر بوصفها مركز المقاومة الحقيقى ضد الصليبيين ، انحرفت الحملة عن هدفها الأساسى فاتجهت ضد القسطنطينية واستولى عليها الصليبيون سنة ١٢٠٤م ٠ وتم تأسيس امبراطورية لاتينية على أشلاء الدولة البيزنطية ، وتم اختيار بطريرك كاثوليكى لتولى رئاسة كنيسة القسطنطينية ٠

ربما رأى البعض أن هذه الحملة قد حققت للبابوية أهم أهدافها وهو اخضاع كنيسة القسطنطينية للكنيسة الأم فى روما ٠ ولكن النتائج السلبية كانت أضخم بكثير من هذا الانجاز ، لأن تأييد كل من البابا والقيادات السياسية فى أوربا لهذا العمل قد وجه ضربة شديدة الى مفهوم الحركة الصليبية لدى العامة الذين كانوا يتطلعون الى تحرير الضريح المقدس ٠ وكان ذلك ايذانا بفتور الحماسة الصليبية واتضح أيضا أن المصالح الاقتصادية والتجارية أخذت تحتل المكانة الأولى فى تفكير المعاصرين ٠ فضلا عن أن قيام امبراطورية لاتينية فى القسطنطينية والبلقان قد استهوت الكثيرين من فرسان الصليبيين فى بلاد الشام ٠

وقد أدى هذا بالضرورة الى تزايد السخط بين العامة على القيادات السياسية الأوربية نتيجة لفشلها فى استعادة بيت المقدس بوجه خاص ، وعدم قيامها بواجباتها تجاه الحركة الصليبية بوجه عام ٠ وهكذا كان لابد من نفخ روح جديدة واحياء جديد للحركة الصليبية بطريقة تلهب حماسة الأوربيين ٠ كان لابد من حدث جديد أو وسيلة لالهاب مشاعرهم مثلما كان خطاب البابا أوربان الثانى فى مجمع كليرمونت منذ قرن من الزمان ٠ وربما كان هذا التفكير والتخطيط من فعل صغار رجال الدين أو الدعاة الجائلين فظهرت حملة الأطفال الصليبية لتكون بعثا جديدا لخطاب البابا أوربان الثانى ، وفى

---

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، حـ ٢ (القاهرة ، ١٩٧١) ، ص ٩٢٩ ٠

نفس الوقت تكون تعرية للقيادات السياسية والدينية ، واجبارها على العمل مرة اخرى من اجل المسيح والأرض المقدسة والحركة الصليبية .

واذا كان الفشل السياسى أمرا واردا كسبب لحركة الأطفال الصليبية فان هناك احتمالات لعدة اسباب اخرى ، ربما كانت كلها او بعضها هى التى انتجت هذه الحركة . هذه الأسباب تخرج كلها تقريبا من واقع التدين الشعبى الذى عم الغرب الأوربى فى العصور الوسطى . وقد عبر العامة عن تدينهم بصور واشكال متعددة . من ذلك أن العامة والمعدمين ـ ذوى الأصول الوضيعة ـ قد شاركوا فى معظم الحملات الصليبية . وكانوا يعدون انفسهم المختارين من الله ، ربما ظنوا ان المسيح قد عاش فقيرا ، ولذلك فانه يفضلهم معشر الفقراء عن غيرهم ويخصهم ببركاته المتمثلة فى الرؤى والأحلام الدينية ـ المقدسة ـ وكانت هذه الرؤى والأحلام تلوح لهم عندما يتعرضون لأزمة من الازمات ، أو يواجهون موقفا ميئوسا منه . فعندما استبد اليأس بالصليبيين وهم داخل أنطاكية فى مقاومة جيش الأمير كربوقا ، وانحطت روحهم المعنوية نتيجة لنفاذ الأقوات وفرار بعض المحاربين ، وبدا انهم فى حاجة الى معجزة تفتح امامهم سبيل النجاة ، اذ باحد الفلاحين الفقراء من الجيش البروفنسالى ، واسمه بطرس بارثولوميو يخبر الكونت ريمون بان القديس اندرياس ظهر له خمس مرات ، وأمره ان يكشف للكونت عن الموضع الذى اختفت فيه الحربة التى اخترقت جنب المسيح منذ احد عشر قرنا ، وحدد له المكان فى موضع بجنوب كاتدرائية القديس بطرس فى انطاكية (٤) . وتم العثور على الحربة لأن الرؤيا

(٤) عن الرؤيا والعثور على الحربة المقدسة ، انظر .

Raymond of Aguilers, Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem (RHC, Occ., III), pp. 253-255; Anon, The deeds of the Franks and the Other Pilgrims to Jerusalem; ed R. Hill (London, 1962), pp. 59-60; Fulcher of Chartres, A History of the expedtion to Jerusalem 1095-1127, ed. H. Fink (Konxville, 1969), pp. 99-100. Fulcher of Chartres, A History of the expedition to Jerusalem 1095-1127, ed. H. Fink (Konxville, 1969), pp. 99-100.

ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ ١٠ (بيروت ١٩٦٥) ، ص ١٠٣ .

تحددت موقعها بالضبط • وقد أدت هذه الآية السماوية الى رفع معنويات الجيش الصليبى • كذلك تراءى لأحد القسيسين واسمه ستيفن أنه شهد المسيح والعذراء ، وسمع من المسيح أن رجال الجيش اذا ندموا على ما ارتكبوه من الآثام ، وعادوا الى الحياة المسيحية الصالحة ، فسوف يسبغ عليهم رعايته وحمايته خلال خمسة أيام (٥) • ثم ظهر القديس اندرياس مرة أخرى ليعلن قرب حدوث معركة مع الترك • وأوصى بالصيام خمسة أيام للتكفير عن الذنوب ، على أن يقوم الجيش بعدها بالهجوم • وكان هناك آخرون ادعوا بأن أحلامهم حفلت بالملائكة والحواريين وأنها تدعم ما رواه البروفنسالى (٦) •

وكان لهذه الرؤى والأحلام فعل السحر فى نفوس الصليبيين فانتعشت آمالهم وارتفعت روحهم المعنوية ، وتمكنوا من الانتصار على الجيش الاسلامى • كذلك عندما بدأت المصاعب تواجه الجيش الصليبى أمام مدينة بيت المقدس ، فلم يكن هناك ما يلائم هذا الفصل الأخير من ملحمة الحملة الصليبية الأولى أكثر من اشاعة حدوث بعض الرؤى المقدسة واشتراك القديس جورج فى المعارك (٧) •

ومع ذلك فمهما كانت أهوال الحرب بالنسبة للناس العاديين ، فلاشك أن المجاعة والوباء كانت هى المصدر الأساسى لليأس ، فالمرض المؤلم الذى لا ينتظر شفاؤه بأى علاج انسانى كان يدفع بجموع المعانين الى الانفجار الهستيرى الذى يحركه الأمل فى التدخل الالهى • وهناك روايات كثيرة عن

---

(٥) Raymond of Aguilers, Historia Francorum (RHC, Occ., III), pp. 255-256; Anon, The deeds of the Franks, pp 57-58; S. Runciman, A History of the Crusades, I (New York, 1964), p. 244.

(٦) William of Tyre, A History of deeds done beyond the Sea, I, eng. trans, E.A. Babcock and A.C. Krey New York, 1943), p. 282.

(٧) Anon, The deeds of the Franks, 90; H.E Mayer, The Crusades, eng. trans, Gillingham (Oxford, 1972), p. 60.

براور ، عالم الصليبيين ، ص ٥٨ ،

هذه الحركات المعبرة عن اليأس الشعبى ، ففى سنة ١١٤٥ تم بناء كنيسة القديس بطرس St. Pierre-sur-Dives فى نورماندى بعد عدة سنوات من العمل • واذ توقعت الجماهير حدوث المعجزات فقد توافدت صوب الكنيسة واحاطوا بالمذبح يدعون بدعوات يائسة لأم الرحمة (٨) •

واذ تأخر شفاؤهم ولم يحصلوا فى التو على ما كانوا يرغبون فيه مزقوا ثيابهم وافترشوا الأرض عرايا ناسين كل الخجل رجالا ونساء واطفالا مع بعضهم البعض • وبعد أن تمددوا هكذا على الأرض اخذوا يزحفون صوب المذبح يصيحون متوسلين مرة أخرى بأم الرحمة حتى يحصلوا على استجابة لتوبتهم (٩) •

مرة أخرى فى اكسفورد بعد سنوات قليلة حدث مشهد مماثل ، ففى سنة ١١٨٠م نقل رفات القديس Frideswide الى مقبرة جديدة وسرت اشاعة عبر البلدة عن حدوث المعجزات • وفى لحظات قليلة حاصرت الكنيسة جموع من المعانين من شتى أنواع المرض • وكان معظمهم أناس ذوى أصول اجتماعية متواضعة جاءوا من المدن والريف المجاور يسعون الى هذا المزار للشفاء • وكانت هذه الجموع تعانى من الشلل والاستسقاء والعمى والجنون والأمراض الجلدية والصداع وآلام وجروح الرأس والمعدة والأطراف • وكانت الكنيسة تمتلىء ليلا ونهارا بالمرضى واقاربهم الذين تجمعوا حول القبر ، ينامون بجواره ، ويلمسونه ، ويتمسحون فى غباره • وكلهم أمل أن تحدث معجزة من السماء تشفى جموع المرضى مما ألم بهم (١٠) •

وهناك أمثلة أخرى من نوع الاختلال العقلى للجماهير التى تنمو عندما يتحول الحماس الدينى الى فوضى ، وكان العقلاء دائمى التنبيه الى خطورة ذلك • فقد وجدت فى بريطانيا فى العقد الخامس من القرن الثانى عشر حالة غريبة بطلها هذا الأمى الأبله Eon de l'Etoile (Eudo de Stella)

---

(٨) R. W. Southern, Western Society and the Church in the Middle Ages (Penguing 1976), p. 305.

(٩) Southern, Western Society, pp. 305-306.

(١٠) Southern. Western Society, p. 306.

الذى سمع فى الكنيسة احدى التراتيل الدينية التى تقول « عن طريقه هو الذى سوف يأتى ليدين الأحياء والأموات والعالم بنار » ولما كان نص الترتيلة باللغة اللاتينية هو ٠

«Per Eum qui venturus est judicare vivios et mortuos et seculum per ignem»

فقد اعتقد أن الضمير Eum انما يعود اليه (١١) ٠ ومن ثم فقد نظر Eon الى نفسه باعتباره ابن الله قد اتى ليدين الأحياء والأموات ، واجتذب نحوه اتباعا من الرجال فى مثل بلهه وغبائه ، اعتبرهم ملائكته وحوارييه ٠ ولكن سرعان ما انحدر Eon واتباعه الى عصابة من اللصوص نهبوا الكنائس والأديرة وباتوا يقتنون الملابس الفخمة ويقيمون الولائم العظيمة ٠ وعاشوا حياة يحسدون عليها حتى أن هؤلاء الذين جاءوا لاعتقاله قد بهرتهم هذه الحياة الناعمة وبدلا من القبض عليه ، انضموا الى جماعته (١٢) وفى النهاية تم القبض عليه وارسل الى مجمع ريمس سنة ١١٤٨م ليمثل امام البابا اجينيوس الثالث Eugenius III ٠ وكان ايون Eon يحمل فى يده غصنا من الأشجار ، وأشار الى أنه فى حالة اتجاه شعبة الغصن نحو السماء فان الله سيهيمن على ثلثى العالم ، بينما يظل الثلث الأخير فى يد سلطانه ، وان اتجهت شعبة الغصن نحو الأرض فان الله سيهيمن على ثلث العالم بينما يسيطر هو على الثلثين الباقيين ٠ وانفجر كل من فى المجلس فى الضحك عند سماعهم ذلك ٠ وانتهى أمر هذا الدعى بايداعه السجن فلم يلبث أن توفى بعد ذلك بقليل ٠ أما اتباعه فقد عوملوا بقسوة ، وكان مصير الثلاثة الذين أطلق عليهم الحكمة والمعرفة والعدالة وآخرين من ذوى الأسماء الرنانة هو الالقاء فى النار ، لأنهم فضلوا أن يلقوا الموت حرقا على التخلى عن عقيدتهم ٠

وهناك مثال آخر للهوس الدينى حدث فى فرنسا عام ١١٨٢م ، وان

(١١) N. P. Zacour, «The Children's Crusade» in Setton, A History of the Crusades, II, p. 328.

(١٢) Zacour, The Children's Crusade, p. 328.

(١٣) Zacour, The Children's Crusade, PP. 328-329.

كان هذا الحدث قد بدأ كحركة اصلاحية اكتسبت عطف الكنيسة والادارة الحكومية ، الا أنها سرعان ما انقلبت الى حركة فوضوية • ففى جنوب وسط فرنسا حيث رأى نجار مغمور يدعى دوراند Durand of le Puy رؤيا أمرته فيها السيدة العذراء أن يدعو الناس الى السلام وأعطته قطعة صغيرة من جلد الرق عليها صورة العذراء تحمل الطفل يسوع بين يديها ، وعلى جلد الرق أيضا الدعاء التالى « أيها المسيح الذى حملت ذنوب العالم ، هب لنا السلام» وسرعان ما تجمعت حول دوراند حركة كبيرة كرست نفسها للقضاء على اللصوص وقطاع الطريق فى الاقليم (١٤) • تمتعت الرابطة الجديدة بتأييد كل طبقات المجتمع • ومع ذلك فسرعان ما انقلبت ضد المؤسسات الحكومية ، ففقدت تأييد النبلاء والكنيسة وصارت حركة منبوذة وخارجة عن القانون • وطوردت حتى تم القضاء عليها (١٥) •

على أنه يجب الا يغيب عن تفكيرنا أن أهل العصور الوسطى كانوا قوما متدينين ، وكثيرا ما كانوا من السذاجة بحيث يعتقدون فى الخرافات ، وكانت الرواية المقدسة تشكل جزءا لا يتجزأ من تربيتهم ، بصرف النظر عن معرفتهم الخاصة بعقائد الدين (١٦) • وكانت التسلية الرئيسية لغالبية الفلاحين تتمثل فى خدمة يوم الأحد الصباحية التى كان يقوم بها قسيس نصف متعلم أو موعظة يلقيها أحد الرهبان الجائلين (١٧) • وبلغ من سلطان الدين على هذه الطبقات أن ظهرت فى شمال (نورماندى وبورجاندى) مجموعات من التائبين، ساعدت فى بناء العديد من الكنائس ، وكانت هذه المجموعات تسير فى مواكب تضم الرجال والنساء والأطفال يحملون الشموع والأعلام وينشدون الاغانى والتراتيل الدينية ، وبفضل ما كان معهم من عربات حملوا لوازم البناء وأسهموا فى تشييد واصلاح أماكن مقدسة كثيرة فى منطقة شارتر ومنطقة كان • وقد تكرر ظهور قوافل التائبين التى شهدها منتصف القرن الثانى عشر ، ويصف

---

(١٤) Roberti canonici S. Mariani Autissiodorensis Chronicon (MGH, SS., XXVI), p. 247; Zacour, The Children Crusade, p. 329.

(١٥) Zacour, The children Crusade, p. 329.

(١٦) براور ، عالم الصليبيين ، ص ٤٢ •

(١٧) نورمان كانتور ، التاريخ الوسيط : قصة حضارة البداية والنهاية ، القسم الثانى ، ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم (القاهرة ١٩٨٣م) ص ٧٣٨ •

أحد كهنة دير القديس بطرس Saint Pierre بالقرب من كان هذه القوافل وعن المعجزات التي حدثت اثناء تجوالها ، أو التي حدثت أثناء بناء أسوار كنيسته بأنها كانت تتكون من خليط من الناس ، رجالا ونساء وأطفالا • وأن بعض هذه المواكب كانت تتألف من الأطفال (١٨) •

وكان لهؤلاء الأطفال المشيدين (التائبين) تأثير من نوع غريب على جمهور الأتقياء ، لأن واحدا منهم وهو القديس بنزيه Saint Benezet قد أضفى على جنوب فرنسا سمة من التشريف والتبجيل بفضل مواهبه وقداسته وما حققه من معجزات ، وكان هذا القديس قد بدأ منذ كان طفلا صغيرا في بناء كوبرى أفينو الشهير على نهر الراين • وذهب اليه القساوسة والعلمانيون لرؤيته وسماعه والتبرك به (١٩) •

واذا أضفنا الى ذلك أن الكنيسة كانت مهتمة بالقضاء علـى نحلـة الألبيجنسيين في جنوب فرنسا (٢٠) ، فانها أطلقت دعاتها ومبشريها للدعوة الى الحرب الصليبية ضد الهراطقة والمارقين وأيضا ضد الموحدين في أسبانيا • وقد لاقت هذه الدعوة استجابة عريضة خصوصا في ألمانيا وشمال فرنسا • وهكذا فان عـام ١٢١٢م كان الوقت الـذى بلغت فيـه الحماسـة الدينية ذروتها (٢١) •

وبينما كانت المعتقدات والمفاهيم الدينية تسيطر على عقول العـامة كان يتردد بين الأوساط الكنسية والعلمانية على حد سواء ، أن نهاية العالم

---

(١٨) Paul Alphandery, «Les Croisades D'Enfants,» Revue de l'histoire des religions, LXXIII (1916), pp. 272-273; Mayer, The Crusades, p. 203.

(١٩) Alphandery, Les Croisade d'enfants, p. 273.

(٢٠) عن الحملة الالبيجنسيه ، انظر ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، حـ١ (القاهرة ١٩٦٤) ص ٢٦١ ـ ٢٦٦ •

(٢١) Mayer, The crusades, p. 203; Peter Raedts «La Croisade des enfants a-t-elle eu lieu ?» L'Histoire, xxxvii, Juillet/Aout (1982), p. 33.

قد حانت ، فقد قال البابا أوربان الثانى فى خطابه الشهير فى كليرمونت أن المسيح الدجال سوف يظهر بين عشية أوضحاها (٢٢) • وقد سيطرت فكرة نهاية العالم على الغرب المسيحى ، حتى أنه فى الوقت الذى كانت توضع فيه الترتيبات الأخيرة للحملة الصليبية الثالثة ، تم لقاء بين ريتشارد قلب الأسد ، ويواقيم رئيس دير كورازو الذى قام بشرح معنى رؤيا القديس يوحنا ، فأشار الى أن الرؤس السبعة للوحش ليست سوى هيرود ، وقسطنطيوس ، ومحمد ، وميلسموت (الذى يقصد به فيما يبدو عبد المؤمن ، مؤسس مذهب الموحدين) وصلاح الدين ، ثم أخيرا المسيح الدجال ، الذى صرح يواقيم أنه قد جرت فعلا ولادته فى روما منذ خمس عشرة سنة ، وسوف يجلس على الكرسى البابوى • فبادر ريتشارد الى الرد بأن المسيح الدجال ليس فى هذه الحالة ، فيما يبدو ، سوى البابا كليمنت الثالث نفسه (٢٣) • ويتضح من ذلك أن الكنيسة قد أكدت بوجود المسيح الدجال بين المعاصرين وأن خروجه بات وشيكا • وفى عشية عام ١٢١٢م استمر الناس فى الاعلان عن قرب تحقق (رؤيا القديس يوحنا بنهاية العالم) وأن المسيح الدجال قد بلغ الآن سن الرشد وأوشك على الظهور ، ومن ثم فانه ينبغى على المسيحيين الاحتشاد لتخليص الأرض المقدسة لينالوا الشهادة ، ليحيوا بعد ذلك فى مملكة القديسين (٢٤) •

لقد تسرب الهوس والجنون الدينى الى معظم الفئات يذكر أحد المعاصرين (من رجال القرن الثالث عشر) أن آلافا من النساء جرين عرايا عبر القرى والمدن لائذات بصمت عميق (٢٥) • وفى مدينة لوتيش Luttich كان يتجمع الكثير من الناس ، ويكثرون من الصياح فى تشنجات هستيرية (٢٦) ، الأمر

---

(٢٢) Alphandery, les croisade d'enfants, p. 277.

(٢٣) Runciman, A History of the Crusades, III. p. 41.

(٢٤) Alphandery, les croisade d'enfants, p. 278.

(٢٥) Nudae etiam mulieres crica idem tempus nichil Loquentes per villas et civitates cucurrerunt.
Annales Stadenses (MGH, SS., XVI), p. 355.

(٢٦) Rohricht, Der Kinderkreuzzug, p. 3.

الذى حدا بأحد المؤرخين المحدثين الى القول « بأنه كانت هناك دائما مسة (مسحة) من الجنون تسير فى الهواء » (٢٧) ٠

وفى وسط هذا الجو المشحون بالرؤى والأحلام المقدسة والتى ساعد على انتشارها وتصديقها ، الجهل الذى تعانى منه الغالبية العظمى من سكان الغرب الأوربى ، وحالات اليأس من الأمراض المستعصية والاوبئة ، والاعلان عن قرب يوم القيامة ٠ هذه الاسباب جعلت الناس تتجه ببصرها نحو السماء فى انتظار الخلاص بحدوث معجزة ٠ ومن ثم فقد انتشر العديد من الدعاة الجائلين الذى كانوا على درجة كبيرة من النشاط والانتشار خصوصا فى فرنساوالمانيا ، وكان هؤلاء الدعاة يحضون الناس على التوبة لخلاص أرواحهم ٠ فى نفس الوقت لم يكفوا مطلقا عن التبشير بالحروب الصليبية،ودعوة العامة والهاب مشاعرهم بضرورة استعادة بيت المقدس من أيدى المسلمين ، وذلك بابراز المشاركة المثيرة للرجال والنساء فى الحملات السابقة ٠ فقد كان الكل مهتما بضرورة التغلب على الفشل الذى أصاب الحركة الصليبية ، وضرورة طرد المسلمين من الأرض المقدسة (٢٨) ٠

واذا كان المبشرون الجائلون يقدمون عظاتهم الى العامة ، فلاشك

---

(٢٧) Zacour, The children crusade, p. 328.

(٢٨) فى دراسة عن الشعر والتاريخ ، يقول صاحب الدراسة أن القصائد والأغانى « لم تكن سوى انعكاس أمين للتفكير الشعبى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ٠ ولابد أن نعترف بأن العامل الدينى كان موجودا فى الحركة الصليبية ولكنه كان نابعا من تدين عاطفى يقوم على التعصب المقيت ، ولم يكن تدينا عقلانيا حقيقيا » ٠ أما الأغانى التى تناولت الدعوة للحروب الصليبية خاصة بعد استرداد المسلمين لمدينة بيت المقدس عام ١١٨٧م فقد كانت بمثابة رجع الصدى للصدمة التى أصابت الغرب ٠٠٠٠ وبدأت أغنيات وقصائد الحروب الصليبية تتحدث عن المتخاذلين وبدأت صياغات الترغيب بالغفران وخدمة الرب الذى عانى على الصليب ، ثم التهديد بسوء العقاب فى يوم الحساب الأخير تتسرب الى هذه القصائد » ٠

قاسم عبده قاسم « الشعر والتاريخ ، دراسة تطبيقية على شعر الحركة الصليبية » المجلة التاريخية ، العدد ٢٩ ، ١٩٨٣م ٠

أنهم كانوا يتخذون من سيرة المسيح نفسه ومن آباء الكنيسة والشهداء موضوعا لمواعظهم · ان المسيح الذى ضحى بنفسه من أجل خلاص البشرية قد أتى بالمعجزات وهو لايزال طفلا ، وعاش حياته فقيرا ، فمما لاشك فيه أن فكرة للحياة والموت مثل المسيح ، ومن أجل المسيح ، بدأت تسيطر بدورها على عقول العامة (٢٩) ·

لقد أثبتت الأحداث أن الآباطرة والملوك وكبار الاقطاعيين والجيوش الهائلة قد فشلت فى تخليص الأرض المقدسة ، وذلك بسبب كبريائهم ورذائلهم · لقد سقطت القدس وتلك هى رذائل العظماء ·

لقد أصبح تحرير القدس والأرض المقدسة فى حاجة الى معجزة · والمعجزة لم تكن لتتم الا مع حماسة الأتقياء من الاطفال والفقراء ، لان الأطفال الذين وهبهم الله البراءة والطهارة والعامة الذين عاشوا فى الفقر يستحقون العيش فى وئام مع المسيح (٣٠) ·

وهكذا كان المناخ مهيئا أمام ستيفن الفرنسى ونيقولا الألمانى لكى يرى كل منهما رؤياه المقدسة لقيادة جيش من الأطفال لتحرير بيت المقدس من قبضة المسلمين ·

وتبدأ قصة صليبية الأطفال فى ربيع وصيف سنة ١٢١٢م (٣١) ·

---

(٢٩) Alphandery, les croisades d'enfants, pp. 278-279; Raets, La croisade des enfants, p. 37.

(٣٠) Alphandery, les croisades d'enfants, p. 279; Mayer, The crusades, p. 204; Raets, la croisade des enfants, p. 37.

(٣١) بالرغم من غرابة هذا الحدث وأهميته الا أن بعض المؤرخين لم يهتموا بتدوين أحداثه أو التعليق عليها ، واكتفوا باشارات مقتضبة ، مثل حج الأطفال ، خروج الأطفال ، حملة الاطفال ، تجمع عظيم للأطفال للذهاب للأرض المقدسة · انظر ·

Continuatio claustroneoburgensis tertia (MGH, SS., IX),

حيث خرجت جماعات غفيرة من الأطفال تجوب فرنسا والمانيا وايطاليا ، وكان بعض هؤلاء الأطفال فى سن صغيرة جدا • وكانوا يحملون الصلبان والأعلام والشموع والأجراس ويرددون الاناشيد والأغانى التى يقولون فيها أنهم سوف يخلصون الصليب الحقيقى الأسير عند المسلمين الشرقيين • كان بعض هؤلاء الأطفال يعرفون وجهتهم فكانوا يقولون انهم خارجون الى الأرض المقدسة أو خارجون الى الله ، أما الآخرون فكانوا يلتزمون الصمت ، وحينما كان يسألهم سائل عن وجهتهم كانوا يقولون أنهم لا يدرون شيئا •

ان الفكرة الأولى لهذه الحملة الصليبية تعود الى الطفل ستيفن وهو أحد الرعاة الصغار من قرية كلوى Cloyes بالقرب من فيندوم Vendome ويحكى عن هذا الطفل أنه ترك قطيعه لكى يتبع أحد المواكب الدينية ، وعند عودته رأى حيواناته المتفرقة تعود اليه وتركع فى خشوع • ولم يكن هذا الحدث فريدا من نوعه ، فقد حدث قبل ذلك للقديس ماميس القيسارى Saint Mammes ولعدد آخر غيره (٣٢) • ولكن الجديد فى الأمر ، والذى كان مثيرا حقا ، هو ما رواه ستيفن نفسه • فقد روى أن المسيح قد تجلى له بشخصه بينما كان ذلك الراعى الصغير يرعى غنمه ، وكان ظهور السيد المسيح فى صورة رجل فقير ، وتقبل منه الخبز الذى أعطاه اياه على سبيل الاحسان ، ثم أعطاه المسيح رسالة موجهة الى ملك فرنسا ، وأمره أن يمضى داعيا الى حملة صليبية جديدة (٣٣) •

---

p. 634; Chronicon El Wacense (MGH, SS., X), p. 37; Annales Zwifaltenses (MGH, SS., X), p. 58; Ellenhardi Argentinensis annales (MGH, SS., XVII), p. 101; Heinrici Heimburg. Annals (MGH, SS., XVII), p. 714; Annales Thuringici Breves (MGH, SS., XXIV), p. 41; lores Temporum (MGH, SS., XXIV), p. 240.

(٣٢) Alphandery, Les croisade d'enfants, p. 260.

(٣٣) D.C. Munro, «The children's crusade» American Historical Review, XIX (1914); p. 518; Alphandery, les croisade d'enfants, p. 260; Raets, La croisade des enfants, p. 31, Mayer, The crusades, p. 204.

وما ان اعلن ستيفن رؤياه حتى تجمع حوله عدد لاباس به من الرعاة فى مثل سنة ، وجابوا معا القرى والمدن المجاورة وهم يغنون بلهجتهم الفرنسية يا الهنا اعل من شان المسيحية ومجدها ، يا الهنا رد الينا الصليب الحقيقى(٣٤) • وسرعان ما تجمع جمهور غفير خلف ستيفن الذى كان متوجها لمقابلة الملك فيليب • وقد وصل ستيفن بقافلته الصغيرة الى سان دينيه S. Denis فاثار مشاعر التدين العاطفى فى نفوس مشاهديه • وذكرت المصادر ان الرب قد اظهر معجزات كثيرة من خلال ستيفن امام الجماهير وشهد كثيرون على حدوثها (٣٥) • فى نفس الوقت كانت هناك تجمعات كبيرة من الأولاد الذين عاملتهم الجماهير بوقار وتقديس عظيم فى كثير من الأماكن نتيجة للاعتقاد بأنهم ايضا قد أظهروا المعجزات • وعلى طول الطريق انضمت اليهم حشود كبيرة من الأطفال بغية السير تحت قيادتهم للانضمام الى الطفل المقدس ستيفن الذى اعترفوا به جميعا سيدا واميرا لهم (٣٦) • وكانت هذه الجماعات تتكون من الأولاد والبنات وبعض الشباب واشخاص اكبر سنا • وساروا فى مواكب متعاقبة عبر القرى والمدن والقلاع حاملين الرايات والشموع والصلبان وبايديهم المباخر ، ويتغنون باللهجات المحلية ، وعندما كان يسألهم آباؤهم او اناس آخرون الى اين هم ذاهبون ؟ اجاب كل واحد منهم كما لو كانت تحركهم روح واحدة « الى الله » (٣٧) •

---

(٣٤) «Domine Deus, exalta christianitatem. Domine Deus, redde nobis veram crucem.»

Sigeb Auct. Mortui Maris (MGH, SS., VI), p. 467;

Ex Annalium Rotomagensium Continuationibus (MGH, SS., XXVI), p. 501.

(٣٥) Alphandery les croisade d enfants, p. 260; Rohricht, Der Kinderkreuzzug, p. 4.

(٣٦) Munro, The Children's Crusade, p. 518; Rohricht, Der Kinderkreuzzug, p. 4.

(٣٧) «Quasi uno edocti spiritu Singuli et univers responderunt : Ad Deum».

لاشك أن الرسالة التى حملها ستيفن قد حيرت الملك فيليب أوغسطس الذى كان مشغولا بالعديد من الأمور والمشاكل السياسية ، فرأى أن يستشير أساتذة جامعة باريس فى شأن هذا التجمع الهائل من الأطفال • وكان طبيعيا أن يقوم الملك بصرف الطفل ستيفن بعد أن زوده بنصحه بأنه يجب عليه أن يعود الى منزله وأن ينتبه الى واجباته وأعماله الرعوية • ثم صدرت الأوامر بعودة الأطفال الى آبائهم دون تأخير (٣٨) •

لم تثبط الاهانة الملكية همة الغلام ، وبدأ ستيفن فى التبشير والدعوة الى الحملة الصليبية عند مدخل دير القديس دينيه ، وأعلن أنه سوف يقود حملة من الأطفال لانقاذ العالم المسيحى ، وكان ستيفن قد وهبه الله قوة خارقة فى الفصاحة ، تأثر به كبار السن ، وهرع اليه الأطفال ملبين دعوته ، واذ تحقق أول انتصار له أخذ يطوف بأنحاء فرنسا ، يدعو الأطفال ، بل ان عددا كبيرا من الذين آمنوا بدعوته أخذوا يبشرون ويدعون باسمه الى مشروعه • وجرى الاتفاق على أن يتم التجمع بعد حوالى شهر فى فيندوم ، ومنها يستأنفون سيرهم الى الشرق (٣٩) • غير أن هناك بعض الآراء التى ترى أن هذه الحركة قد انتهت فى سان دينيه لأن الأطفال قد اضطروا تحت وطأة الجوع الى العودة (٤٠) • أو أنه تم الامساك بعدد كبير منهم وجندوا للقتال

---

(٣٨) Willelmi chronica Andrensis (MGH, SS., XXIV), p. 754; Ex Annalibus Gemmeticensibus (MGH, SS., XXVI), p. 510; Munro, The children's Crusade, P. 518; Zacour, The Children's Crusade, pp. 330-331. Alphandery, les croisade d'enfants, p. 261; Mayer, The crusades, p. 204; Raets, La croisade des enfants, p. 31.

(٣٩) Runciman, A History of the crusades, III, p. 140.

(٤٠) Ex annalibus Gemmeticensibus (MGH, XXVI), p. 510;
Munro, The children's crusade, pp. 518-519.

ضد الألبيجنسيين (٤١)٠والرواية الثالثة تقول أن الملك بعد أن استشار أساتذة باريس أصدر أوامره بعودة الأطفال الى منازلهم (٤٢) ٠

لاشك أن الملك فيليب قد أصدر أوامره بعودة الأطفال الى ذويهم ، ولكن هل تم تنفيذ هذا الأمر ؟ هناك رأى يقول انه لم يستجب لأمر الملك بالعودة الا فئة قليلة من الأطفال ٠ ومن ثم فقد بادر بعض رجال الدين وبعض العلمانيين المستنيرين بايقاف هذا المشروع المحفوف بالخاطر ، الا أن الجمهور تصدى لهم ومنعهم بالقوة ، فقد رأت الجماهير ضرورة استكمال مسيرة الأطفال ٠ ووجه العامة اتهاماتهم الى رجال الدين قائلين لهم اذا كنتم لا تعتقدون فى مشروع الأطفال وتريدون اعاقتهم عن استكمال مسيرتهم ، فان ذلك لن يكون الا بدافع الحسد والغيرة (٤٣) ٠ وقد نتج عن مساندة العامة لحركة الأطفال وقوع بعض الاضطرابات ، ففى قرية روكورت Rocourt قام السكان بنهب أملاك كهنة سان كوينتن وذلك لسد احتياجات الأطفال الصليبيين فى هذه المنطقة (٤٤) ٠

---

(٤١) Zacour, The children's Crusade, p. 330.

وذلك اعتمادا على قول مؤرخ مورتمير بأن المندوب الرومانى قد عين فى العام التالى جموعا كبيرة من أجل الصليب لحملة صليبية جديدة ٠

Sequenti anno contigerunt. Nam Legatus Romanus Gallie Fines ingressus, copiosam multitudienem in crucifix nomine cruce Signavit.

Sigeb. Auct. Mortui Maris ((MGH, SS., VI), p. 467.

ولكن ذلك لا يعنى أن الأطفال قد تم تجنيدهم فى هذه الحملة ٠

(٤٢) Rohricht, Der Kinderkreuzzug, p. 5; Alphandery, les croisade d'enfants, p. 261; Munro, The children's crusade, p. 519.

(٤٣) Alphandery, les croisades d'enfants, p. 261.

(٤٤) Alphandery, les croisades d'enfants, pp.261-262.

ومن المثير للدهشة ، انه في خلال شهر واحد انضم الى دعوة سان دينيه ثلاثين الف طفل (٤٥) ، لم يتجاوز الواحد منهم الثانية عشرة من عمره • وبالنظر الى اتساع الحركة وانتشارها نجد ان المؤرخين يشيرون اليها بانها قد امتدت لتشمل معظم بلاد الغال ، او انها كانت في مملكة فرنسا ، وان الأطفال قد اتوا من مدن وقلاع وقرى وحقول من مقاطعات متعددة من بلاد الغال (٤٦) • وكانوا خليطا متنوعا من الفلاحين السذج والرعاة الذين سمح لهم آباؤهم عن طيب خاطر بان يمضوا في هذه البعثة الكبيرة ، اما الأطفال الذين لم يسمح لهم آباؤهم بالرحيل فقد بكوا بكاء مرا (٤٧) • وكان منهم ايضا صبيان انحدروا من اسرات شريفة،تسللوا من دورهم ولحقوا بستيفن واتباعه «الأنبياء الصغار» كما نعتهم المؤرخون ، ومن بينهم أيضا ، فتيات صغيرات ، وبضعة قسس شبان ، فضلا عن جماعة قليلة من الحجاج ، وبعض الأتقياء من البالغين • ومن المحقق ايضا ان جماعات اخرى لم تنضم اليهم الا لتشارك في الهدايا والصدقات ، كما انضم الى المسيرة أيضا بعض الفاسقين والعاهرات • وقدمت الجماعات متزاحمة الى المدينة يرأس كل منها قائد يحمل العلم الفرنسي

---

(٤٥) Chronica Albrici monachi Trium Fontium (MGH, SS., XXIII), p. 893.

ويبدو أن الأطفال كانوا من الكثرة حتى ان احد المؤرخين يقول ان الله وحده الذى يعلم عددهم •

(٤٦) Ex annalium Rotomagensium continuationibus (MGH, SS., XXVI), p. 501.

Sigeb. Auct. Mortui Maris (MGH, SS., VI), p. 467;

Ex annalibus S. Medardi Suessionensibus (MGH, SS., XXVI), p. 521;

Ex annalibus Gemmeticensibus (MGH, SS., XXVI), p. 510;

Ex annalium Rotomagensium continuationibus (MGH, SS., XXVI), p. 501.

(٤٧) Reineri annales (MGH, SS., XVI), p. 665.

القديم ذو اللون الأحمر والذى كان من عادة ملوك فرنسا أن يتسلموه من مقدم دير سان دينيه عندما يخرجون للقتال · وقد اتخذها ستيفن وزملاؤه رمزا على تصميمهم لاستعادة المدينة المقدسة (٤٨) · ويصف أحد المؤرخين هذا التجمع المذهل للأطفال وعن تقبل الناس لهذه الظاهرة بقوله أنه كان يبدو لمعظم الناس أن الله كان على وشك أن يفعل شيئا عظيما وجديدا من خلال هذه الجموع التلقائية البريئة التى تجمعت مع بعضها (٤٩) · ويقول مؤرخ آخر أنها كانت نذيرا لأحداث المستقبل ، ويعنى تلك الأحداث التى وقعت فى السنة التالية والتبشير للحملة الصليبية الجديدة (٥٠) ·

شرعت الحملة فى مغادرة فيندوم متجهة الى مرسيليا ، بعد أن باركها أصدقاؤها من القسس ، وبعد أن تنحى جانبا آخر الآباء الذين اشتد أساهم لفراق أبنائهم · وسار معظم الأطفال راجلين ، أما ستيفن الذى كان يرى فيه الجميع رئيسا وقائدا لهم فقد أعدوا له عربة تفننوا فى زخرفتها وزينتها ، تعلوها مظلة لتحميه من الشمس ، ولم ينكر أحد من الأطفال على نبيهم الملهم أن تتوافر له الراحة أثناء سفره ، بل تم اعداد حراس مسلحين لحراسته ، وعاملوه على أنه قديس ، حتى أن أى فرد كان يعتبر نفسه من المحظوظين اذا تمكن من الحصول على شعرة من شعره ، أو خيط من ردائه ، لأنهم اعتبروا هذه الأشياء من المقدسات الدينية القيمة التى ينبغى اقتناؤها (٥١) ·

كانت الرحلة شاقة ، اذ كان الصيف شديد القيظ ، واعتمد الأطفال فى

---

(٤٨) Runciman, A History of the crusades, III, p. 140; Alphandery, les croisades d'enfants, p. 262.

(٤٩) Munro, The children's crusade, p. 519.

(٥٠) Sigeb. Auct. Mortui Maris (MGH, SS., VI), p. 417.; Munro, The children's crusade, p. 519.

(٥١) Runciman, A History of the crusades, III, PP. 140 141; Rohricht, Der Kinderkreuzzug, p. 5; Munro, The children's Crusade, pp. 519-520.

طعامهم على ما يتصدق به الناس عليهم ، واضحى الماء شحيحا نادرا ويئس كثير من الأطفال عن امكانية مواصلة الرحلة الشاقة ، فتركوا القافلة محاولين العودة الى منازلهم · كما مات عدد كبيرمن الأطفال على جانبى الطريق · ورغم ذلك فانه كان تجمعا عظيما من عدة آلاف من الأطفال الذين تدفقوا فى النهاية على مدينة مرسيليا (٥٢) · وبات الأطفال ليلتهم ، وفى صبحية اليوم التالى احتشدوا على ساحل البحر ليشهدوه وقد انشق امامهم ليعبروه الى الأرض المقدسة ، وهى النبوءة التى تنبأ بها ستيفن الذى اعتقد أن الله سيزوده بمعجزة كالتى منحها لنبيه موسى عليه السلام ، واعتقد انه سيخرج باتباعه لتخليص الأرض المقدسة سيرا على الأقدام ، مثلما خرج موسى ببنى اسرائيل عبر البحر الأحمر · ولما لم تحدث المعجزة استبد اليأس بالأطفال ، وتحول بعضهم لمهاجمته وعلا صياحهم بأنه قد خدعهم وأخذوا يعودون من حيث أتوا · ومع ذلك فان عددا كبيرا من الأطفال ومعهم بعض الحجاج والقساوسة ظلوا ينتظرون على شاطىء البحر معتقدين انه بعد مرور فترة مناسبة ستحدث المعجزة (٥٣) ·

وحدث بعد بضعة أيام ، أن تاجرين من تجار مرسيليا أشارت الروايات الى أن اسم أحدهما هيو الحديدى Hugo Ferreus والآخر وليم الخنزير Guilelmus Porcus عرضا على الأطفال أن ينقلاهم عبر البحر الى فلسطين دون أن يكلفاهم اية نفقات حبا فى الرب · ولما وثق الأطفال ومن معهم من حجاج آخرين فى العرض الذى قدمه التاجران ، ركبوا سبع سفن كبيرة اقلعت بهم فى عرض البحر (٥٤) · أما هؤلاء الأطفال فقد انقطعت اخبارهم ولم يعرف احد المصير الذى آلوا اليه حتى سنة ١٢٣٠م حين وصل الى فرنسا احد

(٥٢) Chronica Albrici monachi Trium Fontium (MGH, SS., XXIII), p. 893.

(٥٣) Runciman, A History of the crusades, III, 141.

(٥٤) Chronica Albrici monachi Trium Fontium (MGH, SS., XXIII), p. 893.

القسس قادما من الشرق ، أخذ يروى قصة غريبة ، اذ قال انه أحد صغار القسس الذين سبق أن صحبوا ستيفن الى مرسيليا · وانه استقل معهم السفن التى قدمها التاجران ، ولم تنقض الا بضعة أيام عليهم فى البحر ، حتى تعرضوا لطقس سيىء ، فتحطمت سفينتان على الصخرة المسماه Reclus فى جزيرة سان بيترو (٥٥) جنوب سردينيا ، وغرق كل الركاب ، أما السفن الخمس الأخرى فقد توجهت الى ميناء بوجيه على ساحل الجزائر والى الاسكندرية ، حيث أسواق الرقيق (٥٦) · وقام التاجران المرسيليان ببيع الصبية الى قادة المسلمين وتجار الرقيق · وقد اشترى والى الاسكندرية الجانب الأكبر من الحمولة (٥٧) ، ووفقا لرواية القسيس لازال منهم على قيد الحياة نحو سبعمائة (٥٨) ·

على أن بعض هؤلاء الأطفال الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة كانوا أحسن حظا ، لأن أمير مصر وقتذاك وهو الملك الكامل الأيوبى ، كان شديد الشغف باللغات والآداب الغربية ، فاشتراهم وأبقاهم عنده للعمل مترجمون وكتاب ومعلمون ، ولم يحاول أن يحملهم على اعتناق الاسلام ، فأقاموا فى القاهرة فى أسر مريح هين (٥٩) · ومن هؤلاء الأطفال أيضا اشترى الخليفة الناصر أربعمائة جميعهم من الكهنة ، وثمانين منهم كانوا من القساوسة · وقام الخليفة بعزلهم عن الآخرين ، وعاملهم بكرم على غير ما كان متوقعا ، ذلك لأن هذا الخليفة كان قد تلقى تعليمه فى باريس متخفيا فى هيئة كاهن (٦٠) ·

---

(٥٥) Ibid, p. 893.

(٥٦) Ibid, p. 893.

(٥٧) Ibid, p. 893.

(٥٨) Ibid, p. 894.

(٥٩) Runciman, A History of the Crusades, III, p. 144.

(٦٠) De quibus califas 400 in parte sua emit, amnes clericos, quia ita eos ab aliis segregare voluit, inter quos erant 80 presbiteri, et honestius Omnes Suoi More

=

وفى نفس السنة التى بيع فيها الأطفال ، اجتمع امراء المسلمين فى بغداد حيث قاموا بذبح ثمانية عشر طفلا لأنهم رفضوا التخلى عن عقيدتهم المسيحية • اما الباقون فقد تربوا وعاشوا فى الرق والعبودية •

وعندما تم الاتفاق بين الملك الكامل والامبراطور فردريك الثانى اللذين كانت تربط بينهما صداقة متينة ، وتم عقد معاهدة ١٢٢٩م • كان من بين بنودها اطلاق سرح هؤلاء الأطفال الذين مازالوا فى الأسر • وتبعا لذلك جرى اطلاق سراح هذا القسيس ، وتقرر السماح له بالعودة الى فرنسا •

وبعد ان اورد Albrici قصة التاجرين وما فعلاه بالأطفال الفرنسيين يعود فى النهاية ويقرر انه قد تم شنقهما فيما بعد بسبب تآمرهما مع المسلمين ضد الامبراطور فردريك الثانى • وهكذا جعلتهما الرواية فى آخر الأمر يؤديان جزاء ما ارتكبا من جرائم (٦١) •

غير ان بعض المؤرخين رفضوا قبول ان يكون الأطفال الفرنسيين من اتباع ستيفن قد وصلوا الى ميناء مرسيليا ، تقول دانا مونرو ويؤيدها زاكور ، ان هذه القصة تعتمد فقط على الدليل الذى قدمه أحد القساوسة الذى

---

tractavit. Ist est califas, de quo superius dixi, quod in habitu clerici parisius studuit.

Chronica Albrici monachi Trium Fontium (MGH, SS., XXIII), p. 893.

(٦١) Duo quoque Supradiciti traditores Hugo Ferreus et Guilelmus Porcus postea venerunt ad principem Sarracenorum Sicilie Mirabellum, et cum eo traditionem impertatoris Frederici facere voluerunt, Sed imperator de eis dante Deo triumphavit et Mirabellum cum duobus filiis et istos duos traditores in uno patibulo suspendit.

Chronica Albrici monachi Trium Fontium (MGH, SS. XXIII), p. 894.

ادعى أنه عاد من الشرق ، رغم أن هذه القصة مليئة بالأخطاء الواضحة ، مثال ذلك قوله أن ثمانين من الأطفال كانوا قساوسة ، وأن المسلمين قد عذبوا الأطفال للتخلى عن عقيدتهم المسيحية • ويمكن تعزيز هذا الرأى بأن ما نسبه هذا القسيس الى الخليفة وعن تلقيه العلم فى باريس سنة ١١٩٥م متخفيا فى زى أحد الكهنة أمر يصعب تصديقه ، واذا كان هذا القسيس قد قضى فترة عبوديته فى مصر ، فكيف به اذن يعطى تفاصيل ما حدث فى بغداد • وتضيف دانا مونرو بأنه لا أحد من المؤرخين قد أشار الى جماعة الأطفال فى أى مكان ما بين باريس ومرسيليا ، كما لا يوجد مؤرخ واحد من جنوب اللوار كتب أية اشارات عن الحركة ، ومن ثم فان المعاصرين كانوا على حق ، وأن الأطفال الفرنسيين قد عادوا الى منازلهم بعد أن طافوا يغنون فى مواكبهم لفترة من الوقت (٦٢) • ويضيف زاكور الذى يحاول الاحتياط لنفسه ، ولا ينفى حقيقة وصول الأطفال الصليبيين الى مرسيليا ، ولكنه ينفى فقط أن يكون هؤلاء الأطفال من الفرنسيين جاءوا من باريس وضواحيها ، ويعتمد فى ذلك على رواية اثنين من المعاصرين اللذين يقرران أن الصليبيين الذين وصلوا مرسيليا قد جاءوا من الأراضى المنخفضة ومن وادى الراين ، وكانوا من الفرنسيين والألمان (٦٣) •

ولما كان هناك رأى يقول بأن البابا جريجورى التاسع قد شيد فى وقت لاحق كنيسة الأبرياء الجدد على جزيرة سان بترو التى تحطمت عليها السفينتين وغرقتا بالأطفال (٦٤) ، فقد اتخذ أحد المؤرخين من اكتشاف الأثريين لأطلال هذه الكنيسة سنة ١٨٦٧م دليلا على صحة الأخبار التى وصلت عن حملة ستفين • ولكن زاكور يتشكك أيضا أن تكون الأطلال التى اكتشفت هى بالفعل أطلال الكنيسة المذكورة (٦٥) • ولذلك يحاول أن يبحث عن دليل آخر لتأكيد

---

(٦٢) Munro, The children's Crusade, p. 520; Zacour, The Children's Crusade, p. 337.

(٦٣) Zacour, The children's crusade, p. 337.

(٦٤) Chronica Albrici monachi Trium Fontium (MGH, SS., XXIII), p. 893.

(٦٥) Zacour, The Children's Crusade, pp. 337-338.

وجهة نظره محاولا التشكيك فى صحة الرواية التى تتهم التاجرين المرسيليين بشحن الأطفال وبيعهم فى أسواق الرقيق • ويشير الى أن كلا من هيو الحديدى ووليم الخنزير كانا شخصين معروفين تماما ـ من المشاهير ـ وبالنسبة للأول فقد كان قاضيا ونائبا عن الفيسكونت • وبهذه الصفة كان لزاما عليه أن يعالج المشكلة التى فرضتها وصول قافلة الأطفال الصليبيين الى الميناء • أما وليم الخنزير فانه لم يكن تاجرا مرسيليا ولكنه كان القائد البحرى لأسطول مدينة جنوة ، كما أنه خدم الامبراطور فردريك الثانى كقائد لأسطوله (٦٦) ، ثم اضطر الى الفرار من صقليه بعد أن غضب عليه الامبراطور سنة ١٢٢١م (٦٧)

ربما كان Albrici صاحب رواية التاجرين على علم بهذه الأحداث ، وكان يعلم أيضا أنه فى نفس هذا الوقت تقريبا قبض فردريك الثانى على القرصان المسلم ابن عبس وشنقه هو وأولاده فى بالرمو • وقد ربط Albrici بين هذه الحوادث التى لاعلاقة لاحداها بالأخرى لنخرج بقصة التاجرين المرسيليين الشريرين اللذين باعا أطفال المسيحيين للمسلمين ، وتآمرهما فيما بعد ضد الامبراطور ، وفى النهاية يواجهان النهاية الحتمية حيث ثم شنقهما • ثم يخرج بعد مناقشة ذلك بأنه لا يوجد دليل على أن أحدا منهما قد شنق ، أو أن أيـــا منهمـــا كان يعرف الآخـــر (٦٨) ويستـــطرد فى المناقشة قائلا بأن رواية Albrici قـد تكـــون على درجـــة من القـــوة اذا ما تقبلنـــا اقتـــراح رينـــولد روريش Reinhold Rohricht بأن Albrici قد اختلطت عليه الأسماء ، واستخدم اسم وليم الخنزير Porcus المشهور

---

(٦٦) Zacour, The children's Crusade, p. 338.

(٦٧) Wilielmus Scilicet admiratus cumipsum capere vellet, Sicut divine placuit voluntati, manus eius aufugit, et a liminibus regni coactus indebite Se paravit.
Marchissii Scribae annales (MGH, SS., XVIII), pp. 146-147; Zacour, The Children's Crusade, p. 338.

(٦٨) Zacour, The Children's Crusade, p. 339.

بدلا من اسم وليم بوسكويرس ، Posqueres المغمور ولذلك تختفى العقبات التى تعترض قبول هذه الرواية • ولكن زاكور لا يستسلم مقررا بأن هناك من الأدلة ما يثبت بأن وليم بوسكويرس وهيو الحديدى كانا مشتركين فى عام ١١٩٠م فى حصار مدينة عكا ، وقد كافأ جاى لوزجنان اهل مرسيليا على جهودهم بمنحهم الامتيازات التجارية فى عكا (٦٩) •

ان زاكور ربما كان محقا فى وجهة نظره ، ولكن فى حماسته لتأييدها قد ناقض نفسه فى أول دليل ساقه الينا ، فيذكر فى البداية أن وليم وهيو شخصان مشهوران ، أى لو أنهما قاما بمثل هذا العمل القبيح ، اذن لعلم معظم المعاصرين بذلك ، ولكنه يعود بعد ذلك ليؤكد بأنه لا يوجد دليـل يثبت أن كلا منهما كان يعرف الآخر ، وهذا ينفى عنهما صفة الشهرة • ثم انه يقرر أيضا أن هيو كان نائبا عن الفيسكونت فى مرسيليا ، وبهذه الصفة كان لزاما عليه أن يعالج المشكلة التى أوجدها وصول الأطفال الصليبيين الى الميناء • ومن الواضح انه ليس هناك ما يمنع هيو حتى وهو بهذه الصفة من التامر ضد الأطفال • انه يحاول تكذيب رواية تامر التاجرين المرسيليين لعدم وجود الأدلة الكافية لاثبات صحتها ، فى نفس الوقت فان الأدلة التى ساقها غير كافية لتبرئة ساحة كل من وليم وهيو من الاتهامات التى الصقت بهما ، ولاسيما وأن اشتراكهما فى حصار عكا سنة ١١٩٠م لا يعتبر دليلا على عدم قيامهما بالتامر ضد الأطفال سنة ١٢١٢ م •

وطالما أن كلا من الروايتين فى حاجة الى الأدلة والبراهين ، فان ذلك لا يدفعنا الى رفض قصة صليبية الاطفال الفرنسية كلية ، لأنه كما ثبت بالفعل كان هناك أطفال من الفرنسيين وصلوا الى ميناء مرسيليا ، وكما تقول المصادر المعاصرة أنهم كانوا من الفرنسين والألمان (٧٠) ، فلاشك اذن أنه كان

---

(٦٩) Zacour, The Children's Crusade, p. 339.

(٧٠) Chronicae regiae Coloniensis Continuatioprima (MGH, CC., XXIV), pp. 17-18.

هذا بالاضافة الى أن كثيرا من المصادر التى تناولت الحملة الألمانية =

يغلب عليهم الطابع الفرنسى ، لأن كل الاطفال الألمان تقريبا ــ كما سيأتى ذكرهم ــ قد عبروا المانيا الى ايطاليا • كما ان هناك من الشواهد ما يؤكد وصول الأطفال الفرنسيين الى شاطىء البحر فيقول احد المؤرخين ان الاطفال كانوا مسرعين صوب البحر (٧١) ويقول مؤرخ آخر أن الأطفال كانوا سيعبرون البحر للبحث عن الصليب الحقيقى (٧٢) • كما ان متى الباريسى يقرر بأن الجموع التى صاحبت ستيفن قد هلكت اما على الطريق او فى البحر ، ويضيف مؤرخ مجهول بأن الأطفال كانوا يسيرون صوب البحر (٧٣) •

واذا كان الاعتراض قد بنى اساسا لرفض فكرة قيام بعض التجار بصرف النظر عن اسمائهم ببيع أطفال المسيحيين للمسلمين ، فان هناك دليلا جديدا يؤكد قيام بعض القراصنة ببيع بعض اطفال الحملة الألمانية ، من الاطفال الفرنسيين والألمان للمسلمين (٧٤) •

كما انه يصعب تصديق استسلام الراعى الصغير الذى صمم على مقابلة ملك فرنسا ــ ولم يكن ذلك بالأمر العادى ــ ثم عدم استسلامه لانصراف الملك عن دعوته وعدم تاييده لها ، وخروجه من لقاء فيليب وهو اكثر حمية

= قد ذكرت بأن الأطفال قد تجمعوا من اقاليم المانيا وفرنسا ، لكن دون الاشارة الى تواجدهم فى ميناء مرسيليا •

Annales Marbacenses (MGH, SS., XVII), p. 172; Chronicon Ebersheimense (MGH, SS., XXIII), p. 450; Reineri annales (MGH, SS., XVI), P. 665; Annales Colonienses maximi (MGH, SS., XVII), p. 826.

(٧١) willelmi chronica Andrensis (MGH, SS., XXIV), p. 754.

(٧٢) Ex annalibus S. Medardi Suessionensibus (MGH, SS., XXVI), p. 521.

(٧٣) Munro, The Children's Crusade, p. 519; Alphandery, Les Croisade d'enfants, p. 262.

(٧٤) ..., et illic aliqui navibus recepti et a piratis divecti, Sar- Venduntur.

Chroncon Ebersheimense (MGH, SS., XXIII), p. 450.

وحماسة يدعو الى مشروعه الذى استجاب له حوالى ثلاثين الف من الأطفال فهل بعد هذا النجاح يمكن قبول فكرة أن مشروع ستيفن قد انتهى ببعض الزيارات الطوافيه لبعض المدن والقرى ؟

وطالما أن ستيفن ورفاقه قد ساروا فى مواكب متعددة يطوفون فرنسا ، فربما وصلوا فى طوافهم الى وادى الراين حيث انضم اليهم بعض الألمان ثم انحدروا منه صوب البحر الى ميناء مرسيليا . وهنا نجد المؤرخة دانا مونرو ـ أول المشككين فى الرواية ـ تعود فتذكر فى تعليقها على ذلك بأن وصول الأطفال الى ميناء مرسيليا يثير من جديد قصة الاطفال الفرنسيين (٧٥) .

وهكذا فان وصول الأطفال الفرنسيين الى مرسيليا حقيقة مؤكدة ، وربما كانت المبالغة فقط فى قصة القسيس العائد ، أو بعض التفاصيل التى تتعلق بمكيدة التاجرين . ولكن كما سبق القول فان ذلك لا يدفعنا الى رفض الرواية كلية .

على أية حال لم تكن صليبية الأطفال الفرنسية هى الحركة الوحيدة التى خرجت من أوربا فى صيف عام ١٢١٢ م ، اذ يبدو أن أنباء دعوة ستيفن للحرب الصليبية قد وصلت المانيا خلال بضعة أسابيع من رحيله من سان دينيه ، فأبى طفل المانى اسمه نيقولا Nicholas من قرية بالقرب من كلونى أن يتفوق عليه ستيفن الفرنسى ، فقام بالتبشير لدعوة مماثلة وادعى أنه ينزل عليه الوحى مثل الأنبياء ، وأنه كان يتلقى الرسالة من ملك من السماء . وأعلن مثلما فعل ستيفن أن بامكان الأطفال أن يتفوقوا على الكبار ، وأن البحر سوف ينفرج أمامهم فيهيىء لهم طريقا يجتازونه الى الأرض المقدسة ، وبينما كان لزاما على الأطفال الفرنسيين أن يستخدموا القوة لفتح الأرض المقدسة ، كان على الأطفال الألمان أن يحققوا غرضهم بتحويل الكفار الى الى المسيحية (٧٦) . وسرعان ما تجمع حوله حشد ضخم من الأطفال تدفقوا

(٧٥) Munro, The children's Crusade, p. 522.

(٧٦) Runciman, A History of the crusades, III, p. 141.

عاشور ، الحركة الصليبية ، حـ ٢ ، ص ٩٥٥ ـ ٩٥٦ .

عليه من القرى والمدن الألمانية فى جماعات تتكون من العشرينات والخمسينات والمئات (٧٧) مصممين وعازمين على اثبات نجاحهم فيما فشل فيه الكبار (٧٨)، وذلك بالاستيلاء على الأرض المقدسة (٧٩) . الم يقل الرب « قاسوا أيها الأطفال الصغار حتى تأتوا الى ، لأن فى هذا مملكة السماء » .

اشتهر نيقولا بما اشتهر به بطرس الناسك من الفصاحة الطبيعية والقدرة على العثور على تلاميذ فصحاء للمضى فى دعوته والتبشير بها فى أنحاء بلاد الراين . ولم تمض بضعة أسابيع حتى تجمع حشد هائل من الأطفال تجهز للمضى الى ايطاليا ومنها الى ساحل البحر المتوسط والتفوا حول نيقولا القائد الملهم الذى سيقودهم كعبريين جدد الى الأرض الموعودة (٨٠) ليقيم فى أورشليم

(٧٧) Chronicae Regiae Coloniensis Continuatio Prima MGH, SS., XXIV), p. 17.

(٧٨) Reineri annales (MGH, SS., XVI), 665; Chronicae Regiae Coloniensis Continuatio Prima (MGH, SS., XXIV), p. 17-18.

(٧٩) Annales Stadenses (MGH, SS., XVI), p. 355; Gesta Treverorum continuata (MGH, SS., XXIV), pp. 398-399;
Annales Colonienses miximi (MGH, SS., XVIII), p. 826;
Annales Placentini Guelfi (MGH, SS., XVIII), p. 426.

(٨٠) ... Se transfretare debere, et Terram Sanctam, Sicut filii Israel ex Egypto exeuntes terram illiam obtinuerunt, ita et ipsi eam sorte possiderent.
Richeri Gesta Sesta Senoniensis Ecclesiae (MGH, SS., XXV), p. 301.

أو كما يقول مؤرخ آخر أنهم أعلنوا أنهم سيتمكنون من السير فوق الأمواج دون أن تبتل أقدامهم .

Asserebat se posse sicco vestigio maris undas transvadare...
Chronicon Ebersheimense (MGH, SS., XXIII), p. 450.

مملكة سلام أبدية (٨١) · ومعظم المصادر التى تحدثت عن قافلة الأطفال الألمانية ، تتحدث عنها كحملة صليبية ، أو كحجاج الى الأرض المقدسة ، ووصفوا الاطفال بأنهم كانوا يحملون الصلبان والكتب المقدسة وكان نيقولا نفسه يحمل صليبا على شكل حرف Tau اليونانية (٨٢) · وكان الأطفال الأحدث والأكثر فقرا هم الغالبية السائدة فى هذا الجيش ، ويبدو أنهم كانوا أساسا من الرعاة والمزارعين لأنه طبقا لما سجله المؤرخون من اشارات أنهم قد تركوا محاريثهم وعرباتهم وقطعان ماشيتهم ، وسارعوا للانضمام الى المواكب السائرة عبر الاقليم (٨٣) · ومن بين العشرين الفا الذين انضموا الى نيقولا كان يوجد بعض النساء والبنات والشبان والخدم من الجنسين وأبناء بعض النبلاء،كما انضم اليهم عدد من ذوى السمعة السيئة من المتشردين والعاهرات (٨٤) ، بل ان أحد المؤرخين يذكر أنه كان بينهم بعض الأطفال الرضع (٨٥) · كذلك اندس بينهم بعض اللصوص وقاموا بسرقة النقود التى تبرع بها المؤمنون والأتقياء للأطفال · وقد تم تنفيذ عقوبة الاعدام شنقا فى أحد هؤلاء اللصوص فى مدينة كلونى (٨٦) ·

تركت حملة الأطفال الألمانية منطقة الراين فى صيف ١٢١٢م · وكان

---

(٨١) Annales Colonienses maximi (MGH, SS., XVII), p. 826.

(٨٢) Gestorum Treverorum Continuatio IV (XXIV), p. 399.

(٨٣) Annales Marbacenses (MGH, SS. XVII), p. 172; Reineri annales (MGH, SS., XVI), p. 665.

(٨٤) Annales Marbacenses (MGH, SS., XVII), p. 172; Annales Placentini Guelfi (MGH, SS., XVIII), p. 426; Annales Colonienses Maximi (MGH, SS., XVII), p. 826; Reineri Annales (MGH, SS., XVI), p. 665; Chronicon Ebersheimense (MGH, SS., XXIII), p. 450; Ogerii Panis Annales (MGH, SS., XVIII), p. 131.

(٨٥) Annales Placentini Guelfi (MGH, SS., XVIII), p. 426.

(٨٦) Annales Colonienses Maximi (MGH, SS., XII), pp. 826-827.

الناس ينظرون بعين الرضى والعطف على هؤلاء الحجاج الصغار ، ويتطوعون بتقديم الطعام والنقود لهم ، ولم تجد هذه الحملة الا مقاومة بسيطة من جانب الآباء (٨٧) وبعض رجال الدين (٨٨) ، غير أن هذا لم يتسبب فى تأخيرهم أو تثبيط هممهم • وكان الطريق الرئيسى للأطفال من وادى الراين مخترقين غرب سويسرا وممرات الألب الى ايطاليا (٨٩) • وقد أشير الى مرور بعض قوافل الأطفال بمدينة سبير Spires (٩٠) فى ٢٥ يوليو ، ووصلوا الى بيكانزا (٩١) فى ٢٠ أو ٢١ أغسطس ، وفى يوم السبت ٢٥ أغسطس ظهروا أمام أسوار مدينة جنوة (٩٢) • كانت رحلة شاقة للأطفال تكبدوا فيها كثيرا من الضحايا أثناء اجتيازهم الغابات والمناطق الجبلية ، بسبب ما عانوه من التعب والمصاعب وشدة حرارة الطقس ، وندرة المياه وقلة الطعام ، فمات عدد كبير من الأطفال على الطريق ، وانسحب عدد آخر ، عادوا الى منازلهم اما بسبب عدم قدرتهم على تحمل مشاق الطريق

---

(٨٧) يقول مؤرخ كلونى أن الأطفال رفضوا الاستجابة لدعوة الآباء والأقارب والأصدقاء بالعودة •

Chronicae Regiae Coloniensis Continuatio Prima (MGH, SS., XXVI), p. 17.

ومؤرخ آخر يقول : حاول كثير من الآباء منع الأطفال ولكن دون جدوى •

Annales Stadenses (MGH, SS., XVI), p. 355.

ومؤرخ ثالث يقرر أن الأطفال لم يستجيبوا لتوسلات الآباء والأمهات •

Reineri Annales (MGH, SS., XVI), p. 665.

(٨٨) Annales Marbacenses (MGH, SS., XVII), p. 172.

(٨٩) Annales Colonienses Maximi (MGH, SS., XVII), p. 827.

(٩٠) Annales Spirenses (MGH, SS., XVII), p. 84.

(٩١) Annales Placentini Guelfi (MGH, SS., XVIII), p. 426; Chronicae Regiae Coloniensis Contiuatio Prima (MGH, SS., XXIV), p. 18.

(٩٢) Ogerii Panis Annales (MGH, SS., XVIII), p. 131; Munro, The Children's Crusade, p. 522; Zacour, The Children's Crusade, p. 334.

أو بعد أن سلبهم اللصوص اللومبارديون أمتعتهم ونقودهم (٩٣) . وهكذا لم يتبق مع نيقولا عند دخوله مدينة جنوة الاسبعة آلاف تقريبا (٩٤) . أبدت السلطات الجنوية أول الأمر استعدادها للترحيب بالحجاج الصغار ، غير أنهم بعد مراجعة أنفسهم ارتابوا فى أن تكون تلك مكيدة المانية للاستيلاء على المدينة ، ولهذا فلم يسمحوا للحملة الا بقضاء ليلة واحدة فقط . غير أن كل من أراد الاستقرار بصفة دائمة فى جنوة سمح له بذلك (٩٥) . واذ توقع الأطفال أن البحر سوف ينشق أمامهم فى صبيحة اليوم التالى ، وافق الأطفال على شروط الجنوية . وفى الصباح لم ينشق البحر ولم يستجب لصلواتهم مثلما جرى للأطفال الفرنسيين فى مرسيليا . واذ اكتشفوا هذه الحقيقة بادر عدد كبير من الأطفال الى قبول عرض الجنويين (٩٦) ، فأضحوا مواطنين جنويين بعد أن تخلوا عن مشروعهم ، وزعمت أسرات جنوية عديدة فيما بعد أنها انحدرت من هذه الهجرة الأجنبية (٩٧) .

ويبدو أن عدم تحقق النبوءة التى بشر بها نيقولا جعل الأطفال ينقسمون الى جماعات متفرقة أخذت تبحث لنفسها عن وسيلة تنقلهم عبر البحر الى الأرض المقدسة ، أما الذين انتقلوا الى ميناء مرسيليا (٩٨) ، أو مدينة فينيام Vienneiam القريبة من الشاطىء فقد تم شحنهم فى بعض السفن ، وحملهم القراصنة وباعوهم فى أسواق الرقيق الشرقية (٩٩) . كما اتجهت مجموعة أخرى الى بيزا واستقلوا سفينتين للشحن ، ولم يسمع شيىء عن أخبارهم

---

(٩٣) Annales Colonienses Maximi (MGH, SS., XVII), p. 827.
(٩٤) Ogerii Panis Annales (MGH, SS., XVIII), p. 131.
(٩٥) Runciman, A History of the Crusades, III, p. 142; Rohricht, Kinderkreuzzug, p. 7.
(٩٦) Runciman, A History of the Crusades, III, p. 142.
(٩٧) Alphandery, Les Croisades d'Enfants, p. 266; Runciman, A History of the Crusades, III, p. 142.
(٩٨) Chronicae Regiae Coloniensis Continuatio Prima (MGH, SS., XXIV), p. 18.
(٩٩) Chronicon Ebersheimense (MGH, SS., XXIII), p. 450.

بعد ذلك (١٠٠) • أما المجموعة الثالثة التى وصلت برنديزى ، فقد اكتشف رئيس أساقفة المدينة المكائد التى تدبر ضد الأطفال واستطاع أن يقنعهم بالعدول عن القيام برحلتهم (١٠١) ، وربما يكون قد منعهم من ركوب السفن • بيد أن الغالبية العظمى من الأطفال بعد أن استبد بهم اليأس قد توجهوا بقيادة نيقولا الى روما ، وهناك تم اعفاء الأطفال الصغار والرجال المسنين من الوفاء بنذرهم ولكن سمح لهم فقط بتأجيل الوفاء به الى وقت لاحق (١٠٢) • وقد بذل البابا أنوسنت الثالث قصارى جهده لمنع الأطفال من الابحار خارج ايطاليا فأرسل اثنين من الكرادلة الى تريفيز Trevise لمنع الأطفال من ركوب البحر (١٠٣) ، وضرورة العودة الى منازلهم •

وهكذا لم يبق أمام الصليبيين الصغار سوى العودة من حيث أتوا • فساروا على الطريق عائدين فرادى أو فى مجموعات صغيرة صامتين محزونين ،

---

(١٠٠) Richeri Gesta Senoniensis Ecclesiae (MGH, SS., XXV), p. 399.

(١٠١) يعلق أحد المؤرخين على ما أصاب الأطفال بقوله أنه قد بيع الكثير منهم كرقيق فى أماكن متعددة •

Continuatio Admuntensis (MGH, SS., IX), p. 592.

(١٠٢) Chronicae Regiae Coloniensis Continuatio Prima (MGH, SS., XXIV), p. 18; Annales Marbacenses (MGH, SS., XVII), p. 172.

(١٠٣) Papa Innocentio, missis cardinalibus, apud Tarvisium Ytaliae repellitur.

Annales Sancti Rudberti Salisburgenses (MGH, SS., IX), p. 780.

عن تجول الأطفال بين المدن والموانى الايطالية • انظر •

Munro, The Children's Crusade, pp. 522-523; Zacour, The children's Crusade, p. 334; Rohricht, Der Kin-der kreuzzug, p. 7; Alphandery, Les Croisade d'en-fants, p. 265.

يجرون أذيال الهزيمة والعار • اما الأهالى الذين زودوهم باحتياجاتهم أثناء مسيرتهم المظفرة فقد صموا آذانهم عن توسلاتهم وأغلقوا الأبواب فى وجوههم فى عودتهم ، بل ان هؤلاء الأطفال صاروا هدفا لسخرية الناس وأضحوكة الجميع ، وبدأوا فى عبور جبال الألب ، فى شهر اكتوبر أو نوفمبر وهم متعبون ممزقو الثياب ، حفاة الأقدام ، مع قلة ما يتحصلون عليه من الطعام ، فقتل البرد منهم مئات عديدة • وقد استغل القوادون عودة الفتيات الصغيرات فغرروا بهن وأوقعوهن فى شرك الرذيلة (١٠٤) • ومن عجيب الأمر أن نرى تلك الفتيات اللاتى خرجن وقد امتلأن حماسة دينية منقطعة النظير ، نراهن وقد سقطن هذا السقوط الفاجع • وبدلا من أداء الحج فى الأرض المقدسة ، صرن يحملن أطفال العار على صدورهن (١٠٥) •

وصل البعض الى بيوتهم بالكاد ، وتشتت عدد منهم فى كل مناطق ايطاليا حيث اضطروا للعمل لاعالة انفسهم ، أما بعض أولاد الأشراف والنبلاء فقد استقبلتهم العائلات الايطالية واستقروا معهم وتزوجوا منهم •

اما مصير الطفل نيقولا نفسه فيقال أنه قد أوفى نذره وأبحر الى الأرض المقدسة وأنه شارك فى الحملة الصليبية الخامسة واشترك فى القتال أثنـاء حصار دمياط ، وأخيرا عاد الى وطنه ، وآخرون يقررون أنه مات فى ايطاليا •

---

(١٠٤) Chronicon Ebersheimense (MGH, SS., XXVIII), p. 450; Annales Marbacenses (MGH, SS., XVII), p. 172; Gestorum Trevorum Continuatio IV (MGH, SS., XXIV), p. 339; Annales Colonienses Maximi (MGH, SS., XVII), p. 827; Munro, The Chilldrens Crusade, p. 523;

Rohricht, Der Kinderkreuzzug, p. 7; Zacour, The Children's Crusade, p. 335.

(١٠٥) Rohricht, Der Kinderkreuzzug, p. 7.

(١٠٦) Continuatio Admuntensis (MGH, SS., IX), p. 592.

أما أهالى كلونى فقد صدمتهم الأحداث واتهموا والد نيقولا بأنه هو الذى شجعه على هذا المشروع ، وحكموا عليه بالشنق (١٠٧) ٠

وهناك سؤال قد يتبادر الى الأذهان ، ما هو موقف آباء الأطفال من هذه الحملة ؟ وكيف وافقوا على اشتراك أبنائهم فى هذا العمل الجنونى ؟

ويجيب أحد المؤرخين على ذلك بقوله يجب ألا يخفى عنا أن هؤلاء لم يتركوا دائما منازلهم لدموع آبائهم ، أو أنهم تركوا الأمن والدفء حول مدفأة الأسرة ، ولكن الحالة السائدة بين فلاحى أوربا فى ذلك الوقت جعلت الآباء يستريحون من التخلص من أعباء بعض الأفواه غير النافعة ، فالحياة فى شمال أوربا كانت بالغة الصعوبة ويؤكد كانتور الحالة السيئة التى كان يعانى منها الغرب الأوربى فى بداية القرن الثالث عشر قائلا أنه يجب ألا يعمينا التحسن النسبى فى أحوال الفلاحين الاقتصادية وخصوصا فى فرنسا وألمانيا ، حيث كان القن فى تلك البلاد فى طريقه لأن يصبح مزارعا صغيرا مستقلا ٠ فان المزارع ظل عبر سنوات طوال يحلق على كوخه المتداعى شبح الموت جوعا (١٠٨) ٠

ان العامل الاقتصادى اذن كان من أهم أسباب خروج حملة الأطفال ، وأن خروجهم الى الأرض الموعودة كان احياء جديدا لحملات العامة (١٠٩) خرجت

---

(١٠٧) Gestorum Trevorum Continuatio IV (MGH, SS., XXIV), p. 339.

(١٠٨) كانتور ، التاريخ الوسيط حـ ٢ ، ص ٧٣٧ ـ ٧٣٨
Raets, La croisade des enfants, p. 32.

(١٠٩) يجب الاحتياط عند وصف حملة الأطفال بأنها احدى حملات العامة ولكن من حيث السلوك والهدف فان هناك فروقا واختلافات جوهرية بين حملات العامة التى خرجت وكلها أمل فى الاستيلاء على ثروات المسلمين ، والتى كانت تتصف بالعنف والقسوة والدناءة حتى مع اخوانهم المسيحيين ، وبين حملة الأطفال المسالمة التى كان يعتقد أفرادها فى أن الرب سيحقق معجزاته من خلالهم معشر الأبرياء ٠

من أوربا للهروب من الفقر والبؤس وفى نفس الوقت تمرد على النظم الاجتماعية فى الغرب الأوربى ، لأنه اذا كان الرب قد اختار الفقراء لتخليص القدس فهذا يعنى انهم الفئة المقربة من الرب وأن فقرهم لم يعد مصدرا للخجل (١١٠)، انهم لهذا السبب وبالرغم من أن الفقر كان حملا ثقيلا الا أنه سيتحول بهم الى رسالة عليا وذلك بتحرير القدس المدينة التى مات فيها المسيح وبعث والتى سيعود اليها فى أواخر الزمان ليحكم على الأحياء والأموات • ان تحرير المدينة المقدسة بالنسبة لهم هو بداية الزمن الأخير حيث تتحقق وعود الرب وينتهى كل اليأس والعذاب الذى يسحق الانسانية • ان الرب سيقيم فى القدس الالهية مع شعبه وسيمسح كل آلامهم ، ولن يكون هناك موت ولا ألم ولا دموع (١١١) • لقد وعد الرب شعبه ان كل الذين عانوا من الفقر مع المسيح سيكافأون بمستقبل زاهر •

واذا كان الحلم بالأرض التى تفيض لبنا وعسلا قد أغرى أسلافهم فى سنة ١٠٩٦م ، فقد مارس هذا الحلم سحره على ابنائهم • وكان هناك الكثير من الآباء الذين لا يملكون سوى التمنيات الطيبة لأبنائهم ، فقد يجدون الخلاص الذى لن يتوفر لهم فى حجرة مهملة فى المدينة أو كوخ ريفى بسيط •

وفى دراسة عما اذا كانت كلمة Pueri اللاتينية التى ذكرت فى المصادر التى تناولت حملة الأطفال والتى تترجم بصفة عامة بأطفال أو شبان صغار ، تعنى هذا المعنى الذى يعبر عن مرحلة من العمر أو ما اذا كانت تعنى فئة اجتماعية معينة يميل البعض الى اعتبارها ترمز الى طبقة اجتماعية ، وانها ترمز الى أى شخص يكون فى وضع من التبعية أو الخدمة بل انها يقصد بها الطبقة الكادحة والريفيين المأجورين وكذلك الأبناء المحرومين من الميراث واضطروا الى العمل لكسب قوتهم (١١٢) • ولكن هذا الرأى مردود عليه بأن معظم من أرخوا لهذه الحملة قد حددوا سن الأطفال المشتركين فيها وذلك عندما

---

(١١٠) Raets, la Croisade des enfants, p. 37.

(١١١) Raets, La Croisade des enfants, pp. 33-34.

(١١٢) Raets, La Croisade des enfants, p. 32.

يذكرون انه اشترك معهم بعض البالغين ، وهذا يعنى أن اكثرهم كان دون البلوغ (١١٣) .

حقيقة لقد انتهت صليبية الأطفال نهاية مؤلمة ، تثير العطف والشفقة ولاشك أنها تركت آثارا واضحة على معاصريها وأبلغ دليل على ذلك القول المنسوب للبابا أنوسنت الثالث عندما قال ان هؤلاء الأطفال وضعونا فى موقف مخجل ، لأنه بينما نحن مستغرقين فى النوم ، فقد اندفعوا لتحرير الأرض المقدسة (١١٤) . غير أن البابا أنوسنت الثالث لم يكن من البساطة بحيث يترك هذا الحدث يمر دون الاستفادة منه ، لأنه فى أعقاب ذلك مباشرة فى عام ١٢١٣م أرسل مبشريه للدعوة لحملة صليبية جديدة ضد المسلمين لاستعادة بيت المقدس . وظل مندوبه روبرت كورسون ، طوال سنة ١٢١٣م يطوف بأرجاء فرنسا ، والغريب فى الأمر ، وما يؤكد ما عرضناه فى تمهيد الظروف التى أنتجت حملة الأطفال الصليبية ، أن جموعا بالغة الضخامة من الشيوخ والأطفال والبرصى والمقعدين والنساء ذوات السمعة السيئة احتشدوا سويا

---

(١١٣) يذكر مؤرخ كلونى أنهم كانوا آلافا كثيرة من الأطفال ما بين سن السادسة وسن الرشد ..

Multa milia puerorum a 6 annis et supra usquead viri-lem etatem...

Chronicae Regiae Coloniensis continuatio prima, (MGH SS., XXIV), p. 7.

بينما يذكر مؤرخ آخر أن المشتركين فى الحملة كانوا من الأطفال وبعض الحمقى من البالغين .

Annales Marbacenses (MGH, SS., XVII), p. 172.

وتذكر دانا مونرو أن ثمانية من المصادر قد وصفت المشتركين فى الحملة بانهم كانوا من الرجال والنساء والبنات والصبيان .

Munro, The Children's Crusade, p. 521.

(١١٤) Papa auditis hiis rumoribus, ingemiscens ait : Hii pue-ri nobis in properant, quod ad recuperationem ter-rae Sanctae eis currentibus nas dormimus.

Annales Stadenses (MGH, SS., XVI), p. 355.

ليشنوا الحرب المقدسة (١١٥) ، ثم بدأت تظهر الرؤى المقدسة ، ففى سنة ١٢١٦م أثناء جذوة الحماس فى التبشير والاعداد للحملة الصليبية ، بدأ يتردد ما صدر عن الشعب من رؤيات عن الصلبان السابحة فى الهواء ، والتى ذاعت بتفاصيلها ، كما أن البابا أنوسنت الثالث نفسه كان معتقدا بأن نبوءة دانيال على وشك أن تتحقق ، بعد أن لحظ أنه كاد يمضى على رؤية الوحش ، السنوات المحددة بها ، وعددها ستمائة وست وستون سنة ، كما أنه انقضى فعلا على على مولد محمد ـ عليه السلام ـ ستة قرون ونصف قرن (١١٦) ٠

كان هناك فريق من الناس الذين اظهروا تعاطفا واضحا مع الأطفال واشفقوا عليهم واعتبروا أن هذه الحركة كانت نتيجة للالهام السماوى (١١٧) أو رسالة من أحد الملائكة (١١٨) أو الى الرؤى المقدسة (١١٩)٠

أما الفريق الآخر فقد تصوروا أن هذه الحملة لم تكن من فعل الله ولكنها كانت من عمل الشيطان (١٢٠) ، وحينما اجتهدوا فى وضع تفسيرات للنهاية المؤلمة التى آل اليها مصير الأطفال ، فانهم يتوصلون فقط الى قصص خرافية ٠ من أمثال ذلك ما يحكى أن عجوز الجبل قائد القتلة والسفاحين ، قد أطلق سراح اثنين من رجال الاكليروس كانوا فى سجنه بعد أن أمرهم بأن يجمعوا له كل أطفال فرنسا ٠ وقد استطاع هذان الرجلان عن طريق الأعمال السحرية أن يجمعا الأطفال البؤساء الى هذه الحملة الصليبية الخاطئة (١٢١) ٠ وثمة

---

(١١٥) Runciman, A History of the crusades, III, p. 144; Mayar, The crusades, p. 206.

(١١٦) Runciman, A History of the Crusades, III, p. 145.

(١١٧) Annales Marbacenses (MGH, SS., XVII), p. 172.
Gesta Treverorum Continuata (MGH, SS., XXIV), p. 398.

(١١٨) Annales Placentini Guelfi (MGH, SS., XVIII), p. 426.

(١١٩) Munro, The Children's Crusade, p. 517.

(١٢٠) Mayer, The Crusades, p. 205.

(١٢١) Rohricht, Der Kinderkreuzzug, p. 8; Alphandery, Les Croisade d'enfants, p.269.

رأى يقول : لقد كان ستيفن الفرنسى طفلا لم يشب عن الطوق ولكن حياته كانت تتسم بالخسة والدناءة والرذيلة ، وأن الشيطان قد صمم على اهلاك رفاقه (١٢٢) .

اما أكثر التعليقات اثارة للدهشة تلك التى أراد بها توماس فولر الذى كتب بعد أحداث حملة الأطفال بأربعة قرون يحاول أن يبين أن الشيطان هو الذى كان وراء خروج هذه الحملة لأنه أى الشيطان كان يريد أن ينعش نفسه بدماء الأطفال ليريح معدته الضعيفة المتخمة بقتل الرجال (١٢٣) .

هكذا تحولت صليبية الأطفال من تعبير عن واقع اجتمـاعى ودينى وسياسى للغرب المسيحى فى العصور الوسطى ، الى مجموعة من الأساطير تعبر بدورها عن الجو الفكرى والنفسى السائد .

وقبل ان ننهى حديثنا عن هذه الحملة الصليبية يجب الاشارة الى أنه ليست هذه أول مرة يظهر فيها الأطفال فى تاريخ الحروب الصليبية ، فقد دخلوا تاريخ هذه الحركة مع آبائهم ، لأن النداء الذى صدر فى أواخر عام ١٠٩٥م للدعوة للحرب المقدسة ، لم يحدد السن أو الجنس أو الطبقة الاجتماعية وقد اصطحب الفقراء وهم راحلون الى الأرض المقدسة عائلاتهم ، الكبير منهم والصغير على عربات متواضعة . وتردد كتب تاريخ الحروب الصليبية العبارة الشهيرة التى قالها جيوبرت من نوجنت Guibert of Nogent « كان الأطفال يتساءلون كلما رأوا مدينة جميلة فى الطريق : هل هذه هى أورشليم » . حقيقة الأمر لم يكن لغالبيتهم سوى دور سلبى ، فقد ماتت معظم الأسر الفقيرة من الجوع أثناء الطريق ، وبسبب العطش عبر صحارى آسيا الصغرى . وقد هلك أيضا أطفال آخرون أثناء الحملات الصليبية الثانية والثالثة .

---

(١٢٢) Zacour, The children's Crusade, p. 340.

(١٢٣) Thomas Fuller, The History of the Holy Warre Cambridge, 1940), p. 152.

(١٢٤) Alphandcry, Les Croisade d'enfants, p. 266.

ومع ذلك فقد حدث فى مرات عديدة أن حمل الأطفال أسلحة بدائية وكونوا مجموعات هاجموا بها أطفال المسلمين . وقد وصف Guibert of Nogent معارك الأطفال تحت أسوار أنطاكية (١٢٥) . كذلك يصف ابن شداد وأبو شامة ، القتال الذى دار بين طفلين من أطفال المسلمين وطفلين من أطفال الصليبيين أمام عكا (١٢٦).

كما أنه من الأخبار المثيرة حقا عن تاريخ الحركة الصليبية أن البابا أوربان الثانى قد أمر فى سنة ١٠٩٩م بوضع اسم Nicolas le Peregrim فى عداد القديسين . وكان نقولا هذا أحد دعاة الأطفال القادمين من بلاد اليونان سنة ١٠٩٤م . وقد جاب نقولا كل المزارات الدينية فى ايطاليا حاملا معه صليبا على هيئة Tau اليونانية . وتبعته مجموعات من الأطفال كانوا يرتلون معه التسبيحات المقدسة (١٢٧) .

واذا كانت حملة الأطفال قد برهنت على مدى ما يمكن للهوس الدينى والتعصب والجهل أن يفعله فى مجتمع ما ، فاننا لابد أن نقرر أن هذا التيار الدينى العاطفى لدى شعوب الغرب الأوربى ، كان هو المطية التى امتطتها الكنسية والعلمانية فى العصور الوسطى لتحقيق مآربها السياسية . وبينما فهم الناس فى أوربا آنذاك مثل هذه الأمور على أنها وسيلة للخلاص المادى والروحى ، نظرت الكنيسة الى الفكرة الصليبية باعتبارها احدى أدوات السياسة البابوية ، فى الداخل وفى الخارج على حد سواء . ولم تختف هذه الومضات المتهوسة فى التاريخ الأوربى الوسيط ، فقد تجلت فى سماء المجتمع الأوربى عدة مرات منها ما حدث سنة ١٢٣٧ ، ١٢٥١م ، ١٢٨٤م (١٢٨) . اعلانا عن روح التدين الهستيرى .

---

(١٢٥) Alphandery, Les Croisade d'enfants, p. 267.

(١٢٦) بهاء الدين ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (القاهرة ، ١٩٦٤) ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ، ابو شامه ، الروضتين فى أخبار الدولتين ، حـ٢ (القاهرة ، ١٢٨٨هـ) ص ١٤٣ .

(١٢٧) Alphandery, Les Croisade d'enfants, pp. 267-268.

(١٢٨) Zacour, The Children's Crusade, pp. 340-341; Rohricht, Derkinderkreuzzug, p. 8.



الدوافع الاجتماعية فى الحركة الصليبية

للدكتور قاسم عبده قاسم
أستاذ تاريخ العصور الوسطى بآداب الزقازيق



الدوافع الاجتماعية فى الحركة الصليبية

الظاهرة التاريخية لاتنبت من فراغ ولا تظهر فجأة من طيات المجهول ، وانما هى نتاج تفاعل طويل ومستمر ، عبر الزمان ، لمجموعة من العـوامل والعلل والأسباب والكيفيات • فاذا ماتم التفاعل ، وباتت الظروف التاريخية مواتية ، تجلت الظاهرة على مسرح التاريخ • وهذا هو ما يجعل مشكلة السببية فى التاريخ من أعقد المشكلات التى تواجه المؤرخين • فليس بمقدور أى من المؤرخين أن يرصد كافة الأسباب والدوافع وراء ظاهرة تاريخية ما • ولكن كل مؤرخ يحاول أن يتقصى الأسباب التى تتبدى واضحة له • وهنا يكون محكوما بخلفيته الثقافية وموقفه الفكرى • ولعل هذا يفسر لنا السبب فى اختلاف مدارس التفسير التاريخى فى عصرنا الحديث • ولأن المؤرخ اليوم مطالب بأن يجيب على السؤال الذى يبدأ بكلمة « **لماذا** » ، بدلا من أن يحكى لنا « **ماذا** » حدث ، فانه سوف يسعى بالضرورة وراء الدوافع والأسباب •

والحركة الصليبية مثال جيد للدلالة على صدق هذه المقولة • اذ أوضح المؤرخون اللاتين المعاصرون للحركة الصليبية منذ بدايتها أن هذه الحركة كانت نتاجا لمجموعة عوامل معقدة للغاية • كما أن هذه الحركة نفسها كانت ظاهرة بالغة التعقيد • ومن ثم فان أية محاولة لشرحها أو تفسيرها فى ضوء عامل واحد : مثل الحماسة الدينية ، أو جوع زعماء الصليبيين الى الأرض ، أو الأحوال الاجتماعية والاقتصادية القاهرة التى عانى منها الفلاحون ، أو رغبة التجار فى الحصول على الامتيازات التجارية ، أو مآرب البابوية السياسية •• أو غيرها ـ هذه المحاولة سيكون مآلها الفشل على الرغم من أن كل دافع من هذه الدوافع كان واضحا فى الحركة الصليبية بالفعل • ومن ناحية أخرى ، فليس بمقدورنا أن نميز بخط فاصل بين أهداف الزعماء وأهداف العـامة الذين أسمتهم المصادر اللاتينية « الحجاج الفقراء » ، لأن كلا من الفريقين قد أظهر من دلائل التدين ومن مظاهر الطمع الدنيوى ما يجعلنا نتخبط فى حيرة اذا وضعنا أنفسنا رهن التصور الساذج بأن تصرفات كل فريق من

المشاركين فى الحملة الصليبية الأولى كانت تسير على نهج واحد ، وتتميز بالاتساق والانسجام والتوافق · فقد كان الصليبيون هم أبناء الغرب اللاتينى الذين تحمسوا لحمل شارة الصليب بعد خطبة اربان الثانى فى كليرمون سنة ١٠٩٥ (١) كما كانوا هم الذين عاثوا فسادا فى الطريق صوب القدس ، ونهبوا واحرقوا المدن والقرى المسيحية فى المجر والبلقان · وكانوا هم الذين وصمتهم أناكومنينا بالجشع وحب المال (٢) · كذلك كانوا هم الذين بدأوا فى نهب وحرق مدينة القسطنطينية بالشكل الذى أغضب الامبراطور البيزنطى فأمرهم بعبور المضيق الى آسيا الصغرى (٣) · وكان أولئك الصليبيون هم الذين ألهبتهم الحماسة الدينية بعد أن أضناهم الحصار فى أنطاكية بسبب ما أشيع بينهم عن العثور على الحربة التى طعن بها المسيح عليه السلام ، كما كانوا هم أصحاب السمعة السيئة فى عدم الوفاء بعهود الأمان التى يقطعونها ، وهم الذين أشاعوا عن أنفسهم قصص الرعب وذبح البشر وأكلهم بعد شيهم على النيران (٤) · كان الصليبيون هم الذين ارتكبوا أبشع المذابح

---

(١) Fulcher of Chartres, A history of the expedition to Jerusalem, 1095-1127, (Edited and translated by Harold S. Fink, Knoxville 1969), p. 68; Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum, (ed. and translated by : Rosalind Hill – U.S.A. (1962), p. 2.

(٢) تقول آناكومنينا : « ··· الجنس اللاتينى فى كل الأوقات موصوم بجشع غريب ونهم للثروة والمال ··· » ، انظر :
The Alexiad of Anna Comnena, (transl. from Greek by E.R.A. Sewter. Penguin 1979), p. 308.

(٣) Gesta, pp. 3-4.

(٤) ذكر وليم الصورى انه أثناء حوادث حصار انطاكية أمر بوهيموند النورمانى بتعليق بعض الأسرى المسلمين فوق النار ، وأمر رجاله بأن يشيعوا انهم سوف يأكلون أجساد من يقبض عليه من الجواسيس · أنظر :
William of Tyre, vol, I, pp. 222-223.

بعد اقتحام مدينة بيت المقدس ، ثم ذهبوا لأداء صلاة الشكر فى الضريح المقدس بوجوه تنطق ارهاقا وأيادى تقطر دما ٠

هذا التناقض فى سلوكيات الصليبيين يوازيه تناقض آخر فى انتماءاتهم الاجتماعية وافكارهم ودوافعهم ٠ فقد كانوا خليطا غريبا من المغامرين والمتدينين ، من الحجاج واللصوص ، من الجنود وشذاذ الآفاق ، من النبلاء والفلاحين ، من التائبين والهاربين من العدالة ، من الباحثين عن الخلاص ٠٠ كانوا رجالا ونساء واطفالا وشيوخا من شتى الطبقات والفئات الاجتماعية تحركهم مجموعة متناقضة ومتداخلة من الأهداف والدوافع ٠

وفى الحركة الصليبية ، كما فى الحياة فى أوربا العصور الوسطى عموما ، يواجه المؤرخ خليطا مذهلا من التقوى والوحشية قد تحول تناقضاتها الصارخة دون أية محاولة لفهمها ٠ وهى مثل اية ظاهرة تاريخية اخرى ، عبارة عن مجموعة من الأفعال الجزئية لآلاف الأفراد ٠ واذا كان هناك هدف عام تتحرك هذه الجموع باتجاهه ، فان عمومية الهدف لاتمنع من ان تكون لدى كل طبقة دوافعها الخاصة ، بل وأن تكون لكل فرد أهدافه الشخصية ٠ ومن ثم فان اية محاولة لقولبة الدوافع فى الظاهرة التاريخية داخل اطار فكرة مسبقة سيكون مآلها الفشل والاخفاق ، فالسببية ، كما ذكرنا ، من اهم وأعقد مشكلات البحث التاريخى ٠ ذلك ان طبيعة الظاهرة التاريخية تجعل الزمن عنصرا أساسيا فى تكوينها ، وهو ما يعنى تداخل الماضى فى الحاضر بشكل يصعب تحديد مداه من ناحية ، وتغلغل اسباب ودوافع وعلل هذه الظاهرة التاريخية فى اعماق الزمن من ناحية اخرى ٠ كذلك فان الظاهرة التاريخية لاتظهر بين عشية وضحاها ، ويترتب على ذلك ما سبق ان قررناه من استحالة احصاء الدوافع والأسباب وراء الظاهرة التاريخية بشكل جامع شامل ٠

وفيما يتعلق بالحركة الصليبية تبدو مشكلة السببية أكثر وضوحا بسبب الطبيعة المحيرة المربكة لهذه الظاهرة ، فقد كانت حركة دينية بقد ما كانت حركة سياسية ، كما كانت حركة اجتماعية اقتصادية مثلما كانت حركة فكرية وعسكرية ٠

واذا كنا قد اشرنا ، الى صعوبة البحث عن الأسباب فى الحركة الصليبية وروافدها الأساسية ، فاننا يجب أن نشير الى أن الهدف الايديولوجى العام والمعلن شىء ، والأسباب والدوافع الحقيقية شىء آخر . ذلك انه فى فترة الاعداد للحرب عادة ما يكون التركيز على الهدف الايديولوجى بقصد الحصول على التأييد الشعبى العام ، وليست هناك ايديولوجية يمكن أن تجتذب جموع الناس مثل الايديولوجية التى تقوم على أساس دينى ، أى ترتدى مسوح الدين ، على الرغم من أن الدوافع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، بل والأهداف الشخصية ، قد تكون فى حقيقتها دوافع اكثر أهمية من الدافع الذى يحظى بمثل هذا الانتشار ، وفى الحركة الصليبية تمت صياغة الايديولوجية على أساس دينى . والحركة الصليبية مثال جيد على الاختلاف بين الهدف الايديولوجى المعلن للحرب ، والدوافع والأسباب الحقيقية التى تعتبر المحرك الفعال لعجلة الحرب لتحولها الى واقع ملموس . ففى غمار الحماسة والاثارة والحرارة التى صاحبت خطوات الاعداد للحرب ، منذ خطبة اربان فى كليرمون حتى تحرك الجيوش على الطريق الى القدس والأرض المقدسة ، كان التركيز على الدافع الايديولوجى كبيرا (٥) . فقد تحدث اربان

---

(٥) لدينا عدة روايات عن خطبة اربان فى كليرمون ، فقد ذكر فوشيه وى شارتر ان البابا خاطب من تجمعوا لسماعه بقوله : « أيها الأخوة الاعزاء ، لقد جئت أنا اربان الأسقف الأعلى باذن الرب ، وراعى العالم كله ، فى هذا الوقت اليكم ياخدام الرب فى هذه المناطق كرسول للعناية الالهية » .. وانه قال « ... الرب ، ولست أنا يهيب بكم كرعية للمسيح ... أن تسارعوا الى استئصال شأفة هذا الجنس الشرير من أرضنا » .

Fullcher of Chartres, pp. 62-66.

كذلك ذكر روبير الراهب أنه قال « يا شعب الفرنجة ، يا من جئتم عبر الجبال ، يا من اختارهم الرب وأحبهم » .

Robert the Monk, (in Peters, (ed) The First Crusade, pp. 2-5.

انظر أيضا Guibert of Nogent, (in Riley — Smith (ed.) : The Crusades, pp. 45-49.

فى خطبته عن أن الحرب ستكون فى سبيل الرب ، ولانقاذ ضريح المسيح • وفى الروايات المختلفة التى وصلتنا عن هذه الخطبة ترددت عبارات كثيرة من الأناجيل توحى بأن الحرب فى سبيل الرب وشعب الرب • كذلك فـان لدينا مجموعة من الخطابات التى أرسلها البابا بعد كليرمون الى شتى أنحاء الغرب الأوربى تحمل مزيدا من الدعاية للحملة المقترحة باعتبارها حـربا أمر بها الرب • ولدينا وثيقة عبارة عن خطاب من اربان الثانى الى الصليبين فى اقليم الفلاندر ، وهو بتاريخ ديسمبر ١٠٩٥ ، يحمل تعليمات البابا فى مصطلحات تؤكد على الجانب الدينى فى الحرب المقترحة (٦) • ولدينا ثلاثة خطابات أخرى من سجل اربان الثانى أولها عبارة عن خطاب الى اتبـاعه فى بولونا بتاريخ ١٩ سبتمبر ١٠٩٦ والثانى خطاب موجه الى الرهبان فى فالومبروسا Vallombrosa تاريخه ٧ أكتوبر ١٠٩٦ ، أما الثالث فتاريخه على ما يرجح يرجع الى الفترة ما بين يناير ١٠٩٦ ويوليو ١٠٩٩ ، موجه الى بعض الكونتات وفرسانهم حول الحملة المقدسة (٧) • هذه الخطابات لم تكن هى الوسيلة الوحيدة للدعاية البابوية التى تنوعت وسائلها كما سـنرى ، ولكن ما يهمنا هنا أن نشير الى أن الحركة الدعائية قد ركزت على الجانب الايديولوجى القائم على أسس دينية •

وعندما أخذت عجلة الحرب فى الدوران ، بدأت تظهر الأهداف والدوافع الحقيقية التى كانت متوارية خلف غبار الضجة الاعلامية للحرب • لقد تمت صياغة الايديولوجية الصليبية على أساس دينى واضح ، وبهدف دينى محدد، هو تخليص الاماكن المقدسة من أيدى المسلمين • فهل كان الهدف الدينى الذى تمت على أساسه هذه الصياغة الايديولوجية هو الدافع الوحيد لهذه السلسلة

---

(٦) أنظر نص هذا الخطاب فى :

Peters (ed.), The First Crusade, pp. 15-16.

وهناك ترجمة أخرى لنفس الوثيقة باللغة الانجليزية ، أنظر :

Riley – Smith (eds.), The Crusades, p. 38.

(٧) Ibid, pp. 38-40.

من الحروب والحملات التى شغلت رقعة فسيحة من الزمان ؟ وهذا ما سوف نحاول دراسته فى هذا البحث ٠

اذا كان بعض المؤرخين يعتبرون أن الحركة الصليبية كانت هى العامل الأساسى فى التغير التاريخى فى أوربا منذ القرن الحادى عشر حتى القرن الثالث عشر ، فاننا لانستطيع أن نوافق على هذا الرأى ٠ حقيقة أن الحركة الصليبية قد لعبت دورا فى تطور أوربا ، ولكن هذا الدور كان محدودا بحيث لايمكننا أن نقول انها كانت من العوامل المؤثرة فى صياغة الحياة الأوربية آنذاك ٠

واذا ما تذكرنا أن الحركة الصليبية نفسها كانت نتاجا للتفاعلات التى أخذت تجرى على أرض الواقع الأوربى منذ القرن الحادى عشر ، وربما قبل ذلك بصورة أقل وضوحا ، لأدركنا أن هذه الحركة لم تكن عاملا سببيا قويا فى تطوير أوربا ٠ اذ أن تأثير الحركة الصليبية لم يكن كافيا لتغيير اتجاه التطور فى نظم الحكم والسياسة والاقتصاد والثقافة الأوربية آنذاك ، وهو تطور كانت الحركة الصليبية احدى ثماره ٠ بل ان القرن الثالث عشر ، شهد بداية اهمال أوربا للمثال الصليبى بسبب المشكلات الجديدة التى استغرقت جهود الأوربيين فى مجال الحكم والاقتصاد والفكر ٠ والحركة الصليبية فى تصورها كانت تعبيرا عن نماذج أساسية من الفكر والسلوك فى الغرب الأوربى فى تلك الآونة فهى تكشف النقاب عن الناس فى أوربا العصور الوسطى فى أفضل أحوالهم وفى أكثرها سوءا على حد سواء ٠ هذه الحركة كانت بمثابة مسرح كبير تجلت فوقه خصائص أهل العصور الوسطى وخصالهم بصورة رائعة ٠ وهذا هو السبب فى اهتمامنا برصد الدوافع والأسباب التى حركت أولئك الناس لشن تلك السلسلة الطويلة من الحروب التى عرفت باسم الحروب الصليبية ٠

هكذا ، اذن ، ينبغى علينا أن نحاول رسم صورة حية للمجتمع الأوربى فى القرن الحادى عشر ، بحيث نكشف عن القوى الاجتماعية التى كانت تؤلف

هذا المجتمع • لأن الحركة الصليبية بحد ذاتها كانت نتاجا طبيعيا لهذه القوى الفاعلة فى المجتمع الأوربى وتعبيرا عن تفاعلاتها •

وكان القرن الحادى عشر فى أوربا بداية لفترة استمرت ثلاثة قرون تجلت خلالها سمات الحضارة الأوربية فى العصور الوسطى بالقدر الذى جعل المؤرخين يصطلحون على تسمية هذه الفترة باسم العصور الوسطى العالية (أو الناضجة) High Middle Ages (٨) • فقد كانت تلك الفترة هى عصر الجنود والأبطال ورجال الدولة وزعماء الكنيسة • فى تلك الأثناء كان الفلاحون الباحثون عن أراضى أفضل ، والمهاجرون الى المدن الجديدة الناشئة ، والتجار المسافرون على الطرق الأوربية وشعراء التروبادور المتنقلون بأغانيهم من قلعة الى أخرى ، والنساك المنسحبون من العالم باغوائه وشروره ، والمبشرون الجوالون ، والصليبيون والحجاج المتوجهون الى الارض المقدسة •• كان هؤلاء وأولئك جميعا بمثابة شهادات حية على أن وجه المجتمع الاوربى الغربى قد بدأ بتغير •

ففى القرنين التاسع والعاشر كانت أوربا فى موقف دفاعى ضد قوى الانسان والطبيعة على السواء • ولكن الأمر تغير فى القرن الحادى عشر • ويمكن اتخاذ سنة ١٠٠٠ ميلادية كنقطة تحول فى التاريخ الأوربى ، فقد بدأ عصر الزيادة السكانية ، التى تسببت فى اضطراب الحياة الاجتماعية ، سواء فى الريف أو فى المدن النامية ، وبدأت حركة نشطة لاصلاح الأرض المهملة بقصد استزراعها فى شتى انحاء أوربا الغربية • وبينما كان هناك من يحاولون التنمية فى الداخل ، كان هناك من يحاولون السعى وراء حظوظهم خارج الحدود • كان هذا القرن والقرن التالى له ، فترة التقدم والابتكار ، اذ بدأ

---

(٨) Philippe Wolff, The Awakening of Europe (transl. from French by Anne Carter, Penguin 1968), p. 208; Cantor, Med. Hist., pp. 265-70; Hoyt and Chodorow, Europe in the Middle Ages, pp. 304-310; Painter, «Western Europe on the Eve o the Crusades»; p. 3.

الاوربيون يبنون المدن والكاتدرائيات ، كما بدأوا يكونون الثروات ويقرضون الشعر (٩) ٠ وفى هذا القرن أيضا خرجت الحروب الصليبية ٠

وقد كانت الحروب الصليبية جزءا من التوسع والنمو الأوربى فى القرن الحادى عشر ، كما أنها أفادت من الشكل الأولى للتنظيم الذى عرفته أوربا آنذاك ٠ وفى غمار هذه الحركة الصليبية عبرت كل قوة من قوى المجتمع الأوربى عن نفسها بطريقة حيوية للغاية ٠ واذا كانت الخلفية الايديولوجية التى خرجت منها هذه الحركة قد شدت كافة القوى فى المجتمع الأوربى اليها ، فلا حاجة بنا الى القول بأن دوافع هذه القوى للمشاركة فى المشروع الصليبى لم تكن دينية فقط ٠ وعلى الرغم من كل ما كتبه المؤرخون الأوربيون ، القدامى منهم والمحدثون ، عن الحج والحرب المقدسة ، فانه سيكون من الخطأ أن نتأمل فى تفسير الحركة الصليبية فى ضوء الدين والنفسية الجماعية فقط ٠ ذلك أن الأسباب والدوافع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، بل والدوافع الفردية الخالصة ، قد ساهمت مع الدافع الدينى (الذى كان أقلها أهمية) فى دفع قوى المجتمع الاوربى للمساهمة فى الحملة المقترحة ٠ فما هى تلك القوى الاجتماعية الأساسية فى المجتمع الأوربى عشية الحروب الصليبية ؟

كانت هناك ثلاث طبقات رئيسية فى المجتمع الأوربى آنذاك ، فالنبلاء (**الذين يحاربون**) ورجالا الكنيسة (**الذين يصلون**) كانوا يشكلون ضاغطى المثلث ، ثم المزارعون من الأحرار والاقنان (**الذين ينتجون**) وكانوا بمثابة قاعدة هذا المثلث الاقطاعى كما تصوره المعاصرون ٠ ولكن الحقيقة أن النبلاء ورجال الكنيسة كانوا بمثابة جناحين (عسكرى ودينى) لطبقة واحدة ، على حين كان الفلاحون هم الطبقة الدنيا ٠ وكان على أبناء هذه الطبقة أن يعولوا أبناء الطبقة الحاكمة بجناحيها العسكرى والدينى (الكنسى) ٠ وقد رسخ

---

(٩) Maurice Keen, The Pelican History of Medieval Europe, (Penguin 1982), pp. 84-87; Bishop, The Penguin Book of the Middle Ages (Penguin 1971), pp. 45-46.

هذا التقسيم الثلاثى بدرجة جعلت المجتمع الاوربى ينكر على سكان المدن الجديدة (Bourg; Burg) اية مكانة قانونية بين طبقاته ، وهو ما جعل البورجوازيين (أى سكان البورج Burg) يتجهون الى شراء هذه الحقوق بأموالهم • وكان هذه الطبقة الجديدة فى المجتمع الأوربى آنذاك تتألف من أفراد جاءوا من خلفية اجتماعية غامضة أو مجهولة • والراجح أن بعضهم كانوا من أبناء الشرائح الدنيا من الفرسان الذين لايملكون ارضا ، والبعض الآخر من المزارعين الاحرار كما شاع بين الناس فى ذلك الحين أن بعضهم كانوا من الأقنان الذين استطاعوا شراء حريتهم • وكان هؤلاء البورجوازيون يكسبون عيشهم من صناعة المنسوجات ومن التجارة (١٠) •

ومن الناحية الاقتصادية كان النظام الاقطاعى يفرض نوعا من التخصص على طبقات المجتمع ، بيد انه كان تخصصا من نمط بدائى فج • فلم تكن الطبقة النبيلة المحاربة تعمل بالانتاج ، على حين لم يكن مطلوبا من الطبقة المنتجة أن تتخلى عن نشاطها الانتاجى لكى تشارك الطبقة النبيلة فى أعباء القتال • ولأن الفلاحين الأقنان والشرائح الدنيا من المزارعين الاحرار ، وسكان المدن الناشئة ، كانوا يمثلون الأغلبية الساحقة فى المجتمع الأوربى ، فقد اتاح ذلك وجود قوة عمل كبيرة فى ظل النظام الاقطاعى ، ولكن هذا العمل كان قاصرا على الأرض ونتاجها المباشر • ومن ناحية اخر ، فان التجارة وحركة البضائع كانت ماتزال ضعيفة بسبب الرسوم والضرائب الاقطاعية العديدة التى فرضها السادة الاقطاعيون ، ومن ثم لم يكن هناك مكان للتجار فى الريف الاقطاعى ، وهو مادفع بالتجار الى سكنى المدن الجديدة • بيد أنه لم يكن ممكنا ضمان الأمن والمكانة الاجتماعية فى المجتمع الاقطاعى سوى فى ظل السلم الاقطاعى

---

(١٠) عن هذا الموضوع أنظر :

Henri Pirenne, Economic and Social History of Medieval Europe, (London 1972-9th ed.), pp. 42-49; Cantor, Med. Hist., pp. 267-268.

الذى يضم الساده الاقطاعين وأفصالهم (١١) ·

كان الطابع الريفى هو الغالب على الحياة الأوربية فى القرن الحادى عشر (١٢) ولذلك كانت أحوال المجتمع الأوربى تتأثر تماما بأحوال الاقتصاد الزراعى (عماد النظام الاقطاعى) · فقد كانت هناك أزمة فى الاقتصاد الزراعى حوالى سنة ٨٥٠ ميلادية ثم أخذت هذه الأزمة تشتد وتتصاعد حتى وصلت ذروتها سنة ١٠٠٠ ميلادية تقريباً (١٣) ·

وتمدنا الحوليات والمدونات التاريخية التى ترجع الى مطلع القرن الحادى عشر بأوصاف حية للجماعات التى أنشبت مخالبها فى تلك الأنحاء · هـذه المجاعات حدثت نتيجة لفشل الانتاج الزراعى فى اللحاق بالزيادة السكانية · ويرى مارك بلوك (١٤) أن من السذاجة أن ندعى أننا نفهم الناس فى مجتمع ما ، دون أن نعرف أحوالهم الصحية : بيد أننـا مضطرين الى الاستقراء والاستنباط فى حالة أوربا العصور الوسطى بسبب افتقارنا الى الأدلة وقصور

---

(١١) مع القلاقل التى شهدها القرنان التاسع والعاشر فى أوربا ، كانت الحاجة الاجتماعية الملحة هى الحماية وتوفير الأمن الذى لم يكن يستطيع توفيره سوى الأقوياء ، ولكى يقوم الاقوياء بهذه المهمة فقد كانوا بحاجة لمن يعملون لاطعامهم هم ورجالهم · وهكذا لم يعد يربط المجتمع ببعضه الالتزام بالصالح العام ، وانما التزام كل فرد بالقسم الشخصى الذى قطعه لشخص آخر · وكان سلام المجتمع يتوقف على مدى وفاء أولئك الافراد بما قطعوه على أنفسهم من عهود ، أنظر : Keen, Pelican Book, pp. 51-57.

أنظر أيضا : G. G. Coulton, The Medieval Scene, (Cambridge 1930), pp. 4-6.

(١٢) Painter, «Western Europe», p. 9.

(١٣) Mayer, The Crusades, p. 22; Keen, pelican Book, p. 123; Duncolf, «The First Crusade : Clermont to Constantinople», in Setton (ed.), A hist. of the Crusades, pp. 253-255; Bradford, The Sword, pp. 30-31.

(١٤) Marc Bloch, Feudal Society (The University of Chicago Press 1961), pp. 72-73.

وسائل البحث • ولاشك فى أن وفيات الأطفال فى أوربا القرن الحادى عشر (وقبل ذلك وبعده) كانت عالية • وبغض النظر عن أخطار الحروب الاقطاعية، كانت الحياة فى أوربا آنذاك قصيرة وكئيبة • ومن بين الكثيرين ممن حصدهم الموت فى سن مبكرة ، كان عدد كبير يموت بسبب الأوبئة التى غالبا ما كانت تنشب مخالبها فى المجتمع الذى لم يكن يملك سلاحا فعالا لمقاومتها • كذلك كانت المجاعة وحشا فتاكا آخر يعصف بالفقراء من أبناء هذا المجتمع • فاذا أضفنا الى هذه الصورة القاتمة أحداث العنف الناجمة عن الحروب الاقطاعية أدركنا مدى انعدام الأمن فى حياة الناس آنذاك • وفى رأى بلوك أن المستوى الصحى المتدنى ، وافتقار المجتمع الى الأمن كان من أهم أسباب القلق العاطفى الذى تميزت به المجتمعات الاقطاعية فى أوربا عشية الحروب الصليبية •

حقيقة أن الأحوال بدأت تتحسن نسبيا بعد القرن العاشر ، وبدأت فى القرن الحادى عشر حركة من النمو ومحاولات الخروج من الأزمة ، ولكن الصورة لم تتغير كثيرا • ولنفرض أن لدينا آلة تساعدنا على أن نعود القهقرى عبر قرون الصخب والحروب لنلقى نظرة على الريف الأوربى قرب نهاية القرن الحادى عشر ، فما الذى سنشاهده هناك ؟

أن أول ما يسترعى انتباهنا هو ذلك العدد الكبير من الغابات التى تجرى ازالتها فى شتى أنحاء أوربا لتوسيع الرقعة الزراعية • فقد كانت الغابات الكثيفة تحيط بالأراضى الزراعية حول القرى فى كل مكان ، باستثناء المناطق ذات الكثافة السكانية المرتفعة • وكانت أصوات فئوس الفلاحين وأصوات المناشير المستخدمة فى ازالة هذه الغابات بمثابة النغمة الدالة على أن أوربا قد بدأت مرحلة جديدة من النمو السكانى ، اذ كانت الأشجار تزال لتزرع مكانها المحصولات التى يحتاجها السكان كما أن اخشاب هذه الأشجار كانت تستخدم لبناء المساكن الجديدة فى المدن النامية • وعلى حواف الحقول كان الفلاحون يحرقون الأعشاب من وقت لآخر لكى يزرعوا محصولا أو اثنين فى الأرض التى خصبها الرماد • وقد شهد القرن الحادى عشر نسبيا فى مجال الزراعة ،

سواء من حيث زيادة الرقعة الزراعية ، أو من حيث الأدوات التى يستخدمها الفلاحون •

واذا ما أخذنا فى اعتبارنا النمو السكانى الذى شهدته أوربا فى ذلك الحين ، ولاحظنا أيضا أن غالبية السكان كانوا من الفلاحين ، فاننا يجب الا نبالغ فى قيمة هذا التقدم النسبى • فالحقيقة أن هذا التحسن الذى طرأ فى مجال الزراعة لم يؤت ثماره فى تحسين أحوال الفلاحين المعيشية ، فقد كان المستفيدون قلة من الفلاحين الذين يملكون محراثا ويملكون أيضا الثيران التى تجره • أما الغالبية فلم تتحسن أحوالهم (١٥) •

وعلى العموم ، كانت حياة الفلاحين عابسة وغير آمنة ، فقد خربت مساحات كبيرة من الأرض الصالحة للزراعة بسبب الغزوات الجرمانية فى الفترة السابقة ، ثم غزوات الفيكنج والمجريين والمسلمين فى القرن العاشر ، فضلا عن الحروب الاقطاعية التى كانت تهدد بتمزيق أواصر المجتمع الأوربى • ومن ناحية أخرى ، كان السادة الاقطاعيون غالبا ما يعارضون محاولة ازالة الغابات والزراعة مكانها ، لأن هذه الغابات كانت هى المكان الذى يمارسون فيه رياضة الصيد التى كانت شاغلهم الأساسى فى غير أوقات الحرب والقتال • كما أن القرية التى لم تكن تتمتع بحماية أحد النبلاء الاقطاعيين غالبا ما كانت تتعرض للسلب والنهب على أيدى العصابات الاقطاعية المتحاربة ، بل أن القرى كثيرا ما كانت تتعرض للحرق من جراء الغارات الاقطاعية ، وعلى الرغم من أن الكنيسة قد حاولت أن تلعب دورا فى حماية الفلاحين من خلال حركة السلام • فان جهودها فى هذا المجال لم تأت بالنتائج المرجوة • اذ أن حركة السلام التى دعت اليها الكنيسة لم تكن تحظى بمساندة أى

---

(١٥) Wolff, The Awakening of Europe, pp. 198-202; Cantor, Med. Hist., pp. 265-270; Painter, «Western Europe», p. 3.

من كبار الأمراء الاقطاعيين مالم تكن لهذا الأمير مصلحة شخصية فى اقرار السـلام (١٦) ٠

ومن ناحية أخرى ، كان الناس فى ذلك الزمان أقرب الى الطبيعة منا فى العصر الحديث ، بمعنى أنهم كانوا تحت رحمتها ، فقد كانت الطبيعة أقل استئناسا ونعومة مما تبدو اليوم ٠ فأرض الريف التى كانت البرارى والمناطق البور تشكل شطرا كبيرا منها ، كانت دليلا على أن تأثير الانسان فى الطبيعة ضئيل ومحدود ٠ فالحيوانات المتوحشة ، مثل الدببة والذئاب ، كانت تجوس فى هذه المناطق البرية فى حرية تامة ، بل انها كانت تتجول بحرية أيضا فى الحقول المزروعة حول القرى ٠ ولما كانت تلك هى الحال فى الريف الأوربى فى تلك الفترة ، فان الصيد البرى لم يكن رياضة ترفيهية بقدر ما كان وسيلة أمنية ضرورية لحماية الريف، كما كان الصيد احدى وسائل الحصول على الطعام أيضا ٠ كذلك كان الناس لايزالون يلتقطون ثمار الأشجار البرية ، ويجمعون عسل النحل البرى ، مثلما كان الحال فى زمن الانسان الأول ٠ وكان الخشب هو المـادة الرئيسية المستخدمة فى صناعة الأدوات والمدات ٠ وبسبب الافتقار الى وسائل الاضاءة ، كانت ليالى الريف فى غرب أوربا أشد ظلمة من ليالى الريف الحالى ، كما كان البرد أشد وطأة حتى بين جدران القلاع (١٧) ٠

باختصار كانت البدائية سمة أساسية من سمات الحياة الاجتماعية ،

---

(١٦) Wood, The Age of Chivalry, pp. 96-7; pp. 96-7; Cowdrey «The Genesis of the Crusade», p. 14; Bryce D. Lyon (ed.) The High Middle Ages 1000-1300 (U.S.A. 1964), pp. 3-7.

ويورد لنا هذا الكتاب نصا عن مصرع شارل الطيب كونت الفلاندرز ، وهو يحاول اقرار السلام ٠ وعلى الرغم من أن هذه الوثيقة التى كتبها Galbert of Flanders ترجع أحداثها الى ما بين سنة ١١١٩ ، وسنة ١١٢٤م فان قربها من زمن الحملة الأولى يجعلنا نعتمد عليها لتصوير محاولات اقـرار السـلام ٠

(١٧) Coulton, Med. Scene, pp. 23-26.

فقد كان الناس ما يزالون تحت رحمة قوى الطبيعة ، وليست هناك وسيلة لقياس تأثير مثل هذه البيئة على عقول الناس ، ولكن المرجح أنها كانت من أسباب غلظتهم وبلادة حسهم •

كان شطر كبير من سكان الريف الأوربى من الأرقاء ، كما كان الاقنان يشكلون قطاعا هاما من سكان الريف • وكان الأقنان ، الذين يقفون فى السلم الاجتماعى بين الأحرار من جانب آخر ، يمثلون شريحة اجتماعية تتزايد أعدادها باطراد فى بعض مناطق أوربا ، وتتناقص أو تكاد تختفى فى بعض المناطق الأخرى • فبسبب عدم اقتصادية نظام الرق فى انجلترا تناقص عدد العبيد وزاد عدد الأقنان ، على حين تزايدت أعداد العبيد فى جنوب فرنسا وأسبانيا (١٨) • وبنهاية الربع الثالث من القرن الحادى عشر كان نظام السيادة قد رسخ فى كل من فرنسا وانجلترا وغرب المانيا • وفى هذه المناطق ، كان كل رجل يعمل فى فلاحة الأرض ، تقريبيا ، قد بات ملزما بشكل من أشكال الخدمة أو الايجار تجاه السادة الاقطاعيين • أما فى سكسونيا وبعض مناطق شرق ألمانيا ، فقد كان الفلاحون مايزالون يعتمدون على الملك بشكل مباشر ، ولكن النظام المعروف باسم نظام السيادة Seignorial System كان يستشرى بسرعة بسبب الفوضى السياسية الناجمة عن النزاع بين الامبراطور الألمانى وأمراء سكسونيا المشاغبين ، ولكن ، حتى فى الأماكن التى ساد فيها نظام السيادة الاقطاعى ، كانت هناك اختلافات واضحة فى الظروف والأحوال •

---

(١٨) وينبغى أن نلاحظ أن الكثيرين غالبا ما يتحدثون عن النظام الاقطاعى ، كما لو كان نظاما واحدا فى جميع أنحاء أوربا ولكن الحقيقة أن كل منطقة أفرزت خصائص خاصة بها ، كما أن المدى الزمنى للتطور الاقطاعى ، اختلف من منطقة لاخرى ومن ثم ينبغى أن نتوخى الحذر فى رصد التطورات التى مرت بها المجتمعات الاقطاعية فى الغرب الأوربى وأن ندرك أن ما حدث فى المنطقة التى تعرف باسم شمال فرنسا حاليا ، لا يصدق بالضرورة على ما حدث فى مناطق أخرى ، أنظر حول هذا الموضوع :

Keen, The Pelican Book, pp. 57-58.

وكذلك ، نورمان كانتور ، التاريخ الوسيط ، ص ٣٣١ ــ ص ٣٤٤ •

ففى جنوب انجلترا ، ومعظم مناطق فرنسا ، وفى الالزاس واللورين ، كانت الغالبية الغالبة من الفلاحين أقنانا مرتبطين بالأرض دون أن تكون لهم أية حقوق تجاه سادتهم الاقطاعيين • فى هذه المناطق كانت العلاقة بين القن وسيده مثل العلاقة بين الانسان والطبيعة ، فالسيد بالنسبة للقن يمكن أن يكون عدوا كما يمكن أن يكون صديقا ، ولكنه ضرورى لحياة القن فى كل الاحوال • وكان مقيدا الى الأرض ، ولم يكن يقدر على أن يغير سادته سوى بارتكاب جريمة ، أو إذا غامر بالهرب ، أو شراء حريته بالمال (اذا قبل السيد بيعها) • أما فى شرق وشمال انجلترا ، فقد كان هناك قطاع كبير من الفلاحين ، ربما اكثر من النصف ، أحرارا يؤدون ايجارا وبعض الخدمات المحدودة للسادة كذلك كانت هناك جمهرة كبيرة من الفلاحين الأحرار فى بعض مناطق فرنسا • وفى شرق ألمانيا كانت تجرى محاولة لنزع ملكيات الفلاحين الأحرار وتحويلهم الى أقنان ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل (١٩) • ولكن الأمر الواضح فى حياة أولئك الفلاحين عموما هو أن البؤس والجهل والخشونة كانت من السمات البارزة فى حياتهم ، بغض النظر عن الفروق الضئيلة الناجمة عن اختلاف وضعياتهم القانونية •

كانت مساكن القرويين عبارة عن أكواخ حقيرة من الطين والأغصان والأعشاب ولها فتحات فى السقف يخرج منها الدخان المنبعث من مواقدهم ، وتدخل منها مياه الأمطار أحيانا • أما ملابسهم فكانت من جلود الحيوانات أو من صوف الأغنام ومصنوعة بطريقة بدائية رثة ، وكان طعامهم بسيطا ومن النتاج المحلى مثل ملابسهم • وما كان يستحيل الحصول عليه فى القرية كان يمكن الحصول عليه من الأسواق الموسمية فى أقرب بلدة • ولم يكن الفلاحون آمنين من غائلة الموت جوعا ، اذ أن وسائل النقل كانت مكلفة للغاية كما كانت الطرق وعرة وغير آمنة ، وعلى هذه الطرق كانت الثيران هى القوة المحركة لوسائل النقل والمواصلات ، وهو ما يعنى أن أى نقص فى

(١٩) Coulton, Med. Scene, pp. 23-26; Painter, «Western Europe» p. 6; Keen, The Pelican Book, p. 58.

المحصول المحلى • فى منطقة ما ، كان يؤدى الى حدوث مجاعة (٢٠) • وعلى الرغم من أن احد الباحثين يرى أن احوال اوربا فى القرن الحادى عشر لم تكن على درجة من السوء تضارع ما تصوره الحوليات المعاصرة ، فانه يعترف بأن المجاعات التى وردت أخبارها فى تلك الحوليات كانت محلية ومحدودة (٢١)•

كانت الحرفة الأساسية لمعظم سكان اوربا فى ذلك الحين هى الزراعة بطبيعة الحال • وكانت اساليب الزراعة ما تزال متخلفة وعاجزة عن اللحاق بالزيادة السكانية ، فقد جرت العادة على تقسيم أراضى القرية الى حقلين كبيرين تتم زراعتهما بالتناوب ، فيزرع احدهما ويترك الآخر لاراحته • ثم طرأ تطور جديد حين اخذ الفلاحون يقسمون اراضى القرية الى ثلاثة حقول ويترك الحقل الثالث بلا زراعة بشكل دورى • ومن المهم ان نشير الى ان نظام الحقلين كان معمولا به فى فرنسا وانجلترا جنبا الى جنب مع نظام الحقلين كان معمولا به فى فرنسا وانجلترا جنبا الى جنب مع نظام الحقول الثلاثة فى فترة العصور الوسطى العالية (٢٢) • وكانت الفلاحة ، سواء فى أرض السادة ، او فى اراضى الفلاحين الأحرار والأقنان ، تتم على اسس تعاونية ، ذلك أن حرث الارض كان يتطلب ثمانية ثيران ، على حين لم يكن الفلاح يمتلك عادة اكثر من ثلاثة ثيران • وبالنسبة لجمع المحصول كان الفلاحون يقسمون انفسهم الى مجموعات تقوم كل منها بجمع المحصول فى شريط حقلى • وقد فرض هذا نوعا من التكافل والتعاون فى الأعمال الزراعية ، وكانت المحاصيل تقسم بين الفلاحين حسب ملكياتهم • ولاشك فى ان هذا النظام كان يسبب بعض المشاكل ، ولكنه كان افضل من ان يقوم كل فرد بعمله وحيدا (٢٣) •

---

(٢٠) Coulton, op. cit., p. 33-34 ; Painter, op. cit., pp. 4-6.

(٢١) Duncalf, «Clermont to Constantinople,» p. 256.

(٢٢) Coulton, Med. Scene, pp. 29-30;

(٢٣) Ibid, p. 30.

ولم يطرأ سوى قدر قليل من التحسن على وسائل الزراعة ، كما كان الفلاحون جاهلين تماما بوسائل تقوية التربة وزيادة خصوبتها ، مما أدى الى عدة نتائج سلبية أخرى (٢٤) • وفى ظل النظام الاقطاعى كانت الزراعة تتجه الى التنوع بدلا من التخصص فى محصول واحد • ويرجع هذا الى طبيعة نظام الاكتفاء الذاتى للقرية أو للضيعة الاقطاعية التى كادت أن تكون عالما قائما بذاته ، ففيها كانت تتم زراعة كافة المحاصيل التى يحتاجها سكانها ، كما كانت فيها كل الصناعات الصغيرة اللازمة لحياتهم البسيطة • ولم يكن الفلاحون هم أصحاب الحرفة الوحيدة فى الريف الاوربى فى تلك الفترة • اذ أن لدينا نص يرجع تاريخه الى حوالى سنة ١٠٠٠ ميلادية (٢٥) يرسم لنا صورة واقعية (من وجهة نظر الفلاحين) عن الأعمال التى كانت تمارس فى الريف الأوربى ، وعن الطريقة التى كان أصحاب هذه المهن يمارسون بها أعمالهم • فقد كان القن يعمل على المحراث ، ويرعى الأغنام والثيران ، كما كان هناك من يصيدون السمك أو يستخرجون الملح ، فضلا عن الأساكفة والخبازين والتجار المحليين • والنص فى شكل حوار بين السيد الاقطاعى وأصحاب هذه الحرف وهو يكشف عن مدى مشاق كل مهنة من وجهة نظر أصحابها • ويكشف هذا النص عن أن الحرف اليدوية كانت موجودة فى الريف الأوربى الى جانب بعض حرف الخدمات وان كان تأثيرها فى المجتمع الريفى محدودا بدرجة كبيرة •

---

(٢٤) Wolf, The Awakening of Europe, p. 199.

(٢٥) Roy C. Cave and Herbert H. Coulson (eds.), A Source Book for Medieval Economic History (Billo and Tannen, New York 1965), pp. 46-48.

ويرى كولتون أنه كان لابد أن يكون بالقرية حداد متطوع ، فاذا لم يتطوع أحد يرغم السيد أحد الفلاحين على القيام بهذا العمل الذى كان ضروريا للجماعة ، كما كان لابد من وجود نجار بالقرية • أما الحائك فلم يكن وجوده شائعا فى القرى ، كما لم تكن بالقرية أية حوانيت ، انظر :

Coulton, op. cit., pp. 31-32.

ومن حيث المستوى الثقافى،كان الفلاحون ، بصفة عامة ، افظاظا وبدائيين خشنين ، كما كان الجهل هو السمة الغالبة عليهم • وكانت هذه « الكتلة الخرساء » فى مجتمع أوربا الغربية آنذاك محل احتقار الطبقات الأخرى فى المجتمع • هذا الجهل وهذه البدائية التى تميز بها الريف الأوربى فى العصور الوسطى كان نتيجة طبيعية لحياة العزلة التى عاشتها القرية الأوربية فى تلك الآونة • ويلزمنا قدر كبير من القدرة على التخيل حتى نستطيع أن نتمثل حقيقة العزلة والتقوقع فى الريف الأوربى فى العصور الوسطى • فقد كان متوسط سكان القرية اربعمائة نسمة ، منهم على اكثر تقدير مائتين وخمسين من البالغين • وكان سكان القرية جميعا يعيشون حياتهم كلها فى القرية التى نادرا ماكانوا يغادرونها ونادرا ما كان يفد اليها احد من خارجها ••• اى انهم كانوا يعيشون حياتهم ، من المهد الى اللحد ، بين عدد من الناس يعرفونهم بالاسم ويحادثونهم يوميا (٢٦) • وفى ظنى ان هذا مؤشر كاف لأن يجعلنا نتصور مدى ضيق أفق أولئك الفلاحين ، وكيف كان يمكن أن تؤثر فيهم اية دعاية باسم الدين •

وبالنسبة لغالبية سكان اوربا الغربية عشية الحروب الصليبية كانت القرية هى الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بل والدينية ايضا • فقد كان القروى يجد متعته وتسليته فى اعياد القرية ، كما كان قسيس القرية يقوم بالطقوس الدينية لهم • لقد كانت للكنيسة اهمية كبرى فى حياة الفلاحين ، اذ كانت الكنيسة هى النافذة التى يطل منها الفلاحون على العالم ، لأنها كانت وسيلتهم للثقافة والحضارة • فعلى مدى قرون عديدة كان رجال الكنيسة ، هم فقط ، الذين يعرفون القراءة والكتابة فى أوربا العصور الوسطى • وكان القسيس هو الذى يقدم لرعاياه فى القرية قدرا ضئيلا من المعلومات عن عالم الفكر ، وبما انه هو نفسه كان عاريا من العلم ، فان معلوماته كانت ضحلة بالضرورة •

---

(٢٦) Wolff, The awakening of Europe, p. 202; Coulton, The Medieval Scene, pp. 33-34.

كان طبيعيا أن يحتكر الكنسيون التعاليم الدينية ، بيد أن نشاطهم الفعلى فى القرية كان أقل كثيرا من وجودهم . فقد كان من النادر أن يقوم القساوسة النشيطون بتلقين رعاياهم القرويين تعاليم الانجيل سواء بالكلمة أو بالقدوة . وكانت حوائط الكنيسة ، بما عليها من صور ورسوم بمثابة الانجيل بالنسبة للفقير . الذى لم يكن يعرف القراءة والكتابة أو حتى يقدر على امتلاك نسخة من الكتاب المقدس (٢٧) .

وغالبا ما تتردد عبارة « عصر الايمان » لوصف تلك الفترة فى تاريخ أوربا . واذا كنت هذه العبارة تعنى أن مفهوم الناس عن العالم كان مثقلا بالعناصر الغيبية ، وأن هذا المفهوم والتصور الذى رسمه الناس آنذاك لمصير الانسان كان انعكاسا للفكر المسيحى الغربى بما فيه من عناصر لاهوتية وأخرى غيبية وأخروية ـ اذا كانت هذه العبارة تعنى ذلك ، فانها تكون عبارة صحيحة تماما لوصف تلك الفترة من تاريخ الغرب الأوربى على حد تعبير مارك بلوك (٢٨) . لقد كانت الكاثوليكية عشية الحروب الصليبية أبعد ما تكون عن تحديد نظامها العقيدى بشكل كامل ، كما أن المفاهيم الكاثوليكية لم تكن قد رسخت تماما بين عامة الناس . كان قساوسة الأبرشيات لايصلحون لوظائفهم سواء من الناحية الاخلاقية . فقد كان تعيينهم يتم ارتجالا ، ولايتلقون التدريب الكافى للقيام بمهامهم ، وغالبا ما كانوا يتلقون دروسا غير منتظمة على يد قسيس ذى حظ من التعليم قليل . ونادرا ما كانوا يقومون بمهامهم فى الريف حيث كانت غالبية المسيحيين الكاثوليك .

كانت الحياة الدينية فى الريف تتغذى على العديد من المعتقدات والممارسات التى كانت من تراث السحر القديم ، ومن نتاج الحياة الأوربية التى كانت ماتزال حافلة بالأساطير ، وكان لهذه تاثير كبير على العقيدة

---

(٢٧) Painter, «Western Europe», p. 6; Colton, Te Med. Scene, pp. 37-39.

(٢٨) Marc Block, Feudal Society, p. 80.

الرسمية • فقد كان الناس مايزالون يرون فى السماء العاصفة جيوش الأشباح تمر بهم : جيوش الموتى كما كان يقول العامة ، وجيوش الشياطين الشريرة كما كان يقول المتعلمون ، الذين لم ينكروا ابدا مثل هذه الرؤى ، وانما كانوا يبحثون عن تفسير لها • لقد كان الدين آنذاك مزيجا من الخرافة وطقوس عبادة الطبيعة • وكان القرويون يجمعون ما بين التقوى والاعتقاد فى الخرافات ، فقد كان الريف يعج بالعيون الخفية والأشجار صانعة المعجزات ، كما كان سكان هذا الريف يجلون العديد من القديسين الذين لم تعترف الكنيسة بهم أبدا (٢٩) •

ومن ناحية أخرى ، فاننا يمكن أن نفسر الاستجابة الشعبية الهائلة للدعوة التى أطلقها البابا اربان الثانى فى كليرمون سنة ١٠٩٥ فى ضوء الجو النفسى والفكرى الذى كان سائدا فى الغرب الأوربى فى القرن الحادى عشر • فقد كان الجهل مايزال ينبسط رداءه على المجتمع الريفى الطابع فى غرب أوربا كما أسلفنا القول • ولا يمكن أن نتوقع فى عصر تسوده الخرافات والرؤوس ملتهبة بالحماسة الدينية العاطفية أن ترد الظواهر الطبيعية الى أسبابها الحقيقية ، وليس الى التدخل الالهى ، وانما ينبغى أن نتوقع أن يخترع رجال الكنيسة المعجزات التى يخدعون بها البسطاء • وكثر الحديث عن النجوم التى تتساقط من السماء مثلما يتساقط البرد ، وعن الاضواء الشمالية الباهرة التى كانت تسطع بنورها فوق خط السماء بشكل خارق ••• وراجت حكايات عن الشهب الملتهبة بمساراتها فوق رؤوس الناس وشاعت أخبار الأطفال الذين يولدون بأطراف مضاعفة ، والأطفال الذين تكلموا عقب ولادتهم • كما تناقل الناس الروايات عن الرعاة الذين رأوا مدينة تتألق فى كبد السماء وهم يرعون قطعانهم ليلا • ونسمع عن قسيس يشاهد وهو فى الطريق سيفا ضخما معلقا فى السماء ، تحمله الريح ، وقس آخر يرى فى وضح النهار معركة بين فارسين فى السماء ، يضرب أحدهما الآخر بصليب كبير بحيث ينتصر عليه •••• كانت

(٢٩) Painter «Western Europe», pp. 6-7; Marc Bloch, Feudal Society, pp. 80-81.

هذه الأخبار تلقى اهتماما كبيرا من الناس وتحظى بتصديقهم لها • فقد كتب عدد من المعاصرين عن هذه الاخبار الاعجازية كما لو كانت وقعت بالفعل (٣٠)• وفى هذه الظروف لعب المبشرون الجوالون دورا هاما ، واذكوا نيران التعصب ضد أصحاب الديانات الأخرى • وحول الناس التجربة الدينية الى تجربة شخصية عاطفية بفعل الأفكار الألفية والاخروية التى الهبت مشاعرهم وخيالهم• وكان بطرس الناسك وأمثاله افرازا لهذا المجتمع الذى حكمه التدين والتعصب المقيت • ولم يكن هذا الموقف النفسى والفكرى وقفا على الفلاحين والعامة ، وانما كان هو القاسم المشترك بين الطبقات والقوى الاجتماعية المختلفة فى الغرب الأوربى عشية الحروب الصليبية ، بيد أن تأثيره على البسطاء والعامة كان أبعد أثرا واخطر وقعا بطبيعة الحال •

أما الذين يحاربون ، أى الفرسان من أبناء الأسر الاقطاعية ، فقد تطورت بهم الأحوال فى القرن الحادى عشر ، بحيث جاءت الدعوة الصليبية فرصة ذهبية لهم • ذلك أن ظروف الحياة الشاقة فى كثير من أنحاء الغرب الأوربى جعلت المغامرة فى الشرق أمرا جذابا لهم • وكانت الزيادة السكانية التى شهدتها أوربا ابان القرن الحادى عشر (٣١) من أهم الأسباب التى حفزت

---

(٣٠) Ralph Glaber, Historiarum Libri Quinque (The Five Books of His Histories) in Bryce D. Lyon (ed.) The High Middle Ages, pp. 34-39.

Alphandéry, La Chrétienté, pp. 24-26; Thomas Keightly, The Crusades, or, Scenes, events, and Characters from the times of the Crusades, (4th, ed. London) 1870), pp. 27-28.

(٣١) عن هذا الموضوع بالتفصيل انظر :

J.C. Russell, «Population in Europe 500-1500» in the Fontana Economic History of Europe, The Middle Ages, editor Carlo M. Cipollar (William Collins Sons and Co. Glasgow 1978), pp. 25-70.

أبناء الطبقة الاقطاعية الى البحث عن أرض جديدة فى الخارج ، فقد كانت الأرض هى مصدر الثروة والسلطة • لقد كانت نفس الحوافز التى قادت فرسان الغرب الاوربى للبحث عن حياة جديدة فى الارض التى انتزعت من السلاف فى المانيا ، ومن المسلمين فى أسبانيا وصقلية هى التى حفزتهم الى المسير صوب الأرض المقدسة • وكان من السهل اقناع الناس فى غرب بلاد الغال بترك بلادهم التى ابتليت بالحروب الاقطاعية احيانا ، وبالمجاعات والاوبئة أحيانا أخرى (٣٢) • كما أن القصص التى يرويها الكتاب المقدس عن خصوبة الأرض المقدسة ، شجعت أبناء هذه الطبقة على الانخراط فى سلك الحملة الصليبية •

كذلك ، فان غروب شمس القرن الحادى عشر جاء فى وقت كانت فيه حدود الدوقيات والكونتيات فى الغرب الأوربى قد ثبتت ، وقام بينها نمط بدائى من التوازن السياسى • وهو ما يعنى أن فرصة الاقطاعيين للغزو داخل أرض الوطن قد باتت ضئيلة بالفعل ، كانت فرنسا ، على نحو خاص ، تعانى من حالة « الجوع الى الأرض » التى كانت هى النغم المميز فى الحياة الاقطاعية آنذاك • وكان الفرسان الذين يدفعهم « الجوع الى الأرض » يدخلون فى علاقة تبعية مع سيد أو أثنين من السادة الاقطاعيين حتى يمكنهم الحصول على المزيد من الاقطاعات • فاذا نشبت الحرب بين السيدين يضطر الفارس الى الاختيار بينهما ، فيقاتل الى جانب من يرجح انتصاره حتى يتخلص من ورطته (٣٣) • ففى فرنسا ، كان حق وراثة الاقطاع قاصرا على الابن الاكبر فقط لضمان عدم تفتت الملكية الزراعية فى الأسرة بالقدر الذى يضعف من قوتها وسلطانها القائم على ملكية الارض • وفى جنوب فرنسا على وجه خاص وجدت أنماط من الملكية المشتركة داخل العائلات الاقطاعية عرفت باسم Fraternitia, frércêhe وهو شكل من أشكال الملكية المشاعية بين الأخوة أو أفراد الأسرة ككل ، ولكن الابن الاكبر هو الذى يتولى ادارة الأرض والاشراف

---

(٣٢) Cowdrey, «The Genesis of the Crusades», p. 13; Keen, The Pelican Book, p. 123.

(٣٣) كانتور ، التاريخ الوسيط ، ص١ ٣٤ ـ ص ٣٤٣ ، Mayer, The Crusades, p. 22.

عليها . وبذلك يتعرض الاخوة الأصغر للضغوط الاجتماعية ، وكان عليهم أن يختاروا بين الانخراط فى السلك الكنسى ، أو الانضمام لمنظمة عسكرية رهبانية ، أو ينضمون الى جموع الفرسان الذين لايملكون اقطاعا ، وكانت فرصة مثل أولئك الفرسان تنحصر فى الزواج من احدى الوارثات ، وهى فرصة ضئيلة بطبيعة الحال ، أو فى الانضمام الى عصابات البارونات اللصوص (٣٤) .

ومن ناحية أخرى ، فان النظام الاقطاعى كان قائما على القوة العسكرية وكانت القوة هى العامل المحرك فى هذا المجتمع وفى ظل النظام الذى انبثق عن المؤسسات العسكرية والذى ظل يحمل قدرا كبيرا من بصماتها ، كان لكل بارونية ، وكونتية ، ودوقية ومملكة جيشها الخاص . ولكن النظام الاقطاعى فشل فى اقرار السلم لأنه قائم على افتراض انه ستكون هناك حالة حرب دائمة . وقد فشلت محاولات الكنيسة فى أن تفرض السلام على هذا المجتمع ، على الرغم من بعض مظاهر النجاح الجزئى فى هذا الصدد . اذ كان القتال هو الوظيفة الرئيسية للرجل الارستقراطى فى ظل النظام الاقطاعى . فقد كان يتم اعداده منذ صباه على حياة القتال الحقيقى . وكانت مهنة الفارس الرئيسية المحببة الى قلبه هى القتال . فاذا كان من البارونات ، فانه يقاتل لكى يحتفظ بسيطرته على أفصاله ، ولكى يستونى على ما يمكنه الاستيلاء عليه من جيرانه . واذا كان فارسا صاحب اقطاع ، فانه كان يتبع سيده الى القتال لأن هذا كان واجبه ، ولانه كان يطمع فى الحصول على جزء من الغنائم . اما الفارس الذى لايملك أرضا فقد كان يحارب ليكسب عيشه ، اذ كانت الحرب نشاطا اقتصاديا مربحا فى ذلك الزمان . بل انسيدنى بينتر (٣٥) يرى انالحرب بالنسبة للفرسان رياضة كانت محببة ولم

(٣٤) Cowdrey, «The Genesis of the Crusades», p. 13.

(٣٥) Sidney Painter, A Hisory of The Middle Ages 284-1500 (New York 1954), p. 118; «Western Europe» p. 14; Keen, The Pelican Book, p. 57; Bishop, The Penguin Book, p. 86.

تكن تزيد فى خطورتها عن رياضة كرة القدم فى عصرنا الحالى • ويقول ان ملابس الفارس المدرعة كانت تكفل له الحماية الكاملة من اسلحة المشاة ، كما كانت تقيه ضربات سيوف الفرسان وطعنات رماحهم ، فضلا عن أنه لم يكن هناك فارس يرغب فى قتل فارس آخر لأن الجثة لم تكن تساوى شيئا • واذا قتل الفارس جاره وجد وريثه يواصل الصراع محله ، ولكنه اذا أسره ، استطاع أن يحصل على ضيعة غنية ، أو قلعة حصينة كفدية للأسير •

لقد كانت الحرب هى مهنة الطبقة العليا ، كما كانت متعة الرجال من أبناء هذه الطبقة ، اذ كانت أوقات السلم تمر كئيبة رتيبة داخل جدران القلاع العابسة ، فلم يكن لدى أبناء هذه الطبقة أية مشاغل ثقافية أو بدائل غير الصيد • لقد كانت المعركة هى قمة حياة الفارس ، وكثيرا ما كانت هى النهاية التى تنتهى بها هذه الحياة (٣٦) • وباختصار كان الفارس العادى حتى نهاية القرن الحادى عشر متوحشا همجيا متعطشا للدماء • (وقد ظلت هذه الصفات من مميزاته الأساسية طوال القرن الثانى عشر الأقل (٣٧) • بيد أنه فى الوقت نفسه كان متدينا على طريقته الخاصة ، اذ كان يتقبل تعاليم الكنيسة دونما مناقشة ، كما كان حريصا على خلاص روحه ، وله قسيسه الخاص الذى يقوم بعمل الطقوس له ، ويستمع الى اعترافاته (ومن المثير للانتباه أنه كان على استعداد لأن يعرض نفسه لاشد الاخطار فى سبيل الايدلى باعترافاته هذه لقسيس مستقل) • ولكن الفارس الاقطاعى ، من ناحية أخرى، لم يكن يفهم المسيحية فهما جيدا • وقلائل هم الذين كانوا يفهمون الدين من بين نبلاء ذلك الزمان ، ولكن من كانوا يلتزمون بتعاليمه منهم كانوا أقل عددا • لقد كان فرسان الغرب الأوربى ، على الجملة ، لايفهمون من الدين سوى أنه حيازة الذخائر المقدسة ، أو الهبات التى كانوا يغدقونها بسخاء على

---

(٣٦) Bishop, The Penguin Book, pp. 86-ff.; Cowdrey, «The Genesis», pp. 14-15.

(٣٧) حول هذا الموضوع أنظر : قاسم عبده قاسم « صورة المقاتل الصليبى فى المصادر العربية » المجلة التاريخية المصرية ، المجلد السابع والعشرون ، ١٩٨٠ ، ص٩ — ص ٣٧ •

الأديرة والكنائس تكفيرا عن ذنوبهم • اذ كان التكفير عن الذنوب أيسر لهم من الالتزام بالفضيلة (٣٨) •

واذا أخذنا فى اعتبارنا طبيعة التنشئة الاجتماعية للفرسان من جهة ، وحقيقة تدينهم القاصر من جهة أخرى ، أدركنا ان أولئك النبلاء قد وجدوا أنفسهم فى وضع غير مريح بسبب الضغوط التى كانت تمارسها الكنيسة لفرض حركة السلام • لقد كان النبلاء ، شأنهم شأن رجال الدين والفلاحين ، يؤمنون بالمسيحية ولكن على طريقتهم كما أسلفنا القول • اذ كان الدين يكسب حياتهم معناها ، لأنهم لم يكونوا ليقدرون على تحمل الصراعات الرهيبة التى كانت تمر بها حياتهم اليومية لو لم يكن هناك وعد بحياة أخرى أفضل بعد الموت • حقيقة ان النبلاء كانوا قد نشأوا على الحرب ورضعوا تقاليد القتل ولكنهم كانوا يريدون الخلاص لأرواحهم أيضا • ومن ثم فانهم رأوا فى حركة السلام كارثة حلت بهم • ذلك أن قبولها كان يعنى ، فى التحليل الأخير ، انكار الأسس التى يقوم عليها وجودهم كطبقة محاربة ، على حين كان التنكر لحركة السلام يعنى المخاطرة بفقدان الخلود مع الرب ، وهو الأمل الذى كان الجميع يتحركون فى اطاره • وبدا الأمر وكأنه لغز مستحيل أمام أبناء هذه الطبقة • فلم تكن غالبيتهم الغالبة لترضى عن هذا الدور الاجتماعى الذى خصهم به النظام الاقطاعى بديلا • ومن ثم جاءت فكرة الحملة الصليبية فرصة ذهبية بالنسبة لهم ، فهى ترضى ميولهم العسكرية وتعطشهم للقتال ، كما أنها تحظى بمباركة الكنيسة وتتم تحت راية الصليب •

وهناك الكثير الذى يمكن قوله عن تأثير النظام الاقطاعى على الكنيسة فى العصور الوسطى • وبهذا نأتى الى « الذين يتعبدون » • فقد كان للسياسة التى اتبعها كارولنجيون أثرها من حيث صبغة الكنيسة بالصبغة الاقطاعية الى حد ما • اذ كان شارل مارتل يجبر الكنيسة على أن تمنح اقطاعات من

---

(٣٨) Painter, A hist. of the Midlde Ages, pp. 19-20; Western Europe», pp. 14-15; Wood, The Age of Chivarly, p. 100.

أراضيها للفرسان بشرط أن يصبحوا أفصالا له Vassi dominici وبعد شارل لم يعد الملوك الكارولنجيون يصادرون أملاك الكنائس ، ولكنهم كانوا يجبرون الكنائس على منح الاقطاعات لأفصالهم • وجاء وقت صار فيه بعض الأساقفة ومقدمى الأديرة أفصالا للتاج الكارولنجى ، ثم استخدموا بعض أراضيهم كاقطاعات يمنحونها لافصالهم مثلما فعل الأمراء العلمانيون • واذ تورطت الكنيسة فى العلاقات الاقطاعية على هذا النحو ، صارت المناصب الكنيسة تمثل اغراء للأفراد الذين لا يميلون الى العمل الروحى ، ولكنهم يرون فى الكنيسة وسيلة يتوسلون بها للحصول على السلطة والثروة (٣٩) •

ومنذ القرن العاشر تنبه بعض المتدينين الى هذا الوضع ومحاذيره • وعلى أمل أن يتحسن النظام الديرى قام الدوق وليم ، أمير اكويتانيا ، بتأسيس دير كلونى سنة ٩١٠م• وكان ممنوعا على هذا الدير أن يمتلك أرضا بمقتضى الخدمة الاقطاعية اذ كان على كل من يهب أرضا لدير كلونى أن يهبها دون قيد أو شرط ، وانما فى مقابل أداء الرهبان الصلوات لخلاص روحه فقط • وبحلول القرن الحادى عشر كانت هناك عدة أديرة تابعة لدير كلونى وتنهج نهجه الذى كان صيغة معدلة من النظام البندكتى ، وسرعان ما صار للأديرة الكلونية نفوذ ضخم • وفى القرن العاشر قادت الأديرة الكلونية حركة احياء ضخمة ، بهدف تحرير الكنيسة من قيود العلاقات الاقطاعية ، وبعث الحياة الديرية من مرقدها الذى نامت فيه طويلا بعد ترهل النظام البندكتى • وفى القرن الحادى عشر وصلت الحركة الكلونية الى ألمانيا حيث تعاطف معها الحكام الألمان من ملوك أسرة أوتو ، مثل كونراد الثانى (١٠٢٤ ــ ١٠٣٩ م) ، وهنرى الثالث (١٠٣٩ ــ ١٠٥٦م) الذى كان يتصرف باعتباره راعيا وحاميا للحركة الكلونية فى بلاده (٤٠) •

---

(٣٩) Brian Tierney and Sidney Painter, Western Europe in the Middle Ages 300-1475, pp. 135-138.

كانتور ، التاريخ الوسيط ، ص ٣٣٧ ، ص ٣٣٨ •

(٤١) المرجع نفسه ، ص ٢٧٢ ــ ص ٢٧٣ ،

Bradford, The Saga of the Crusades, pp. 15-16.

وفى القرن الحادى عشر بدأت حركة اصلاحية واسعة تستهدف القضاء على كثير من المساوىء التى استشرت فى أوصال الكنيسة الكاثوليكية • ومن أهمها السيمونية (أى بيع الوظائف الدينية) وتدخل الحكام العلمانيين فى تعيين رجال الكنيسة • كانت هذه الحركة الاصلاحية ، التى يطلق عليها بعض المؤرخين المحدثين « الثورة الجريجورية » (٤١) تستهدف اصلاح الكنيسة والعالم •وبينما كان اصلاح الكنيسة يعنى فى المحل الاول أن تكون الكنيسة ملكا للأساقفة ، أى أن تتحرر من سيطرة العلمانيين ، كان اصلاح العالم يعنى اخماد الحروب الاقطاعية التى باتت سمة من سمات مجتمع غرب أوربا • وكانت حركة السلام التى تهدف الى انهاء الحروب الاقطاعية من أهم الأسباب العملية لحركة الاصلاح نفسها • هذه الحركة الاصلاحية ، فى شقها الأول الذى يهدف الى تحرير الكنيسة من السيطرة العلمانية ، أفرزت نزاعا مريرا بين البابوية والامبراطورية الالمانية ، واندلعت شرارة هذا الصراع بين جريجورى السابع وهنرى الرابع لكى تستمر على مدى سنوات طوال • وكان لهذا الصراع أثره فى توجه البابوية بدعوتها الى المجتمع الفرنسى على نحو خاص كما سنرى •

هذه هى القوى الاجتماعية فى الغرب الأوربى عشية الحروب الصليبية ، وهى قوى تحدد الدوّر الاجتماعى لكل منها • لقد وصف أسقف فرنسى المجتمع المعاصر بقوله : « بيت الرب ذو جوانب ثلاثة ، فالبعض يصلى فيه ، والبعض يحارب فيه ، والبعض يعمل فيه » (٤٨) • وهكذا كان العالم المسيحى

---

(٤٤) نسبة الى جريجورى السابع أبرز أقطاب هذه الحركة الاصلاحية والذى تنسب اليه مجموعة النقاط التى تحدد سمو السلطة البابوية على الامبراطورية ، ولدينا مجموعة وثائق حول هذا الموضوع ، انظر :

Pope Nicholas II, Decree on Papal Elections (1095)' Dictatus Papae (1075); Letter of the Synod of Worms to Gregory VII (January 1076); Deposition of Henry IV By Gregory VII (February 1076) in Lyon (ed.), The High Middle Ages, pp. 87-102.

(٤٢) Bishop, The Penguin Book of the Middle Ages, p. 167.

فى العصور الوسطى مقسما بشكل حاد لأقسام ثلاثة هى : الفلاحون ، والنبلاء والقساوسة (اذ كان سكان المدن الناشئة ما يزالون عديمى الأهمية فى ذلك المجتمع) • وكان المبشرون يحبون أن يشبهوا المجتمع بالجسد الانسانى ، فيشبهون القساوسة بالرأس والعيون ، فالنبلاء بالذراعين واليدين ، والعامة بالارجل والاقدام • وباعتبار أن القساوسة هم رأس المجتمع وعينه ، فقد زعموا لانفسهم حق توجيه المجتمع وحكمه • ولكن « الذين يحاربون » لم يسلموا لهم بهذه الحقوق المزعومة ، ومن ثم حدث تفاعل كبير بين هاتين القوتين • وقد وصل هذا التفاعل الى مداه فى القرن الحادى عشر بحيث أفرز الحركة الصليبية • اذ كان هذا القرن بداية لفترة النمو والتقدم النشيط فى أوربا • وكان الفضل فى هذا للتداخل والتفاعل بين المؤسستين الكبيرتين فى المجتمع الاوربى آنذاك ، أعنى الاقطاع والكنيسة (٤٣) لان تداخلهما أدى الى قوة المجتمع ونضجه ، دون أن يعوق ذلك التطور الذاتى لكل منهما • فالحركة الصليبية ، فى جانب منها على الأقل ، كانت افرازا للاقطاع والكنيسة وتفاعلهما سويا •

ففى منتصف القرن الحادى عشر بدأت فترة من أخطر فترات التاريخ الأوربى ، اذ أن السنوات الثمانين التى تمتد منذ منتصف هذا القرن حتى نهاية العقد الثالث من القرن الثانى عشر ، كانت هى الفترة التى شهدت حركة الاصلاح الدينى (الجريجورى) ، كما كانت هى فترة النمو التجارى ، ونمو المدن • كانت المجتمعات الحضرية قد ازدهرت من جديد فى الشمال الايطالى ، وبدأت تنمو فى الأقاليم البعيدة عن البحر المتوسط • وازدهرت المدن التجارية الايطالية بفضل تجارتها مع القسطنطينية • وفى الوقت نفسه بدأت جنوا وبيزا تمارسان نشاطهما التجارى مع موانى البحر المتوسط مثل مرسيليا وبرشلونة ، وناربون • كما بدأت الهجمات على أساطيل المسلمين وموانيهم

---

(٤٣) Painter, «Western Europe on the Eve of the Crusades» p. 29,

فى كورسيكا وسردينيا ، بل وفى تونس (٤٤) ٠

أخذ الناس يتبادلون النقود على نطاق أوسع من ذى قبل ٠ وثمة دليل على أن الحجاج والصليبيين كانوا يحوزون النقود عن طريق الاقتراض أو ببيع أملاكهم ـ كما أن الثابت أن الكنيسة كانت ترهن وتشترى أملاك الصليبيين الذين كانوا بحاجة الى المال من أجل الرحلة الطويلة ٠ ومن المؤكد أن لندن كانت مدينة كبيرة تسكنها عائلات ثرية عند نهاية القرن الحادى ٠ وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد ظلت الحضارة الغربية فى ذلك الحين حضارة قوامها الطابع الريفى بافرازاته الفكريه والاجتماعية والسياسية ٠

واذ رسمنا الملامح العامة للمجتمع الذى افرز الحركة الصليبية ، وحددنا القوى الاجتماعية الفاعلة فى هذا المجتمع ، يبقى أن نحاول رصد الدوافع والأسباب التى حفزت كلا من هذه القوى للمشاركة فى الحركة الصليبية ٠ بيد اننا يجب أن نلاحظ أن ايديولوجية الحرب المقدسة كانت قد باتت راسخة فى وجدان الغرب الاوربى بحيث لم يكن هناك ، وقت خروج الحملة ، من يبحث عن المبرر الاخلاقى لشن هذه الحرب ٠ « فالحرب المقدسة » كانت غطاء مناسبا لكل المشاركين فى هذه الحركة ولكن هذا الغطاء لم يكن يعنى أن أهدافهم كانت واحدة أو أن فهمهم للايديولوجية الصليبية كان واحدا ٠ بل ان العكس تماما هو الذى حدث ، فقد كان الفهم الشعبى « الذين يعملون »

---

(٤٤) Painter, «Western Europe on the Eve of the Crusade», pp. 9-10; Cantor, Med. Hist., pp. 271-272.

ومن المهم كذلك أن نشير الى أن هذه الفترة شهدت انتعاشا للحرف اليدويه بشكل مطرد ، فقد زاد عدد الحرفيين الذين كانوا يقدمون لجماهير المدن النامية حاجاتهم من الكساء والأثاث وغيره ٠ وكان أولئك الحرفيون هم بناة المساكن الجديدة وصناع الاثاث الضرورى لبيوت ذلك الزمان ، انظر :

Wolff, The awakening of Europe, p. 202; Sylvia Thrupp «Medieval Industry 1000-1500» in the Fontana Economic History, pp. 221-273.

مناقضا تماما لفهم كل من الكنيسة والنبلاء لهذه الايديولوجية • كذلك فهم النبلاء الايديولوجية الصليبية على نحو مخالف لفهم رجال الكنيسة لهذه الايديولوجية • وقد أدى هذا ، بطبيعة الحال الى اختلاف أهداف كل من القوى الاجتماعية التى ساهمت فى هذه الحركة •

كانت الدعوة الى الحروب الصليبية دعوة تناسب العصر تماما • فقد كان المجتمع الاقطاعى المشبع بالفخر ، والتعصب ضد غير المسيحين ، والراغب فى الخلاص من خلال أعمال توافق أخلاقياته mores العلمانية ــ كان هذا المجتمع مستعدا لأن يستجيب للدعوة التى يمكن تفسيرها فى ضوء مصطلحات الخدمة الاقطاعية ، والتنافس الاقطاعى • ولكن المشكلة تمثلت فى كيفية عبور الفجوة التى تفصل بين المثل والقيم التى تلهم كبار الكنسيين وتلك التى تحرك العلمانيين • وقد ناضل البابوات والدعاة البابويون لبناء جسر من الفهم المشترك فوق هذه الفجوة ، ولكنهم فشلوا فى بنائها (٤٥) • فحين طرحت الكنيسة الايديولوجية الصليبية كان تهدف الى شىء ، ولكن العلمانيين فهموا شيئا آخر •

لقد كانت الحروب الصليبية تجديدا تاريخيا كبيرا فى الغرب الأوربى • فقد كانت هى أول حرب يخوضها الغرب تحت راية ايديولوجية معينة • وكان طبيعيا أن تفسد الايديولوجية وتزيف بمرور الوقت على حد تعبير بيشوب (٤٦) • ولكن تظل الحقيقة أن اعتناق القوى الاجتماعية المختلفة لهذه الايديولوجية كان تعبيرا عن صراع هذه القوى ضد بعضها البعض من ناحية ، كما كان تعبيرا عن التفاعلات الناجمة عن هذا الصراع نفسه من ناحية أخرى • وكانت الحركة الصليبية افرازا للتفاعل بين الكنيسة والنظام الاقطاعى كما سبق القول ، ومن ثم فانها كانت تسعى الى تحقيق أهداف هاتين المؤسستين الحاكمتين فى المجتمع الغربى • والكنيسة تجسدها البابوية، على حين تجسد الطبقة المحاربة والطبقة الزارعة النظام الاقطاعى • وحين

---

(٤٥) Riley — Smith The Crusades, p. 10.

(٤٦) The Penguin Book of the Middle Ages, p. 104.

خرجت الحركة الصليبية الى حيز الوجود شاركت فى دفع عجلتها قوى أخرى مثل النورمان فى جنوب ايطاليا وصقلية والجمهوريات التجارية الايطالية ، مما حقق لهذه الحركة صبغتها العالمية المسيحية • ولنحاول رصد الدوافع التى حفزت كلا من هذه القو ىالتى أدارت عجلة الحروب الصليبية •

وفيما يتعلق برأس المجتمع وعينه ، أى الكنيسة ، فاننا لانشك كثيرا فى أن البابا اربان الثانى قد أوضح أن تحرير القدس هو هدف الدعوة التى وجهها الى سامعيه فى كليرمون فى نوفمبر ١٠٩٥م • وعلى الرغم من أن الخطبة التى ألقاها اربان لم تصلنا فى نصها الأصلى ، فانه يبدو أن تحرير القدس كان هو محور خطبة البابا • بيد أن تحديد الهدف البابوى انطلاقا من هذه الخلفية الدعائية لا يحسم القضية المتعلقة بدوافع البابا وأهدافه من وراء مشروع الحملة المقدسة • حقيقة أن محور الخطبة كان هو تحرير القدس ، ولكن الأهداف والدوافع البابوية الحقيقية كانت تتجاوز الهدف الذى جعله اربان الثانى محورا لخطبته فى كليرمون نحو أهداف أكثر علمانية •

واذا كنا قد أشرنا من قبل الى أن تحديد الأسباب والدوافع وراء الظاهرة التاريخية أمر صعب بوجه عام ، فان الأمر يصبح أكثر صعوبة حين ينعدم الدليل الوثائقى أو ينحصر وجوده فى شكل شذرات متفرقات • وهذا هو الحال فيما يتعلق بدوافع البابوية فى الحركة الصليبية • ذلك أن البعض يعتقد أن السبب كان هو الرغبة فى تأمين الحج الى بيت المقدس ، على حين يرى فريق آخر أن الرغبة فى نجدة مسيحيى الشرق كانت هى السبب ، ويرى فريق ثالث أن حرب اربان الثانى كانت بهدف توجيه طاقة أوربا الزائدة فى فترة النمو الىخارج القارة لتأمين حركة السلام ، كذلك يعتقد البعض أن البابا كان يريد تأسيس دولة اقطاعية فى فلسطين تحت سيطرة البابوية ، ويظن البعض الآخر أن الهدف الحقيقى كان هو زيادة نفوذ البابوية وهيبتها • وهناك أيضا من يرى أن الهدف كان هو توحيد كنيستى الشرق الاثوذكسية والغرب الكاثوليكية تحت الزعامة البابوية •

ويجدر بنا قبل أن نحاول مناقشة كل دافع من هذه الدوافع أن نعرض لأهم الفقرات التى وردت فى روايات المؤرخين المعاصرين عن خطبة اربان الثانى فى كليرمون • حقيقة أن كل مؤرخ من المؤرخين اللاتين المعاصرين قد أورد لنا النص الذى تصور أن البابا كان ينبغى أن يقوله ، وهو ما أدى الى خلافات أساسية فى الصياغة والأسلوب ، ولكن هناك اتفاقا على بعض الأمور بين هذه الروايات بالقدر الذى يجعلنا نشعر أنها قد وردت بالفعل فى خطاب اربان ، ومن ثم فهى تعبر عن بعض دوافع البابوية • فقد جاء فى رواية فوشيه الشارترى (٤٧) ، الذى يعتبر كتابه من المصادر الثلاثة الأساسية فى تاريخ الحملة الأولى ، أن البابا قد ذكر سامعيه بوعودهم التى قطعوها على أنفسهم بحفظ السلام ، ومراعاة حقوق الكنيسة ، وقال لهم أيضا : « ••• مايزال ينتظركم عمل جديد ظهر بتوجيه ربانى ، وهو عمل عاجل وملح يربط بينكم وبين الرب ، ومن خلاله يمكنكم أن تكشفوا عن نواياكم الطيبة • اذ يجب أن تبادروا بتقديم المساعدة لاخوتكم القاطنين فى الشرق ، أولئك الذين يحتاجون لمساعدتكم التى الحوا فى طلبها كثيرا • لأن الترك ••• قد هاجموهم كما يعلم الكثيرون منكم ••• فاذا تركتموهم يتمادون أكثر من ذلك ، فستكون الهزيمة الكاملة من نصيب شعب الرب من المؤمنين » •

كذلك فان روبير الراهب الذى كتب فى الربع الأول من القرن الثانى عشر ، والذى يحتمل أنه كان من شهود كليرمون • (٤٨) يتحدث عن الموضوع نفسه بعبارات مشابهة ، اذ يقول ان البابا ذكر سامعيه بأن المسلمين غزوا أملاك المسيحيين فى الشرق ، وأخذوا بعضهم أسرى ، كما قضوا على بعضهم

---

(٤٧) Fulcher of Chartres, pp. 62-63.

(٤٨) Roberti Monachi, Historia Hierosolymitana, in RHC, Occ., III, pp. 727-30.

أنظر نص الترجمة الانجليزية لخطبة اربان فى رواية روبير الراهب :
Peters (ed.), The First Crusade, pp. 2-5 ; Riley-Smith (ed.), The Crusades, pp. 42-45.

بالتعذيب ، وانهم دمروا الكنائس أو حولوها الى مساجد • ثم أخذ البابا يداعب مشاعر الفخر والزهو حين ذكر الفرنجة بتقواهم وبأمجاد أسلافهم أمثال شارلمان ولويس وغيره ، ثم قال لهم : « ••• هذه الأرض التى تقطنونها تحيط بها البحار وقمم الجبال ، وهى تضيق عن استيعاب أعدادكم الكبيرة كما أنها بلاد ليست موفورة الثراء اذ أنها لاتنتج الا ما يكفى زراعها بالكاد • وبما أنكم تقتلون بعضكم بعضا ، بحيث تهلكون من جراء الأذى المتبادل ، فلتنبذوا الكراهية من بينكم ، ولتخمدوا منازعاتكم ، ولتوقفوا حروبكم ، ولتتخلوا عن كافة مظاهر الشقاق والخلاف • سيروا على طريق الضريح المقدس ، وحرروا هذه الأرض من الجنس الشرير ، وكونوا أنتم سادتها • فهذه الأرض التى يقول الكتاب المقدس أنها •• « تفيض باللبن والعسل » قد منحها الرب ملكا للمؤمنين •••

ورواية بلدريك ، كبير أساقفة دول ، الذى كان حاضرا فى كليرمون والذى يركز على أخوة المسيحيين فى الشرق والغرب (٤٩) ، تقول أن البابا ذكر لجمهور السامعين ان الأسف والحزن العميق سوف ينتابهم حين يسمعون عن الأذى والاضطهاد والعذاب الذى يتعرض له المسيحيون فى القدس وانطاكية، وغيرهما من مدن الشرق ، ثم يحدثهم عن مدينة القدس التى عانى فيها المسيح من أجل شعبه ، ودفن فيها ، ثم يقول : « ••• اسمعوا واعوا ، انتم يا من تتحلون بشارة الفروسية ، ويملؤكم الغرور والكبرياء ، فتهاجمون اخوانكم ، وتمزقون بعضكم بعضا • ليست هذه هى الجندية الحقيقية فى سبيل المسيح الذى يدعو الى حماية رعاياه ••• اذا كنتم تنشدون خلاص أرواحكم ، فلتطرحوا جانبا هذه الفروسية ، ولتتقدموا فى جسارة كفرسان المسيح حقا ، وتندفعوا بأقصى ما يمكنكم من سرعة للدفاع عن الكنيسة الشرقية •••

---

(٤٩) RHC, Occ., IV, 12-16.

انظر نص الترجمة الانجليزية فى :

Peters, Op. Cit., pp. 6-10 ; Riley-Smith, Op. Cit., pp. 49-53.

اننا نقول هذا أيها الأخوة ، فعسى أن تكفوا أياديكم القاتلة عن تدمير اخوانكم • فلتجعلوا من أنفسكم خصوما للأمميين فى سبيل مصلحة اخوانكم فى الدين • وفى ظل زعامة يسوع المسيح ، قائدنا ، يمكنكم أن تناضلوا فى سبيل قدسكم ، فى خط قتال مسيحى ، أشد قوة ، بل وبنجاح أكثر من نجاح أبناء يعقوب فى الزمن القديم ـ ناضلوا فى سبيل هزيمة الأتراك وطردهم ••• انه لأمر جميل أن تموتوا فى سبيل المسيح وفى المدينة التى مات فيها من أجلنا ••• كما أن أملاك العدو ستكون لكم ، عندما تستولون على كنوزهم وتعودون الى ذويكم منتصرين • اذا ما خضبتكم دماؤكم ، فان المجد الأبدى سيكون من نصيبكم •••• »

كذلك فان جيوبرت مقدم دير نوجنت Guiber of Nogent (٥٠) ، الذى يحتمل أنه كان بين الحاضرين فى كليرمون ، قد أورد لنا رواية أخرى عن خطبة اربان الثانى بداها بالحديث عن فضل القدس وكيف أن البابا ذكر الحاضرين بأن المكابيين فى الزمن القديم قد حاربوا من أجل المعبد ، فاستحقوا الثناء ، وتبوأوا أعلى مراتب التقوى • ومن ثم « ••• فان من حقكم أيضا يا جنود المسيح أن تدافعوا عن حرية بلادكم بالسلاح • واذا كنتم ترون أن مسكن الحواريين القدسين وغيرهم من القديسين يستحق مثل هذا العناء ، فلماذا تتقاعسون عن انقاذ الصليب والدم والمقبرة ؟ ••• لقد خضتم غمار حروب كثيرة غير عادلة ••• وسببتم لبعضكم البعض الأذى والدمار ، لا لسبب سوى الفخر والمباهاة مما جعلكم تستحقون الموت الأبدى واللعنة الأكيدة ، ونحن نقدم لكم الآن حربا فيها ثواب الاستشهاد المجيد الذى سوف يستحق الثناء ، الآن والى أبد الآبدين ••• فكروا فيمن يقومون بالحج عبر البحر ، وحتى لو كانوا من الأثرياء ، فتأملوا ما يدفعونه

(٥٠) Historia quae dicitur Gesta Dei per Francos, RHC, Occ., IV, pp. 137-40.

انظر الترجمة الانجليزية فى :

Peters, op. cit., pp. 10-15 ; Riley-Smith, op. cit., pp. 45-49.

من ضرائب وما يتعرضون له من عنف ، لأنهم مضطرون لدفع الضرائب والاتاوات حتي يسمح لهم بالدخول من كل بوابة من بوابات المدينة ٠٠٠ »

هذه هى الروايات الأربع الأساسية للخطبة التى ألقاها اربان الثانى فى كليرمون ٠ (٥١) ومن خلالها نلاحظ أن ثمة اتفاقا على أن هدف الحملة التى اقترحها البابا كان بيت المقدس ، لتحريرها ولرفع آلام المعـــاناة والاضطهاد عن المسيحيين فى الشرق ، وتأمين طريق الحج ٠ فكل من فرشيه الشارترى ، وروبير الراهب ، وبلدريك الدوللى ، وجيوبرت النوجنتى يتفقون على هذه الأهداف ، كما أنهم جميعا يتحدثون عن وجوب اقرار السلام فى الداخل وتوجيه الجهود العسكرية ضد المسلمين فى الشرق ٠ وفضلا عن الوعد بالغفران ، ذكر روبير الراهب أن أرض فلسطين « التى تفيض باللبن والعسل» ستكون ملكا للمشاركين فى هذه الحملة ، على حين ذكر بلدريك الدوللى أن « أملاك العدو سوف تكون لكم » ٠

هكذا ، اذن ، نستطيع أن نقرر أنه يمكن تفسير موقف البابوية فى ضوء هذه الأهداف جميعا ٠ كما يمكننا من استقراء الظروف التاريخية أن نحدد أهدافا أخرى ٠ لقد استغلت البابوية الحركة الصليبية كأداة من أدوات السياسة الخارجية لستهدفت من ورائها تحقيق عدة أهداف ، منها ماهو معلن واضح كما ثبتمن قراءة خطبة اربان فىرواياتها المختلفة ، ومنها ما يمكن فهمهمن استقراء الظروف التاريخية ٠

ومن المؤكد أننا يمكن أن نقول ان الحملة الصليبية ، كأيديولوجية ، « فعلة كنسية » Un fait ecclésiastique مثلما يقول بعض المؤرخين(٥٢)٠

---

(٥١) أفضل مناقشة لخطبة اربان الثانى بكليرمون هى تلك التى قامت بها « دانـــا مونرو » اعتمادا على روايات المؤرخين المعاصرين ، أنظر :
D.C. Munro, «The Speech of Pope Urban II at Clermont» American Historical Review, II (1905), pp. 231-242.

(٥٢) Bradford, The Sword, p. 31.

ولكننا سنلاحظ انها قد صارت أمرا واقعا ، وحسم أمرها بفضل الدافـــع الدنيوية • لقد كان اربان الثانى يرى أن الحملة الصليبية يمكن أن تحقق أهدافا اربعة فضلا عن هدفها المعلن وهو توحيد العالم المسيحى بعد المنازعات المريرة التى سببت انقسامه حول الاصلاح الجريجورى ، وثانيا ، أن هذه الحملة ستزيد من هيبة البابوية فى وقت كان فيه أنصار الامبراطور الألمانى موجودين فى كل مكان حتى فى روما نفسها • وثالث هذه الأهداف ان هذه الحملة ستنهى الانشقاق بين كنيستى الشرق والغرب • أما الهدف الرابع من هذه الحملة فيمكن النظر اليه من خلال الحقيقة القائلة بأن اربان نفسه كان فرنسيا ، فقد كان يعلم تماما أن الامبراطور الألمانى لن يشارك ، وأن الحاكم الانجلو ـ نورمانى (وليم روفوس) لن يشارك أيضا ، كما أشرنا من قبل ، وكان لابد أن يعتمد على جيوش الامارات الاقطاعية الفرنسية بشكل اساسى •

واذا كانت دوافع البابوية (التى كانت تمثيلا وتجسيدا للذين يصلون) وأهدافها من وراء الدعوة الى الحملة الصليبية مختلفة ومتداخلة على هذا النحو ، واذا كانت الدوافع الدينوية واضحة ، بهذه الصورة ، فان دوافع أولئك الذين اخذوا شارة الصليب من العلمانيين كانت على نفس الدرجة من التنوع والاختلاط سواء كان هؤلاء من الفرسان (الذين يحاربون) أو من عامة الناس والفلاحين (الذين يعملون) •

ولا شك فى أن كثيرين من فرسان لغرب الأوربى ، عشية الحروب الصليبية كانوا يتحرقون شوقا لقتال المسلمين ، كما كانت جوانحهم تضطرم بالحماسة الجارفة والشوق المحموم لانتزاع الأرض المقدسة من المسلمين • ونتيجة للجو الساخن الذى خلقته الدعاية المسعورة ، التى أذكت البابوية نيرانها ضـــد المسلمين ، كانت نفوس غالبية الفرسان تمور بالرغبة فى قتل المسلمين الذين أشاع دعاة البابوية والمبشرون الجوالون أنهم يدمرون الكنائس ويقتلـون المسيحيين فى الشرق ، وأنهم يسببون كثيرا من الضيق والأذى للحجـــاج المسيحيين المسافرين الى الأراضى المقدسة • لقد لجأت البابوية الى كل الحيل

(٥٣) Cantor, Med. Hist. p. 320.

الدعائية فى صياغة الايديولوجية الصليبية ، فقد لجأت الى الكذب وتزوير الوثائق ، والمبالغة ، وترويج قصص الأحلام المقدسة والرؤى الاعجازية . وساهمت الظروف التاريخية فى غرب أوربا آنذاك فى نضج هذه الايديولوجية والواقع أن المؤرخين اللاتين ، والمؤرخين السريان والأرمن قد حرصوا على الترويج لمثل هذه الأمور . فقد ذكر متى الرهاوى أن كبار قادة بلاد الفرنجة قد ساروا بكل ما فى وسعهم من قوة وقدرة لكى ينتقموا من المسلمين « ... ولكى يستعيدوا المدينة المقدسة أورشليم من أيدى الكفار ، وليرفعوا أيدى المسلمين عن المقبرة المقدسة التى يرقد فيها المسيح .. » (٥٤) كما أن ميخائيل السوريانى يقول فى هذا الصدد « ... حين تعرض كثيرون لهذا الأذى ، أخذت الحماسة بصدور الملوك والكونتات وخرجوا من روما . »(٥٥) وبغض النظر عن ابتعاد هذه الأقوال عن الحقيقة كما أوضحنا فى الصفحات السابقة ، فانها كانت أخبارا شائعة فى المجتمع الأوربى بالقدر الذى جعل الكثيرين من الناس فى الغرب (ومنهم الفرسان بطبيعة الحال) يأخذونها مأخذ الجد . ومن هنا كان الشعور العدائى المتصاعد ضد المسلمين فى أوساط الفرسان اللاتين آنذاك واحدا من أهم دوافع هؤلاء للاشتراك فى حملة اربان الثانى .

ومن المهم أن نوضح أن هذا الشعور العدائى كان ناجما عن عدم معرفة الغرب بحقيقة المسلمين ، اذ كانت رؤية الغرب الكاثوليكى للمسلمين مستمدة من قصص الرعب التى أشاعها عنهم رجال الكنيسة ، ومن الأفكار التى روجت لها الأساطير التى ساهمت فى صياغة الايديولوجية الصليبية ، مثل اسطورة حج شارلمان الى فلسطين ، وحروبه وانتصاراته هناك ضد المسلمين (٥٦) ،

(٥٤) Matt. d'Edessa, RHC., Arm., I, p. 25

(٥٥) Michel le Syrien, tom. III, p. 182.

(٥٦) انظر تحليل كونت ريان لهذه الاسطورة فى :
AOL, tom. I, pp. 9-22.

ومن الملاحم التى شاعت فى أغنيات المآثر Chansons de geste التى تتحدث عن بطولات الفرسان المسيحيين ضد المسلمين مثل أنشودة رولان ، (٥٧) فضلا عن روايات الحجاج القادمين من الشرق والتى حملت طابع المبالغة (رغبة فى اكتساب ثقة المجتمع واحترامه) • وما كان المبشرون الجوالون والدعاة الكنسيون يروجونه بين الناس • والدليل على ذلك أن الوحشية التى كان الفرسان القادمون عبر جبال البرانس لمساعدة المسيحيين الأسبان يظهرونها ، كانت تتناقض بشكل واضح مع تصرفات الفرسان المسيحيين أنفسهم ، فقد كان أميرا اشبيلية المسلم ، مثلا ، حليفا لألفونسو السادس Alfonso VI أمير قشتالة (ت ١١٠٨ م) ، كما أن السيد القنبيطور Cid Compeador ، الذى جعلته الأساطير محاربا مسيحيا مثاليا ضد المسلمين ، لم يكن فى حقيقة أمره سوى جندى مرتزق يبيع سيفه لمن يدفع من المسلمين والمسيحيين على حد سواء • (٥٨)

على أية حال ، فان أهدافا ومطامع دنيوية عديدة كانت وراء مشاركة أبناء هذه الطبقة فى أخذ شارة الصليب • ولاشك فى أن البعض قد أخذوا شارة الصليب على أمل أن ينالوا الغفران عن خطاياهم ويدخلوا بذلك فى رحمة الرب • بيد أن البعض الآخر ، لاسيما من كبار الأمراء الاقطاعيين الفرنسيين كانوا يتحرقون شوقا للمغامرة فى الخارج بعد أن باتت فرصة الغزو والتوسع

وعن هذا الموضوع أيضا أنظر :

Thomas Bulfinch, The Age of Chivalry and legends of Charlemagne, or, Romance of the Middle Ages, (New American library, New York 1962).

(٥٧) عن هذا الموضوع انظر : جوزيف نسيم يوسف « أنشودة رولان : قيمتها التاريخية ، وما أثير حولها من حول ونقاش » فى : نـدوة التـاريخ الاسلامى والوسيط (تحرير قاسم عبده قاسم ورافت عبد الحميد ، المجلد الأول ١٩٨٢ ، دار المعارف) ، ص ٧٥ ــ ص ١٠٤ •

(٥٨) الطاهر احمد مكى ، ملحمة السيد ــ دراسة مقارنة (دار المعارف ١٩٧٩ ، ط • ثانية) ص ٧٩ ــ ص ١٤٢ •

ضئيلة داخل الوطن • وفضلا عن ذلك فان ارتفاع معدل الزيادة السكانية كان يعنى أن هناك عددا متزايدا من الفرسان الذين لايملكون أرضا فى فرنسا على استعداد لأن يدلوا بدلوهم فى حملة تتيح لهم الحصول على الضياع والأملاك فى فلسطين • (٥٩) وقد لعب البابا على أوتار هذا الأمل بشكل صريح فى خطبته فى كليرمون • ولاشك أن الأطماع الدنيوية قد حركت أبناء هذه الطبقة ، فقد داعبت خيال من يملكون صورة الضياع الجديدة التى يمكنهم اضافتها لأملاكهم فى الوطن لتزيد من شراء عائلاتهم ، وترتقى بهم درجات فى السلم الاقطاعى • اما الذين لا يملكون ، فقد كانت صورة الضياع التى يمكنهم امتلاكها فى « الشرق العجيب » بحيث تعوضهم عن جوعهم الى الأرض والذى عانوا منه كثيرا فى الوطن ـ كانت هذه الصورة تلهب مشاعرهم فعلا • وهكذا نخلص الى أن هدفا أساسيا من أهداف طبقة الفرسان كان هو امتلاك الأرض التى كانت مصدر الثروة والسلطة فى ذلك الزمان •

ومن ناحية أخرى ، كان كثيرون من فرسان الغرب الأوربى فى القرن الحادى عشر فريسة للقلق والاضطراب من جراء قيود حركة السلام • وكان واضحا أن أولئك الفرسان سوف يستجيبون لأية دعوة ترجهها البابوية لشن حرب ضد المسلمين فى الشرق ، اذ كان ذلك يكفل لهم الستار الدينى المناسب لارضاء نزعاتهم العدوانية • ومن هذه الطائفة كان ريمون أمير تولوز الذى كان يئن تحت وطأة الاحساس بتضاؤل فرصة المغامرة فى الوطن ، وجودفرى دوق اللورين الأدنى • وقد شاعت قصص وأساطير كثيرة حول انضمام جودفرى للحملة ، ولكن الحقيقة أن هذا الأمير المغامر كان قد دمر الأديرة فى المناطق المجاورة لأملاكه فى بوايون ، وكانت أمه ايدا Ida المتدينة هى التى فرضت عليه أن يقدم بعض الهبات للكنائس لتحسين سمعته قبل الرحيل فى الحملة الصليبية • أما هو ، فقد قرر الرحيل عندما سرت الحماسة الصليبية

---

(٥٩) Cantor, Med. Hist., p. 320 ; Bishop, The Penguin Book, p. 105.

فى كل مكان ، وعندما رأى جيرانه من النبلاء يستعدون للرحيل • (٦٠)

كذلك كان بعض الفرسان الذين شاركوا فى الحملة يطمعون فى استعادة الهيبة التى خسروها فى أوطانهم من خلال انتصار عسكرى يحرزونه فى الحرب المقدسة بفلسطين • ومن هؤلاء كان دوق نورمانديا الذى كان هو الابن الاكبر لوليم الفاتح • أما الكونت ستيفن حاكم بلوا Stephen of Blois فقد شارك فى الحملة الأولى لأن زوجته الطموح ، ابنة وليم الفاتح ، قد دفعته الى ذلك رغبة منها فى ألا يتخلف زوجها اللاهى العابث عن المشاركة فى أعظم أمجاد العصر : أى الحملة المقدسة المتجهة الى الشرق • كذلك وجد البعض فى المشاركة فى الحملة الى الشرق فرصة للهروب من العدالة • ويقول وليم الصورى • (٦١) ان البعض قد انضموا للآخرين حتى لايتركوا أصدقاءهم والبعض انضموا للحملة حتى لايظن الناس أنهم كسالى ، وآخرون لأسباب رعناء فقط ، أو هربا من دائنيهم ••••

وكانت هناك اعتبارات عملية أخرى حظيت باهتمام النبلاء ، فقد أكد البابا على أن أملاك وعائلات المحاربين من أفراد جيش المسيح militia Christi ستكون معفاة من السلطة العلمانية مؤقتا ، وستوضع تحت حماية القانون الكنسى • وأعلن البابا كذلك أن أى عنف ضد جنود يسوع المسيح ستكون عقوبته الحرمان • وفى مقابل ذلك كان الفرسان ملتزمين تجاه الكنيسة بالوفاء بنذرهم بالمشاركة فى الحملة الى الشرق • ومن ناحية أخرى ، كان هذا يعنى مزيدا من السيطرة الكنسية على حساب السلطة العلمانية ، اذ أن وضع أملاك الفرسان تحت حماية الكنيسة كان يؤدى الى حرمان الحكام العلمانيين من الخدمات الاقطاعية التى كان هؤلاء الفرسان يؤدونها لهم بمقتضى

---

(٦٠) Duncalf, «Clermon to Constantinople», pp. 266-269.

(٦١) جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى (دار المعارف ١٩٦٣ ، ٧ • أولى) ص ١٥٣ ــ ص ١٥٦ •
William of Tyre, vol. I, p. 93.

القانون الاقطاعى ولفترة غير محدودة ٠ (٦٢)

واذا كانت المثالية والرغبة فى الغفران ، أو الجوع الى الأرض ، أو حب المغامرة ٠٠ وما الى ذلك من أسباب هى الدوافع التى حركت « الذين يحاربون » للمساهمة فى الحملة البابوية ، فان الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية القاهرة والمحبة فى غرب أوروبا آنذاك هى التى جعلت الكثيرين من « الذين يعملون » أى عامة الناس من الفلاحين وسكان المدن ، يهاجرون الى الشرق فى ظل الكنيسة ورعايتها ٠ ولأن احلام المقهورين فى المجتمع الأوربى آنذاك لم تكن تتحقق سوى فى القليل النادر ، فانهم كانوا يعتقدون أنهم لن يخسروا شيئا بذهابهم الى الشرق ، اذ لم يكن ينتظرهم فى الوطن سوى الموت جوعا أو قهرا تحت سيطرة سادتهم الاقطاعيين ٠ ولكنهم كانوا يأملون فى أن تتحسن ظروفهم المعيشية فى الأرض « التى تفيض باللبن والعسل » ، بغض النظر عن الوعد الذى بذله البابا بالخلاص فى الحياة الأخرى ٠ (٦٣)

ان اختلاف دوافع الطبقة المقهورة فى المجتمع الاقطاعى فى غرب أوروبا عن دوافع كل من الفرسان ورجال الكنيسة ، على الرغم من أنهم جميعا تحركوا فى اطار الايديولوجية الصليبية ليؤكد أن الايديولوجية تستخدم فى مرحلة التجهيز للحرب لكى تحرك المجتمع كله صوب هدف وعلى أساس فكرى وأخلاقى واحد ٠ وعندما تبدأ عجلة الحرب فى الدوران تكشف كل طبقة عن أهدافها الخاصة التى تختلف بالضرورة مع أهداف الطبقات الأخرى ، وربما

---

(٦٢) Duncalf, «The councils», p. 247-249 ; Boase, Kingdoms and strongholds ; p. 16 ; Michaud, Histoire de Croisades, tom. I, pp. 9-10 ; Bradford, The Sword, p. 31.

(٦٣) Boase, Kingdoms and strongholds, pp. 16-17 ; Bradford, The Sword, p. 15 ; Bishop, The Penguim Book, p. 105 ; Cantor, Med. Hist., p. 322.

انظر أيضا : يوشع براور ، عالم الصليبيين (ترجمة وتقديم وتعليق قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن ــ دار المعارف ١٩٨١ م) ص ٤٤ ــ ص ٤٥ ٠

تتناقض معها • فبينما سعت الطبقة العليا فى المجتمع الاقطاعى الأوربى (الكنسيون والفرسان) الى تحقيق مزيد من السلطة والسيطرة والقوة من خلال هذه الايديولوجية التى أفرزت الحركة الصليبية ، كان هدف العامه من المزارعين والأقنان وسكان المدن الفقراء هو التحرر من ربقة السيطرة الاقطاعية والكنسية فى مجتمع عرف التخصص فى الوظائف الاجتماعية للطبقات بشكل يقضى على أمل أبناء الطبقة المقهورة فى التحرر ، ومن ثم جاءت فكرة الحرب المقدسة لتحرير قبر المسيح فرصة هائلة لتحرير المقهورين ، اذ لم يكن من المنطقى أن يحرر قبر المخلص قوم يرسفون فى أغلال القنية •

ويرى جروسيه أن الحملة الشعبية قد خرجت ضد أهداف الكنيسة (٦٤) من الذهاب (٦٥) • ولكن الحافز على الرحيل كان أقوى من أن تعوقه هذه يتصور أن يخرج أبناء الطبقة المنتجة لكى يشاركوا فى هذه الحرب • وعندما أدرك أن جماهير العامة والفلاحين ستكون عقبة فى سبيل الحملة بذل الجهد لمنعهم من الذهاب (٦٥) • ولكن الحافز على الرحيل كان أقوى من أن تعوقه هذه الاجراءات اذ كانت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية فى الغرب الأوربى آنذاك فى صالح الحركة الصليبية • ولكن دوافع الفلاحين والعامة كانت تتناقض تماما مع أهداف الكنيسة والنبلاء ، اذ رأى « الذين يعملون » فى الحركة فرصة هروبية من اسار الطبقية الاقطاعية ومن المجاعات والأوبئة التى كان الغرب يعانى منها فى القرن الحادى عشر •

كانت جماهير الفلاحين الذين يلتفون حول المبشرين الشعبيين غارقة فى غياهب الجهل والغباء ، كما كانت جموعهم واقعة تحت وطأة العجز واليأس من الظروف المعيشية السائدة ، ففى سنة ١٠٩٥ م نفسها حدثت مجاعة رهيبة شملت معظم انحاء الغرب الأوربى وقدوصف سيجيبير الجامبلوى Sigebert de Gembloux هذه السنة بأنها « ••• سنة مصائب ، تفشت فيها المجاعة

---

(٦٤) Grousset, Histoire des Croisade, I, p. 11.

(٦٥) انظر نصوص خطابات اربان الثانى فى هذا الشأن فى :
Riley-Smith (ed.), The Crusades, pp. 37-40; Cf. Duncalf, «Clermont to Constantinople», pp. 253-255.

فى كل مكان ، وأخذ الفقراء يهاجمون الأغنياء لكى يسرقوهم وأخذوا يشعلون النار فى ممتلكاتهم ... » (٦٦) لقد كانت الأرض عاجزة عن أن تعول سكانها ، ولم يكن ممكنا الابقاء على جماهير الفلاحين فوق الحقول الشحيحة . وهذا هو ما يمكن أن نفسر به خروج الأعداد الغفيرة وراء المبشرين من أمثال بطرس الناسك ووالتر المفلس ... وغيرهم فيما عرفَ باسم الحملة الشعبية أو حملة الفلاحين .

لقد كان العصر هو عصر التبشير الشعبى . ولكن عـددا كبيرا من الذين شاركوا فى الحملة الشعبية (وفى حملة الفرسان أيضـا) لم يكـونوا يقدرون على التمييز بين أورشليم السماوية واورشليم الأرضية . ومن ثم كانت الصـورة الغيبية عن القـدس السـماوية التى تختلط بواقع القدس الأرضية تؤثر تأثيرا عميقا فى وجدانهم ، اذ كانوا يظنون أنهم ماضون الى الأرض التى لايوجد بها فقراء Pauperes ، والتى رسمها سفر الرؤيا ، على حين كانت رحلتهم الحقيقية تسعى صوب القدس الحقيقية على أرض فلسطين، هذه الصورة الأخروية التى اختلطت بالواقع المادى فى عقول جماهير الصليبيين كانت فى حقيقة أمرها نتاج تراث طويل فى الفكر الاجتماعى المسيحى . لقد كانت دعوة اربان الثانى تعنى بالنسبة لمن شاركوا فى الحملة الشعبية شيئا لم يكن البابا نفسه يفهمه على حد تعبير نورمان كانتور (٦٧) ، فقد كانوا يتوقون الى التحرر من نير الاحباط والفقر اللذين خيما على حياتهم التعسة ، واكتشفوا فى عبارات نغمات أخروية خلاصية كانت أبعد ماتكون عن نظرة البابا الدنيوية . كان ثمة اعتقاد شائع بأن العالم يقترب من نهايته ، وأن الحياة الدنيا التى خلقها الرب ، والتى تحولت الى مكان للمنازعات بين قوى الشر والظلام ، سوف تنتهى بالدمار . وستكون علامة دمارها انفجار الصراع

---

(٦٦) Bradford, The Sword, p. 30-31 ; Boase, Kingdoms and strongholds, pp. 16-17.

(٦٧) Cantor, Med. Hist., pp. 322-323.

النهائى بين الشر والخير ، وسوف يذهب الشيطان الى الجحيم ومعه كل الذين اختاروا حزبه ، على حين يذهب الأبرياء والعادلون للتمتع بحياة خالدة ومجيدة مع الرب • (٦٨) لقد ربط الفقراء أنفسهم بأولئك الابرياء العادلين ، وشاع بينهم أن نهاية العالم القريبة سوف تنقلهم الى أورشليم السماء حيث يستمتعون بالنعيم الخالد • هذا التراث هو الذى جعل القدس السماوية تختلط بالقدس الأرضية فى أحلام المقهورين من أبناء الغرب الأوربى وهو تراث كان يمثل ركيزة الفكر الغربى الشعبى فى القرن الحادى عشر ، أى عشية الحروب الصليبية • (٦٩)

هكذا ، نصل الى صورة حقيقية ، قدر المستطاع ، للدوافع والأهداف التى حفزت قوى المجتمع الأوربى فى القرن الحادى عشر للمشاركة فى حملة اربان الثانى • وفى تصورنا أننا نستطيع أن نقرر أن الحسم فى مصير الحركة الصليبية كان من نصيب العوامل الدنيوية على الرغم من أن الايديولوجية التى تحرك الجميع فى اطارها قد نسجت على أساس دينى ، وحددت هدفا دينيا مثيرا هو تحرير الأرض التى خطا يسوع المسيح فوق ترابها • لقد كانت دوافع القوى الاجتماعية فى الغرب الأوربى للمشاركة فى هذه الحرب خليطا من الدوافع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية انصهرت جميعا فى بوتقة الايديولوجية التى أفرزت الحركة الصليبية •

والحقيقة أن كثيرين من الناس فى الغرب مايزالون ينظرون الى الحروب الصليبية نظرة رومانسية ، لأن مشهدها يجسد العقيدة وهى تسير للقتال بأسلحتها المشرعة تتألق تحت الشمس ، كما أن الجيش الصليبى نفسه يبدو فى عيونهم جيشا من الرجال النبلاء الذين هذبتهم تقاليد الفروسية على

---

(٦٨) L'An mille, pp. vii-ixi; Mayer, The Crusades, pp. 12-13; Runciman, Ashit. of the Crusades, vol. I, p. 115.

(٦٩) Alphandéry, la Chétienté, pp. 23-24 ; Bishop, The Penguim Book, p. 105 ; Bloch, Feudal Society, pp. 81-85.

الرغم من ميولهم الحربية وحبهم للقتال • (٧٠) ولكن الحقيقة أن الصورة الفعلية للحروب الصليبية تحمل كثيرا من الملامح القاتمة • وقصة الحروب الصليبية حافلة بمشاهد الطمع والخسة ، وصور الخزى والعار ، فقد كان الصليبيون قوما همجيين متوحشين ، حتى بمقاييس ذلك الزمان ، لايرعون عهدا ولايصونون وعدهم فى كثير من الأحيان • بل ان العلاقات بين الصليبيين أنفسهم كانت غاصة بالحقد والخلافات • وعلى الرغم من أنه كان يفترض أن الصليبيين هم جند الرب المحاربون فى خدمته ، فالواقع أنهم قد صدروا أحقادهم وحروبهم الاقطاعية الى الأرض التى شهدت خطوات المسيح •

ان الحوادث والأفكار المعقدة المتشابكة التى أدت الى ميلاد الحركة الصليبية فى رحم الايديولوجية التى حركت كافة القوى الاجتماعية ، وتفسيرات المؤرخين لأسباب ونتائج هذه الظاهرة التاريخية تقدم للمتهمين بدراسة المجتمع الانسانى نموذجا فريدا عن مدى مايمكن أن ينتج عن حركة القوى الاجتماعية من استجابات • ففى أوربا الغربية أواخر القرن الحادى عشر ، كانت دعوة اربان الثانى تطرح أمام المجتمع الذى فرقه الانقسام هدفا عاما يمكن لكل قوة من القوى الفاعلة فى هذا المجتمع أن تعبر عن نفسها من خلاله • وحين تحرك المجتمع صوب هذا الهدف العام ، كشفت كل قوة من القوى الاجتماعية عن فهمها الخاص للايديولوجية التى تحركت فى اطارها •

---

(٧٠) Wood, The Age of Chivalry, pp. 94-95 ; Cantor, Med. Hist., p. 317.



الفتح النورمانى لانجلترا :

ملحمة فريدة فى تاريخ انجلترا ونورمانديا فى العصور الوسطى

للدكتور محمد محمد الشيخ
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بآداب الاسكندرية



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفتح النورمانى لانجلترا
ملحمة فريدة فى تاريخ انجلترا ونورمانديا فى العصور الوسطى

تعرضت الجزيرة البريطانية للغزو الجرمانى فى النصف الثانى للقرن الخامس الميلادى ، قامت به مجموعة من القبائل الجرمانية المتحالفة هى : الانجليز والسكسون والجوت (١) ، وساعد على نجاح ذلك الغزو ما حدث من قيام الامبراطورية الرومانية بسحب آخر فرقها وحاميتها قرب منتصف ذلك القرن سنة ٤٤٢ م (٢) ، وترتب على هذه الموجة العاتية من الغزو أن تقهقرت اللغة اللاتينية ، وتراجعت الديانة المسيحية ، وتأخرت المدن الكبيرة ، ومحيت النظم الرومانية وقضى على ما كان لروما من دلائل السيطرة والسلطان فى تلك البلاد (٣) •

ولكن على الرغم من ذلك ظلت الجزيرة البريطانية تحتفظ بعناصر سكانها القدامى ، فقد بقى الايبيريون السمر والكلتيون الجبليون والكلتيون البريتون • كل هؤلاء وأولئك لم تذهب بهم الريح أو تجهز عليهم الكارثة ، بل ظلوا يمثلون عنصرا من عناصر سكان الجزيرة البريطانية • (٤)

---

(١) Davis : «The British Isles from the earliest times to the Middle ages» in B. H. VII, p. 3497.

(٢) Katz : The Decline of Rome and the rise of Med. Europe. p. 92, Lot : The End of the Ancient world, p. 203. Camb. Med. Hist. V. 1, p. 388.

(٣) Trevelyan : Hist of England. part I, p. 33.

(٤) فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى جـ ١ ص ٣٨ (مترجم)

وينجلى الظلام عن بريطانيا فى نهاية القرن السادس الميلادى (٥٩٧م) عند قدوم القديس أوغسطين ، فنبدو وقد تغيرت معالمها فصارت جرمانية وثنية وتغير اسمها فأصبح انجلترا بدلا من بريطانيا وحل مجتمع جرمانى بدائى محل مجتمع كلتى وغدت اللغة جرمانية خالصة والاله المعبود اسمه أودين والزراعة هى عصب الحياة فيه (٥) •

ولما كانت غزوات الجرمان لبريطانيا قد تمت تحت قيادة نفر من رؤساء القبائل وزعماء العشائر ، فقد غدا أولئك الزعماء ملوكا متوجين بعد الاستقرار ، واتخذ كل مملكة قائمة بذاتها ، وأسفر ذلك عن قيام ممالك قبلية مختلفة سميت بالممالك السبع Heptarchy ، وهى الممالك التى أقامتها العناصر الثلاثة المشتركة فى الغزو ، فقد أقام الجوت مملكة واحدة وكون السكسون ثلاث ممالك أخرى واختص الانجليز بالثلاث الباقية (٦) •

ولقد اندلعت الحروب الطاحنة بين تلك الممالك ، واهتم ملوكها باثارة البغضاء وشن الحروب فيما بينهم • وسمت همة بعضهم لنيل الزعامة فى تلك الدويلات الجرمانية وتصفية أملاك جيرانهم واحتواء ممالكهم (٧) • فاذا أنزل أحدهم الهزيمة بالأخر احتوى أرضه وأضافها الى مملكته وألزمه بدفع اتاوة معينة واذا استطاع أحد هؤلاء الملوك الحاق الهزائم بكل أنداده ومنافسيه حصل على سيادة انجلترا كلها (٨) •

ولقد عقدت الزعامة لمملكة وسكس Wessex فى مطلع القرن التاسع

---

(٥) Davis : op cit. pp. 3504-5.
Royer : Concise Hist. of Britain, pp. 8-9.

(٦) Rayner : op. cit. pp. 10-11.

(٧) فشر : نفسه ص ٣٩ • ٤٠ ، ديفز : أوربا العصور الوسطى ص ٣٢ (ترجمة د • حمدى) •

(٨) ديفز : نفسه ص ٣٢ ، فشر : نفسه ص ٣٩ — ٤٠

الميلادى (٩) • منذ عهد الملك اجبرت Egbert (٨٠٢ - ٨٣٩ م) ، الذى يعتبر أول ملك يحكم كل انجلترا ، وحين تولى الملك الفريد العظيم (٨٧١ - ٨٩٩ م) حفيد اجبرت ، كانت انجلترا مهددة من غزوات الدانيين أو الفيكنج وهى الغزوات التى كادت تقضى على ما كان لانجلترا فى ذلك الوقت من هدوء واستقرار (١٠) ، وعلى الرغم من عظم وطأة الدانيين الا أن الفريد العظيم استطاع أن ينقذ مملكته من خطرهم ويمنعهم من الاستيلاء على الجزيرة برمتها (١١) ، اذ أنزل بهم الهزائم سبع مرات ، والحق بهم هزيمة بحرية كبيرة قرب أواخر القرن التاسع (٨٩٦م) ، ومن أجل ذلك ونظرا لعنايته الشديدة بالبحرية الانجليزية التى صار لها شأن عظيم فيما بعد ، اعتبر الفريد العظيم مؤسس البحرية الانجليزية • (١٢)

واذا كان لألفريد العظيم من فضل فلأنه نجح لأول مرة فى جمع الممالك الانجليزية على هدف واحد من خلال مقاومته العنيفة للدانيين فنجح فيما فشلت فيه الكنيسة من توحيد الانجليز وجمعهم على هدف واحد ، فضلا عن اصلاحاته التعليمية والكنسية التى أضافت كثيرا الى الناحية القومية (١٣)، ولهذا عد عهده بالغ الأهمية بالنسبة لتاريخ الأمة الانجليزية قاطبة ، وعند وفاته فى نهاية القرن التاسع تجرأ خلفاؤه وأخذوا يستردون البلاد من الدانيين جزءا جزءا ، وكلما تقدموا صوب الشمال وحرروا جزءا أقاموا فيه معقلا تحول بمرور الوقت الى مدينة مسيطرة حتى انتهى الأمر بتوحيد انجلترا

---

(٩) Davis : «The Brtish Isles» B. H. VII, p. 5307.

(١٠) Schjoth : «Great days of the Northmen,» B.H. VII, p. 3354.

(١١) Cantor : Med. Hist. p. 325.
Trevelyan : op. cit., p. 71.

(١٢) Painter : A Hist. of the Middle ages., p. 92.

(١٣) Southern : The making of the middle ages, p. 167, p. 18.
Rayner : op. cit., p. 16.
Davis and Arthur : «The British Isles» B.H. VII, p. 3837.

كلها تحت حكم ملك واحد هو الملك ادجار Edgar (٩٥٩ ــ ٩٧٥) ، الذى يمكن وصفه بأنه كان بحق ملكا لانجلترا • (١٤)

وفى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى بدأ النظام الاقطاعى يقوى فى كيان المجتمع الانجليزى فى الوقت الذى تولى فيه ملوك ضعاف ، لم تكن بوسعهم السيطرة على النبلاء من جهة والتصدى للدانيين من جهة أخرى (١٥) ، فكلما وصلت موجة جديدة سنة ٩٨٠ م تخـــاذل حكام انجلترا ، وابدوا الاستعداد لدفع الأموال للدانيين ليرحلوا من البلاد ، ثم ما لبثت انجلترا أن تعرضت لموجة جديدة عاتية من موجات الفيكنج قدمت هذه المرة فى شكل غزو اسكندناوى يمثل الأمة الاسكندناوية المترابطة (١٦) • فاسفرت هذه الموجة عن هروب الملك الانجليزى اثليرد Ethlerd الى نورماندیا وقيام كانــوت ابن ملك الدانيين على عرش انجلترا سنه ١٠١٦ (١٧) • وظل كانوت فى حكم انجلترا الى سنة ١٠٣٥ ، واتخذ لندن عاصمة تجارية لامبراطوريته ، ولم يعد عرش انجلترا الى البيت المالك القديم الا فى سنة ١٠٤٢ م حين نجح ادوارد الثالث « المعترف » ١٠٤٢ ــ ١٠٦٦ م وهو ينتمى الى بيت الفريد العظيم فى استرداد عرشة بعد فترة قضاها فى المنفى لدى قريبه دوق نورماندیا (١٨) • وبعد وفاته تذرع وليم دوق نورماندیا ببعض الحجج والذرائع للاستيلاء على انجلترا لتحدث معركة هاستنجز Hastings أو تلك الملحمة الفريدة فى تاريخ القطرين الأوربيين فى العصور الوسطى • (١٩)

---

(١٤) Trevelyan : op. cit. p, 81.
Rayner : op. cit p. 18.

(١٥) Cantor : Med. Hist. p. 207.

(١٦) Schjoth : op. cit. p. 3556.

(١٧) Trevelyan : op. cit., pp. 98-9.

(١٨) Haskins : op. cit., p. 74.

(١٩) Davis and Arthur : op. cit., p. 3840.
Schjoth : op. cit., p. 3552.
Haskins : The Normans in European Hist. p. 75.

هذا ما حدث فى انجلترا قبل الغزو النورمانى لها سنة ١٠٦٦ ، أما فرنسا فالمعروف أن امبراطورية شارلمان قسمت بين أحفاده أبناء لويس التقى الى ثلاثة أقسام (٢٠) ، بمقتضى اتفاقية فردان سنة ٨٤٣ نال لويس الجرمانى الجزء الشرقى منها ، كما حاز لوثر الجزء الأوسط وحظى شارل الأصلع بالجزء الغربى وأدت معاهدة فردان الى نتائج بالغة الأهمية بالنسبة لمستقبل التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى (٢١) • غير أن اختفاء هؤلاء الملوك ابتداء من الربع الأخير من القرن التاسع حمل فى طياته بذور ضعف هذه الامبراطورية وبداية تداعيها خاصة بعد أن اندلع الصراع رهيبا بين أفراد البيت الكارولنجى. وهدد الفيكنج سواحلها واخترقوا تلك السواحل عبر مصبات أنهارها وضربت البلاد فى فوضى واضمحلال • (٢٢)

وفى مطلع القرن العاشر الميلادى كان يحكم فرنسا شارل البسيط أحد ورثة البيت الكارولنجى ، لكن الظروف فى فرنسا لم تكن مواتية لكى تضمن لهذا الشاب حياة هادئة ، فقد كانت هجمات النورمان تؤرق الفرنسيين وتقض مضاجعهم ، لاسيما فى الجزء الغربى والشمالى من البلاد (٢٣) ، ولهذا حين استأنف النورمان غزوهم لفرنسا فى أوائل القرن العاشر ، تصدى لهم الملك الجديد وكبار النبلاء ، فى همة وعزيمة وحماسة طاغية ، حتى نجح الفرنسيون فى الحاق هزيمة كبيرة بالنورمان تحت أسوار شارتر فى ذلك الوقت تراجعوا

---

(٢٠) Snyder : Documents of German Hist. p. 29.

(٢١) See : «Annales Bertiniani» in «Monumenta Germania Historica Scriptores» Ed. by Georg H. Pertz. and others, Hanover and Berlin 1826-1905. 1, p. 440 - in Documents of German Hist. p. 29.

(٢٢) See : «The Anals of Fulda M.Y.H. Scriptorum 1, p. 40.
Davis : A Hist : of Med.. Europe p. 174.
Hoyt and chodrow : Europe in the Middle Ages, p. 185.

(٢٣) Camb. Med. Hist. V. III, p. 322.

الى الوراء وقبل زعيمهم رولو توقيع معاهدة صلح مع شارل البسيط عرفت بمعاهدة سان كلير على نهر الهابت فى يوليو سنة ٩١١ م (٢٤) وتعتبر هذه المعاهدة ابرز احداث تاريخ النورمان بهذه البلاد ، ونقطة البداية فى تأسيس المملكة النورمانية بغالة ، كما جاءت سنة ٩١١ م — على قول المؤرخ هاسكنز Haskins — فى منتصف قرن وربع من الغزو والاستقرار النورمادى فى اقليم نورمانديا ٠ (٢٥)

فلقد رأى الملك الفرنجى شارل البسيط — بعد سلسلة من المغامرات النورمانية بغالة — أن يمنح رولو بمقتضى هذه المعاهدة الجزء الشرقى الذى عرف فيما بعد باسم نورمانديا كاقطاع له ولرجاله نظير ارتباط هذا بالتبعية له وحلفه يمين الولاء (٢٦) ، واعتناقه المسيحية هو وقومه ، وكان استقرار رولو Rollo واتباعه فى نورمانيا بداية عهد جديد للشعب الاسكندناوى فى ذلك الاقليم ٠ (٢٧)

وطبقا لذلك لم يجر فى البداية اندماج بين هذه المستعمرة الجديدة ، وما يحيط بها لأن رجال الشمال ظلوا يتدفقون عليها ويحولون بينها وبين الذوبان فيما حولها ويعطونها الفرصة لتاكيد ذاتيتها وابراز سماتها بعيدا عن جاراتها ، وهكذا أخذت نورمانديا تتشكل ببطء كيانها كبلد افرنجى وكمستعمرة نورمانية لتبدو كدوقية شبه مستقلة تلعب دورها فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر (٢٨) ٠ وتحول رولو الى المسيحية وتبعه قومه ، وابتداء من

---

(٢٤) Cantor op. cit., p. 254.
Oman : The Dark ages p. 501.

(٢٥) Haskins : op. cit., pp. 26-7.

(٢٦) Schjoth : «Great days of the Northmen» B.H. VII, p. 3550.

(٢٧) Hallam : View of the State of Europe during the middle Ages, p. 16.

(٢٨) Haskins : op. cit., p. 45.

سنة ٩١١ م أصبح النورمان فى زمرة مسيحى البلاد الغربية ، وجـرى تعميد روللو نفسة وتبعه قومه ٠ (٢٩)

ولقد جرى اعتبار معاهدة سان كلير عملا أملاه العقل وسداد الرأى لأنها وضعت حدا للاغارات النورمانية ، وأعادت السلام الى ربوع البلاد والهدوء الى منطقة السين ، وأمدت فرنسا بدماء جديدة سرعان ما أخذت تندمج فى فرنسا ، لتلعب دورها فى الحقبة التالية لاسيما وأن روللو تنصـر فى العـام التالى لهذه المعاهدة (٩١٢ م) ، وجرى تعميده وفقـا للمسيحية الكاثوليكية وتسمى باسم روبرت (٣٠) ٠ وكان ابنة وليم طويل السيف Long Sword طرازا أكثر رسوخا فى المسيحية والفرنجية ٠ (٣١)

وفى أواخر القرن العـاشر ٩٨٧ ، انتهى البيت الكارولنجى فى فرنسا ودلف الحكم الى أسرة جديدة هى أسرة كابيه فى فرنسا وهى الأسرة التى ظلت تحكم فرنسا ردحا طويلا من الزمن (٣٢) ٠ فى الوقت الذى جرت فيـه الأمور فى القسم الشرقى من الامبراطورية الكارولنجية فى اتجاه آخر ، حيث نهضت الأسرة السكسونية فى ألمانيا بتأسيس الامبراطورية الألمانية وما عرف بعد ذلك بالامبراطورية الرومانية المقدسـة ، التى ورثت جـانبا كبيرا من امبراطورية شارلمان ودولة الفرنجة فى العصور الوسطى ٠ (٣٣)

وببداية القرن الحادى عشر ، وبعـد أن توقفت الهجرة الاسكندناوية استطاعت نورمانديا أن تعتمد على نفسها ، ووقفت على أقدامها منفردة ٠

---

(٢٩) Camb. Med. Hist. V. III, pp. 315-20.
(٣٠) Schjoth : op. cit., p. 3550.
(٣١) Haskins : op. cit., pp. 45-6.
(٣٢) Camb. Med. Hist. V. III, p. 80.
(٣٣) See : Epistolae Gerbert. Ed. J. Havet 1889, p. 231
chronicon Novaliciene-trans. Davis.
in C.M.H. 3, pp. 213-14.

ولم يمض قرن واحد على بداية الاستقرار بنورمانديا حتى كان النورمان قد تكيفوا مع البيئة المجاورة واندمجوا الى حد بعيد فيها ، (٣٤) بل حاز دوق نورمانديا منزلة سامية بالنسبة لغيره من افصال ملك فرنسا ، (٣٥) وعلى بدايات ذلك القرن ايضا اصبح النورمان فرنسيين فى لغتهم وفى قوانينهم ، لكنهم كانوا معتزين كثيرا باستقلالهم الداخلى ، وعلى استعداد ليحاربوا الفرنسيين اذا تعرض ذلك الاستقلال للخطر • (٣٦)

وطبقا لهذا المفهوم اعتبر النورمان دولتهم عضـوا فى مجموعة الدول الداخلة فى طاعة ملك باريس ، مع تمتعها بالاستقلال الداخلى والحكم الذاتى ، وكانت لغة حديثهم هى الفرنسية ، ولغة كتابتهم هى اللاتينية ، واسلوب ثقافتهم القانونية هو أسلوب الحكمة الفرنسية العليا باستثناء بعض المصطلحات الفنية فى قانونهم ، التى كانت لها أصول اسكندناوية (٣٧) • فقد استقر النورمان بنورمانديا واتخذوا من روان عاصمة لهم وبدأوا فى الأندماج فى البيئة المجاورة كل ذلك دون أن يفقدوا حماسـهم للقتـال وحبهم للمغامرة (٣٨) ، وطبقوا القانون الفرنجى وتحولوا الى الحديث بالفرنسية ، ولعل ذلك هـو الذى جعل الدوق الثانى من أوراق نورمانديا وليم الأول (طويل السيف) يضطر الى ارسال ابنه الى بايو ليتعلم اللغة الاسكندناوية لانها لم تكن لغة حديث فى روان عاصمة نورمانديا • (٣٩)

وتنجلى هذه الفترة المبكرة من تاريخ النورمان ومملكة نورمانديا أو دوقية نورمانديابظهور الدوق الرابع من أدواقها وهو ريتشارد الطيب Richard the Good وابنه روبرت الذى عرف بروبرت العظيم ، وهو الدوق الخامس من ادواقها ،

(٣٤) Haskins : op. cit. p. 40.
(٣٥) Cantor : op. cit., p. 254.
(٣٦) Pollock, Maitland : Hist. of English law. p. 66.
(٣٧) Haskins : op. cit., p. 66.
(٣٨) Schjoth : op. cit. p. 3550.
(٣٩) Haskins : op cit., p. 49.

والذى قدر له أن يموت وهــو عائد من الأراضى المقدسة بعد قيــامه بالحج اذ توفى فى آسيا الصغرى سنة ١٠٣٥ م ، وكان روبرت هــذا والــدا لدوق نورمانديا الشهير وليم العظيم ، الذى عرف فيما بعد بوليم الفاتح (١٠٣٥ ـ ١٠٨٧ م) ٠ (٤٠)

والواقع أن وليم ـ دوق نورمانديا السادس ـ كان أشهر أدواق تلك الامارة على الاطلاق لما تحقق على يديه من أعمال كان أبرزها اقامة امبراطورية نورمانية مدت سيطرتها الى انجلترا (٤١) ، وشغل وليم فى سنى حيــاته الأولى بنضاله مع أفصاله الاقطاعيين وجيرانه فى غالة ، وما حدث من أمــور بينه وبين ملك فرنسا ٠ وبانتهاء هذه المشكلات بدأت نورمانديا تنعم بفتــرة سلام وازدهار حقيقى فى ظل دوقها الشاب وليم العظيم ٠ (٤٤)

والواقع انه ليس هناك جدال من الناحية القانونية أن دوق نورمانديا كان فصلا اقطاعيا للملك الفرنسى ، تحكم وتربطه به التزامــات الصـــداقة والخدمة النابعة من أداء دوق نورمانديا يمين الولاء للملك الفرنسى ٠ (٤٣) حقيقة كثيرا ما انتهكت مثل هذه الصلات الاقطاعية فى مجتمع القرن الحادى عشر والثانى عشر ان لم تكن قد نزعت تماما ، لكننا نقابل فى هذه الحالة بتناقضات خطيرة بين ماهو نظرى وما هو واقع فعلى (٤٤) ، فموقع نورمانديا فى وادى نهر السين وقربها من الدولة الملكية قد أوجد فرصا لاتنتهى للاحتكاك ولقد تجنب الطرفان فى أول الأمر ولمدة نحو قرن من الزمان توتر العلاقــات وتدهورها فعقدت معاهدة صــداقة ومحالفة تســتند الى المصالح المشــتركة

---

(٤٠) Ibid. pp. 52-3.

(٤١) Schjoth : op. cit., pp. 3550-3.

(٤٢) Ibid. p. 3550.

(٤٣) Fliche : L'Europe Occidentale, pp. 72-7.

(٤٤) Full Rechin : «Chroniques des Comtes d'Anjou» pp. 63-4.

بينها (٤٥) . غير أن هذه العلاقات الطيبة ما لبثت أن تبدلت قرب منتصف القرن الحادى عشر ، ولابد وأن نمو قوة وتأثير نورمانديا فى المنطقة يعطى تفسيرا كافيا لهذا التغيير ، ولذلك عضد الملك هنرى الثورة الداخلية ضد النورمان سنة ١٠٥٣ ، كما حاول القيام بغزو شامل لنورمانديا فى نفس السنة ، بينما أحرق وخرب ودمر ونهب ما صادفه فى طريقة فى قلب الممتلكات النورماندية سنة ١٠٥٨ ، لكن لجوء النورمان الى التريث وحسن توقيت الهجمات المضادة قد بدد جهود الملك ، لكن وليم رفض أن يقوم بهجوم مباشر ضد مليكه ، الذى ظل يعامله من قبله باحترام شخصى بوصفه لورده الاقطاعى (٤٦) ، وحتى بعد أن أصبح وليم نفسة ملكا ظل فى أغلب الظن يقدم الخدمة الحربية التى كان يؤديها للملك وهو دوق ، وعلى كل حال غدت مسألة الخضوع والتبعية مسألة شكلية الى حد بعيد حينذاك لأن وضع وليم وهو دوق كان أكثر قوة من ملك فرنسا نفسه (٤٧) ، وقد ظل العداء بين ملوك فرنسا وبين النورمان الى أن وجد هؤلاء متنفسا فى انجلترا يرضى ويشبع حبهم للمغامرة والتوسع فخفت حدة العداء بين الطرفين الى حد كبير . (٤٨)

ونتيجة لذلك فان توسع نورمانديا كان ولابد أن يتجه نحو انجلترا بسبب التقارب من البلدين وبسبب الموقع الجغرافى ، والاستقرار الاسكندناوى فى كلا البلدين والمشروعات التجارية لتجار روان ، وتشير الدلائل الى أن وليم العظيم كان قد بدأ يهتم بشئون انجلترا منذ سنة ١٠٥٠ م وتطلع الى حيازة التاج الانجليزى منذ ذلك الوقت (٤٩) ، وكان زواج الملك الانجليزى اثيلرد Ethelred من Emma أخت الدوق ريتشارد الطيب سنة ١٠٠٢ ،

---

(٤٥) Mahrenholtz : «France through the middle ages» B.H. VII, p. 2764.

(٤٦) Haskins : op. cit., p. 65.

(٤٧) Ibid. p. 65.

(٤٨) Mahrenholtz : op. cit., p. 3771.

(٤٩) Cantor : op. cit., p. 257.

وهو دوق نورمانديا الرابع ثمرة من ثمرات التقارب • بين البلدين (٥٠)، وجه هذا الزواج السياسى ليقوى الرابطة الأسرية بين البلدين الأمر الذى ترتبت علية نتائج بالغة الأهمية ، ودخول انجلترا فى السياسة النورماندية فى ذلك الوقت ، فقد تربى ابنهما ادوارد المعترف The Confessor فى البلاط النورمانى حتى أصبحت عاداته وعواطفة نورمانية أكثر منها انجليزية (٥١) • وجاء اعتلاؤه العرش الانجليزى سنة ١٠٤٢ م بداية لازدياد التأثير النورمانى فى انجلترا فى الدولة والكنيسة الأمر الذى اعتبره فريمان ـ صاحب الاتجاهات المناهضة للاجانب ـ البداية الحقيقية للغزو النورمانى لانجلترا (٥٢) ، وخاصة وأن المعترف توفى دون أن يعقب ففتح بذلك الباب أمام الأطماع النورمانية فى انجلترا •

وكان هناك بعد وفاة ادوارد المعترف اثنان يطالبان بالعرش الانجليزى أحدهما هو هارولد بن جودوين godwin أكثر ارلات انجلترا قوة (٥٣) ، والثانى هو وليم دوق نورمانديا • وكان هارولد قد أحجم عن تقديم أى مطلب بوراثة العرش قبيل وفاة ادوارد حتى يبدو أنه حصل على تأييد الملك قبل وفاته ، فضلا عن أنه جمع الى جانب ذلك بين قوة البأس والظهور بمظهر الرجل الأول أو القائد الأول فى المملكة • (٥٤)

أما وليم دوق نورمانديا فبوصفه ابن خال الملك المتوفى ، فقد تطلع الى عرش انجلترا ، ودعم مطلبه بالاستشهاد بنص مبكر لادوارد أو تصريح نسبه الى ادوارد بأنه الوريث الشرعى الوحيد لعرش انجلترا (٥٥) • ، كما استشهد بقسم أويمين قال انه استخلصه من هارولد ، ليس من المعروف

(٥٠) Davis and Arthur : op. cit., p. 3846.

(٥١) Trevelyan : op. cit., p. 107.

(٥٢) Freeman : Norman conquest. II, p. 166.

(٥٣) Trevelyan : op. cit., p. 111.

(٥٤) Haskins : op. cit., p. 75.

(٥٥) Davis and Arthur : «England before the Norman conquest» B. H. VII, p. 3646.

تماما مدى صحة هذا الادعاء ، وما اذا كان هذا القسم قد حدث خلال زيارة قام بها هارولد الى نورمانديا قبل ذلك بنحو عامين أو ثلاثة أعوام (٥٦) ، ولكن مع ذلك فقد مكن هذا الادعاء وليم من التظاهر بأنه ليس الا مدافعا عن حقوقه وعن عهد نكثه هارولد • ولقد منحته هذه المناورة ميزات كثيرة فبدا وكأنه يدافع عن قضية عادلة ، وشجعه على طلب معونة البابا اسكندر الثانى الذى رفعت اليه القضية برمتها • (٥٧) فى الوقت الذى لم يحفل فيه هارولد فى انجلترا بذلك كله ، بل جرى اختياره ملكا بواسطة مجلس الوتان Witan أو مجلس الحكماء ، وبدا له ذلك اجراء قانونيا يعبر ويعكس ما يلقاه من تأييد كبير • (٥٨)

ويثير أحد المؤرخين المحدثين (٥٩) قضية هامة فى علاجه لهذه النقطة بالذات فيذهب الى أنه لا يجب أن نقع فى خطأ تاريخى بالاعتقاد بأن هارولد كان بطلا قوميا أو حتى مرشحا لحزب قومى ، اذ لم يكن ثمة شىء يعنى القومية فى القرن الحادى عشر بالمعنى المعروف فى العصر الحديث لأن هذه الكلمة لاتعنى شيئا بالنسبة لانجلترا فى ذلك الوقت بسبب تفتتها وتجزئتها ، وما حدث فيها من خراب ودمار على يد الدانيين ، وما جرى فيها من نزعة انفصالية داخلة (٦٠) ، فضلا عن أن مفهوم « الاجنبى » وتصور ما يمكن أن يكون أجنبيا لم يكن واضح المعالم فى اذهان المعاصرين ولازال عهد الملك كانوت Cinute الذى حكم انجلترا على الرغم من أنه كان ابن ملك الدانيين يؤكد أن انجلترا لم تكن تخشى أن يتولى عرشها ملك مولود فى الخارج (٦١) • حقيقة كانت المنافسة بين هارولد ـ نصف الدانى ـ ووليم

---

(٥٦) Haskins : op. cit., p. 74.

(٥٧) Cantor : op. cit., pp. 337-8.
Haskins : op. cit., p. 74.

(٥٨) Davis and Arthur : op. cit., p. 3846.

(٥٩) Haskins : op. cit., p. 74.

(٦٠) Ibid. p. 74.

(٦١) Ibid. pp. 74-5.

النورمانى تجرى كما لو كانت بسبب التعصب للقومية الا أنها لم ترق مطلقا الى مرتبة الكفاح القومى أو النضال القومى . (٦٢)

وكان وليم قد قضى الفترة بين وفاة ادوارد المعترف وتتويج هارولد فى يناير سنة ١٠٦٦ الى عبور القتال الانجليزى فى سبتمبر سنة ١٠٦٦ فى الاستعدادات لغزو انجلترا (٦٣) ، واذ كانت هذه الحملة ضخمة لايمكن أن ينهض بها التزامات الخدمة الحربية من أفصال وليم الاقطاعيين ، فقد لجأ هذا الى استثارة حماسة النورمان وحبهم للمغامرة وبراعتهم . فى استخدام الأسلحة ووعدهم بالأراضى الواسعة والغانم الكثيرة ، ولم يجد غضاضة فى قبول فرسان من أجزاء أخرى من فرنسا من بريتانى وفلاندرز وبواتو Poitou ومغامرين من أسبانيا البعيدة ومن صقلية . (٦٤)

وبعد ذلك واجهت وليم مشكلة نقل هؤلاء المحاربين الى انجلترا ، وذلك لأن نورمانديا لم يكن لها أسطول بحرى يمكن أن يفى بهذا الغرض ، ولم يكن من السهل بناء سبعمائة سفينة فى ستة أشهر ، ولهذا فقد لجأ وليم الى أفصاله وأقاربه لحل هذه المشكلة فتعهد هؤلاء بامداده بهذا العدد من السفن ولهذا لم تأت نهاية شهر أغسطس سنة ١٠٦٦ الا وكانت الحملة جاهزة للعمل وعند سانت فاليرى Saint Valéry تجمع الأسطول للعبور النهائى الى الجزيرة البريطانية . (٦٥)

وفى أواخر شهر سبتمبر سنة ١٠٦٦ نزل النورمان على الساحل الانجليزى عند بفنسى Pevensey وساروا الى هاستنجز Hastings (٦٦) حيث التقوا فى ١٥ أكتوبر بفرق هارولد التى كانت منتعشة بالنصر الذى

---

(٦٢) Ibid. pp. 74-5.
(٦٣) Trevelyn : op. cit., pp. 114-7.
(٦٤) Haskins : op. cit., p. 75.
(٦٥) Ibid. p. 75, Rayner : op. cit., pp. 24-5.
(٦٦) Schjoth : op. cit., p. 3552.

أحرزته قبيل (٦٧) هذه الأحداث على النرويجيين فى الشمال عند قنطـــرة ستامفورد Stamford bridge التى كانت تمثل حينذاك تلا محصنا جيدا يبعد عن هاستنجز والى الداخل نحو ثمانية أميـــال على طريق لندن : لتجرى بين النورمان وفرق هارولد معركة من أهم المعارك ترتبت عليها نتائج بالغة الأهمية بالنسبة لتاريخ القطرين انجلترا ونورناندیا • (٦٨)

ويجمع المؤرخون الذين تناولوا معركة هاستنجز على أن هـــذه المعركة كانت من أهم معارك العصور الوسطى واكثرها وضوحا لأنها معروفة تماما للمؤرخين وقـــل أن تعرف معركة بهـــذا القدر الذى عرفت بـــــه معركة هاستنجز ، (٦٩) وذلك لوجود عدد كبير من الكتابات النثرية التى كتبهـا المؤرخون الاخباريون اللاتين عنها ، فضلا عن المراثى المعاصرة لجاى أوف أميمنز Guy of Amiens وبـــودرى أوفـ بـــورجيل Baudri of Bougueil وشـــعر رومان دى رو Roman de Rou الحفيف لماستر واك Master : Wace فضلا عن الرسوم الواضحة الجميلة والفريدة ممثلة فى لوحات بايو The Bayeux Tapestry وهذا الأثر الشهير يتكون من لفة من القماش طولها مائتين وثلاثين قدما وعرضها عشرين بوصة مرسومة بالألوان لسلسلة من تسع وسبعين منظرا أو مشهدا تقص تاريخ الفتح النورمانى لانجلترا ، منذ رحيل هارولد فى رحلته المشئومة حتى الهزيمة النهائية للجيش الانجليزى فى ساحة القتال فى هاستنجز ، وهذه المشاهد أشير اليها بعناوين مختصرة اختيرت بعنـــاية وقســمت بتفصيل حقيقى له أهمية كبيرة بالنسبة لحياة العصر الثقافية والفكرية • (٧١)

---

(٦٧) Davis and Arthur : op. cit., p. 3840.
Haskins : op. cit., p. 75.

(٦٨) Edward A. Freeman : op. cit. p. 164-7.

(٦٩) Stenton : Anglo Saxon England, pp. 576-80.
Haskins : op. cit. p. 76.

(٧٠) Haskins : op. cit., p. 76.

(٧١) Ibid. p. 76.

وقد حفظ الأثــر الهام فى الكتدرائية ، ثـــم نقل الى المتحف الوطنى فى بايو ويذهب الدارسون لهذا الاثر النادر بأنه لاشك ينتمى الى القـــــرن الحادى عشر استنادا الى ما يظهر فيه من أنواع السلاح ومن العادات التى تنتمى الى ذلك القرن ، فضلا عن قرائن مادية أخرى معاصرة للحوادث التى تصفها وتصورها • (٧٢)

ويرقى الأدب المعاصر للمعركة ليوازى أهميتها التاريخية ، اذ توجد أهم المدونات الكلاسيكية فى المجلد الثالث من مؤلف فريمان العظيم : **Freeman** History of the Norman Conquest حيث سردت القصة بمزج نادر بين التفصيل الخفيف والقصص الرشيق يذكرنا ــ كمايقال ــ معركة من الالياذة أو بساجا من الساجات الاسكندناوية (٧٣) ، لكن يؤخذ على ســـرد فريمــان لقصة هاستنجز أنه أضفى عليها قدراكبيرا من الجمال والفخامة وشحذ فيهاقدرا كبيرا من الحماسة حملتها كما هو متوقع فيما وراء شواهد المصادر التاريخية ، ولهذا فكثير من الأمــور الجوهرية فى تلك المعركة لايمكن قبولها كســـنـد تاريخى (٧٤) • فقد انبرى باحث متعمق فى التاريخ الأنجلو ــ نورمانى وهو راوند **J. Horace Round** ينقد كثيرا من نظرياتها الحربية التى ظن فريمان انها كانت عصب التكتيكات الانجليزية ، وأثبت راوند ضعفها ، كمــا هاجم كل من سباتز .Wilhelm Spatz واستاذه البركينى الشهير **Hans Delburck** علاج فريمان للموضوع ككل بتحليل يمثل وجهة النظر العلمية للتـــــاريخ الحربى • (٧٥)

ولعل خير ما قيل فى نقد هـــذه الروايات عن هــاستنجز أن الجندى الانجليزى والفارس النورمانى كانا عاجزين عن استيعاب النظام والاتحــاد

---

(٧٢) **Ibid. p. 76.**

(٧٣) Corpus Poeticum Boreale, 1, p. 281.

وانظر مقتطفات من الساجات فى كتابة Haskins المذكور ابتداء من ص ٣٩ ، وانظر أيضا كتاب Prevelyan فى كتابة المذكور ص ٧٥

(٧٤) **Haskins** : op. cit., p. 77.

(٧٥) **Haskins** : op cit., pp. 77-8.

Rayner : op. cit., pp. 24-5.

الذى تتطلبه أية استراتيجية حقيقية ، كما كانا عاجزين عن تشكيل الحائط الدفاعى وتنفيذ الهروب الخداعى أو التظاهرى · ولذا فان ما يمكن استنتاجة من تلك المعركة أن قتال العصور الوسطى كان أكثر فردية من قتال الجيوش القديمة والجيوش الحديثة ، وكان يفتقر الى اتباع المرونة والمناورة فى الظروف المختلفة · (٧٦)

كما نقد الدارسون أيضا هذه الروايات لمبالغتها فى اعداد الجيوش التى قادها كل من وليم وهارولد لعدم التروى التام للمؤرخين الاخباريين فى معالجة مثل هذه المعارك فى العصور الوسطى ، وأوضحوا مدى هذه المبالغات فى أعداد الجند فى ضوء قيود الحرب ومجالها والنقل والامدادات وغير ذلك (٧٧) · وكانت الروايات القديمة قد ذهبت الى أن وليم قد قاد جيشا مكونا من نحو خمسين أو ستين ألف فارس ، كما بالغوا فى اعداد جند هارولد أيضا وأثبتت الدراسات الحديثة أن جيش وليم لم يزد عن عشر هذا العدد أى خمسة أو ستة آلاف فارس على حين لم يزد جيش هارولد عن ذلك أيضا ان لم يقل عنه ، استنادا الى أن مكان اللقاء بين الجيشين يتسع لأكثر من اثنى عشر الف محارب فى تشكيل متقارب جدا فى تل هاستنجز (٧٨) ·

وبصرف النظر عن كل ما حدث من جدال حول معركة ، هاستنجز ، فان خطوطها الرئيسية بدت واضحة المعالم تماما ، فقد احتلت فرق هارولد تلا محصنا تماما يبعد الى الداخل عن هاستنجز نحو ثمانية أميال على طريق

---

(٧٦) Haskins op. cit., p. 78.
Trevelyan : op. cit., pp. 114-7.
Rayner : op. cit., pp. 245.

(٧٧) Oman : England before the Conquest, p. 641.
Roud : Feudal England, p. 266, pp. 289-92.
Trevelyan : op. cit., p. 115.

(٧٨) Haskins : op. cit., p. 78.

لندن (٧٩) ووقف فى المعركة الكارلات المهرة Housecarles يحميهم حائط متين من دروعهم ، تدعمهم الفرق الأخرى المسلحة تسليحا جيدا لاسيما الثينات hegns ومن ورائهـم وبجـانبهم وقف الجنــدون من أبنـــاء الريف مسلحين بالرماح والهراوات الحجرية وأسلحة الفلاحين ، لكن كان لديهم قليل من رماة السهام ، ولم يكن لديهم فرسان على الاطلاق اذ لم يكن الانجليز حتى ذلك الوقت قد تعلموا أن يحاربوا وهم ركوب على الخيل أى أنهم لم يدخلوا فى جيوشهم نظام الفرسان (٨٠) ، ولهذا فقد اتخذوا من سفح التل مكانا للحماية من هجمات خيالة النورمان فبدا وكأن التكتيكات الانجليزية قد سهلت قيـــام دفاع متين ٠ (٨١)

اما عن الخطوط النورمانية فتكونت أولا من رماة السهام ، ثم من مشاة الجنود المسلحين بأسلحة ثقيلة ، ثم أخيرا الفرسان المدرعين ،ويقوم تجمعهم المركزى حول وليم والعلم الذى تلقاه من البابا (٨٢)، وعلى الرغم من أن بعض المؤرخين رجح أن عدد جنود وليم لم يكن يزيد عن ستة آلاف جندى الا أن البعض الآخر ذهب الى القول بأنهم ربما كانوا فى نحو اثنى عشر ألف جندى نصفهم على الاقل من الفرسان ٠ (٨٣) ٠

ولقد بدأت المعركة بهجوم تمهيدى قام به رماة السهام والمشاة فى الجيش النورمانى ضد الانجليز ، ثم تقدم الفرسان يسبقهم مغنى يدعى تيلفر Taillefer وصف بالشجاعة والاقدام ، وكان يتغنى بغناء جميل قاذفا سيفة فى الهواء ومتلقفا اياه منشدا :

---

(٧٩) Schjoth : op. cit., p. 3552.
Davis and Arthur : op. cit., p. 3840.
Haskins : op. cit. p. 75.
Cantor : op. cit. p. 336.

(٨٠) Haskins : op. cit., p. 80.

(٨١) Ibid. p. 80.

(٨٢) Davis and Arthur : op. cit., p. 3845.

من رولان ومن شـــــــارلمـــان
أولفـــر وكـــــل الافصـــال
الذين مـــاتوا فى الحـــرب عند رونشفال (٨٤) .

وعلى الرغم من كل هذا الحماس ، فقد تراجع الفرسان النورمان أمـام شدة القتال من قبل الانجليز وراحوا ينسحبون يتبعهم الانجليز ، غير أنهم عندما رأوا وليم حاسر الرأس وقد خلع خوذته ليعرف ، التأم شملهم مـــرة أخرى وعادوا الى التجمع من جديد . (٨٥) وحيث أن الكتل الانجليزية كانت تقف صامدة خلف حائطها المدرع ، فلم يكن هناك سبيل الى اختراقها وكسر هذا الحائط سوى بخدعة الهروب المصطنع أو التظاهر بالانهزام ، حيث يعود النورمان بسرعة ليحيطوا بجموع الانجليز ويجزئونهم الى جماعات صـــغيرة يلتفون حولها ، فى الوقت الذى أحدثت سهام النورمان الثغرات فى الحـــراس الانجليز House carles ، ونفذ من هذه الثغرات فرسان النورمان تجاه حرس الملك المسلحين بفئوس الحرب ، ولم يلبث أن اشتد وطيس القتال ، واظلمت الدنيا فوق سماء المعركة وتكاثر القتلى . (٨٦)

وانجلى ذلك كله عن جـرح هارولد جرحا قاتلا بســهم من السهام ، وانفل حرسه ،وتفرقت جموعه « وهنا قتل هارولد واستدار الانجليز ليهربوا » وهذه العبارة آخر عنوان فى لوحات بايو أو التابسترى ، وأخذ النورمان فى سلب ما يمكن سلبه من القتلى من سلاح وعتاد ، وأخذوا يسوقون خيل الفرسان من المجندلين . وهكذا على حد تعبير الروايات القديمة « قررت معركة واحدة

---

(٨٣) Oman : op. cit. p. 641.
Roud : op. cit., p. 265.
(٨٤) Haskins : op.cit. , p. 79.
(٨٥) Ibid. p, 79.
(٨٦) Trevelyan : op . cit., p. 117.
Haskins : op. cit., p. 80.
Rayner : op. cit., p. 25.

مصير انجلترا وسطرت قدرها ، ٠ (٨٧)

وبعد انتهاء المعركة كان على وليم أن يتمم فتحه لهذه البلاد باخضاع اكستر Exter ، وأن يقضى على مقاومة نورثمبرلاند بعد سلبها ونهبها ٠ واخضاع بقية الارلات الانجليز حتى يستتيم له الأمر ، والواقع أن هذه الأمور لم تشغل الا حيزاضئيلا من فكر وليم ، فقد أنجزهابسهولة اتماما للفتح واقرارا للأوضاع فكتب بذلك صفحة جديدة فى تاريخ تلك البلاد ٠ (٨٨)

غير أن الأهم من ذلك والذى كان يشغل بال وليم فعلا هو عملية تتويجه ملكا على انجلترا ليحتل مكان هارولد بأسرع ما يمكن تقليلا لما قد ينشأ من معارضة لهذا التتويج ٠ والواقع أن وليم لم يضع وقتا طويلا قبل أن يتمم هذا العمل ، ففى يوم عيد الميلاد سنة ١٠٦٦ م توج وليم فى لندن ملكا على انجلترا (٨٩) حتى ليشير مؤرخ محدث الى أن هذه الرواية الاخبارية التى تختص بنبأ تتويج وليم ملكا وبأحداث السنوات الأخيرة ، انما تنتمى الى التاريخ الانجليزى أكثر مما تنتمى الى التاريخ النورمانى ، أى أن هذا الفتح قد أصبح يخص التاريخ الانجليزى أكثر من كونه يرتبط بالتاريخ النورمانى ٠ (٩٠)

واذا كانت النتائج التى ترتبت على هذا الفتح بالغة الأهمية بالنسبة للمهزومين الانجليز ، فان أهميتها بالنسبة للمنتصرين النورمان كانت أبعد أثرا ، فقد كانت فرصة مواتية لتوسع النورمان فى كل مجالات الحياة فى الجزيرة البريطانية ، وللمحاربين النورمان كانت انطلاقا لاكمال اخضاع بقية الجيوب المعارضة والسيطرة على بقية البلاد (٩١) ٠ ولرجل الدولة والمنظم كانت

(٨٧) Haskins : op. cit., p. 80.
(٨٨) Davis and Arthur : op. cit., p. 3846.
(٨٩) Haskins : op. cit., pp. 80-1.
(٩٠) Stenton : op. cit., p. 589.
Haskins : op. cit., p. 81.
(٩١) Stenton : op. cit., p. 617.

فرصة لاعادة ترتيب وتنظيم الحكومة المحلية ، وللأسقف ورجل الدين فرصة أيضا لترتيب اسقفيته الجديدة وجعلها تساير وتواكب وتتلائم مع عمل الكنيسة فى القارة الأوربية ، وللرهبان كانت فرصة أيضا ليؤسسوا أديرة جديدة ويديروا الأراضى الواسعة التى غدت تابعة لأديرتهم فيما وراء القنال ۰ (٩٢)

ولقد اقتفى رجل المدينة والتاجر النورمانى اثر الجيوش النورمانية فى المستعمرة الجديدة فى لندن ، وفى تجارة الموانى وفى مقاطعات الحدود الغربية ، ولعل ذلك يعد نتيجة أخرى من نتائج الفتح النورمانى لانجلترا ، ترتبت عليه نتائج بالغة الأهمية بالنسبة للشئون الاقتصادية والمالية تضاف الى بقية النتائج السياسية والدينية والاجتماعية ، تأكيدا لما سبق قوله من أن انتصار النورمان كان فرصة مواتية لتوسع النورمان فى مختلف جوانب الحياة فى الجزيرة البريطانية ۰ (٩٣)

ومن البديهى أن يحدث التغيير فى المستعمرة الجديدة بهدوء وبشكل مبسط جدا ، ويتركز حول وضع أشخاص جدد مكان آخرين لتنتقل السلطات الى الغزاة فى يسر وسهولة (٩٤) ، فقد وضع رئيس أساقفة نورمانى فى كانتبرى مكان رئيس الأساقفة القديم Stigand ، ثم الانتشار فوق الرقعة الانجليزية انتشارا يكاد يشمل كل خريطة تلك البلاد ، ويعبر عن الوضع الجديد باعتبار انجلترا بلدا نورمانيا ، حتى ليذهب بعض المؤرخين المحدثين الى أن ذلك لم يكن سوى عملا لاعادة الاصلاح والتنظيم الذى تطلب كل مواهب النورمان فى أعمال البناء ۰ (٩٥)

واصطبغت جهود النورمان حينئذ بحماسة بالغة فى كل مناحى الحياة فى مستعمرتهم الجديدة ، وانعكس ذلك بصفة خاصة فى الأدب النورمانى الذى

---

(٩٢) Ibid. p. 634.

(٩٣) Haskins : op. cit., p. 81.

(٩٤) Rayner : op. cit., p. 32.
Trevelyan : op. cit., j. 103.

(٩٥) Hoskins : op. cit., p. 81.

عبر بصدق عن عظمة الانجازات النورمانية ومجد الامبراطورية الجديدة ، واعتبر النورمان انجلترا ملحقة بنورمانديا وتابعة لدولتهم قبل أن يفيقوا على حقيقة جديدة جاءت عكس تصوراتهم وقلبت الوضع تماما فأصبحت نورمانديا تابعة للتاج البريطانى ٠ (٩٦)

أما أهم نتائج هذا الفتح بالنسبة لانجلترا ، فان الغزو النورمانى قد حمل على استمرار السياسة الانجليزية والثقافة والمدنية الانجليزية برغم كل شيء ، وحول انجلترا جهة الجنوب وزج بها دفعة واحدة فى التيار الرئيسى للشئون الأوربية (٩٧) ، والمشكلات السياسية لأوربا والشئون الكنسية والمؤثرات الثقافية والفكرية بعد أن كاد الغزو الدانى يفصل بينها وبين القارة ويشدها بعيدا الى الشمال ٠ (٩٨)

لكن الاتحاد مع نورمانديا قد حول انجلترا الى الجنوب وجعلها جزءا من فرنسا ، فتلقت لغة فرنسا وأدبها وفنونها أيضا ، وأصبح قانونها الى حد بعيد قانونا فرنجيا ، وغدت مؤسساتها أكثر رسوخا فى النظم الاقطاعية مع أن الاتصال بينها وبين فرنسا جرى خلال نورمانديا ، وحمل اليها التأثير الفرنسى فى أشكال نورمانية (٩٩) ، خاصة فى المجالات التى برز فيها النورمان أو تفوقوا ، لاسيما فى مجال الحكومة والنظم الاقتصادية والاجتماعية ، اذ تطابق الاقطاع الانجليزى والاقطاع النورمانى الذى تميز فيه البارونات بالضعف فى ظل القوة المركزية الأقوى ٠ أليس بخلف أن الملكية النورمانية القوية هى التى حولت الدولة الانجلو ـ سكسونية المفككة الى الأمة الانجليزية ، فلم تتحول انجلترا الى دولة أوربية الا بعد أن دفعت الثمن بجعلها بلدا نورمانيا ٠ (١٠٠)

---

(٩٦) Ibid. pp. 81-82.

(٩٧) Haskins : op. cit., p. 82.

(٩٨) Trevelyan : op. cit., p. 102.

(٩٩) Haskins : op. cit., p. 82.

(١٠٠) Haskins : op. cit., p. 82.
Royner : op. cit., p. 34.

واذا ألقينا نظرة أخيرة على هذا الانجاز ، يتضح أن الفتح النورمانى لانجلترا يعتبر بحق العمل التتويجى للتاريخ النورمانى · حقيقة كان ذلك النجاح راجعا فى أغلبه لحسن الحظ ولعدم وجود الأسطول الانجليزى ولتوفيق السياسة الفرنسية ، وللاخطاء التى وقع فيها الانجليز · ولكن لابد أن يؤخذ فى الاعتبار قوة وحسن تنظيم نورمانديا وشخصية قائدها وليم ، الذى كان دبلوماسيا ماهرا ومحاربا فذا وقائدا موهوبا ورجل دولة من الطراز الأول (١١١) ·

فبفضل مواهبه العظيمة وحسن تنظيمه استطاع بعد الفتح أن يحول « هزيمة الانجليز الى بداية صنع الامة الانجليزية العظيمة » ، وهو انجاز قل أن يدانيه فيه أحد ، وموهبة سياسية رفعته الى مصاف الرجال العظام فى التاريخ · ولقد شاركه فى مواهبه وقدرته السياسية بارونات النورمان اذ تعاون الجميع فى بناء الدولة فى انجلترا ، وأمدتهم هذه التجربة الجديدة بحقل خصب لمزاولة قدراتهم السياسية ، ومهارتهم العظيمة فى الحكم وهى القدرات التى كانت قد ظهرت قبل ذلك بجلاء فى نورمانديا · (١٠٤)

وبفتح انجلترا على يد وليم العظيم الذى أخذ لقب وليم الفاتح بدأ عهد جديد فى تاريخ النورمان ، وبدأت مرحلة جديدة فى تاريخ نورمانديا مثلما بدأت مرحلة هامة خطيرة فى تاريخ انجلترا · وبدأ النورمان يؤسسون امبراطورية عظيمة توسعت فيما حولها فضمت انجلترا وأنجو وبدأت حقبة هامة فى تاريخ هذا الشعب فى العصور الوسطى ·

---

(١٠١) Travelyan : op. cit., p. 102.
Rayner : op. cit., p. 34.

(١٠٢) Haskins : op. cit., p. 82.

(١٠٣) Freeman : op. cit., p. 166.

(١٠٤) Schjoth : op. cit., p. 3552.

المصادر والمراجع

- «Annales Bertiniani» in «Monumenta Germania Historica Scriptores», Ed. by Georg H. Pertz and others. Hanover and Berlin 1826-1905.
- Annals of Fulda — M. G. H. Scriptorum, in Hist. of Medieval Europe, by Davis.
- Corpus Poeticum Boreale - in Haskins : The Normans in European Hist. (New York 1959).
- Epistolae Gerbert Ed. J. Havet 1889, Chronicon Novaliciene (trans. Davis in C.M.H.).
- The Book of History :

  Davis : «The British Isles from the earliest times to the Middle Ages» V. VII.

  Davis and Arther : «The British Isles» V. VII.

  Mahrenholtz : «France through the middle Ages» V. VII.

  Schjoth : «Great days of the Northmen» V. VII.

  MSchjoth « Great days of the Northmen» V. VII.
- Camb. Med. Hist. 8 Vols. (cambridge 1924).
- Cantor : Medieval History. (New York 1964 Sec. Printing.)
- Davis : A History of Medieval Europe (London 1970).
- Fliche : L'Europe Occidentale de 888 à 1125 (Paris 1930).

  — Le règne de Philippe 1er roi de France. (Paris 1912).

- Freeman :
    - History of the Norman Conquest (Oxford 1870-79).
    - Series of «Twelve English Statesmen (London 1888).
- Hallam :
    - View of the State of Europe during the middle Ages.
- Haskins :
    - The Norman in European History (New York 1959).
- Katz :
    - The Decline of Rome and the rise of Med. Europe (New York 1955).
- Oman :
    - The Dark ages 479-918 (London 1962).
    - England before the Conquest.
- Painter :
    - A History of the Middle Ages from 284 to 1500 (1952).
- Pollock, Maitland :
    - Hist. of English law.
- Rayner :
    - Concise Hist. of Britain (London 1939).
- Snyder :
    - Documents of the German Hist. (New York 1975).
- Southern :
    - The making of the middle ages (London 1967) .
- Stenton :
    - Anglo-Saxon England sed. Ed.

— Heroes of the Nations» (1908).

- Trevelyan :

— Hist. of Engliand Part 1.

(London 1926).

المراجع العربية

ـ فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (ترجمة زيادة والعرينى والعدوى)

ـ ديفر : أوربا فى العصور الوسـطى (ترجمـة د • عبد الحميد حمدى)

ـ محمد الشيخ : ـ الممالك الجرمانية فى أوربا فى العصور الوسطى

دار الكتب الجامعية الاسكندرية سنة ١٩٧٥

ـ دولة الفرنجة وعلاقاتها بالأمويين فى الأندلس

مؤسسة الثقافة الجامعة الاسكندرية سنة ١٩٨١

ـ سعداوى : تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة الوسطى

دار النهضة العربية ـ القاهرة سنة ١٩٦٨

ـ د • سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى

الطبعة السادسة ١٩٧٥



الحضارة الأندلسية : مرحلة التكوين

للدكتور / محمد عبد الحميد عيسى
كلية التربية ـ جامعة عين شمس



الحضارة الأندلسية : مرحلة التكوين

« التاريخ صانع الانسان ، والبشر صناع التاريخ » بهذه العبارة الخالدة استهل المؤرخ الاسبانى ذائع الصيت ، كلاوديو سانشيث البرنوس كتابه القيم « اسبانيا لغز تاريخى » (١) لينطلق منها الى دراسة العوامل المتبادلة بين الانسان والبيئة فى صنع التاريخ ، وليبين لنا ان اسبانيا التى تعيش اليوم ما زالت وستظل لغزا ما لم نعتمد فى دراستها على كل تاريخها ، وخاصة تاريخ تلك القرون الثمانية التى عاشتها فى ظلال الاسلام حينا وفى صراع معه أغلب الاوقت ، لأنها ـ أى اسبانيا ـ بعظمتها وجلالها وبما فيها من عيوب ونقائض وليدة ذلك الصراع المستمر خلال الأعوام الثمانمائة «(٢)

وليس ذلك موضوع دراستى ، لكننى أردت ذلك للاشارة الى ذلك اللغز التاريخى أو على وجه التحديد الى اسبانيا الاسلامية ، الاندلس التى أراها وبحق لغزا تاريخيا محيرا ، ألهم حملة الاقلام كثيرا ، وسيظل يمدهم دائما بوحيه وأسراره مما يجعل الكتابة فى هذا المجال سحرا لايقاوم رغم تقادم الزمان ومضى الأيام.

لقد ارتفع الاندلس حضاريا ، فى العصور الوسطى الى درجة رفيعة المستوى والى مكانة سامقة اعترف بها الاصدقاء والاعداء على حد سواء ، فهى أندلس التاريخ وهى الاندلس المفقود وهى الاندلس الموعود ، وهى كما قال فيها ابن خفاجة :

يا أهل اندلس لله دركم	ماء وظل وانهار وأشجار
ما جنة الخلد الا فى دياركم	ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا تختشوا بعدها أن تدخلوا سقرا	فليس تدخل بعد الجنة النار

ويقول آخر :

ان للجنـــة فى الأندلس مجتلى حسن وريا نفس
فسنا صبحتها من شنب ودجى ظلمتها من لعس
فاذا ماهبت الريح صبا صحت : واشوقى الى الأندلس (٣)

وهى أيضا فى نظر المؤرخين الاسبان : هذا الاندلس ، مركز وفنار الشرق ذات يوم ، وكانت اشراقته مطمح الأطماع ، ومحط الابصار النهمة الجامحة الى العلم ، فى أى فرع من فروع المعرفة ، آه كم كانت تلك الفتــرة زاهــية ومقدسة » (٤) .

ولا أهدف الى حصر ما قيل فى هذه الحقبة التاريخية ، لأن ذلك ليس سرا بل هو أمر شائع فى كافة الكتابات المتعلقة بهذا العصر ، انما الســر الحقيقى هو ذلك التنازع والخلاف فى تحديد الأسباب والعوامل التى ادت الى قيام هذه الحضارة ، وليس ذلك بالأمر الشاذ ، فالحضارة الاندلسية بما سطرته على جبين التاريخ سواء فى مجال الكم أو الكيف جديرة بأن تثير الخلاف بين المؤرخين وأن تبعث على الجدل والنقاش الدائمين ، وذلك ايضا احد أسرار عظمتها الخالدة .

يضاف الى ذلك ان النهاية المأسوية التى أحاطت بهذه الحضارة قد سكبت المزيد من الزيت على نار الآراء المشتعلة ، وفتحت صنابير عدة من الدراسات والأبحاث التى تتناولها .

انصبت جهود الباحثين والدارسين فى مجال الحضارة الاندلسية على ابراز أصولها ، ودرجة تطورها وكذلك علاقتها بالثقافة والحضارة القوطية والرومانية ، مدى صلتها بالثقافة الشرقية ، دورها التأثيرى على الحضارة الأوربية فى العصور الوسطى ومدى التأثير فيما بعد على النهضة الأوربيــة الحديثة . وفى كل مجال من هذه المجالات تباينت آراء العلماء واختلفت ، وحاول كل منهم تأييد وجهة نظره التى يحبذها ؛ فالمستشرقون عامــة ، والاسبان منهم خاصة ، يحاولون اضفاء دور هام للأحوال الثقافية والحضارية

السائدة فى اسبانيا القوطية ، كما يحاولون اسناد دور أساسى فى هـــذه الحضارة الى العوامل البيئية الاسبانية الى حد التطرف الذى يقلل ان لم ينكر دور العرب المسلمين فى صنع هذه الحضارة ٠

ويزداد الحديث فى اسبانيا يوما بعد الآخر عن اهمية الفترة السابقة أى عصر الرومان والقوط فى بناء الحضارة الاسلامية فى الاندلس ، ويؤكد ذلك – على سبيل المثال – الدكتور سلفادور غوميث نوغاليس – دون الاعتماد على وثائق واضحة – فيقول خلال حديثه عن الفلسفة فى اسبانيا الاسلامية « ليس سهلا على الاطلاق الاشارة الى وثائق تاريخية للدلالة على هذا التأثير بالنسبة للفلسفة الاسبانية الاسلامية ، وذلك لسببين واضحين هما : الاهتمام المتزايد لعدد كبير من المؤرخين العرب باخفاء ما فى أصولهم وكتاباتهم مما يرجع لاسبانيا قبل الاسلام وذلك بغرض عدم اثارة الشك حول معتقداتهم وافكارهم ومن هنا فان اجتهادهم فى الصمت عن كل ما هو اسبانى اصلا فى كتاباتهم ومعتقداتهم يعتبر شيئا بديهيا » ٠

اما الصعوبة الثانية فانها تأتى من أن الكثير من المصادر الثقافيـــة الاسلامية تتحدث عن اسبانيا ، لا عن الطريق المباشر للاسبان ، ولكن عن طريق مصادر شرقية استطاعت أن تنقل هذه الافكار فى مضمون ثقافى مختلف عن الاسبانى ، بمعنى انه اصبح من الصعب جدا – على سبيل المثال – التفريق بين ما خلفه الرومان فى الحضارة الاسلامية عن طريق بيزنطة أو عن طريق المستعمرات الرومانية الموجودة فى اسبانيا ٠ (٥)

ويواصل نوغاليس عرض أفكاره قائلا : اذا كان قد سمح بالقول بأن حضارة اسبانيا الاسلامية تتمتع بصفات خاصة ، وشخصية مستقلة فعلينا أن نحلل الى أى مدى تأثرت هذه الشخصية بالعوامل البيئية المحضة أو بالمناخ الذى ربطها بأناس ذوى سجايا مختلفة « ويذهب فى هذا الى الاستشهاد بما قاله سانشيث البرنوس فى كتابه « اسبانيا قبل الاسلام – اسبانيا الاسلامية » والذى عرض فيه أعداد العرب الذين قدموا الى شبه الجزيرة

الايبيرية فى بداية الأمر حتى يصل الى قول المؤرخ الاسبانى P. Perez بأنه « لم يدخل فى التركيب الاجتماعى للمسلمين الاسبان من العناصر العربية الاصلية الا جرعات متناهية الصغر » (٦) ثم يواصل البروفيسور نوغاليس حديثه الى أن يختتمه بعبارة سانشيث البرنوس القائله : نتيجة لهذا كله فمن المفروض ان التاثير العربى فى العادات والثقافة كان سلبيا خلال عشرات وعشرات السنين فى بلد كاسبانيا ذات الأصل والحياة والثقافة الغربية » (٧)

والطريق طويل بين المؤرخين الاسبان فى درجة وضع المسلمين الاسبان ضمن اطار الحضارة الاسبانية ، الى ان يصل الأمر الى تبنى علامتهم الكبير خوليان ريبيرا J.R. فكرة الأصل الاسبانى لمسلمى اسبانيا ، فهو يرى : ان العرب الذين دخلوا شبه الجزيرة أيام الفتح ، انما دخلوا ـ كما هو معروف ـ على هيئة جنود ، ولم ينتقلوا اليها كأسر ، وكان لابد لهؤلاء المحاربين من أن يكونوا البيوت وينجبوا النسل ، وكانت الاسبانيات الجانب الآخر فى تكوين تلك الأسر ، وانجاب ذلك النسل ، وقد أقبل على هذا الزواج المختلط أول أمير عربى ولى أمر الاندلس بعد الفتح ، وهو عبد العزيز بن موسى بن نصير مما اقبل عليه غيره من العرب ، حيث شرع لهم أمراؤهم سنة الزواج بالاسبانيات، وليس من المبالغة القول بأنه قد ثبت أن جميع أمراء وخلفاء الاسرة الاموية فى الاندلس كانوا أبناء لغير عربيات ، واذا كان الولد ـ فى الحقيقة ـ ابنا لأبيه كما هو ابن لأمه ، واذا كانت خصائص الوراثة يأخذها الوليد عن أسرة أمه ، كما يأخذها عن أسرة أبيه ، اذا كان ذلك ، أمكن القول بأن العرب الداخلين قد ذابوا فى الجنس الاسبانى حتى لم يعد للواحد منهم سوى قطرات قليلة من الدم العربى تمتزج بدمه الاسبانى الذى يكاد يكون خالصا » (٨)

ويتصدى المؤرخون والكتاب العرب للدفاع عن عروبة الاندلس ، وعن نسبة الحضارة الاندلسية الى الحضارة العربية ، وحتى لا تفقد هذه الحضارة درة ثمينة ولؤلؤة نادرة وعقدا فريدا مثلما هى الحضارة الاندلسية فينبرى الدكتور احمد هيكل للرد على خوليان ريبيرا مفندا نظريته فى معظم أجزائها التى ، وان كانت تعتز بالاندلسيين وتحاول كسبهم الى التراث الاسبانى .

الا أننا لا نستطيع أن نجرد الاندلسيين من عروبتهم ، ولا نستطيع ان نسلم بالتجربة التى اجراها على الاسرة الاموية وحاول من خلالها ان يثبت ذوبان الدم العربى فى الدم الاسبانى ، وذلك لأننا لانتصور أن كل الذين جاءوا الى الاندلس من الرجال قد تركوا نساءهم فى المشرق ولأننا لانتصور ان الوفود الى الاندلس كان من نصيب الرجال دون النساء ، ولأننا أيضا لانتصور ان كل عربى فى الاندلس كان ينجب دائما من اسبانية جديدة ، وان نتاجهم دائما كان من رجال يتزوجون بدورهم من اسبانيات ·

ثم ينطلق الدكتور هيكل الى اثبات انه اذا كان الاندلسيون من حيث الأصل شعبنا تجرى فيه دماء عربية ، ودماء أسبانية ، وان كانوا مولدين جنسا ،فهم عرب فى قوميتهم ، وأنهم عرب فى عقيدتهم وثقافتهم ولغتهم وكل جوانب حضارتهم ، ويختتم قائلا : وليس لنا الا ان نشكر للمستشرق الاسبانى ومن جاراه اعجابهم بابناء عمنا الاندليسين ومحاولة الصاقهم بهم وضمهم وتراثهم الى ما للاسبان من تراث ·

أما عن تأثير حضارة ما قبل الاسلام فى اسبانيا الاسلامية فيتصدى لها الدكتور الطاهر مكى بعنف شديد فيقول فى مقالة له عن الحضارة الأندلسية:

لم يجد المسلمون فى البلاد المفتوحة حضارة متكاملة ، وانما بقايـــا حضارة غاربة ، تعيش منعزلة منزوية ، وعناصر متعددة ، كل واحد منها يخشى الآخر ويستعبد القوى منها الضعيف ، ثم يواصل حديثه عن التركيب السكانى البلاد ، ذاكرا العصر القوطى وما يمكن ان تجد فيه من تفاوت بين طبقات الحكام والمحكومين الى أن يصل الى قوله : هذا العصر القوطى بكل أعوامه لم يخلف وراءه حضارة متميزة فى أى جانب ، لا نعرف له ثقافة ولاكتابة ولا أدبا ، والمكتبات قليلة ، ولدينا عنها اشارات شاحبة ، ويتحدث عنها الباحثون افتراضا ، لم يصلنا منها شىء ويظن أنها كانت ملحقة بالاديرة · (١٠)

ولست فى مجال عرض باقى الآراء التى وصلت الى حد دراسة الأدب الأندلسى كجزء من الأدب العباسى امعانا فى دمج الحضارة الاندلسية ضمن

الحضارة الشرقية ، ولنعد بعد أن أخذنا القول بعيداً الى حضارتنا هذه التى على الرغم من كل ما يقال عن عوامل تأثرها بالمشرق الاسلامى ، أو اعتمادها على الثقافة الرومانية القوطية أو جمعها بين هذين المصدرين ، الا أنهــا قد فرضت نفسها على التاريخ كحضارة أندلسية ليست شرقية ولا غربية ، وأنها اتشحت بثيابها الخاصة ، واكتست ملامحها المستقلة التى تميزها عن الحضارات المعاصرة لها أو التى استمدت أصولها منها ٠

ولا شك أن هذه الحضارة ترجع الى عناصر انسانية متباينة من ناحية الأصل العرقى ، كما أنها من ابداع ماعات انسانية تختلف فيما بينهـــا من الناحية الثقافية والدينية ، وهى بذلك تطرح علينا سؤالا هاما جدا عن المعنى الذى يقصد به القول « الحضارة الاندلسية » ٠

هل هى الحضارة التى تطورت على أرض الأندلس ـ أرض الاندلس فقط ـ بصرف النظر عن الأصل العرقى أو الموطن الأصلى لمن ابدع أو من ساهم فى بناء هذه الحضارة ؟ وفى هذه الحالة ، هل نستثنى من ذلك ، تلك الجهود التى بذلها الاندلسيون على أرض غير أندلسية أثناء رحلاتهم ، أو فى المناطق التى اتخذوها موطنا لاقامتهم ، ومن ثم نخرج كتابات الحميدى ، وأبى بكر الطرطوسى وأثير الدين بن حيان وغيرهم ممن كتبوا بعيدا عن أرض الأندلس ٠

ومن ناحية أخرى هل الحضارة الأندلسية ، نتاج ابداع الأندلسيين سواء فى داخل أرض الأندلس أم خارجها ؟ وفى هذه الحالة فأننا نتوقف أمام صعوبة تحديد الأندلسى ، وهل هو المولود على أرض الأندلس ، أم من اتخذها موطنا ودارا ، من دخلها مع الفتح أو بعده ، من هاجر اليها عبر القرون الطويلة من أمثال زرياب وأبى على القالى ، وصاعد البغدادى وغيرهم ، وهم ولا شك من أعلام هذه الحضارة وعمدها ونجومها البارزة ٠

نقطة أخرى ـ غاية فى الاهمية ـ هل نقصر القول فى الحضارة الاندلسية على نتاج المسلمين هناك أم يمتد التعرف ليشمل جهود أبناء الملتين المسيحية واليهودية والذين أدوا ضمن اطار هذه الحضارة دورا رائعا ومجهودا لا ينكر ٠

ان ذلك كله هو الذى يعطى الحضارة الاندلسية طعما خاصا ومذاقا متميزا عن ما عاصرها من الحضارات ، كما أنه يعطيها نكهة خاصة عن الحضارة الاسلامية فى المشرق لأنها حضارة ساهمت فى تكوينها أجناس متباينة من البشر ، وأجواء مختلفة من الطبيعة ولذلك فان ظلها يمتد ليشمل كل ما أبدعته قرائح الاندلسيين على أرض الأندلس أو خارج هذه الأرض ، كما أنه يتسع ليضم أفئدة من قدموا الى الأندلس مع الفتح أو بعده أو من هاجروا الى هناك بعد أن حرموا مناخ الابداع فى بلادهم الأصلية ووجدوا فى الاندلس الأرض والمناخ اللذين أطلقا ملكاتهم وخلدا أسماءهم فى تاريخ الحضارة الانسانية ويتسع أيضا ليضم بين جوانحه ما كتبه أبناء الديانات السماوية الثلاث اليهودية والمسيحية والاسلام ٠

اعتاد المؤرخون والكتاب على تقسيم الحضارة الأندلسية الى فترات زمنية تتناسب والفترات التى ينقسم اليها التاريخ السياسى للأندلس وكتبت بعض المؤلفات عن الحضارة الاندلسية فى عصر معين ، أنظر مثلا كتاب الدكتور حسن على حسن « الحضارة الاسلامية فى المغرب والاندلس : عصر المرابطين والموحدين » ٠ (١)

وأميل الى تقسيمها الى ثلاث فترات رئيسية دون أن يعنى ذلك الفصل بين هذه الفترات اللهم الا بغرض الدراسة لا أكثر ٠

١ ـ فترة التكوين : وهى الممتدة تاريخيا من عام ٩٥ هـ الى ١٨٠ هـ ٧١٤ ـ ٧٩٦ م ٠

٢ ـ فترة النمو والتطور : من ١٨٠ هـ الى ٣٠٠ هـ ٧٩٦ ـ ٩١٢ م ٠

٣ ـ فترة النضج والازدهار : وهى ما بعد عام ٣٠٠ هـ ٩١٢ م ٠

فترة التكوين : تبدأ بعودة القائدين موسى بن نصير وطارق بن زياد الى بلاد المشرق وتولى عبد العزيز بن موسى أمور الاندلس فى عام ٩٥ هـ / ٧١٤ م ، وتستمر حتى نهاية عصر الأمير هشام بن

عبد الرحمن الداخل ، المتوفى سنة ١٨٠ هـ ٧٩٦ م وهى فترة شغل تاريخها السياسى كثير من الحروب والغزوات ســـوا لاستكمال فتح الاندلس ، أو فى محاولات فتح جنوب فرنسا، كما أنها حفلت بالثورات الداخلية والصراع بين القبائل العربية والبربرية ·

وشهدت هذه الفترة كذلك من الناحية السياسية ، استقلال الاندلس عن جسم الدولة الاسلامية حين تمكن عبد الرحمن الداخل فى عام ١٣٨ هـ ٧٥٦ م من الاستيلاء على قرطبة وقضائه جل فترة حكمه فى صراع مع العناصر المناوئة ، وفى تثبيت عرش بنى أمية فى الاندلس ويمكن تبين ذلك كله بتفصيل واسع فى التاريخ السياسى لهذه الحقبة التاريخية ·

ومع ذلك فان هذه الفترة هى التى شهدت وضع البذور الأولى للحضارة الاسلامية فى الاندلس ، حيث أن الجيوش التى دخلت الى الاندلس ، وان كانت فى غالبيتها من البربر ـ الا أنها كانت مصحوبة بجموع كبيرة من العرب، وخاصه الجيوش التى عبرت مع موسى بن نصير ، ويقدرها المؤرخون بثمانية عشر ألفا من العرب وكان هؤلاء العرب يحملون معهم على الاقل ـ غير ثقافة البيئة العربية ثقافتهم الدينية من حفظ القران الكريم أو بعض سوره وأجزائه ، وحفظ بعض الاحاديث النبوية ، وكذلك بعض ما كان يجرى فى بلادهم الأصلية من أشعار أو أحاديث أدبية ، وفى هذا المجال فاننى أود الاشارة الى نقطة أساســـية بالنسبة لثقافة العرب القادمين الى الاندلس ، وتتمثل هذه النقطة فى أن الجيوش التى وصلت الى هناك ، انما هى من الجيل الاسلامى الرابع ، وأقصد بذلك أن الفتح الاسلامى للاندلس قد تم خلال الأعوام العشرة الأخيرة من القـــرن الأول الهجرى ، أى ما يزيد على قرن من الزمان منذ ظهور الديانة الاسلامية وما يقرب من حوالى ٧٥ عاما من الاستقرار فى بلاد الشـــام ومصر وأرض الرافدين ، ولا شك أن الأجيـــال التى دخلت الاندلس هى التى تربت ونمت فى أحضان تلك الأجواء الثقافية النامية فى تلك البلاد · ومن ناحية أخرى ، فأن الفترة السياسية كانت تشـــهد نوعـــا من الاستقرار فى عهـــد الخليفتين

عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وشهدت تبعا لذلك نوعا من الأزدهار الثقافى فى المشرق ، وقد يساعدنا على تصور الحالة الثقافية التى جاء بها العرب الى اسبانيا مع الفتح مباشرة أو بعده ٠

من ناحية أخرى ، يتفق المؤرخون على أن الجيوش الاسلامية التى توجهت لفتح الشمال الافريقى ، وبعد ذلك الاندلس ، كانت مصحوبة بمجموعة من الصحابة والتابعين ٠ واذا لم يكن مؤكدا وصول بعض الصحابة الى الاندلس الا أنه من المؤكد عبور بعض التابعين اختلف المؤرخون فى اعدادهم وأسمائهم، وينقل الحميدى عن عبد الملك بن حبيب من « ١٧٩ هـ ــ ٧٩٦/٨٥٣ م » ملاحظة يقول فيها : ودخل الاندلس من التابعين « سوى من لايعرف نحو من عشرين رجلا ، بهؤلاء وغيرهم الى مرسى بن نصير (١٢) وعبارة ابن حبيب « سوى من لايعرف » تبين أن هناك غيرهم قد دخلوا الى الأندلس وربما جاء بعض التابعين بعد الفتح بغرض المشاركة فى الجهاد ٠

ولقد كانت المهمة الأساسية لهؤلاء التابعين هى نشر الدين الاسلامى واللغة العربية بين المسلمين الجدد ، وفى تلك الأراضى التى افتتحها المسلمون ومن هنا فانه من الممكن القول ــ دون مبالغة ــ ان الحياة الفكرية فى الاندلس قد بدأت بعد أعوام قليلة من الفتح ، وان « اتسمت بطابع القلة والبساطة وتركزت فى تعلم اللغة العربية والدين الاسلامى » (١٣) ٠ ومع بدايات القرن الثانى الهجرى ، الثامن الميلادى ، شهدت منطقة شمال افريقيا والاندلس ، ثورة البربر ضد العرب مما حدا بالخلفاء الأمويين الى ارسال جيوش عربية كثيفة الى هذه المناطق لاخماد هذه الثورة ، وعبرت منها الى الاندلس قوات كثيرة العدد منها الطلعة المعروفة تاريخيا باسم طلعة بلج القشيرى ، وكان جلها من عرب الشام وتمكنت هذه القوات من اخماد ثورة البربر فى الاندلس وساهمت فى تكثيف الوجود العربى هناك ومن ثم سرعة تعريب هذه المنطقة ٠

كما أن هذه الفترة ــ من ناحية أخرى قد شهدت فى بلاد المشرق الاسلامى ازدياد ثورات الخوارج والشيعة ، واحتدم الصراع بين الدولة والخارجين

عليها ، وفى ظل هذه الظروف ، ربما كانت البلاد المغرب والاندلس ملجأ أقل خطرا ، فلجأ اليها بعض الفارين من وجه الدولة ، يحملون معهم آراءهم وأفكـــارهم الدينية وانتقلت هذه الافكار ، بطبيعة الحال ، الى الاندلس لتلعب دورها فى الصرع الدائر هناك ، ولتساهم فى نفس الوقت فى توليد الافكار ، وتصارع الآراء الذى يشكل الاساس ـ دائما ـ لبناء الحياة الفكرية والتطور الثقافى . (أنظر فجر الاندلس ص ١٤٨ وما بعدها) .

والى جانب هذه العوامل التى نعتقد أنها جذبت الكثيرين من العرب وغيرهم الى اسبانيا ، فاننا نضيف الى ذلك طبيعة وجغرافيـــة الاندلس ، بموقعها ومناخها ، والتى لقيت قبولا كبيرا من العرب حتى انهم سبهوها فى كتاباتهم وأشعارهم ببلادهم الأصلية وأطلقوا على المدن الاندلسية أسماء مدنهم الشامية ويقول عنها أبو عبيد الله البكرى : الاندلس شامية فى طبيعتها وهوائها ، يمانية فى اعتدالها واستوائها هندية فى عطرها وذكائها ، أهوازية فى عظم جباتيها صينية فى جواهر معادنها ، عدنية فى منافع سواحلها . (١٤)

ومن هنا فاننى أتفق مع تصور الاستاذ الدكتور حسين مؤنس فى أن الاندلس قد جذبت اليها أعدادا هائلة غير معروفة من العرب، نستطيع أن نلمسها فى صيحاتهم المدوية فى أرجاء الاندلس ، وثوراتهم التى لا تكاد تنقطع كما نتبين ذلك فى السرعة الكبيرة التى تم بها انتشار الاسلام فى الاندلس ، وتحويل الغالبية العظمى من سكانه الى الدين الجديد .

ويمثل انتشار الاسلام واللغة العربية فى الاندلس خطوة هامة فى مجال قيام حضارة أندلسية ، وتجمع كل المصادر التاريخية على سرعة هذه العملية بصورة لافتة للنظر بحيث نجد أنه حين حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز اخـــلاء الاندلس من المسلمين خوفا عليهم أو « خشية تغلب العدو عليهم » كما يقول ابن القوطية (١٥) أو « لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين » على ما يقول صاحب الأخبار المجموعة (١٦) رد عليه السمح بن مالك يعرفه بقوه الاسلام وكثرة مداينهم ، وشرف معاقلهم ، وذلك فى عام مائة من الهجرة ٧١٩ ميلادية أى بعد خمس سنوات فقط من انتهاء عملية الفتح ، وعودة القائدين موسى

وطارق الى المشرق • وتعليل ذلك يرجع فى المقام الأول ـ حسب آراء المؤرخين ـ الى قضاء الاسلام على الأوضاع السيئة التى سادت على العصر القوطى بحيث لم تعد هنالك طبقة متحكمة متمثلة فى الأسر الحاكمة والنبلاء ، وزال سلطان الكنيسة ونفوذ رجالها ، وانتهت عبودية الأرض ، واسرع العبيد لكى يتحرروا من العبودية الى اعتناق هذه الديانة من جهة أخرى فان بعض الولاة اعتبروا نشر الاسلام مهمتهم الأساسية ، ومثالنا على ذلك الولى عقبة بن الحجاج السلولى الذى كان « صاحب جهاد ورباط وذا نجدة وبأس ورغبة فى نكاية المشركين ، وكان اذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الاسلام حينا ويرغبه فيه ويبصره بفضله ، ويبين له عيوب دينه الذى هو عليه ، فيذكر أنه أسلم على يديه بذلك الفعل ألفا رجل (١٧) ، ولقد كانت السياسة التى اتبعها الولاة مع السكان الأصليين ، والقائمة على تركهم احرارا فى معتقداتهم ذات أثر كبير فى تأليف قلوبهم ، ودعوتهم بطريقة غير مباشرة الى اعتناق الاسلام ، ويعترف بذلك المؤرخ الاسبانى « التاميرا » Altamera حيث يقول « بأن العرب لم يحترموا فقط ، بصورة مؤكدة العقائد الدينية ، وانما احترموا أيضا الحياة الخاصة للشعوب التى خضعت لهم » •

ثم يواصل قائلا فى نفس الصفحة : « لقد واصلت غالبية الشعب الاسبانى تحت الحكم الاسلامى ، حياتها العادية بما كان لها من كونتات وقضاة وقساسة وحافظوا على كنائسهم ، وباختصار شديد ، حافظوا على كل استقلالهم المدنى ، ولم يأخذ منهم الأمراء والحكام الجدد ، الا الجزية الشرعية المفروضة » • (١٨)

فى المجال التشريعى :

لا شك أن هذه العلوم هى أول ما تردد على أرض اسبانيا ، لأن أقوال التابعين وأعمالهم ،وآراهم فى توزيع الغنائم والاسلاب هى المصادر الأولى للعلوم التشريعية على أرض الاندلس • وبعد مضى فترة الفتح فلا شك فى استمرارية هذه القواعد أو الآراء وسريانها على عصر الولاة الى أن نلتقى بالقضاة الأوائل الذين حفظت المصادر التاريخية أسماءهم من أمثال مهدى ابن مسلم ، وعنترة بن فلاح ، وخالد بن يزيد التجيبى ومعاوية ابن صالح الحضرمى • أما الأول من هؤلاء فقد وضع نصا نثريا فقهيا سنشير اليه عند الحديث عن النثر ـ يقرر فيه مجموعة من القواعد التشريعية الهامة ،

والتى يجب أن تسود فى مجال الفقه والتشريع ٠ أما معاوية بن صالح ، فلقد تمتع بشهرة واسعة ، وخاصة فى الشرق فى علم الحديث ، وهو أحد الأوائل الذين نشروا هذا العلم على أرض الأندلس ٠

تبنت الأندلس فى مجال التشريع المذهب الأوزاعى وهو مذهب عبد الرحمن بن عمرو الاوزاعى المولود عام ٨٨ هـ ٧٠٧ م وقضى معظم حياته فى بلاد الشام وتوفى عام ١٥٧ هـ / ٧٧٧م ودفن فى بيروت ٠

كان الأوزاعى من أبرز الفقهاء الذين ظهروا بالشام وكان يرى اتباع السلف ، ولا يبدى برأيه الا فى حالة عدم وجود نص ، وكان يعتمد على أقوال السابقين حيث يقول : أصبر نفسك على السنه ، وقف حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا وكف عما كفوا ، واسلك سبيل سلفك الصالح فانه يسعك ما يسعهم (١٩) ٠

وأول من أدخل هذا المذهب الى الأندلس هو صعصعة بن سلام المتوفى عام ١٨٠ هـ وهو فقيه من أصحاب الأوزاعى ، وكانت الفتيا دائرة عليه أيام الامير عبد الرحمن بن معاوية (٢٠) ، لكن الدكتور محمود على مكى يرى أن أول من أدخل المذهب الأوزاعى الى الاندلس هو قاضى البيرة أسعد بن عبد الرحمن السبئى المتوفى حدود سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م (٢١)

عاش هذا المذهب فى الاندلس فترة طويلة ، وعلى الرغم من أنه اعتبارا من عهد الامير هشام الرضى والحكم الأول فان المذهب المالكى كان قد بدأ يأخذ طريقه الى الحياة التشريعية فى الاندلس الا أن المذهب الأوزاعى ظل محتفظا ببعض الاوفياء له من أمثال : زهير بن مالك البلوى ، المتوفى ٢٥٠ هـ / ٨٦٤م والذى « كان فقيها على مذهب الأوزاعى على ما كان عليه أهل الاندلس قبل دخول بنى أمية » (٢٢) ٠

ومع دخول الأمويين واستقرار الأمور لهم فى الاندلس ازداد انسياب العلوم الشرقية الى الاندلس ، ومنها بطبيعة الحال المزيد من العلوم التشريعيه، ورحل الاندلسيين الى الشرق وتتلمذوا على مالك بن انس بالمدينة ، وعادوا معهم كتابه المشهور « الموطأ » وبدأوا فى نشر مذهبه فى الاندلس ابتداء من عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن ، وأوائل من حملوا هذا العبء ، الغازى بن قيس ، المتوفى ١٩٩ هـ / ٨١٥م ، وزياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون ،

المتوفى ٢٠٤ هـ / ٨١٩ وعيسى بن دينار قاضى طليطلة المتوفى ٢١٠ هـ / ٨٢٥ ٠ وأخيرا تلك الشخصية البارزة يحيى بن يحيى الليثى المتوفى ٢٣٤ هـ / ٨٤٨م ويقول ابن فرحون عن عيسى بن دينار ويحيى الليثى : وبه وبيحيى انتشر علم مالك بالاندلس ، ورجعت الفتيا الى رأيه » (٢٣) ٠

فى المجـال الأدبى :

تكمن الصعوبة حقيقة فى تحديد بدايات النشـــاط الأدبى على أرض الاندلس سواء فى مجال الشعر أو فى مجال النثر ، ويرجع ذلك الى اختلاف الآراء فى هوية الاندلس ، كما سبق أن أوضحت ، والى أن القائلين شعرا أو نثرا خلال هذه الحقبة انما طرأوا على الاندلس ، ولهم أصولهم الشرقية الواضحة ، وثم يجد الباحثون فروقا أصولية تميزهم عن الأدب العربى عامة ، ولا يمنع ذلك بطبيعة الحال من دراسة ما وجد فعلا على أرض الاندلس فى تلك الفترة الباكرة ، لأن ذلك (الموجود) أيا كان الرأى فى هويته وأصوله فهو موجـــود على أرض الاندلس ، وهو الأساسى لمـا كان بعد ذلك من أدب ، لا ينفك اطلاقا فى كونه أدبا اندلسيا ٠

والحقيقة التى نبدأ بها تناول هذا الموضوع هى ندرة الشواهد الأدبية أو بعبارة أدق عدم وصول شواهد أدبية كافية الى أيامنا هذه ، وقد يرجع ذلك الى عاملين :

أولهما : الحالة السياسية للفترة وما اعتراهـا من صـــراعات وحروب متواصلة ٠

وثانيهما : الايغال فى البعد تاريخيا ، حيث نتناول بالدراسة فترة تبتعد عنا بما يقرب من اثنى عشر قرنا من الزمان ٠

ولنا أن نتصور أنه كما صاحب جيوش الفتح الاسلامى عدد من علماء الدين ، فانها ولا شك قد ضمت جوانحها بعض الأدباء من الشعراء أو القصاصين أو النسابين ، أو بعض حملة نصيب من الثقافة السائدة حينذاك فى بـــلاد الحجاز والشام ومصر ، وكأن هذا القدر من الثقافة ــ ولو كان قليلا ــ الأساس الذى تطورت عليه فيما بعد ثقافة الاندلس ٠

وكذلك لا شك فى أنه قد ورد الى الاندلس بعد الفتح واستقرار الامر بعض ممن كانوا يقرضون الشعر ، وحفظت لنا المصادر نتفا قليلة من اشعارهم، ومن هؤلاء الشاعر أبو الخطار حسام بن ضرار ، وجاء الى الاندلس واليا فى سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م على عهد هشام بن عبد الملك • وكان الصراع فى الاندلس محتد ما بين القيسية واليمنية وكان هشام يميل الى القيسية ، فلما اشتدت عليه الأزمات شاور العباس بن الوليد فنصحه بالعودة الى تأييد اليمنية وقال له « يا أمير المؤمنين ليس يصلح آخر هذا الأمر الا بما صلح به أوله فأصرف نظرك وحسن رأيك الى هذه القحطانية » (٢٤) يشير بذلك الى نصر اليمنية للأمويين فى معركة مرج راهط •

وفى نفس الوقت جاءته رسالة أبى الخطار بقصيدة شعرية يقول فيها :

افأتم بنى مروان قيسا دماءنا
وفى الله ان لم تنصفوا حكم عدل

كأنكم لم تشهدوا مرج راهط
ولم تعلموا من كان ثم له الفضل

رقيناكم حر الوغى بصدورنا
وليست لكم خيل تعد ولا رجل

فلما رأيتم واقد الحرب خبا
وطاب لكم منها المشارب والأكل

تغافلتم عنا كأن لم يكن لنا
بلاء وأنتم ما علمت لها فعل

فلا تجزعوا ان عضت الحرب مرة
وزلت عن المرقاة بالقدم والنعل (٢٥)

ومن اجل ذلك ، ولى هشام حنظلة بن صفوان الكلبى على افريقية ، وأمره أن يولى ابن عمه أبا الخطار على الاندلس ، وقدمها ـ كما قدمنا ـ سنة ١٢٥ م ، ومن الطبيعى ان هذا الأمير الشاعر قد قرض الشعر على أرض الاندلس واستشهد به فى ادارته للبـلاد أو فى صراعه مع الخـارجين على سلطته ٠

والدليل على ذلك أن الحميدى قد نسب له ابياتا أخرى يقول فيها :

فليت ابن جـواس يخبر أننى ـ
سعيت سعى امرىء غير غافـل

قتلت به تسعين تحسب أنهـم
جذوع نخل نخيل صرعت بالمسايل

ولو كانت الموتى تبـاع اشتريته
بكفى وما استثنيت منها أناملى (٢٦)

وقال الدكتور أحمد هيكل بأنه لقب « بعنترة الأندلس » (٢٧) ٠

وممن طرأ على الاندلس من الشعراء فى هذه الفترة ايضا أبو الأجرب جعونة بن الصمة ، الذى عرف بهجائه للصميل بن حاتم زعيم القيسية وأحد زعماء الاندلس المعروفين ، ثم تحول بعد ذلك الى مدحه ، ولم تحتفظ المصادر التاريخية بالكثير من شعر هذا الرجل ، ويقول عنه الحميدى نقلا عن ابن حزم : واذا ذكرنا أبا الأجرب جعونة بن الصمة لم نبأر به الا جريرا والفرزدق لكونه فى عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره فهو جار على أوائل مذاهب العرب ، لا على طريق المحدثين ، وينقل الينا من شعره :

ولقد أرانى من هـواى بمـنزل   عال ورأسى ذو غـدائر أفـرع

والعيش أغيد ساقط أفنـانه   والماء أطيبه لنـا والمرتع ٠ (٢٨)

وكان لهذا الشاعر سمعه في بلاد المشرق حتى يقال ان أبا نواس سأل عنه عباس بن ناصح الاندلسى ، وطلب أن يسمع شيئا من شعر جعونة وذلك حين التقيا معا في العراق (٢٩) .

الى جانب ذلك هناك بعض الأبيات التى قيلت في الصراع الذى كان يجرى هناك ، ومنها مثلا ما أوردته المصادر حين الحديث عن الصميل بن حاتم وأثناء حصاره في سرقسطه ، أرسل في طلب النجدة فقام اليه بعض العرب ومعهم عبد الله بن خالد وعبيد الله ابن عثمان وهما رأس الأموية في الاندلس ، فلما بلغوا وادى طليطلة بلغهم ان الحصار اشتد وأضر بالصميل ، فقدموا رسولا من قبلهم وقالوا له : ادخل في جملة المحاربين للسور ، فاذا قربت منه ، ارم بهذه الأحجار ، وفي كل واحد منها بيتان وهما :

الا أبشر بالسلامة يا جـدار
أتاك الغوث وانقطع الحصـار

أتتك بنات أعوج ملجمـات
عليها الأكرمون وهم نزار (٣٠)

اما الصميل نفسه ، فتحتفظ لنا المصادر ببيت من الشعر قاله حين رأى ماله ينتهب على يد الطائيين بعد انتصار عبد الرحمن الداخل وهو

ألا ان مالى عند طى وديعـة
ولا بد يومـا أن ترد الودائع (٣١)

وذكر على أدهم البيت مضيفا اليه :

سلوا عنا عن فعل رمحى ومنصلى

فان سكتوا اثنت على الوقائع (٣٢)

واذا كانت المصادر مجدبة فيما احتفظت به من أخبار شعراء الفترة فليس ذلك مما يدفع الى القول بعدم وجود هؤلاء الشعراء أو خلو الفترة من قرض

الابيات وذلك لان الظروف المضطربة والصراع القبلى ، والتنافس والتنابذ والاثارة عومل مشجعة للناس على الصياغة والنظم ، فاذا أضفنا الى ذلك طبيعة الأرض الجديدة المغايرة لما عرفه العرب ، واثر ذلك فى تفجير ينابيع الشعر لأمكن لنا أن نتصور البداية التى ارتقى عليها بعد ذلك لشعر لأندلسى ٠

وتأتى الفترة التالية ، والتى تتسم بوصول أفواج جديدة من العرب الى الاندلس مع ظروف سقوط لدولة الأموية فى الشرق ووصول عبد الرحمن الداخل الى قرطبة سنة ١٣٨ / ٧٥٥ م ، وتزداد الشواهد الأدبية ، وتكثر الأبيات الوارة فى المصادر ٠

ومن أهم شعراء هذه الفترة ، الأمير عبد الرحمن الداخل نفسه ، والذى كان شاعرا مجيدا ، وناثرا بليغا ، ولم يكن من الغريب أن يأتى شعر الداخل مصورا لجونب حياته المتقلبة والمتباينة ، فنظم فى الغربة والحنين كما انه نظم فى الفخر والحماسة وأر بشعره ولكفاحه الفذ من أجل اقامة دولة أموية فى الاندلس خلفا لتلك التى بادت فى دمشق ٠ واقرأ للداخل هذه الأبيات الرقيقة فى لحنين الى الأهل :

أيهـــا الــراكب الميمم أرضى
أقر من بعضى السـلام لبعضى

أن جسمى كما تـــــراه بـــــأرض
وفـــــؤادى ومالكيـــــه بأرض

قدر البين بيننـــا فافترقنـــا
وطوى البين عن جفونى غمضى

قـــد قضـــى لله بالفراق علينـــا
فعسى باجتماعنا سوف يقضى (٣٣)

وهو الذى صاغ تلك العلاقة الفريدة بين نخلة زرعها العرب فى أرض الأندلس فجاءت يتيمة نوعها هناك غريبة ، وبين حالته فأنشد قائلا :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلـــة

تناءت بأرض الغرب عن بلد النخــل

فقلت : شبيهى فى التغرب والنوى

وطول التنائى عن بنى وعن أهلى

نشأت بأرض انت فيهــا غريبــة

فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى(٣٤)

ولعبد الرحمن الداخل أشعار أخرى مدونة فى المصادر التاريخية ، منها ماقاله حين كتب اليه بعض من وفد عليه من قريش يستقصره فيما يجريه عليه ، ويسأل الزيادة ، ويستطيل عليه بدالة القرابة • وكتب عبد الرحمن قائلا :

شتان من قـــام ذا امتعـــاض

منتضى الشـــفرتين نصـــلا

فجاب قفرا وشـــق بحــــرا

ســـاميا لجـــة ومحـــلا

فبز ملكــــا وشــــاد عـــزا

ومنبرا للخطاب وفصلا (٣٥)

وهناك من ينسب اليه هذه الأبيات مع اختلاف فى الكلمات حين ذكروا له تفاخرا ما كان من الغمر بن يزيد مع عبد الله بن على بن عبد لله العباسى (٣٦)

وذات يوم كان عبد الرحمن خارجا الى الثغر فى بعض غزواته ، فوقعت غرانيق (طيور مائية بيضاء اللون ، طويلة السيقان ، لها قنازع ذهبية اللون) فى جانب عسكره ، وأتاه بعض من كان يعرف كلفه بالصيد يعلمه بوقوعها ، ويشهيه بها ، ويحضه على اصطيادها ، فأطرق عنه قليلا ثم جاوبه :

دعني وصيد وقلع الغرانق
فان همى فى اصطياد المارق
فى نفق كان أو فى حالق
اذا التظت هواجر الطرائق
الخ (٣٧)

وحين قتل صديقه حيوة بن ملامس الحضرمى ، وكان أثيرا لديه قال يرثيه :

فلا خير فى الدنيا ولا فى نعيمها

اذا غاب عنها حيوة بن ملامس

أخو السيف قارى الضيف حقايراهما

عليه ونافى الضيم عن كل بائس (٣٨)

ولم يكن الداخل بالشاعر الأموى الوحيد ، لأننا نرى قريبه عبد الملك بن عمر الروانى ، تنسب اليه أبياتا شبيهة بأبيات الداخل التى قالها فى النخلة سواء من حيث المعنى أو أسلوب البناء ، ومطلع هذه الأبيات :

يانخل انت فريدة مثلى

فى الأرض نائية عن الأهل

تبكى وهل تبكى مكممة

عجما لم تجبل على جبلى

. . .   . . .

. . .   . (٣٩)

ومن شعراء هذه الفترة أيضا عاصم بن زيد العبادى المعروف باسم « ابو المخشىء » وكان والده ممن وفدوا على الاندلس فى فترة الولاة ، ونزل منطقة البيرة ونشأ أبو المخشى فى المنطقة ، وقرض الشعر حتى أصبح من المع شعراء عصره ، بل وصل الى كونه شاعر الدولة المروانية فى الاندلس ٠

واشعار هذا الرجل التى وصلت الينا قليلة ، وتروى المصادر ميله لعبد الرحمن الداخل ومدحه له ، وكذلك انحيازه لسليمان بن عبد الرحمن مما عرضه لغضب هشام بن عبد الرحمن ، وكان بين الأخوين بعض المنافسه ، ويقال بأن هشاما تمكن من الشاعر فقطع طرف لسانه وسمل عينيه ، وكانت تجربة قاسية صاغها الشاعر أبياتا حارة مؤثرة ، حركت قلب عبد الرحمن الشعر لمواساته وأغضبته على ابنه هشام ، ويقال ان الأمير هشام نفسه قد ندم على فعله وحاول تعويض الشاعر ما أمكن ٠

ويرى مؤرخو الأدب أن ابا المخشى يمثل الشعر الاندلسى فى فترة التأسيس أصدق تمثيل ، فهو يمثله فى ظهور بعض السمات الأندلسية الخاصة من تجديد فى الموضوعات ، ومحاولة التجويد ، كما أنه يمثله فى مسيرته البدوية المحافظة المقلده لاشعار عرب ما قبل الاسلام ٠ ويستدلون بأبياته التى حاول فيها معالجة تجربته الجديدة فى فقدان البصر ، ومن أجمل ماقاله هذا الرجل :

وهـم ضافتى فى جـوف ليـل

كـلا موجيهمـا عنـدى كبير

فبتنا والقلوب معلقـات

واجنحة الريـاح بنـا تطـير

وله ابيات أخرى ذكرها وحللها الدكتور احمد هيكل فى كتابه عن « الأدب الأندلسى » (٤٠) . وأورد له الدكتور محمود على مكى ترجمة كاملة ومعظم ما حفظ من اشعاره فى رسالته عن المؤثرات الشرقية فى الثقافية الاندلسية (٤١) ولن استطرد أكثر من ذلك فى ذكر شعراء هذه الحقبة والذين كثر عددهم ليتسع امراء البيت الأموى من أمثال الأمير هشام وابنه الحكم الأول ، وليضم أيضا بعض الشخصيات المعروفة من أمثال عباس بن ناصح الجزيرى ، والشاعر ابو الحسين وابنته حسانة التميمية ، ويكفى ذلك للدلالة على أن أسس الانطلاقة الشعرية قد توطدت وأن راحلة القوافى قد بدأت مسيرتها لتتسنى للشعر الاندلسى مجاريه ضمن واحات الشعر العربى .

أما النثر فان طبيعة الأمور تحتم وجود ثروة نثرية كبيرة على الرغم من ندرة ماوصل الينا من نصوص نثرية ، ونعتمد فى قولنا بوجود ثروة نثرية ، على اساسين واضحين أولهما الحاجة الملحة الى استخدام الكلمة الحسنة ، والأسلوب الواضح فى مجال الدعوة الى الاسلام ، واقامة الشعائر الدينية وخاصة الصلاة الجامعة أيام الأعياد والجمع ، أما الاساس الثانى ، فهو الحاجة الماسة الى استعمال الكلمة لها للحث على الحروب الأهلية او شجبها ، كما أن الكتابة كانت حاجة ملحة فى هذه الفترة تتطلبها ظروف الفتح والحكم والادارة ، كما تتطلبها مناسبات رسمية وأخرى شخصية مثل كتابة العهود ، أو وضع شروط الصلح أو توجيه بعض المكاتبات .

وأول نثر عربى ابتدعه خيال المؤرخين ليرتبط بأرض الأندلس يتمثل فى تلك الخطبة الرائعة التى نسبت الى طارق بن زياد ، والتى القاها لاشعال حماسة جنوده قبل اللقاء الحاسم فى معركة وادى لكة ، وتتلون تلك الخطبة فى صيغتها التى وصلت الينا ، عن عبارات ذات صبغة عربية قحة ، ولكلماتها رنين قوى ، وأفكارها أفكار حربية ، تشجع الجنود على النصر وتحذرهم الهزيمة . لكن هذا النص الأدبى رغم أنه يرتبط ارتباطا وثيقا بأرض الأندلس ،

لا يمكن تضمينه هذه الدراسة وذلك للشك الكبير فى صحته تاريخيا ، وعدم وجود أدلة قوية على نسبته لطارق بن زياد ، وأيضا لأن قائله ، وان كان قد قاد عملية الفتح الا أنه عاد الى المشرق بعد ذلك ، وظل هناك حتى نهاية حياته ، وهناك أيضا بعض النصوص المنسوبة الى موسى بن نصير والى مغيث الرومى ، لكن تلك النصوص مثلها مثل نص طارق بن زيادتتعرض لكثير من النقد ويعتقد انها كتبت بعد عصرهم ونسبت اليهم .

ومن النصوص النثرية الأولى التى وصلت الينا ، صيغة الكتاب الذى قدمه عبد العزيز بن موسى بن نصير الى تدمير حاكم منطقة مرسية ، وتحدد فيها نوع المعاملة التى يجب أن تسود بين الفريقين ، ويبدأ الكتاب بالصيغة التاليـــة :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد العزيز الى تدمير ، أنه نزل على الصلح وأنه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عن ملكه ولا أحد من النصارى عن املاكه ، وأنهم لا يقتلون ، ولا يسبون أولادهم ولا نساؤهم ، ولا يكرهون على دينهم . . . الخ » (٤٢) .

أما النص الآخر الذى تتجلى فيه روعة الأسلوب مع وضوح الفكرة فهو المنسوب الى صياغة القاضى مهدى بن مسلم قاضى عقبة بن الحجاج السلولى والذى تولى الاندلس فى سنة ١١٦ هجرية وظل بها حوالى ٥ سنوات ، الى أن استشهد فى جهاده فى أرض خالة ، والرسالة من صياغة القاضى ، والذى طلب منه واليه لحجاج كتابة العهد فكتب رسالة ذات مستوى لغوى سليم ، موضحا بها بعض النقاط الهامه فى « المساواه بين الخصوم بنظره واستفهامه ولطفـــه ولحظة استماعه ، وأن يفهم من كل أحد حجته وما يدلى به ويستأنى كل عيبى اللسان ، ناقصى البيان ، فان استقصاء الحجة ما يكون لحق الله تعالى عليه قاضيا ، وللواجب فيه راغبا ، فقد يكون الحة بحجته وأبلغ فى منطقه ، وأسرع فى بلوغ المطلب ، والطف حيلة فى المذهب وأذكى ذكاء ، وأحضر جوابا من بعض، وان كان غير الصواب مرماه ، وخلاف الحق منهاه » (٤٣) .

وكذلك احتفظت لنا المدونات بجزء من رسالة يوسف الفهرى آخر ولاة الاندلس والتى وجهها الى عبد الرحمن الداخل حين نزل بأرض الاندلس يعرض عليه بعض الشروط لكى يتجنب الحرب ، ولكن فشلت هذه الرسالة فى احلال الصلح بين الطرفين وذلك بسبب غرور كاتبها خالد بن يزيد ، ويروى لنـــا صاحب كتاب أخبار مجموعة ، أن خالدا حمل كتاب يوسف الى عبد الرحمن وكان « اديبا عاقلا ، الا أنه زل ، وكان هو مملى الكتاب فأن له العجب والنفخ، وقديما ما أهلك دين الرجال ودنياهم ، فقال : يا أبا عثمان : لتعرقن ابطك قبل أن تحير فيه جوابا » • فغضب أبو عثمان وسبه ، وفشلت الوساطة واخذ خالد بن يزيد أسيرا (٤٤) •

ومن كتاب هذه الفترة لدينا أسماء خالد بن يزيد ، وأمية بن يزيد وكانا من كتاب يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، ثم انتقلا بعد ذلك الى خدمة عبد الرحمن الداخل •

وتصف الكتابات الأدبية نثر هذه الفترة الأولى من تـــاريخ الأدب الاندلسى بأنه كان يحمل الخصائص الفنية للنثر الشرقى ، كما أنه نثر يميل الى الايجاز ، ويعنى بقوة العبارة أكثر من عنايته بتجميلها ، ثم هو لا يعرف تلك المقدمات الطويلة أو الالقاب المتعددة مثلما هو الحال فى العصور التالية •

وكما كان وصول عبد الرحمن الداخل الى الاندلس علامة بارزة فى تطور الشعر فهو كذلك أيضا فى مجال النثر ، لأن الامير كان شاعرا جيدا وناثرا مفلقا مفحما • ومما ينسب اليه قوله حين قتل المغيرة ولد أخيه الوليد :

يا عجبى الا من هؤلاء القوم ، سعينا فيما يضجعهم فى مهـــاد الأمن والنعمة ، وخاطرنا بحياتنا ، حتى اذا بلغا منه الى مطلوبنا ، ويسر الله تعالى به حتى أمنوا وردت عليهم أخلاق النعم ، هزوا أعطافهم ، وشمخوا بآنافهم، وسموا الى العظمى ، فنازعونا فيما منحه الله تعالى ••• ••• (٤٥) •

ولقد احتفظت لنا المصادر بالكثير من النصوص النثرية المتعلقة بعبد

الرحمن الداخل ، ومنها خطبة قالها بعد انتصاره فى معركة المصارة سنة١٣٨هـ ورسالة منه الى سليمان الاعرابى ، حاكم برشلونه الذى أعلن العصيان ، وتحالف مع شارلمان •

ولم تقتصر الحياة الفكرية فى الاندلس خلال ذلك التاريخ البعيد على تلك الشواهد الأدبية شعرا أو نثرا ، وأنما بدأت العلوم الاسلامية التى كانت قد نضجت فى الشرق فى الانسياب نحو الاندلس ، فبدأت قلية تشق طريقها بثبات الى هناك الى أن حفرت مجرى واسعا انتقلت خلاله معظم هذه العلوم والآداب لتعيش على أرض الأندلس ، ولتصبغ هناك بطبيعة الأرض وسجايا الناس ولتتحول الى جزء لا يتجزأ من الحضارة الاندلسية •

ومن أوائل من حملوا العلم الى الاندلس نجد زيادا بن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٩٩ هـ « وهو أول من أدخل الاندلس فقه ماك بن أنس ، وكانوا قبل ذلك على المذهب الأوزاعى » (٤٦) وهو « أول من دخل الاندلس بالفقه والحلال والحرام ، وهو أول من أظهر سنة تحويل الأودية فى الاستسقاء » (٤٧) •

وفى أيام عبد الرحمن بن معاوية دخل الغازى بن قيس الاندلس بالموطأ عن مالك بن أنس رحمه الله ، وبقراءة نافع بن أبى نعيم • وفى أيامه دخل أبو موسى الهوارى عالم الاندلس ، وكان قد جمع علم العرب الى علم الدين ، وكانت رحلتهما من الشرق الى الاندلس بعد دخول عبد الرحمن بن معاوية الاندلس ، ودخل الاندلس قبل دخول الامام عبد الرحمن بن معاوية ، وكان من جلة أهل العلم ، ورواة الحديث ، وكانت له مكانة عظيمة ، لدرجة ان سئل محمد بن وضاح : هل جمع أهل الاندلس علم معاوية بن صالح ؟ فاجاب بالنفى فقيل له : وما منعكم من ذلك ؟ قال : قدم بلدا لم يكن أهله يومئذ اهل علم فقيل له أضعتم والله علما عظيما (٤٩) •

وانتهت الى الى الاندلس أمهات الكتب فى النحو منذ أواخر القرن الثانى فأدخل جودى بن عثمان العبسى المتوفى سنة ١٩٨ كتاب الكسائى ، وكان قد رحل الى الشرق ، وأخذ عن الرياشى والفراء والكسائى (٥٠) •

كذلك بدأ استخدام علم التنجيم فى هذه الفترة الباكرة من تاريـــخ الأندلس حيث أن هشاما بن عبد الرحمن الداخل حينما تولى بعث فى طلب الضبى المنجم بالجزيرة فقال له لست أشك أنك قد عنيت بأمرى اذ بلغك ، فناشدتك الله الا أخبرتنى بما ظهر لك ، فقال له الضبى : ناشدتك الله اعفيتنى من هذا فأعفاه فلما كان بعد أيام كشف عنه ، فقيل له خاطر بعث فبعث فيه وقال له : أن الذى أسألك ، لست الله أصدق به على الحقيقة ولكن أريد أن أسمعه ولئن أوردت على ما يغمنى لا أعاقبنك ولأكسونك ولأحبونك ، وأكافئك كما كنت أكافئك على أن تور على ما يسرنى ، فقال له الضبى : ما بين الستة والسبعة ، فأطرق عنه ساعة ، ثم رفع رأسه اليه فقال له : ياضبى والله لو أنها سجدة فى سبيل الله لهانت (٥١) ٠

المجال التربوى والتعليمى :

لا شك أن عملية التطور الثقافى والفكرى التى أشرنا اليها قد مضت فى طريقها معتمدة على انتشار اللغة العربية والاسلام ، وتعمقهما فى نفوس أهل الأندلس ، كما أنها قد صاحبها نشاط تربوى وتعليمى يحسن بنا أن نشير اليه باعتباره مظهرا هاما من الحضارة الاندلسية كما انه الاساس الراسخ الذى بنيت عليه هذه الحضارة ٠

بدأت الحياة التعليمية فى الاندلس بعد الفتــح مباشرة ، وتمثلت فى بداية الأمر تعليم اللغة والدين الاسلامى ، وقام بهذه المهمه مجموعة من العلماء الدينيين الذين رافقوا الجيوش الاسلامية فى عبورها الى أرض شبه الجزيرة الايبيرية أو من هاجر الى هناك بعد الفتح ٠

اتجه التعليم ــ كما هو طبيعى ومنطقى ــ فى بداية الأمر الى الكبـــار سواء من سكان الأرض الاسبانية أو من البربر حديثى العهد بالاسلام ، وهو أمر كان يحرص عليه الذين اهتموا بتعلم لغة الفاتحين من أجل مصالحهم الخاصة أو ممن اعتنقوا الاسلام ، وحاولوا معرفة لغة دينهم ٠

وفى نفس الوقت فانه لم تنقض مدة طويلة حتى بدأت فى الظهور أجيال جديدة من أبناء الفاتحين وزوجاتهم الاسبانيات ، ومع هذه الاجيال تجلت الحاجة الى تعليم الاطفال اللغة العربية والقرآن الكريم ·

ولدينا من البيانات التاريخية مايثبت وجود الكتب فى الاندلس على عهد الولاة حيث يحكى أن الصحيل بن حاتم قد مر يوما بمعلم يعلم الصبيان وهو يقرأ «وتلك الايام بداولها بين الناس» ودار بينه وبين المعلم جدل غريب ، يمكن أن نفسره بأكثر من معنى · (٥٢) ، كما أن الزبيدى فى كتابه طبقات النحويين، ينقل لنا نصا قيما عن الغازى بن قيس ، المتوفى سنة ١٩٩ هـ ٨١٤م · يمكن لنا ان نستنتج منه أنه فى أيام دخول عبد الرحمن الداخل الى الاندلس كان الغازى يمارس التأديب ، بل ان هذه المهنة كانت شائعة ، ويمارسها عدد كبير من الناس وان هؤلاء كانوا يشعرون بأنهم يمارسون حرفة معينة ، يجب أن يتقاضوا فى مقابلها أتعابا ، ويتجمعون للدفاع عنها (٥٣) ·

وما من شك فى أن عدد الذين تعلموا خلال هذه الحقبة كان كبيرا وبعض هؤلاء هم الذين اتيح لهم على عهد عبد الرحمن الداخل القيام بالرحلة الى الشرق ، وعادوا ــ كما أشرنا ــ حاملين معهم مزيدا من الثقافة الى الاندلس مما دفع بهذه الحضارة خطوات على طريق التطور والارتقاء ·

فى مجال العمران :

مما يلفت النظر فى دراسة هذا الجانب من جوانب الحضارة الاندلسية عدم قيام المسلمين هناك بتأسيس مدن خاصة بهم رغم أهمية هذا العمل فى الاستقرار فى البلد الجديد وتحويله الى العربية لغة والاسلام دينا ، وتفسير ذلك تفسيرا علميا يتطلب دراسة مستقلة عن دور المدينة الاسلامية فى تعريب الاوطان الجديدة ونشر الاسلام بها ، وخاصة أن الامثلة السابقة لا تحدد لنا بالضبط لماذا تم بناء هذه المدن ، ففى العراق ، وهو بلد كثيف السكان تم بناء البصرة والكوفة ، أما بلاد الشام فلم تبن بها مدن جديدة ، ومصر حظيت ببناء الفسطاط ، وافريقية بالقيروان أولا ثم تونس بعد ذلك ·

وجاء بناء المدن فى الاندلس فيما بعد فى فترة الازدهار الحضارى وتمثل فى اقامة اماكن خاصة للخلفاء مثل الزهراء والزاهرة ، أو اقامة مدن بحرية مثل مدينة المرية .٠

أما اول مظاهر العمران التى قام بها المسلمون هناك فتتمثل فى انشاء المساجد حيث تجمع المصادر التاريخية على أن أول شىء أقامه موسى بن نصير هو مسجد الرايات فى الجزيرة الخضراء التى يقول عنها الادريسى : انها أول مدينة افتتحت فى ذلك الوقت وبها على باب البحر مسجد « مسجد الرايات » ويقال انه هناك اجتمعت رايات القوم للرأى » (٥٤)

كما ان حنش بن عبد الله الصنعانى ـ أحد التابعين الذين لاخلاف حول دخولهم الاندلس مع الفتح ـ قد قام بتأسيس عدة مساجد هناك ، فيذكر الحميدى حين يترجم له أنه : غزا الاندلس مع موسى بن نصير وله بها آثار ، ويقال : ان جامع مدينة سرقسطة من ثغور الاندلس من بنائه ، وانه أول من اختطه ٠ (٥٥) ويشير الدكتور عبد الرحمن على الحجى نقلا عن المصادر الاندلسية الى تأسيس حنش الصنعانى ، بالتعاون مع غيره مساجد مدن : آلبيرة وقرطبة وسرقسطة وربما غيرها ٠٠ (٥٦)

واذا كانت هذه المساجد قد اقيمت خلال مرحلة الفتح نفسها ، فانها استمرت بعد ذلك طوال التاريخ الاندلسى ، فاهتم الولاة والامراء والافراد بها ومثالنا على ذلك قيام عبد العزيز بن موسى بن نصير أول وال فى الاندلس ، ورغم انه لم يحكم الا عدة شهور ، ببناء مسجد بأشبيلية أمام داره ، وهو المسجد الذى قتل فيه حين خرج لامامة المسلمين ٠ (٥٧)

وما يقوله « النباهى » عن معاوية بن صالح أنه « من القضاة المتقدمين خرج من الشام الى الاندلس فوصلها سنة ١٢٣ هجرية ، فاستوطن مدينة مالقة ، وبنى باسفل قصبتها مسجدا هو منسوب حتى الآن له ٠ (٥٨)

واذا لم تكن متوفرة لدينا المعلومات الفنية عن مساجد هذه الفترة البعيدة من التاريخ الاندلسى ، الا ان ارادة الله لم تشأ ان تحرمها من الخلود حين هيأ لها عبد الرحمن الداخل لكى يبدأ فى بناء مسجد قرطبة الجامع ، والذى أصبح فيما بعد مفخرة فى البناء المدنى فى الاندلس ، وكان ومازال درة غالية فى مجال فن البناء الاسلامى والحضارة الاندلسية خاصة والاسلامية عامة .

بدأ عبد الرحمن بناء هذا المسجد فى عام ١٧٠ هـ (٧٨٦م) ، وجلب اليه الاعمدة والرخام المنقوش بالذهب واللازورد ، وتوفى قبل اتمامه ، واكمله ابنه هشام ، وزاد فيه أمراء بنو أمية وخلفاؤهم من بعد حتى غدا أعظم مساجد الأندلس وبلغ ما أنفقه عليه عبد الرحمن الداخل وحده زهاء ثمانين الف دينار » (٥٩)

واتجه اهتمام المسلمين ايضا الى تحسين المرافق القائمة ، فقد تنبه الوالى السمح بن مالك الخولانى الى تهدم قنطرة قرطبة بعد أن استشار الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى أمر بتجديد بنائها من صخر سور المدينة ، وأن يبنى سور المدينة باللبن اذ لا يجد له صخرا ، فوضع ـ أى السمح ـ بدا فبنى القنطرة فى سنة احدى ومائة (٦٠) ، وعدت هذه القنطرة والمسجد الجامع من أهم معالم مدينة قرطبة ، واذا كان هذان البناءان من وضع فترة التأسيس الحضارى ، فان المدينة لم تضف اليها بعد ذلك الا الزهراء وتميزها بالعلم حيث يقول الشاعر عن هذه المدينة الخالدة :

بأربع فاقت الابصار قرطبة
منهن قنطرة الوادى وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة
والعلم أفضل شيء وهو رابعها (٦١)

وشهد عصر عبد الرحمن الداخل اهتماما بالمدينة ، وركزا اهتمامه على

قرطبة التى حاول أن يجعل منها صورة لمدينة دمشق حيث مجد أجداده ·

« فحصنها وزينها بالمنشآت الفخمة والرياض اليانعة ، وكان أول ما أنشأ بها على عهده منية الرصافة التى انشأها فى شمال غربى قرطبة وأنشأ بها قصرا تحيط به الحدائق ، وجلب اليه مختلف الغروس والبذور والنوى من الشام وافريقية وأسماها الرصافة تخليدا لذكرى الرصافة التى انشأها جده هشام بالشام ، واتخذها مقاماومنتزها ومقرا للامارة ، وكانت حدائق الرصافة أما لحدائق الاندلس ، ومنها انتشرت بالاندلس غروس الشام وافريقية ·

وفى سنة ١٥٠ هـ بدأ عبد الرحمن بانشاء سور قرطبة الكبير واستمر العمل فيه مدى اعوام ، كما انشأ فى قرطبة وباقى مدن الاندلس مساجد محلية عديدة » (٦٢)

وهكذا وضعت الأسس التى تطور عليها فن المعمار فى الاندلس لكى يثمر لنا بعد ذلك عقودا من الاعمال الفنية المعمارية الخالدة والتى انتظمتها كتب تراث المسلمين الفنى والمعمارى · (٦٣)

شهدت هذه الفترة أيضا من مرحلة تكوين الحضارة الاندلسية جوانب أخرى حضارية لايتسع المقام هنا لذكرها والحديث عنها ، وذلك بسبب ضيق المساحة ، ومن هذه الجوانب النظام القضائى والتنظيم الادارى ، الى جانب مسلك المسلمين فى المجال الاقتصادى ·



هوامش الدراسة :

(١) Sanchez Albornoz :

Espana un enigma Historico, P.II.I. p. 21.

(٢) Sanchez allbornoz :

Historia de Espana Musulmana. 1 : 20

(٣) جودت الركابى : فى الأدب الأندلسى ، ط ٤ ، ص ١٣٠ ــ ١٣١ ، القاهرة ١٩٧٥ م ٠

(٤) Conzalez prats; Antonio :

Altura en Las ciencias Médicas en el Rieno de Al-Andalus, p. 20 Barcelona 1906.

(٥) Gomez Nogales : La Filozofia Musulmana, p. 9.

(٦) نفس المصدر ص ١٣٠

(٧) نفس المصدر ص ١٣١

(٨) احمد هيكل : الأدب الأندلسى ، ط ٢٨ ، ص ٣٥

(٩) نفس المصدر ص ٣٦ ــ ٣٧ ٠

(١٠) الطاهر مكى : حضارة الاسلام فى الأندلس ، عدد خاص من مجلة الهلال يونية سنة ١٩٧٦ ص ٩٣ ٠

(١١) حسن على حسن : الحضارة الاسلامية فى الغرب والأندلس على عصر الموحدين ، القاهرة ١٩٨٠

(١٢) انظر فى ذلك كتابى عن « تاريخ التعليم فى الأندلس » ص ٧١ ــ ٧٣ ، دار الفكر العربى ١٩٨٢

(١٣) احمد هيكل : المصدر المذكور ص ٦١

(١٤) انظر كتابى المذكور سابقا ص ٧٤

(١٥) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ٣٨ ٠ طبعة الابيــارى ، القاهرة ٠

(١٦) مجهول المؤلف : اخبار مجموعة ، ص ٣٠ ، طبعة الابيـــارى ٠ دار الكتاب المصرى القاهرة ١٩٨٢ م ٠

(١٧) الخشنى : قضاة قرطبة ص ٩ ٠ ، طبعة الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ٠

(١٨) Altamera Ho de Espana 4 de la civilization Espanola, p. 229 30 Edician.. Barcelona 1913.

(١٩) خليل داود الزرو : الحياة العلمية فى الشام فى القرنين الأول والثانى من الهجرة ، بيروت ١٩٧١ ، ص ١٠٤

(٢٠) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٢٢٧ ٠

(٢١) محمود على مكى :

Euzayos Sobre las aportaciones orientales en la Espania musulmana.

رسالة دكتوراه منشورة باللغة الاسبانية بمجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد فى عدديها التاسع والعاشر ، والحادى عشر والثانى عشر ٠ ص ١٣٠

(٢٢) ابن الفرضى : علماء الأندلس ص ١٨١ ، والحميدى ص ٢٠٥ ، وانظر أسماء أخرى اوردها كتابى فى « تاريخ التعليم فى الأندلس ، ص ٧٥ ٠

(٢٣) ابن فرحون : الديباج المذهب فى تاريخ أعيان المذهب ، حـ ٣ ص ٦٥ ـ ٦٦ ٠

(٢٤) ابن القوطية : المصدر المذكور ص ٤٢

(٢٥) نفس المصدر ص ٤٢ ـ ٤٣ ، واوردها الحميدى باختلاف بسيط ص ١٨٨ ـ ١٨٩ ٠

(٢٦) الحميدى : المصدر المذكور ص ١٨٩ ٠

(٢٧) أحمد هيكل : المصدر المذكور ص ٦٢ ٠

(٢٨) الحميدى : المصدر المذكور ص ١٧٧ ـ ١٧٨ ٠

(٢٩) احمد هيكل : المصدر المذكور ص ٦٢

(٣٠) ابن عذارى : البيان المغرب حـ ٢ ص ٤٣

(٣١) ابن القوطية : المصدر المذكور ص ٥١

(٣٢) على أدهم : صقر قريش ص ٧٤ ٠

(٣٣) ابن عذارى : البيان المغرب حـ ٢ ص ٤٣ ، جودت الركابى : فى الأدب الأندلسى ص ٨٣

(٣٤) ابن عذارى : المصدر المذكور حـ ٢ ص ٦٠

(٣٥) أخبار مجموعة ص ١٠٦ ٠ ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب حـ ٢ ص ٥٩ ٠

(٣٦) على أدهم : صقر قريش ، المقتطف ١٩٣٨ ٠

(٣٧) أخبار مجموعة ص ١٠٧ ٠

(٣٨) على أدهم : الكتاب المشار اليه ص ١١٥ ٠

(٣٩) جودت الركابى : المصدر المذكور ص ٨٣ ، على أدهم : الكتاب المشار اليه ص ١١٣

(٤٠) احمد هيكل : المصدر المذكور ص ٩٨ ـ ١٠٢ ٠

(٤١) محمود مكى : الرسالة المشار اليها ص ١٤٠ ـ ١٤٢ ٠

(٤٢) عبد الرحمن على الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٨٠

حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ١١٤ ـ ١١٥ ٠

(٤٣) الخشنى : قضاة قرطبة ص ٩ ـ ١١ ، حسين مؤنس : المصدر المذكور ص ٦٤٦ ـ ٦٤٨ ٠

(٤٤) أخبار مجموعة ص ٧٥ ـ ٧٦ ٠

(٤٥) المقرى : نفح الطيب حـ ٢ ص ٧٢ ـ ٧٣ ، طبعة احسان عباس ٠

(٤٦) الحميدى : المصدر المذكور ص ٢٠٢ ٠

(٤٧) الخشنى : قضاة الأندلس ص ٢٧ ٠

(٤٨) ابن القوطية : المصدر المذكور ص ٥٦ ٠

(٤٩) ابن الفرضى : علماء الأندلس حـ ٢ ص ١٣٨ ـ ١٤٠ ٠

(٥٠) لطفى عبد البديع : الاسلام فى اسبانيا ص ٧٣ ٠

(٥١) ابن القوطية : المصدر المذكور ص ٦١

(٥٢) انظر كتابى المشار اليه ص ٢١٩ ٠

(٥٣) المصدر السابق ص ٢١٩ ٠

(٥٤) الادريسى : نزهة المشتاق ص ١٧٧ ٠ الحجى : المصدر السابق ص ١٤٦ ٠

(٥٥) الحميدى : المصـدر السابق ص ١٨٩ ـ ١٩٠ ، ابن الفرضى : علماء الأندلس حـ ١ ص ١٢٧ ٠

(٥٦) الحجى : المصدر المذكور ص ١٤٦ ٠

(٥٧) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ٠ التعليق رقم (١) ص ٢٣

(٥٨) النباهى : قضاة الأندلس ص ٤٣ ٠

(٥٩) عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ ٠

(٦٠) أخبار مجموعة ص ٣٠ ـ ٣١

(٦١) عبد العززيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس ص ٣١٠

(٦٢) عنان : المصدر المذكور ص ٢٠٠ ـ ٢٠١

(٦٣) انظر فى ذلك كل من كتاب الدكتور عبد العزيز سـالم « تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس » وكتاب الأستاذ محمد عبد الله عنان « الآثار الاسلامية الباقية فى اسبانيا والبرتغال » ٠

قوانين الملكية الزراعية فى الامبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر الميلادى : دراسة تحليلية

للدكتور وسام عبد العزيز فرج
مدرس تاريخ العصور الوسطى
بآداب المنصورة



قوانين الملكية الزراعية فى الامبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر الميلادى : دراسة تحليلية

يتفق معظم المؤرخين المحدثين فى مجال الدراسات البيزنطية أن السبب فى اصدار العديد من التشريعات التى تتناول الملكية الزراعية فى القرن العاشر الميلادى ، كان يرجع الى حالة الاضطراب التى سادت اقاليم الامبراطورية البيزنطية . فالنسبة لأوستروجورسكى Ostrogorsky كانت أطماع طبقة كبار الملاك الاثرياء فى الاقاليم هى السبب الرئيسى فى ظهور ما يعرف بـ «مشكلة الارض» فى القرن العاشر الميلادى . وحين قام هؤلاء الأغنياء (dynatoi) بشراء أراضى صغار المزارعين الاحرار الفقراء (Ptôchoi او Penêtes) زادوا فى فقرهم وقضوا على حريتهم (١) .

اما المؤرخ الفرنسى لاميرل Lemerle فقد رأى أن أسباب الصراع بين الطبقتين لاترجع الى اختلافها الاقتصادى بقدر اختلافها فى المركز الاجتماعى . فبالنسبة له كانت طبقة dynatoi هم الأقوياء ، وطبقة Penêtes هم الضعفاء . (٢)

---

(١) لرأى أوستروجورسكى فى « مشكلة الارض » تلخيص فى مؤلفه العام « تاريخ الدولة البيزنطية » .Ostrogorsky, **State**, 269-87 كذلك تناول اوستروجورسكى « مشكلة الارض » فى بحثين آخرين هما :
Ostrogorsky, **Quelques Problémes** ; Ostrogorsky, **Agrarian Conditions**, 205-22.

(٢) من أهم كتابات لاميرل Lemerle فى هذا المجال بحثه الشهير المطول فى مشكلة الارض » :
Lemerle, **Esquisse**, 32-74, 254-84.
للمزيد حول هذا الموضوع انظر : Syuzymov, **Le Village**, 65-74.

ورغم اختلاف اوستروجورسكي و لاميرل في ترجمة Penêtes ، Ptôchoi ، dynatoi ، فقد اتفق المؤرخان على أن هناك ادلة واضحة تشير الى وجود صراع بين مصالح هاتين الطبقتين ، وأن طبقة صغار المزارعين الأحرار تعرضت فى القرن العاشر الميلادى لخطر الفناء بسبب جشع كبار الملاك وقيامهم بامتلاك اراضيهم بمختلف الوسائل الشرعية وغير الشرعية ٠ والسؤال الذى يفرض نفسه هنا لماذا تعرضت طبقة صغار المزارعين الأحرار لهذا الخطر فى القرن العاشر الميلادى بالذات ؟ ولماذا أصدر اباطرة القرن العاشر الميلادى تشريعات استهدفت حماية مجتمعات صغار المزارعين من جشع الأقوياء ؟

من المعروف أن استقرار المجتمع البيزنطى كان يعتمد على جماعات الفلاحين الاحرار من صغار المزارعين الذين تعاملوا مع الحكومة المركزية مباشرة ٠ وكانت القوة العسكرية والمالية للدولة البيزنطية تعتمد على ابناء هذه الطبقة الذين كانوا يدفعون الضرائب للحكومة المركزية بالتضامن ، كما كانوا يؤدون الخدمة العسكرية بالانخراط فى جند الثيمات التى تتولى الدفاع عن الاقاليم ٠ وطالما عاشت طبقة صغار المزارعين الأحرار آمنة ، توفرت لدفاعات الامبراطوريه فى الأقاليم القوة متمثلة فى جند الثيمات من ابناء هذه الطبقة ، وتوفرت لخزانة الامبراطورية السيولة النقدية متمثلة فى الضرائب الزراعية التى يدفعها ابناء هذه الطبقة بالتضامن ٠ (٣)

ويرى الباحث أن هناك ثلاثة عوامل أدت الى تعرض طبقة صغار المزارعين الضعفاء لجشع كبار الملاك الأقوياء فى القرن العاشر الميلادى بالذات ، وبتلك الصورة الخطيرة التى اضطرت الاباطرة للتدخل لحماية الضعفاء :

العامل الأول : التوسع البيزنطى فى القرن العاشر الميلادى ، والاتجاه الشرقى لهذا التوسع :

(٣) Ostrogorsky, **Agrarian Conditions,** 216.

يلاحظ أن تاريخ بداية التشريعات التى صدرت فى القرن العاشر الميلادى من أجل حماية مجتمعات صغار المزارعين الاحرار من جشع كبار الملاك ، كانت تعاصر تقريبا بداية الهجوم البيزنطى فى اتجاه الشرق ؛ ولم يكن هذا من قبيل الصدفة ٠فمن المعروف ان الجيش البيزنطى بدأ هجومه الكبير على ثغور دار الاسلام فى سنة ٩٢٦ م ٠ ولقد استمر هذا الهجوم بشكل متقطع لمدة قرن من الزمان تقريبا ، تقدمت خلالها حدود الامبراطورية الشرقية مزيدا الى الشرق ٠ وكان هذا التوسع البيزنطى فى اتجاه الشرق من عمل طبقة الارستقراطية العسكرية وهى الطبقة التى انجبت يوحنا كوركواز John Kourkouas ويوحنا تزيمسكيس John Tzimiskes ونقفور فوقاس Nikephoros Phokas وغيرهم من قادة الجيش البيزنطى ٠ (٤)وفى البداية كان الاتجاه شرقا يستهدف تأمين آسيا الصغرى من اغارات المسلمين ، ولكن حين أدى النجاح الى المزيد من التقدم وحين تم تحقيق النصر ، أصبح الاتجاه لشراء الارض الزراعية مجالا مأمونا للاستثمار ، وعلى الفور اتجه الاقوياء لشراء المزيد من الارض ٠ ويرى بعض المؤرخين أن السبب فى اتجاه الاقوياء للاستثمار فى مجال الأرض الزراعية يرجع الى أنه كان مجال الاستثمار الوحيد المتاح أمامهم ، لأن مجالات الاستثمار فى التجارة والصناعة كانت بالنسبة لهم مقيدة ٠ (٥)

ان الامبراطور الذى بدأ سياسة التوسع شرقا هو الامبراطور رومانوس الأول ليكابينوس Romanos I Lekapenos وكان هذا الامبراطور من أصل بسيط مما جعله متعاطفا مع الفقراء ٠ كذلك كان رومانوس من أبناء منطقة الحدود ، فلقبه ليكابينوس ، ربما يشير الى أن اسرته جاءت من قرية لاكاب Lakape التى تقع الى الجنوب الشرقى من قلعة زبطرة Sozépetra الواقعة على أحد روافد نهر الفرات ٠ فاذا كانت لاكاب هى فى الحقيقة موطن اسرة رومانوس الأول ، فان هذا يعنى ان رومانوس جاء من قرية استولى عليها

---

(٤) وسام : **دراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية** ، حـ ١ ، الاسكندرية ١٩٨٢ ، ص ٢٦٥ ، ص ٢٦٩ ٠

(٥) Toynbee, **Constantine Porphyrogenitus**, 54.

البيزنطيون من المسلمين فى حياة رومانوس نفسه • وان هذا ليوضح اسباب اهتمام رومانوس باستغلال ضعف الخلافة العباسية كى يتوسع شرقا •

على أية حال فان قيام رومانوس بتبنى هذه السياسة الخاصة بالتوسع فى اتجاه الشرق ، مهما كانت دوافعها ، قد عملت بدون قصد لصالح الاقوياء فى الصراع الاقتصادى والاجتماعى الذى وقع داخل الامبراطورية البيزنطية •

العامل الثانى : المجاعة التى اصابت الدولة البيزنطية فى سنة ٩٢٧ / ٩٢٨ م : لقد عملت الطبيعة أيضا لصالح الأقوياء حين حل بالامبراطورية شتاء قاس فى سنة ٩٢٧ / ٩٢٨ م • (٦) فقد تسبب المناخ فى حدوث مجاعة ، وارتفعت نسبة الوفيات • وتتفق المصادر البيزنطية فى مدح الامبراطور رومانوس ليكابينوس على الاجراءات التى اتخذها لمواجهه هذه المحنة • (٧) فمن اجل تخفيف آلام ضحايا تلك المجاعة فى القسطنطينية ، أمر الامبراطور بتوفير لمن لا مأوى له ، كما وزع الأموال على المحتاجين وجعل كنائس العاصمة تساهم فى ذلك • ولكن المجاعة لم تقتصر على المدن بل اصابت الريف أيضا ، وكان لدى فقراء الريف أراض اضطروا لبيعها • وانتهز الأقوياء فرصة المصاعب التى واجهت صغار المزارعين وأقبلوا على شراء الأرض • وتوضح التشريعات التى صدرت بعد ذلك أن بيع الاراضى فى الريف أصبح نقطة تحول كبيرة وترتبت عليه عواقب وخيمة بسبب تلك المجاعة التى نجمت عن شتاء ٩٢٧ / ٩٢٨ م • وكما تقول افتتاحية القانون رقم (٥) الذى أصدره الامبراطور رومانوس ليكابينوس سنة ٩٣٤ م :

« وحين رأى الأقوياء ان الفقراء مطحونون بسبب المجاعة ، اقبلوا على

---

(٦) وطبقا لما ورد فى القانون رقم (٥) الصادر فى سبتمبر سنة ٩٣٤ م ، يتضح أن تاريخ بداية المجاعة يقع فى السنة التى تبدأ بأول سبتمبر ٩٢٧ م وتنتهى بـ ٣١ من أغسطس سنة ٩٢٨ م • انظر : J. G-R, III, 247-48.

(٧) أنظر : George. Mon. Cont., 908-9; Leo Grammaticus, 318-20; Theoph. Cont. 417-18; Pseudo-Symeon, 743–4.

شراء اراضيهم بابخس الأثمان مقابل قطع من العملة او بعض الدقيق او سلع أخرى ، وهكذا استغل الاقوياء المصاعب التى واجهت الفقراء » (٨)

العامل الثالث : بعض التشريعات التى أصدرها الامبراطور ليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢ م) :

لاشك أن الطريق انفتح امام طبقة الأقوياء بسبب بعض التشريعات التى صدرت فى عصر الامبراطور ليو السادس والتى كانت بصفة عامة لصـــالح الاقوياء • فالمعروف أنه قبل صدور تشريعات ليو هذه كانت سياسة الحكومة البيزنطية تقوم على حماية الملكية الزراعية لمجتمعات صغار المزارعين الأحرار • وكان القانون ينص على نقطتين هامتين من أجل هذا الهدف • الأولى : حد القانون وقيد حرية الفلاح فى بيع أرضه وذلك بأن أعطى الحق فى الموافقة على البيع أو رفضه للمزارعين الآخرين فى مجتمع ذلك الفلاح سواء على المستوى الفردى أو الجماعى • وكان الغرض من هذا الاحتفاظ بمجتمعات صغار المزارعين التى كانت تشكل مصدرا مضمونا للضرائب الزراعية ومصدرا للجند فى حالة الاراضى العسكرية من ناحية ، والحيلولة دون وقوع هذه الاراضى فى يد ملاك جدد من طبقات أخرى قد تجد الدولة صعوبة فى الحصول على الضرائب منهم كما قد تجد صعوبة فى تجنيد الجند من بين صفوفهم من ناحية اخرى • (٩) فملاك جدد من طبقات أخرى قد يكونوا متمتعين بامتيازات نص عليها القانون (كما هو الحال فى حالة الاديرة مثلا) ، أو قد يكونوا متمتعين بامتيازات أخرى بسبب قوة نفوذهم التى تجعلهم قادرين على التهرب من جباة الضرائب فى الواقع العملى •

أما النقطة الثانية التى نص عليها القانون فى الماضى من أجل حماية صغار المزارعين الاحرار ، فهى السماح للموظفين العموميين فى الدولة - خلال فترة شغلهم لوظائفهم - بعقد أية صفقات بيع أو شراء أو أية أعمال تجارية تعود

---

(٨) J. G-R. III, 247.

(٩) Toynbee, Constantine Porphyrogenitus 147.

عليهم نبالربح • فموظفو الدولة البيزنطية كانوا ممنوعين بقوة القـــانون اثناء شغلهم لوظائفهم من شراء أية أراض زراعية أو قطعان من الماشية ، كما كانوا ممنوعين من القيام بأية انشاءات معمـارية بدون موافقة صريحة من الامبراطور • كذلك كان الموظفون ممنوعين من قبول الهدايا طالما أن هذه الهدايا والمنح لاتتأكد كتابة من قبل مانحها بعد انقضاء فترة شغل الموظف لوظيفته أو حتى بعد انقضاء خمس سنوات أخرى • (١٠)

كان هذا هو القانون السارى قبل عهد الامبراطور ليو السادس (٨٨٦ — ٩١٢ م) من أجـل حماية صـغار المزارعين الاحـرار • ولكن الامبراطور ليو السادس قام بالغاء هذا التشريع • ففى قانونه رقم (٨٤) قام الامبراطور بالغاء القيود المفروضة على موظفى الدولة العموميين • فبالنسبة للموظفين المقيمين فى العاصمة تم الغاء القيد المفروض عليهم والذى ينص على عدم السماح لهم بعقد أية صفقات بيع او شراء ، على اساس أن أى طرف قد يتعرض للضرر فى العاصمة يستطيع رفع شكواه بسهولة الى الامبراطور نفسه • اما بالنسبة لموظفى الدولة المقيمين فى الأقاليم ، فقد قرر ليو السادس أن قائد الثيم من درجة الاستراتيجوس Stratiotes يظل خاضعا للقيود السابقة ، أى يمنع من عقد أية صفقات بيع أو شراء • أما بالنسبة للموظفين والضباط التابعين لقائد الثيم والذين يقلون عنـه فى المرتبة ، أو الـدرجة ، فان لهم الحرية فى عقد أى بيع أى شراء للارض الزراعية أو لقطعان الماشية أو غيرها ، بشـرط موافقة قائد الثيم الذى له سلطة مراجعة أى عملية بيع أو شراء يكون أحـد الموظفين أو الضباط طرفا فيها • كذلك كانت لقائد الثيم سلطة فصل الموظف أو الضابط التابع له • (١١)

وفى قانونه رقم (١١٤) وضع الامبراطور ليو السادس نهاية لحق مجتمعات

---

(١٠) يرجع هذا القانون الى عصر الامبراطور جستنيان ، انظر :
Leo VI, **Les Nouvelles**, 282, n. 4.

(١١) Leo VI, **Les Nouvelles**, 282-83; Toynbee, **Constantine Porphyrogenitus**, 147-48.

صغار المزارعين الاحرار فى الموافقة على البيع أو رفضه بالنسبة لأى عقار زراعى يقوم أحد صغار المزارعين بعرضه للبيع • فقد أعطى هذا القانون الفلاح الذى يملك قطعة صغيرة من الارض الزراعية والتى قام بدفع ضرائبها بانتظام • حرية غير مقيدة فى بيع أرضه • كذلك قرر ليو السادس أن الفترة التى يكون فيها من حق جيران البائع شراء الارض الزراعية واسترادها من مشتريها بالثمن الذى دفعه المشترى (حق الشفعة) ، يجب أن تحدد بفترة الستة أشهر الأولى من السنة الاولى من تاريخ حدوث البيع • (١٢)

ولقد دافع ليو السادس عن هذا القيد الخطير الذى فرضه على الحق التاريخى الخاص بالموافقة على عملية البيع أو رفضها ، على أساس أن هذا الحق قد يساء استعماله • فجيران من يريد البيع قد يسيئون استعمال حقهم فى الاعتراض ويرفضون بالتالى عملية من أجل تأخير البيع حتى يجبروا البائع على أن يبيع لهم بثمن بخس • وأن هذا صحيح الى حد بعيد ، ولكن الباحث يميل الى الاعتقاد أن الامبراطور بادعاء تأمين سعر مناسب لأرض من يريد البيع ، كان فى حقيقة الأمر مهتما بمصلحة الرجل القوى والغنى الذى قد يكون فى منافسة مع مجتمع القرية من أجل الحصول على أرض البائع • (١٣)

على أية حال ، أدت تشريعات ليو السادس سابقة الذكر الى فتح الطريق أمام الاقوياء وكبار الملاك واستطاعت هذه الطبقة القوية التسلل الى مجتمعات صغار المزارعين الاحرار وعملت على القضاء عليها • كذلك أدت انتصارات الجيوش البيزنطية على الجبهة الشرقية ضد المسلمين الى أن أصبح الاستثمار فى مجال الارض الزراعية والرعوية آمنا بعد زوال خطر الاغارات الاسلامية • وأخيرا أدت شدة قسوة شتاء سنة ٩٢٧ م / سنة ٩٢٨ م والمجاعة التى اعقبته الى وقوع أضرار جسيمة فى مجتمعات صغار المزارعين • فالمجاعة سببت تناقضا اجتماعيا خطيرا فى الاقاليم ، وكانت الأحوال غاية فى السوء ، لدرجة أن

---

(١٢) Leo VI, **Les Nouvelles**, 376.

Toynbee, **Constantine Porphyrogenitus**, 148.

وانظر ايضا : Mitard, **Le Pouvoir Impérial**, 217-23.

صغار المزارعين اضطروا الى بيع أراضيهم بأقل من نصف قيمتها • وهكذا أصبح التهديد من جانب طبقة الأقوياء خطيرا على مجتمعات صغار المزارعين الأحرار • واضطرت الحكومة المركزية لاصدار تشريعات استهدفت حماية صغار المزارعين الأحرار وملكياتهم من جشع كبار الملاك والهيئات الدينية •

ان النصوص التى وصلت الى أيدنا هى نصوص لخمس عشرة وثيقة تتناول مشكلة الارض وملكيتها ، ومحاولات الحكومة البيزنطية حماية طبقة صغار المزارعين الأحرار فى الأقاليم • ومن هذه الوثائق ثلاث عشرة وثيقة أصدرها الاباطرة ، وان كانت واحدة منها عبارة عن قرار صاغه أحد موظفى الادارة الامبراطورية فى عهد الامبراطور رومانوس الثانى Romanos II لعلاج حالة وقعت فى أحد الثيمات وقام قاضى الثيم بعرضها على الامبراطور طلبا للرأى • أما الوثيقتان الاخريتان فهما عبارة عن شهادتين صادرتين من قبل الحكومة البيزنطية • وأن أقدم هذه الوثائق هى تلك الوثيقة المؤرخة بسنة ٩٢٢ م ، أما أحدثها فهى الوثيقة المؤرخة بعام ٩٩٦ م • كذلك تمدنا نصوص الوثائق بمضمون المرسوم الصادر سنة ١٠٠٣ م / سنة ١٠٠٤ م (١٤)

---

(١٤) نشرت هذه الوثائق الخمس عشرة أول الأمر فى المجموعة المعروفة باسم : Jus Graecoromanum, ed. K.E. Zachariae von Lingenthal, 7 Vols. (Leipzig, 1857), in III, 220-318.

ثم اعيد نشرها مرة أخرى بعد ذلك فى المجموعة المعروفة باسم : Jus Graecoromanum, edd. J. and P. Zepos, vols. (Athens, 1931), in I, 193-270.

والجديد بالذكر ان سفورونوس N. G. Svoronos الاستاذ بجامعة باريس (Ecole Pratique des Hautes Etudes) يعمل حاليا على نشر هذه الوثائق مع التقديم لها بدراسة تحليلية •

وللمزيد عن هذه التشريعات التى صدرت فى القرن العاشر الميلادى انظر : Testaud, **Puissants** ; Ferradou, **Monastères**; Gaignerot, De bénéfices.

وعلى الرغم من أن هذه المؤلفات الثلاثة قديمة الا أن النتائج التى تم =

والجدير بالذكر أن مدى صحة أقدم تلك الوثائق مشكوك فيها، هذا اذا كان التاريخ المنسوب اليها فى النص وبالشكل الذى وصل الينا صحيحا ٠ (١٥) فالتاريخ الذى تؤرخ به الوثيقة هو أبريل سنة ٩٢٢ م ، وهو فى تقدير بعض المؤرخين تاريخ مبكر على الاحداث التى سببت المشكلة الاقتصادية الاجتماعية التى نتجت عن مجاعة سنة ٩٢٧ م / ٩٢٨ م ٠ (١٦) واذا قرأنا نصوص جميع الوثائق الخمس عشرة ، فسيتضح لنا أن تاريخ أقدم وثيقة ليس سنة ٩٢٢ م كما هو مدون بالفعل فيها بل يجب ان يكون سنة ٩٢٨ م / ٩٢٩ م ٠ فمثلا يلاحظ أن الماجستير ثيودور ديكابوليت Theodoros Dekapolites وهو موظف الادارة الامبراوطرية الذى صاغ قرار الامبراطور رومانوس الثانى (٩٥٩ ـ ٩٦٣ م) لعلاج حالة وقعت فى أحد الثيمات وقام قاضى الثيم بعرضها على الامبراطور طلبا للرأى ـ يقول « أن قانون قسطنطين السابع الصادر فى مارس سنة ٩٤٧ م قد طبق بأثر رجعى يعود الى عام المجاعة سنة ٩٢٧ م / ٩٢٨ م وهو التاريخ الذى بدأت منه سلسلة التشريعات التى تناولت ملكية الارض » ٠ (١٧) ويذكر ديكابوليت فى نفس الوثيقه أن هناك فترة تمتد ثمانية عشر عاما بين قانون قسطنطين السابع الصادر فى مارس سنة ٩٤٧ م وبين أول تشريع امبراطورى تناول ملكية الأرض فى القرن العاشر الميلادى ٠ (١٨) وبحساب سريع يتضح أن تاريخ صدور القانون الأول لرومانوس ليكابينوس هو عام سنة ٩٢٨ / ٩٢٩ م ٠

= التوصل اليها لاتزال صحيحة ولها قيمتها ٠ كذلك انظر أيضا الدراسات الهامة التالية :

Ostrogorsky, **Pre-Emption Right,** 117-26;

Ostrogorsky, **Stevergemeinde,** 1-108; Charanis, **Monastic Properties,** 51-118; Danstrup, **Landed property,** 22-62; Bach, Lois Agraires, 70-71;

Andreades, **Petite Propriete,** 261-66 ; Setton, **Land Tenure,** 225-59; Svoronos, **Synopsis,** 143-55

(١٥) J. G-R., III, 234-41.

(١٦) Toynbee, **Constantine Porphyrogenitu** ,148.

(١٧) **J. G-R.,** III, 282.

(١٨) **J. G-R.,** III, 284.

أكثر من هذا ، ففى مقدمة قنون باسيل الثانى رقم ٢٩ والصادر فى أول يناير سنة ٩٩٦ م ما يشير الى أن القانون الأول للامبراطور رومانوس ليكابينوس قد صدر فى سنة ٨٢٨ / ٩٢٩ م ٠ (١٩)

على أية حال ، اذا كان ما ورد فى قرار رومانوس الثانى الذى صاغه الموظف الامبراطورى ثيودور ديكابوليت فى التشريع رقم (١٥) ، وما ورد فى افتتاحية تشريع باسيل الثانى رقم (٢٩) صحيحا ، فان هذا يعنى أن القانون رقم (٥) الصادر فى سبتمبر سنة ٩٣٤ م باسم الأباطرة : رومانوس ليكابينوس قسطنطين السابع وستيفن Stephen وقسطنطين (ولدا رومانوس ليكابينوس) لايمكن أن يكون هو القانون الأول ٠ فتاريخ أول التشريعات التى تناولت الملكية الزراعية فى القرن العاشر الميلادى يجب أن يكون سنة ٩٢٩ م ، فهذا التاريخ هو التاريخ الممكن والافضل للقانون رقم (٢) الذى صدر باسم الاباطرة : رومانوس ليكابينوس قسطنطين السابع ، وكريستوفر Christopher (ابن رومانوس ليكابينوس) ٠ فهو ممكن لان كريستوفر كان امبراطورا مشاركا ربما من مايو سنة ٩٢١ م وحتى اغسطس سنة ٩٣١ (وهو تاريخ وفاته) ٠ وهو التاريخ الافضل لان سنة ٩٢٩ م سنة قريبة لوقت حدوث المجاعة فى عام سنة ٩٢٧ م / بشكل واضح جعل الماجستير ثيودور ديكابوليت يذكر قوله السابق بأن سلسلة التشريعات التى تناولت ملكية الأرض فى القرن العاشر الميلادى بدأت منذ تاريخ المجاعة ٠ وأن سنة ٩٢٩ م هى تاريخ محتمل أيضا لسبب آخر ، فمن غير المرجح أن ينتظر الامبراطور رومانوس ليكابينوس مدة ست سنوات من ربيع سنة ٩٢٨ م حتى خريف سنة ٩٣٤ م قبل أن يتخذ أى اجراء يتصدى فيه للمشكلة التى تتصدر كل شىء فى وقت المجاعة نفسها ٠ وعلى هذا ، فان القانون رقم (٢) المؤرخ بسنة ٩٢٢ م صحيح فى مضمونه ولكن تأريخه بعام ٩٢٢ م خطأ والصحيح تأريخه بعام ٩٢٩ م ٠ (٢٠)

لقد ابتدأ الامبراطور رومانوس ليكابينوس التشريعات التى تناولت الملكية الزراعية فى القرن العاشر الميلادى باصداره لهذا القانون رقم (٢) والذى

---

(١٩) J. G-R. III, 306.

(٢٠) انظر نص هذا التشريع فى : JG-R., III, 234-41.

صدر باسم الاباطرة رومانوس ليكابينوس ، قسطنطين السابع ، وكريستوفر . وكان هدف هذا القانون ـ الذى رجحنا تاريخ صدوره فى سنة ٩٢٩ م ـ هو التخلص من التناقص الموجود بين قانونين أولهما يقضى بأن الفلاح يجب الا يعاق أو توضع أمامه العقبات من قبل أقاربه أو شركائه اذا قرر أن يبيع أرضه لأى فرد يختار . والقانون الآخر الذى يمنع الفلاح من بيع أرضه لأى فرد باستثناء مواطنين من قريته .

ولقد أكد هذا القانون على نقاط ثلاث : (١) حق الشفعة لصغار المزارعين فى حالة بيع أراضى صغار مزارعين آخرين . (٢) قطع الارض الممنوحة للجند والمعروفة باسم Stratiotika Ktemata أراض ممنوع التصرف فيها . (٣) العمل على ابعاد كبار الملاك بعيدا عن مجتمعات القرى التى لا يمتلكون فيها أراضى بالفعل .

ولقد أعطى هذا القانون أفضلية لخمس مجموعات من طبقة صغار المزارعين لشراء أراضى مزارعين من نفس طبقتهم ، وهم بالترتيب : أولا ، الأقارب الذين تتداخل أراضيهم مع أرض من يريد البيع ، أو أولئك المتضامنين مع من يريد البيع فى دفع ضرائب جماعية . ثانيا ، الشركاء الذين تربطهم بمن يريد البيع روابط مشابهة . ثالثا ، الاشخاص الذين تتداخل مصالحهم فقط دون أن تربطهم أية روابط قرابة بمن يريد البيع . رابعا ، الأشخاص غير البعيدين عمن يريد البيع ويمكن تحديدهم بأنهم أولئك الاشخاص المسجلين فى قائمة جابى الضرائب الواحد . خامسا ، الأفراد الذين يشتركون مع من يريد البيع فى جزء من ملكيته .

والجدير بالذكر أنه اذا أراد واحد أو اكثر ممن ينتمون لهذه المجموعات الخمس أن يشترى الارض المعروضة للبيع ، فعلية أن يدفع خلال ثلاثين يوما الثمن العادل أو ما يعرضه من يريد الشراء بحسن نية . فاذا لم يقدم أحد ممن ينتمون لهذه المجموعات الخمس على شراء الارض المعروضة للبيع فانه

يمكن فى هذه الحالة أن يتقدم أحد كبار الملاك لشرائها بشرط أن يكون مالكا لعقار زراعى فى نفس مجتمع القرية بالفعل ٠

ولقد نص القانون أيضا على أن الاراضى العسكرية Stratiotika Ktemata (٢١) ممنـــوع التصرف فيهـــا ، وأن الأراضى التى انتقلت ملكيتهـــا خلال فترة الثلاثين عاما التى سبقت اصـدار القانون أو اذا انتقلت ملكيـــة أرض عسكرية فى المستقبل فانها يجب أن تعود الى صاحبها الأول دون رد المبلغ الذى تم دفعه عند الشراء ودون أى تعويض ٠

كذلك حرم القانون على كبار الملاك (الاقوياء) قبول أى منح أو عطايا فى شكل أرض زراعيـــة من الفقراء (الضـــعفاء) الا اذا ربطتهم صـــلة قرابة واضحة ٠

يمكن القول أن الامبراطور رومانوس ليكابينوس قد مس المسائل الحيوية ، فقد حاول الاحتفاظ بمجتمع القرية الحر (وهو المصدر الرئيسى للضرائب) كما حاول الاحتفاظ بالاراضى العسكرية فى حوزة الجند وأسرهم حتى تتوفر

---

(٢١) يظهر اصطلاح Stratiotika Ktemata فى نصوص التشريعات التى تناولت الملكية الزراعية فى القرن العاشر الميلادى ، فقد ورد فى القانون رقم (٢) الذى أصدره الامبراطور رومانوس ليكابينوس سنة ٩٢٩ م (كما سبق أن رجحنا) ، كما يظهر بوضوح فى القسم الاول من القانون رقم (٧) الذى أصدره الامبراطور قسطنطين السابع والذى لا يحمل تاريخا محددا وان كنا نرجح صدوره فى أواخر عهد قسطنطين السابع ٠ انظر :
J G-R., III, 237, 241, 261-6.

والجدير بالذكر أن Stratiotes هو مالك قطعة من الارض العسكرية، وعليـــه الالتزام بتقـــديم جنـــدى مقاتل تحت الســـلاح ٠ ويجب أن يكون الـ stratiotes اى مالك العقار الزراعى هو نفسه الجندى المقاتل ، فاذا تعذر ذلك فعليه أن يمول نفقات الاحتفاظ بجندى آخر من أفراد أسرته ، انظر :

Ahrweiler, **Recherches,** 13; Antoniadis-Bibicou, **Etudes,** p. 101.

لكل أسرة مورد كافيا لتغطية نفقات جندى مقاتل تحت السلاح (وهو أساس جند الثيمات) • ويلاحظ أن كل التشريعات التى صدرت بعد ذلك فى القرن العاشر الميلادى قد تناولت بالتكرار والتعديل هذه المسائل الحيوية •

على اية حال ، بعد صدور القانون الأول الذى تناول ملكية الأرض فى القرن العاشر الميلادى والذى رجحنا صدوره فى السنة التى تلت مجاعة سنة ٩٢٧ / ٩٢٨ م مباشرة ، سرعان ما أضيف اليه تشريع آخر • ويتمثل هذا التشريع الجديد فى القانون رقم (٥) الصادر فى سبتمبر سنة ٩٣٤ م ، (٢٢) والذى صدر باسم الأباطرة : رومانوس ليكابينوس ، قسطنطين السابع ، وستيفن Stephen وقسطنطين (ولدى رومانوس ليكابينوس) • (٢٣)

ولقد نصت مقدمة هذا القانون الجديد على أن الهدف من اصداره هو تصحيح انتهاكات ومخالفات معينة وقعت حديثا ، وفضلا عن ذلك وضع علاج شامل ودائم للمشاكل المتعلقة بالارض وملكيتها ، والعمل على سد الثغرات الموجودة فى التشريعات السابقة • كما نص القانون على أن كل مالك لأرض زراعية له الحرية كاملة فى التصرف فى أرضه • فاذا حدث نقل جزئى أو شامل للملكية الزراعية ، او اذا أعلن أحد صغار المزارعين عن رغبته فى بيع أرضه ، فيصبح لسكان نفس القرية التى تقع فيها الارض المعروضة للبيع أو لسكان القرى المجاورة حق شراء تلك الارض • ويحرم على فئات معينة التسلل الى مجتمع المزارعين الاحرار أو مجتمع القرية تحت أى ادعاء • والفئات الممنوعة

---

(٢٢) انظر نص هذا القانون فى : J G-R., III, 242-52.

(٢٣) تم تعين ولدى الامبراطور رومانوس ليكابينوس امبراطورين مشاركين فى حياة والدهم ، تماما كما حدث مع كريستوفر Christoper من قبل • للمزيد عن الظروف التى تم فيها تعيين كلا من ستيفن Stephen وقسطنطين امبراطورين مشاركين وتاريخ هذا الحدث ، انظر :
George, Mon. Cint., 902; **Leo Grammaticus**, 314;
Theoph. Cont., 409; Pseudo-Symeon, 739.

من دخول مجتمعات المزارعين الأحرار هى : البطارقة Patrikioi او كل من يحمل لقب ماجستير Magistroi ، والموظفون المدنيون : وقواد الثيمات وغيرهم من القادة العسكريين والموظفين المدنيين فى الثيمات ، واعضاء مجلس الشيوخ Senators ، وكل من شغل فى الماضى أو يشغل فى الحاضر أية مناصب رسمية فى الثيمات ، المطارنة ورؤساء الاساقفة والاساقفة ومقدمى الأديرة وغيرهم من كبار رجال الدين ، وكل الذين يتولون ادارة العقارات التابعة للكنيسة أو التاج سواء بصفتهم الرسمية أو الشخصية ٠ (٢٤)

لاشك أن هذه الفئات التى عددها القانون هى الفئات التى كانت تمتلك المال والنفوذ والتى كانت تكون طبقة الأقوياء dynatoi .

وكما يتضح من القانون فان أى فرد من طبقة الأقوياء ، الذين حدد القانون فئاتهم بوضوح ، يقوم بالاستيلاء أو بشراء أراض مملوكة لصغار المزارعين الأحرار ، أو يستولى على قرية مملوكة لمجتمع صغار المزارعين الأحرار (مستغلا محنة المجاعة وما صاحبها وتلاها من مصاعب)) فان عليه أن يعيد الأرض الى مالكها الاصلى الذى عليه بالطبع أن يرد المبلغ الذى قبضه من المشترى ٠ فاذا كان هذا المالك الاصلى فقيرا ، فانه يمنح فترة سماح مدتها ثلاث سنوات لتدبير المال الذى يجب رده الى اشترى منه الارض ٠ ويلاحظ أنه فى هذه الحالة يكون خروج المشترى من الأرض بعد ثلاث سنوات أيضا ٠

ولكن اذا كان المبلغ الذى تم دفعه عند الشراء منخفضا بشكل واضح أو اذا كان يقل عن نصف الثمن الحقيقى للارض ، ففى هذه الحالة تعود الأرض الى صاحبها الاصلى دون أى رد للمال الذى تم دفعه عند الشراء ودون دفع اية تعويضات أيضا ٠

---

(٢٤) عن قائمة الفئات الممنوعة من التسلل الى مجتمعات المزارعين الأحرار ، انظر القسم الاول من القانون رقم (٥) فى : J G-R., III, 246.

واذا قام أى فرد من طبقة الأقوياء فى المستقبل بمخالفة هذا القانون فان عليه أن يرد ما استولى عليه دون أن يسترد ما دفعه من مال عند الشراء ودون أية تعويضات • واذا ثبت أن المخالفين لهذا القانون فى المستقبل من بين الفئات التى سبق تحديدها ، فان عليهم أن يدفعوا للخزانة الامبراطورية غرامة اضافية تعادل قيمة الأرض •

ولقد ختم الامبراطور روماتوس ليكابينوس قانونه بالكلمات التالية : « اننا لم نترك شيئا دون أن نفعله من أجل تحرير الاقاليم والقرى والمدن من العدو • لقد بذلنا قصارى جهدنا وحاولنا بكل قوتنا أن نحرر رعايانا من هجمات الاعداء فى الخارج • والآن وبعد أن حققنا تلك الانتصارات العظيمة ووضعنا نهاية لاعتداءات الأعداء فى الخارج فماذا نحن فاعلون تجاه عدونا فى الداخل ؟ وهل يجوز الا نتصدى له بكل عنف ؟ » • (٢٥)

على أية حال ، فى ضوء التفصيلات الواردة فى هذا القانون ، فان الباحث يجد نفسه مدفوعا الى الاعتقاد بأن المجاعة لابد وأن تكون قد سببت تناقضا اجتماعيا خطيرا فى الاقاليم • فالأحوال كانت على درجة كبيرة من السوء حتى أن صغار المزارعين اضطروا لبيع أراضيهم بأقل من نصف قيمتها • وحتى أولئك الذين باعوها بأثمان معقولة أى بأكثر من نصف قيمتها الحقيقية ، فقد أصبح عليهم بموجب هذا القانون أن يعيدوا تلك الأموال الى المشترى الاصلى خلال ثلاث سنوات • ومن المحتمل أن العديد من الفلاحين لم يستطيعوا الوفاء بالمبلغ فى الفترة المحددة • ومن المحتمل أن هذا القانون الثانى مثله مثل القانون الأول (الذى أصدره رومانوس ليكابينوس والذى رجحنا تاريخه بعد ٩٢٩ م) لم يطبق بنفس التشدد الذى نجده فى نص القانون • وعلى هذا فان مساحات ضخمة من الأرض التى استولى عليها الأقوياء خلال فترة المجاعة التى أصابت بيزنطة فى سنة ٩٢٧ م / ٩٢٨ م لابد وأن تكون قد بقيت فى حيازة الأقوياء • (٢٦)

---

(٢٥) J G-R., III, 252.

(٢٦) Ostrogorsky, Agrarian Conditions, 206.

وان الدليل على أن هذا القانون الثانى الذى أصدره الامبراطور رومانوس ليكابينوس لم ينفذ بشكل دقيق ، هو قيام الامبراطور قسطنطين السابع (٢٧) باصدار قانون آخر هو القانون رقم (٦) الصادر فى مارس ٩٤٧ م ٠ (٢٨) ولقد قدم قسطنطين قانونه بمقدمة تضمنت فقرة انتقدت جشع وأطماع الأقوياء dynatoi ، قال فيها :

« لقد نما الى علم جلالتنا أن الأقوياء فى ثيمى تراقيا Thrakesion والأناضول قد نظروا بازدراء الى القانون الامبراطورى ٠٠٠ ولم يتوقفوا عن التغلغل والتسلل الى القرى عن طريق الشراء والمنح والعطايا والميراث ، وعن طريق تلك الادعاءات تسببوا فى هجرة الكثيرين الذين هجروا ممتلكاتهم ، وهؤلاء هم الفقراء ضحايا طغيان الأقوياء » ٠ (٢٩)

ولقد استطرد قسطنطين السابع فى شرح الأسباب التى دفعته الى اصدار ذلك القانون ٠ ولم يكتف الامبراطور باتهام طبقة الأقوياء بتهمة عدم تنفيذ التشريعات السابقة واصرارهم على مخالفة القانون ، بل تطرق أيضا الى

---

(٢٧) أصدر الامبراطور قسطنطين السابع (٩١٣ – ٩٥٩ م) قانونه فى سنة ٩٤٧م بعد أن أصبح امبراطورا منفردا ٠ والمعروف أن قسطنطين السابع لم يكن راضيا عن حرمانه من السلطة الحقيقية فى تصريف شئون الامبراطورية وهى السلطة التى تمتع بها رومانوس ليكابينوس وأولاده طوال الفتره الممتدة من ٩٢٠ م وحتى سنة ٩٤٤ م ٠ وعندما قام على والدهم وعزله بالفعل فى نهاية سنة ٩٤٤ ، تحرك الامبراطور قسطنطين السابع بتشجيع من زوجته هلين (ابنه رومانوس ليكابينوس) وقام بدوره بعزل ستيفن وقسطنطين شقيقى زوجته ٠ وبهذه الضربة الموفقة أصبح قسطنطين السابع امبراطورا منفردا بعد أن ظل محتجبا عن السلطة الفعلية قرابة ستة وعشرين عاما ٠
عن مؤامرة ستيفن وشقيقه ضد ابيهم رومانوس ، وعن استرداد قسطنطين السابع لسلطانه كاملا انظر :
Kedrenos, II, 324; Zonaras, III, 481.

(٢٨) انظر نص القانون فى : J. G-R., III, 252-53.

(٢٩) J G-R. ,III, 252-56.

أن القضاة أصبحوا الآن واقعين تحت ضغوط عنيفة كى يصدروا أحكاما فى حالات تتعلق بملكية الأرض الزراعية • وبناء على ذلك ، قرر قسطنطين السابع أن الأراضى التى استولى عليها الاقوياء منذ عام المجاعة (٩٢٧ / ٩٢٨م) وحتى سنة ٩٤٥م ـ وهى السنة التى أصبح فيها قسطنطين السابع امبراطورا منفردا ـ يجب أن تعود الى اصحابها الأصليين • فاذا كان صاحب الارض الأصلى (المزارع الصغير الحر) قد باع قطعة صغيرة من الارض الزراعية التى لاتزيد قيمتها عن خمسين نوميسما الى أحد الأقوياء الاغنياء فيجب على هذا المزارع أن يسترد أرضه دون أن يرد المبلغ الذى تم دفعه ثمنا لهذه الأرض ، ودون دفع أية تعويضات • أما اذا كان صاحب الأرض الأصلى ليس فقيرا الى هذه الدرجة ، فعليه أن يسترد أرضه بعد أن يعيد المال الذى قبضه ثمنا لهذه الارض فى فترة لاتتجاوز ثلاث سنوات •

أما اذا كان المزارع الحر ضحية لاستعمال القوة لاجباره على بيع أرضه ، فله أن يسترد أرضه دون أن يرد المبلغ الذى دفعه ثمنا لهذه الأرض ، ودون دافع أية تعويضات ، حتى وان كان المشترى لاينتمى لطبقة الأقوياء •

كذلك قرر قسطنطين السابع أن حق الشفعة الخاص بالمزارعين الأحرار فى حالة بيع أراضى مزارعين أحرار آخرين ، كما شرع رومانوس ليكابينوس، قد اتسع مفهومه الآن ليشمل أيضا حالات بيع أراضى تخص طبقة الأقوياء (٣٠)

وفى قانون آخر أصدره الامبراطور قسطنين السابع ، وهو القانون رقم (٧) غير المؤرخ بتاريخ محدد ، تناول الامبراطور بصفة خاصة الأراضى العسكرية • (٣١)

---

(٣٠) انظر النص الكامل لهذا القانون فى : **JG — R.,III, 252—56**

(٣١) من المعروف أن القانون رقم (٧) هذا ، قام بصياغته أحد موظفى الادارة الامبراطوية وهو المدعو تيودور ديكابوليت Theodoros Dekapolites ومن المرجح أن هذا القانون قد صدر قرب نهاية عهد الامبراطور قسطنطين السابع ، لان هذا الموظف تيودور ديكابوليت هو الذى صاغ بعد ذلك القرار فى الحالات التى طلب فيها أحد قضاة الثيمات الرأى • وكان القرار الذى صاغه تيودور هذا هو القانون الذى يحمل رقم (١٥) والذى صدر فى عهد ابن قسطنطين =

وجدير بالذكر أن مقدمة القانون رقم (٧) ، الصادر فى عهد الامبراطور قسطنطين السابع والذى صاغه ثيودور ديكابوليت ، تسجل أن اوضاع الجند فى الثيمات قد تدهورت • وربما لهذا السبب اهتم هـذا القانون بالاراضى العسكرية Stratiotika Ktemata (٣٢) •

ويلاحظ ان الامبراطور قسطنطين السابع فى قانونه رقم (٧) قد أعطى قوة القانون (للمرة الأولى) لعرف غير مكتـوب كـان يمنع مـلاك الاراضى العسكرية من بيع قطع الأرض الممنوحة لهم من أجل توفير نفقات جندى مقاتل تحت السلاح • (٣٣) ولقد حدد الامبراطور فى هذا القانون قيمة قطعة الأرض التى تشكل الحد الأدنى لما هو ممنوع التصرف فيه • فحدد القيمة بأربعـة أرطـال من الـذهب كحـد أدنى لتوفير نفقـات فارس مقـاتل ، ولتوفير نفقات البحار العامل فى أساطيل التيمات البحرية الثلاثة (٣٤) • ولكنه حددها برطلين فقط لتوفير نفقات البحار العامل فى الاسطول الامبراطورى لانه فى هذه الحالة الاخيرة يستكمل البحار المال اللازم لنفقاته من دخل نقدى ثابت تدفعه له الخزانة الامبراطورية • (٣٥)

ولقد نص القانون على أن تسجيل الأرض العسكرية فى قوائم التسجيل يعنى أنها أصبحت أرضا ممنوع التصرف فيها حتى ولو كانت قيمتها تفوق الحد الادنى الذى يجب أن يحتفظ به الجندى لتوفير نفقاته من سلاح وملبس ومأكل ٠٠٠الخ •

السابع وخليفته على العرش رومانوس الثانى (٩٥٩ – ٩٦٣ م) • ويلاحظ أن كلا القانونين رقم (٧) ، ورقم (١٥) يتناولان الحالة السيئة التى أصبح عليها جند الثيمات ، انظر :

Toynbee, Constantine Porphyrogenitus, 155.

(٣٢) انظر نص هذا القانون رقم (٧) فى : J G-R., III, 261-66.

(٣٣) Lemerle, Esquisse, 266; 47, n. 2.

(٣٤) أساطيل الثيمات البحرية الثلاثة هى اساطيل : ثيم كيبراهايوت Cybrahaeote ، ثيم البحر الايجى Aigaion Pelagos ، ثيم ساموس Samos

(٣٥) J G-R., III, 262.

أما بالنسبة للأراضى العسكرية التى تزيد قيمتها عن الحد الادنى الممنوع التصرف فيه والتى لم يتم تسجيلها ، فيمكن نقل ملكيتها بشروط · فمثلا اذا كانت قيمة الجزء المسجل من أرض من يريد البيع تقل عن الحد الادنى الممنوع التصرف فيه ، فعلى من يشــترى الجزء غير المســجل أن يكمل قيمة الجزء الممنوع التصرف فيه من أرض البائع حتى يصل الى الحد الادنى وذلك بأن يضيف اليه المساحة الضرورية ·

أما اذا كانت الارض العسكرية غير مسجلة بالكامل ، ففى هذه الحــالة يحرم على المالك أن يبيع أحسن اجزاء أرضه التى تساوى قيمتها اربعة ارطال من الذهب ·

كذلك نص القانون على أنه ليس من حــق أى فرد أن يشترى الارض العسكرية ، فلا يجوز لأولئك المنتمين لطبقة الاقوياء شراء الاراضى العسكرية وأن المخالفين لهذه القاعدة سوف يفقدون أية أرض عسكرية قاموا بشــرائها دون ان يستردوا ما تم دفعه ثمنا لها ·

كذلك حدد هذا القانون أن ملكية الأراضى العسكرية تصبح حقا مشروعا فى حالة مرور فترة أربعين عاما على امتلاكها دون أن يقوم عليها نزاع ·

كما تضــمن القانون المخــالفات التى تدين قواد الثيمــات والعقوبات المفروضة فى هذا الصدد · ومن أمثلة تلك المخالفات قيام قواد الثيمات بأخــذ رشاوى مقابل ترك جنودهم بعيدا عن الخدمة العسكرية · وانتهاك قــواد الثيمات لحق الجند فى المعاملة الحسنة وذلك بمعاملتهم مثل الاقنان ، وقيامهم بالاستيلاء على أراضيهم العسكرية المخصصة للانفاق عليهم ·· الخ · (٣٦)

وكما سبق أن أوضحنا ، يلاحظ أن القانون الأول الذى أصدره الامبراطور قسطنطين السابع (القانون رقم (٦) الصادر فى مارس ٩٤٧ م) كان موجها على وجه الخصوص لثيمى تراقيا والاناضول · ففى هذين الثيمين كانت تقع الضياع والممتلكات الكبيرة لعائلات اقطاعية مثل عائلات : سكليروس Skleros ارجيروس Argyros و موزل Musele ، بــورتزيس Bourtzes

(٣٦) J G-R., III, 265.

بوتانياتس Botaniates وغيرها • وعلى هذا فيجب الا نندهش حين نسمع عن وقوع مخالفات كبيرة للتشريعات الخاصة بملكية الأرض فى هذين الثيمين ولم تكن مخالفات وانتهاكات القانون قاصرة على هذين الثيمين فقد اصدر الامبراطور قسطنطين السابع مرسوما يقضى بأن كل التشريعات يجب أن تطبق على كل الثيمات • (٣٧)

ومن الواضح أن الاجراءات القانونية لم تكن كافية لكلبح جماح الاقوياء والحد من أطماعهم • ومن هنا كانت الحاجة الى اعادة اصدار وتكرار القوانين • ويلاحظ أن قسطنطين السابع قد ذكر فى قانونه القضاة المرتشين وهم تلك الفئة من الناس التى وقعت على عاتقها مهمة تطبيق القوانين الامبراطورية • لقد كان شيئا جميلا أن تصدر القوانين ولكن اذا كان تطبيقها بهذا الفساد الذى اشار له قسطنطين فان تلك القوانين كان مقدرا لها الفشل بالتأكيد • وبالاضافة الى كل ما سبق يلاحظ أنه مع سقوط أسرة ليكابينوس ، اضطر قسطنطين السابع الى الاعتماد على عائلة فوقاس Phokas القوية التى كانت عدوا لدودا لرومانوس ليكابينوس • لذلك فالباحث لايندهش حين يعلم أن العديد من نصوص قوانين قسطنطين السابع لم تنفذ أبدا • ويجب ألا ننسى أن الضغط الذى مارسه الأقوياء على الحكومة المركزية وعلى ممثليها كان أكبر من أن يسمح بتنفيذ القانون حرفيا •

على أية حال ، قام خليفة قسطنطين السابع ، ابنه الامبراطور رومانوس الثانى (٩٥٩ ــ ٩٦٣ م) بالسير على نفس السياسة الخاصة بالملكية الزراعية، فقد أصدر قانونين خلال فترة حكمه القصيرة جدد فيهما القيود التى وضعها أسلافه لمواجهة مطامع كبار الملاك • وكان أحد هذين القانونين هو ذلك التشريع الذى صاغه الموظف الامبراطورى ثيودور ديكابوليت والذى يحمل رقم (١٥) والذى يتناول علاج حالة وقعت فى أحد الثيمات وقام قاضى الثيم بعرضها على الامبراطور طلبا للرأى • (٣٨) أما التشريع الآخر فهو القانون رقم (١٦)

(٣٧) J G-R., III, 253.
(٣٨) J G-R., III, 282-84.

الذى أمر الامبراطور رومانوس الثانى باصداره فى مارس سنة ٩٦٢ م • (٣٩)
والمعروف أن هذا القانون كان موجها أساسا للسلطات فى ثيم تراقيا الذى كان مسرحا لمخالفات محلية خطيرة • ويبدو أن طبقة الاقوياء كانت سريعة فى استيلائها على أراضى صغار المزارعين الأحرار فى هذا الثيم ، بسبب هذه الأوضاع المتدهورة قام الامبراطور قسطنطين السابع من قبل باصدار قانونه رقم (٦) فى سنة ٩٤٧ م • (٤٠)

لاشك أن التشريعات التى اصدرها كل من رومانوس ليكابينوس ، قسطنطين السابع ، ورومانوس الثانى بخصوص الارض وملكيتها تتميز بسمة تظهر بوضوح فى نصوص تلك القوانين السته التى أصدرها • لقد كان الهدف الاساسى لهذه التشريعات هو :

أولا : العمل على مساعدة صغار المزارعين الأحرار لاسترداد أراضيهم التى انتقلت ملكيتها الى من ينتمون لطبقة الاقوياء ، وخصوصا تلك الاراضى التى تدخل فى نطاق الأراضى العسكرية • وذلك كى يحتفظ المزارع الحر بقيمة

---

(٣٩) J G-R., III, 285-87.

(٤٠) كان ثيم تراقيا فى غرب آسيا الصغرى خصبا شهد ازدهارا زراعيا فى الماضى ، الا أنه تعرض منذ منتصف القرن السابع الميلادى للتدمير بسبب الهجوم البحرى الذى أمر به الخليفة الاموى معاوية بن ابى سفيان فى الفترة من ٦٤٩ ــ ٦٦٨م • كذلك تعرض هذا الاقليم للتخريب بعد ذلك بسبب اغارات مسلمى اسبانيا المستقرين فى جزيرة كريت منذ سنة ٨٢٨ م • وفى سنة ٩٤٧م كان ثيم تراقيا لا يزال معرضا لمثل تلك الهجمات ، والمعروف ان الحملة التى ارسلها الامبراطور قسطنطين السابع لاسترداد جزيرة كريت سنة ٩٤٩ قد فشلت • واخيرا استطاع نقفور فوقاس فى حملة سنة ٩٦٠م ــ ٩٦١ م فتح مدينة كانديا Candia (فى مارس ٩٦١م) وطرد المسلمين من الجزيرة التى ضمها للكيان الامبراطورى • ويرى الباحث انه يمكن أن نفترض حدوث اندفاع سريع لشراء الارض فى ثيم تراقيا بمجرد أن اصبح هذا الثيم ذو الارض الخصبة مأمونا للاستثمار بعد أن استردته بيزنطة •
عن استرداد بيزنطة لجزيرة كريت انظر :
Theoph. Cont., 473-81. and 480-81.

الحد الأدنى التى تم تقديرها للاحتفاظ بجندى مقاتل تحت السلاح ، والعمل على منع نقل ملكية مثل تلك الاراضى فى المستقبل ٠

ثانيا : العمل على تجنب الحاق المزيد من المصاعب والأضرار بأولئك الاشخاص الذين اشتروا أراض بوسائل شرعية والذين أصبح عليهم الآن أن يعيدوها الى ملاكها الأصليين ، وخاصة فى تلك الحالات التى يكون فيها هؤلاء المشترين الجدد انفسهم من غير الأثرياء ٠

ولكن ما أن انتهى عهد رومانوس الثانى حتى تغيرت سياسة الحكومة البيزنطية الرسمية بشكل جذرى ولعـدد من السنوات التالية ، فقـد اغتصب التاج اثنان من طبقة الأقوياء هما نقفور فوقاس (٩٦٣ – ٩٦٩ م) ودوحنا تزيمسكس (٩٦٩ – ٩٧٦ م) ، وكان اغتصاب نقفور فوقاس للعرش هـو اول انتصار للارستقراطية العسكرية فى صراعها مع الحكومة المركزية ٠ لقـد كان نقفور أعظم أبناء أسرة فوقاس التى تعد بحق من اعظم أسر الارستقراطية العسكرية فى آسيا الصغرى ٠ فهذه الأسرة التى سيطرت على الجيش لفترة طويلة ، كانت تملك الضياع الشاسعة فى قبدوقيا ٠ (٤١)

وعلى هذا كان من الطبيعى أن يقوم أبناء هذه الطبقة بوضع الاجراءات التشريعية فى خدمة مصالحها بمجرد الاستيلاء على السلطة السياسية ٠ ويلاحظ أن القوانين ، التى أصـدرها نقفور فوقاس ، تناولت مشكلة الارض بطريقة تتناقض مع الاتجاه الذى سار عليه المشرعون السابقون ٠ فهذه القوانين التى اصدرها نقفور فوقاس كانت مختلفة تماما فى أهدافها ولغتها وروحها ٠

لقد كان نقفور فوقاس مهتما بحماية الفقراء من جشع الأقوياء ٠ ولم يكن فى وسـع نقفور أن يكون غير مهتم بأحوال جند الثيمـات ، لأن هؤلاء الجند كانوا هم العنصر الرئيسى فى جيش الامبراطورية البيزنطية ٠ وكان الامبراطور نقفور فوقاس نفسه جنديـا محترفا كرس حياته للجيش ، وكان طموحا فى استخدام الجيش لاعادة فتح الأقاليم التى استولى عليها العـرب فى القرن

---

(٤١) كانت أسرة فوقاس تملك ضياعا شاسعة فى ثيمى قبدوقيـا والاناضول فى آسيا الصغرى ، انظر : **Kedrenus, II, 494.**

السابع الميلادى . و فى نفس الوقت كان لدى نقفور (على خلاف من سبقوه) اهتمام آخر لم يكن من السهل عليه أن يوفق بينه وبين اهتمامه بجند الثيمات من أبناء طبقة المزارعين الأحرار . لقد كان نقفور متما باسترضاء أبناء طبقته من الأقوياء أو على الأقل استرضاء الجناح العسكرى من هذه الطبقة التى وضعته على العرش الامبراطورى . كذلك كان لدى نقفور اهتمامان آخران ، لقد هاجم بعنف الجند الارمن فى الجيش البيزنطى بسبب عدم استقرارهم وقيامهم بالتنقل من مكان الى آخر ، (٤٢) كما هاجم الأقوياء من رجال الكنيسة . وان هذا التشتت فى اهتمامات الامبراطور بين أهداف مختلفة هى السمة العامة تميز تلك القوانين الخمسة الخاصة بملكية الأرض التى أصدرها نقفور فوقاس . (٤٣)

واذا القينا نظرة سريعة على التسريعات التى صدرت فى عهد نقفور فوقاس لوجدنا أن القانون رقم (١٩) الصادر فى سنة ٩٦٣ م قد عمل على الحد من قوة ونفوذ فئة من فئات الأقوياء الا وهم رجال الدين ومؤسساتهم الديرية والكنسية . فقد حرم الامبراطور وقف أية أوقاف جديدة على الأديرة أو الكنائس والمؤسسات التابعة لها ، كما منع اقامة أية منشئات كنسية جديدة . وأوضح الامبراطور فى هذا القانون أن من يريد أن يهب أرضا للدير أو الكنيسة بمكنه ان يحقق رغبته الدينية باصلاح مان أديرة او كنائس آيلة للسقوط وموجودة بالفعل . (٤٤)

لاشك أن دوافع نقفور فوقاس فى منع وتحريم أية هبات من الأرض يمنحها أفراد فى المستقبل للاديرة والكنائس لم تكن دوافع اشتراكية بل كانت دوافع مالية . فسياسة نقفور القائمة على الفتح والتوسع كانت مرتفعة التكلفة اذا قورنت بتلك السياسة التى اتبعتها الحكومة البيزنطية قبل أن يأخذ رومانوس الاول بسياسة الهجوم سنة ٩٢٦ م ، والتى تغلب عليها صفه

---

(٤٢) تناول الجزء الأعظم من قانون نقفور فوقاس رقم (١٨) غير المؤرخ انتهاكات الأرمن واجراءات الامبراطور بخصوصها ، انظر :
J G-R., III, 289-91.

(٤٣) Toynbee, **Constantine Pophryrogenitus**, 161.

(٤٤) انظر نص القانون فى : J G-R., III, 292-6.

الدفاع وتجنب المواجهة • وكانت استراتيجية بيزنطة الدفاعية هـذه قليله التكلفة فى المال والرجال • ولكن الوضع كان مختلفا فى ظل سياسـة الفتح والتوسع ، لقد كان نقفور فوقاس فى حاجة شديدة الى المال وكان المصدر الأساسى للايرادات العامة للحكومة هو الضرائب على الاراضى الزراعية والرعوية • لذلك كان الامبراطور مهتما بأن تكون هذه الاراضى الزراعية منتجة • والمعروف أن الاراضى الممنوحة للمؤسسات الدينية كانت معفاة من الضرائب وكان هذا يحرم من الدولة من ايرادات كانت الحكومة فى أشد الحاجة اليها الآن من أجل الانفاق العسكرى • ولما كانت هذه الاراضى المملوكه للمؤسسات الدينية أو تلك التى تدار من قبلها تصبح ممنوع التصرف فيها بمجرد الحصول عليها ، لذلك حاول نقفور فوقاس فى قانونه رقم (١٩) الصادر سنة ٩٦٤ م أن يمنع أية زيادة فى ملكية المؤسسات الديرية والكنسية •

وفى القانون رقم (٢٠) الصادر سنة ٩٦٧ م تظهر النوايا التى أضمرها نقفور فوقاس وطبقة الأقوياء بالنسبة لطبقة صغار المزارعين الأحرار • (٤٥) فقد بدأ القانون بالعبارة التالية : « ان الأب العادل هو الذى يعطى اهتماما متساويا لاطفاله • (٤٦) ورغم أن نقفور قد أظهر اهتماما بجنده من المزارعين الاحرار حين أكد فى هذا القانون على القيود المتعارف عليها ضد الأقوياء حماية لصغار المزارعين ، الا أنه سرعان ما عاد وأعلن أنه كى يحافظ على « الاهتمام المتساوى بكل أطفاله » فقد قرر أن حق الشفعة الممنوح لصغار المزارعين فى حالة بيع اراضى مملوكة لافراد ينتمون لطبقة الاقوياء قد أصبح ملغيا من تاريخ صدور هذا القانون وأصبح بالتالى على الأقوياء أن يشتروا اراضى مملوكة لابناء طبقتهم • وان كل الاراضى التى سبق ان اشتراها صغار المزارعون من ابناء طبقة الاقوياء بموجب حق الشفعة يجب أن تعود الى اصحابها دون أى تعويض •

كذلك الغى نقفور فوقاس فى قانونه رقم (٢٠) أيضا تشريعا آخـر كان الامبراطور قسطنطين السابع قد حدده • ففى القانون رقم (٧) الذى اصدره الامبراطور قسطنطين السابع والذى لم يحدد بتاريخ ، نص القانون أن الاراضى

(٤٥) انظر نص القانون فى : J G-R., III, 296-99.

(٤٦) J G-R., III, 296.

التى انتقلت ملكيتها من الفقراء الى الاغنياء (الأقوياء) تصبح من حق الاغنياء اذا كان قد مضى على نمل ملكيتها أربعون عاما من تاريخ صدور القانون فاذا افترضنا أن القانون رقم (٧) هذا قد صدر فى سنة ٩٥٩ م وهى آخر سنة فى عهد الامبراطور قسطنين السابع ، فان هذا يعنى أن قسطنطين السابع كان حريصا على الغاء كل عمليات بيع اراضى صغار المزارعين الاحرار التى تمت بعد سنة ٩١٩ م . والمعروف أن سنة ٩١٩ م تسبق عام المجاعة سنة ٩٢٧م ٩٢٨ م بحوالى ثمان أو تسع سنوات . والمعروف أيضا أن هذه المجاعة هى التى أعطت للاغنياء (الاقوياء) الفرصة لشراء أراضى صغار المزارعين بأبخس الاثمان وفى ظل ظروف القهر . (٤٧)

لقد وجد نقفور فوماس فى تشريع قسطنطين السابع هذا مغالاة واضرار بمصلحة الاقوياء . لهذا نص القسم الثانى من قانونه رقم (٢٠) الصادر فى سنة ٩٦٧ م على الغاء شرط الأربعين عاما . وأعطى نقفور صلاحية وشرعية لعمليات بيع أراضى صغار المزارعين التى تمت قبيل عام المجاعة مباشرة . اما اراضى صغار المزارعين التى انتقلت ملكيتها الى الاغنياء منذ وقوع المجاعة سنة ٩٢٧ م / ٩٢٨ م فيجب ان تعود الى اصحابها الاصليين .

وفى القانون رقمم (١٨) غير المؤرخ بتاريخ تناول الامبراطور نقفور فوقاس الاراضى العسكرية . فقد نص هذا القانون على انه اذا لم يترك مالك الارض العسكرية وريثا يريد الاستمرار فى القيام بالتزامات هذا الميراث ، فيجب منح هذه الارض لشخص آخر ليتعهد بالالتزامات المرتبطة بها والخاصة بالخدمة العسكرية . كذلك وضع نقفور شرطا جديدا من أجل الاحتفاظ بالجزء الذى يشكل الحد الأدنى الضرورى لمواجهة نفقات والتزامات الاحتفاظ بجندى مقاتل . فقد نص القانون على أن الجندى الذى يدان لارتكابه جريمة قتل يجب أن ينال عقوبة الموت ، أما أسرة المجنى عليه فيمكن تعويضها من الممتلكات المنقولة التابعة للجانى . ولكن يجب الا يتم التعويض من ارض الجانى المخصصة لمواجهة نفقات الاحتفاظ بجندى مقاتل . فهذه الأرض العسكرية يجب الاحتفاظ بها دون أى نقص . فاذا لم يترك الجانى اى ملكية منقولة ، فعلى

---

(٤٧) انظر نص القانون رقم (٩٧) فى : J G-R., III, 261-66.

ورثته تقديم التعويض المناسب لورثته المجنى عليه على الا تكون أرضـــا عسكرية • (٤٨)

على أية حال فى قانونه رقم (٢٢) غير المؤرخ بتاريخ تناول نقفور فوقاس الاراضى العسكرية • (٤٩) ونص القسم الأول من هذا القانون أنه اذا كان الجندى قد باع جزءا من أرضه الممنوع التصرف فيها والتى تعادل قيمتهـا أربعة أرطال من الذهب فعليه أن يسترد هذه الارض دون أن يعيد المبلغ الذى دفعه المشترى ثمنا لها •

ونص القسم الثانى من نفس القانون على أن كل الاراضى العسكرية تصبح ممنوع التصرف فيها فى المستقبل • كما نص القانون على دفع الحد الأدنى لقيمة اراضى الجند الممنوع التصرف فيها من أربعة أرطال الى اثنى عشر رطلا من الذهب ، وهى زيادة كبيرة • أن قيام نقفور بمضاعفة قيمة الحـــد الممنوع التصرف فيه ثلاث مرات لم يكن تصرفا من أجل حماية الجندى المزارع الحر • فأية قطعة من الارض تساوى قيمتها اثنى عشر رطلا من الذهب هى مساحة كبيرة ، وسيكون هناك القليل من تلك الضياع العسكرية ذات القيمة المرتفعة • وكان تطبيق هذا القانون يعنى التضحية بالجنود الفقراء لصالح الاغنياء الطامعين فى زيادة ملكياتهم الزراعية • ومن المحتمل أن غرض نقفور من رفع قيمة الحد الأدنى الممنوع التصرف فيه كان غرضا عسكريا وفنيا • فقد بدأ نقفور فى ذلك الوقت اصلاحه العسكرى الذى استهدف تكوين تشـــكيلات من الفرسان الثقيلة جيدة التسليح والتدريب ، وكان الامبراطور مصرا على تطوير هذه التشكيلات الهجومية • وكانت تكلفة الفارس المدرع جيد التسليح

---

(٤٨) تناول القانون رقم (١٨) ايضا اساءات وانتهاكات الجند الارمن فى الجيش البيزنطى وحدد القانون وضع الارض العسكرية التى يملكها الجند الارمن فى حالة تغيبهم عنها أو ارتحالهم الى مواطن أخرى • انظر نص القانون فى : J G-R., III, 289-91.

(٤٩) أنظر نص القانون رقم ٢٢ فى J G-R., III, 299-300.

مرتفعة بشكل غير عادى ، وكان على الفارس أن يتحملها بنفسه • (٥٠)

وفى القانون رقم (٢١) غير المؤرخ بتاريخ محدد قدم نقفور فوقاس تنازلا آخر لابناء طبقته من الأقوياء • ويضح من هذا القانون مدى الثراء الذى بلغه الأقوياء منذ أن أصبح مجال الاستثمار الزراعى آمنا ومريحا بعد تأمين آسيا الصغرى من خطر العرب المسلمين • ويعترف نقفور فى هذا القانون أن تشريعات اسلافه من أجل حماية ممتلكات صغار المزارعين لم تنفذ بشكل دقيق • فقد انتهك أصحاب الملكيات الزراعية الضخمة القانون واستولوا بطرق غير مشروعة على أراض مملوكة لمجتمعات صغار المزارعين الأحرار بل وحرصوا على طلب المزيد • وأصبح هؤلاء الاغنياء يملكون أبا عن جد ضيـاعا فى أراضى تلك المجتمعات القروية ، وقاموا ببناء منازل كبيرة ذات قيمة مرتفعة بتكلفة كبيرة فوق تلك الاراضى التى استولوا عليها بطرق غير شرعية • وينص قانون نقفور رقم (٢١) أن هؤلاء المخالفين يمكنهم لاحتفاظ بتلك المنازل الفاخرة كما يمكنهم الاحتفاظ بملكية الاراضى التى تقع فيها هذه المنازل فى مقابل زهيد الا وهو : اما دفع قيمة الارض مضاعفة ، أو اعطاء صاحبها الاصلى أرضا ذات جودة مضاعفة وذات مساحة مضاعفة أيضا فى مقابل ذلك • (٥١)

على أية حال يلاحظ على التشريعات التى أصدرها الامبراطور نقفور فوقاس انها كانت دفاعية تجاه الفقراء وكلها معانى الاسترضاء تجاه الأغنياء • فمقدمة القانون رقم (٢٠) مثلا تبدأ بذكر تأكيد الديانة المسيحية على واجب الحكام التصرف بعدل • وفى فقرتين أخريتين يدعى الامبراطور أنه عادل تجاه جميع الاطراف • كما يدعى أيضا ، انه لا يلغى التشريعات السابقة بل يحتفظ بتلك السمات العادلة فيها وبتلك السمات التى تقابل حاجة دائمة لاموقتة • ان هذا الادعاء المتكرر بانه يتصرف بالعدل يبدو أجوفا ؛ لأن ادعاء اعطاء وزن متساو لصالح كل من الاغنياء والفقراء الأقوياء والضعفاء هو محاولة

---

(٥٠) عن تشكيلات الفرسان الثقيلة وتسليمها انظر :

وسام : **دراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية** ، حـ ١ ، الاسكندرية ١٩٨٢ ، من ص ٢٨١ — ٢٨٨

(٥١) J G-R., III, 299.

مقنعة للاحتفاظ بالتوازن مائلا لصالح طبقة الاغنياء والاقوياء • لقد عمل نقفور فوقاس على تهدئة واسترضاء الاغنياء بتقديم الأدلة الكافية التى تثبت أن اسلافه عملوا على اغلاق كل الطرق التى تزيد الثراء ، وأنهم عملوا على نشر الشفعة فى حالة بيع اراضى الاغنياء • لقد الغى نقفور هذا النص ، وكل ما يعوق زيادة ثراء الاثرياء •

والجدير بالذكر أن الامبراطور يوحنا تزيمسكس (٩٦٩ ـ ٩٧٦ م) الذى أعقب نقفور فوقاس على العرش ، كان أيضا عضوا بارزا فى الجناح العسكرى لطبقة الأقوياء فهو ينتمى لاحدى أسر الارستقراطية العسكرية فى آسيا الصغرى • ولهذا فقد احتفظ يوحنا بنفس الاجراءات التشريعية ادخلها نقفور فوقاس •

ويمكن القول أن الجهود التشرعية التى قامت بها الأسرة المقدونية لتوقف الاضمحلال الذى اصاب اوضاع الملكية الزرعية فى الامبراطورية والتى استهدفت بالتأكيد حماية طبقة صغار المزارعين الاحرار ، قد أصيبت بنكسة لأول مرة بسبب كبار الملاك فى الاقاليم • ولم تكن أفضل تلك القوانين التى اصدروها سوى محاولة متواضعة لكبح جماح الاقوياء بدليل استمرار ظهور القوانين الخاصة بالارض الزراعية ، ولكن حين وصلت عائلتا فوقاس وتزيمسكس الى العرش الامبراطورى ضاعت تلك الجهود المتواضعة نهائيا • وان روح تلك التشريعات التى صدرت فى عهد نقفور فوقاس عملت على تشجيع الاقوياء على الاستثمار الزراعى فى الاقاليم على حساب مجتمعات وقرى صغار المزارعين الاحرار •

لقد احتاج الأمر بلا شك ليد الامبراطور باسيل الثانى القوية كى تعيد تصحيح الأمور • والمعروف أن باسيل الثانى (٩٧٦ ـ ١٠٢٥ م) لم يكن له اى رأى فى تشريعات نقفور فوقاس الذى اغتصب حقه العرش منذ وفاة والده رومانوس الثانى سنة ٩٦٣ م • على اية حال استطاع باسيل الثانى فى سنة ٩٦ أن يسترد تاجه بعد وفاه يوحنا تزيمسكس وأصبح امبراطورا كامل السلطان • الا أن الامبراطور الشاب كا أن يفقد عرشه مرة أخرى على اثنين من أبناء نفس طبقة الارستقراطية العسكرية الا وهما : برداس فوقاس

(ابن أخ نقفور فوقاس) ، وبرداس سكليروس (زوج أخت يوحنا تزيمسكس) واجتاز باسيل محنة الحروب الاهلية واكتسب الخبرة من التجارب المريرة التى التى واجهها ٠ (٥٢) ولكنه قرر التصدى بالتشريع لطبقة الأقوياء الذين اغتصبوا حقه فى العرش الامبراطورى طوال الفتره من ٩٦٣ ـ ٩٧٦ م ثم حاولوا اغتصاب هذا الحق مرة اخرى فى الفترة من ٩٧٦ ـ ٩٨٩ م ٠

أصدر الامبراطور باسيل الثانى ثلاثة قوانين تناولت الملكية الزراعية بشكل أو بآخر خلال فترة حكمه التى طالت قرابة الخمسين عاما ٠

ففى قانونه رقم (٢٦) الصادر فى ٤ ابريل سنة ٩٨٨ م الغى باسيل الثانى القانون رقم (١٩) الذى أصدره نقفور فوقاس سنة ٩٦٤ والذى عمل على الحد من قوة ونفوذ رجال الدين ومؤسساتهم الدينية الديرية والكنسية وكان الالغاء بأثر رجعى من تاريخ اصداره ٠ (٥٣) وانه لمن المثير للدهشة أن الكنيسة لم تحصل على الغاء لقانون نقفور فوقاس رقم (١٩) قبل ذلك ٠ ولكن يلاحظ انه فى ٤ ابريل سنة ٩٨٨ م كان باسيل الثانى واقعا تحت رحمة الكنيسة ٠ ففى ذلك الوقت كان القيصر البلغارى صمويل سيدا لشبه جزيرة البلقان،كما كانت قوات الثائر برداس فوقاس تحتل خريسوبولس Khrysopolis وأبيدوس Abydos ٠ وكان باسيل ينتظر بقلق وصول الجند المرتزقة الروس الذين أرسلهم اليه فلاديمير Vladimir أمير كيف Kiev ٠ وفى مثل تلك الظروف كان على باسيل أن يعقد السلام مع الكنيسة بأى ثمن ٠ (٥٤)

ولكن مع بداية سنة ٩٩٦ م كان موقف الامبراطور قويا بما فيه الكفاية

---

(٥٢) انظر : وسام : الامبراطور باسيل الثانى « سفاح البلغار » (٩٧٦ ـ ١٠٢٥ م) : العوامل التى اثرت على السياسة فى عصره ، مقال فى **ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط** ، المجلد الاول (١٩٨٢) ص ١٦٩ وما بعدها ٠

(٥٣) انظر نص القانون فى : J G-R., III, 303-4.

(٥٤) عن احوال الامبراطورية فى تلك الفترة الحرجة انظر : وسام : **دراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطيه** ، هـ ١ ، ص ٣٠٦ ـ ٣١٠ ٠

وكان باسيل قادرا على اثبات ذلك • جاء قانونه رقم (٢٩) الصادر فى أول يناير سنة ٩٩٦ م الذى يعتبر بلا شك أعنف هجوم على طبقة الاقوياء يصدر من امبراطور بيزنطى • وفى هذا القانون نصوص ضد الاقويـــاء العلمانيين والاقوياء من رجال الدين • (٥٥)

ويمكن تلخيص العناصر الرئيسية التى تضمنها هذا القانون كالآتى :

أولا : تجاهل باسيل الثانى ما ورد فى قانون نقفور فوقاس رقم (٢٠) الصادر سنة ٩٦٧ م بخصوص الغاء شرط مرور اربعين عاما على انتقـــال ملكية قطعة ارض من الفقراء الى الأقوياء • واكد باسيل أن شرط مرور أربعين عاما على انتقال الملكية الزراعية ضرورى قبل أن تصبح حقا للغنى حســـب قانون قسطنطين السابع • واكد باسيل الثـــانى ان ملكية أية قطعـــة ارض زراعية من قبل أحد كبار الملاك لن يعترف بها اذا لم يتمكن المالك من اثبات ان حصوله على الارض قد تم قبل عام المجاعة • كما نص على ان الاثبات يجب أن يكون بوثيقة ملكية رسمية يظهر فيها التاريخ بوضوح • اما بالنسبة لحالات انتقال ملكية أراضى تابعة للتاج الى الأقوياء فقد ألغى فترة الاربعين عاما ، واشترط على كل من يدعى حقا فى مثل تلك الاراضى أن يثبت حقـــه بوثيقة مكتوبة •

كذلك نص القانون على أن انتقال ملكية أى أرض زراعية كانت مملوكة لأحد صغار المزارعين الاحرار فى عام المجـــاعة او بعد تاريخ صـــدور قانـــون رومانوس ليكابينوس رقم (٢) لاتكتسب شرعية مهما مضى عليها من زمن بل يجب ان تعـــود الى المزارع الصـــغير الحـــر دون اى تعويض لأن قـــانون رومانوس ليكابينوس قضى بعدم انتقال ملكية أراضى صغار المزارعين الى افراد من طبقة الاقوياء • ويبدو أن انتقال ملكية قطعة ارض من احد صغار المزارعين الاحرار الى احد كبار الملاك واكتساب هذا النقل للملكية شرعيـــة بسبب مرور اربعين عاما ، قد أصبح تقليدا وأمرا معترفا به ، ولكن باسيل الثانى قضى على هذا التقليد • وفى هذا المجال يذكر الامبراطور باسيل الآتى :

---

(٥٥) انظر نص القانون رقم (٢٩) فى : JG-R., III, 306-318.

« اذا قام أحد الاقوياء (الاغنياء) بنقل ملكية قطعة ارض فى مجتمع قرية ما الى ملكيته الشخصية ، واذا قام ورثته بوراثة ملكية هذه الارض ٠٠ واذا رفض الورثة رد الأرض الى المزارع الذى طلب استرجاع ارضه بسبب انقضاء فترة طويلة من الزمن على انتقال الملكية ، فليكن واضحا للجميع انه مهما كان الوقت الذى مضى منذ انتقال ملكية هذه القطعة من الارض فان من حق المزارع ان يطالب بأرضه ويستردها ٠ واذا لم نقم بسن هذا القانون ، فاننا نعطى بهذا لمخالف القانون الفرصة ليقول : بما أننى نجحت فى نقل ملكية هذه الارض وبما أن الفلاح غير قادر على المطالبة بحقه ، واذا نجح ابنى أيضا ومضى من الوقت الكثير فاننا نستطيع الاحتفاظ بالارض التى امتلكناها ولن يستطيع أحد المطالبة بها ٠ وعلى هذا فمن مصلحتى مخالفة القانون وانتهاك حقوق ملكية الضعيف ٠٠٠ ، ٠ وان هذا الأسلوب واضح فى حالة عائلتى مالينوس Maleinoi وفوقاس Phokas ٠ فالبطريق قسطنطين مالينوس وابنه ايستانيوس Eustathius اتبعا هذا الاسلوب وعاشا فترة ازدهار لم تتوقف قرن من الزمان تقريبا ٠ كذلك أتبع أبناء عائلة فوقاس نفس الاسلوب وعاشوا فترة ازدهار أطول لأن الجد الأول والجد التالى والأب ومن بعدهم الأولاد على التوالى استولوا على الاراضى بهذه الطريقة حتى الوقت الحاضر ٠ فهل يجوز بعد كل هذا ان نترك المدة الزمنية التى استمتعوا بها كامتياز لهم ؟ » (٥٦)

ويستطرد باسيل الثانى فى قانونه مشيرا الى أن طبقة كبار الملاك استولت بأساليب غير شرعية على أراضى صغار المزارعين ثم توارث الابناء هذه الاراضى واعتقد الجميع ان مرور أربعين عاما كحد ادنى على نقل الملكية قد اعطاهم الشرعية ٠ ونص القانون على حرمان اولاد كبار الملاك من مثل ذلك الميرات وادى هذا الى حرمان عائلات عديدة من ضياعها الشاسعة مما أصابها بالفقر فاختفت ولم نعد نسمع عنها ٠ (٥٧)

---

(٥٦) J G-R., III, 308-9.

(٥٧) المعروف ان الامبراطور باسيل الثانى أمم الممتلكات الزراعية الخاصة بحوالى احدى عشرة عائلة تنتمى لطبقة الاقوياء هى : عائلة موزل Mousele (JG-R., III, 309)) ؛ الباراكيمومينوس باسيل (Zonaras, III, 554) ؛ عائلة مالينوس Maleinos (Kedrenos, II, 422)

ثانيا : ميز القانون رقم (٢٩) الذى أصدره باسيل الثانى بين صلاحية وشرعية صك الملكية المهور بالخـــاتم الامبراطورى Khrysoboulls من ناحية ، وبين وصــف حدود قطعة الارض الزراعية الملحقة والمضــافة لصك الملكية • فقد لاحظ الامبراطور اثناء مروره فى اقاليم الامبراطورية اثناء حملاته العسكرية حالات عديدة قام فيها كبار الملاك بوضع أيديهم على اراض كــان بعضها فى حيازة المزارعين الفقراء والبعض الآخر كان تابعا لاملاك التـــاج عن طريق التزوير فى صكوك الملكية الزراعية • وقد اخذ هذا التزوير شكل اضافات تصف حدود العقار الزراعى أضيفت الى صكوك الملكية • ولاشك أن الموظفين الذين صاغوا هذه الاضافات كانوا متواطئين مع كبار الملاك • الا أن قانون باسيل الثانى لم يترك مجالا للشك بالنسبة لصلاحية مثل الاضافات ، فقد الغى القانون كل صلاحية لها ، ونص على أن وصف حدود أى قطعة أرض تضاف الى صك الملكية تصبح لاغية ولاقيمة لها الا اذا ثبت أنها مسجلة فى سجلات الادارة الامبراطورية • (٥٨)

ثالثا : تصدى باسيل الثانى فى قانونه أيضـا لفئة اخرى من فئات الاقوياء ألا وهم رجال الدين فى محاولة لوقف تعدياتهم على ممتلكات القرويين فالموضوع هو كنيسة القرية • لقد كان من المألوف فى القرية أن يقوم أحـــد المزارعين ببناء كنيسة صغيرة على أرضه ، ثم يرتدى زى الرهبان ويحيا حياة دينية • وكان من المعتاد أن يقوم هذا المزارع بعد ذلك بمنح أرضـــه لهذه الكنيسة • وفى كثير من الأحيان ينضم اليه آخرون من نفس القريـــة فيشاركونه حياته الدينية ثم يقومون مثله بمنح اراضيهم لكنيسة القرية • ولكن عند وفاة المزارع الذى شيد الكنيسة فى البداية ، تتقدم الأسقفية التى تقـــع كنيســـة القرية فى منطقتها وتطـالب بملكية المبنى والأراضى الزراعية

عائلة فوقاس Phokas وعائلة سكليروس Skleros (Psellos, Chron. I, 18) عائلة Philokales (JG-R., III, 310) ؛ عائلة مالاكنوس Malakenos (Kedrenos, II, 451) ؛ عائلة بول بوبز Paul Bobs (Kedrenos, II, 451) عائلة نيكوليتزاس Nikoulitzas (Kedrends, II, 474) عائلة فاتاتزيس Vatatzes (Kedrenos, II, 452) عائلة جلاباس Glabas. (Kedrenos, II, 452)

(٥٨) JG-R., III, 311.

التابعة له على أساس أنه مؤسسة دينية وتدخل فى اطار قوانين الكنيسة • وهكذا كانت الكنيسة ورجال الدين ، وهم فئة من فئات الاقوياء ، قادرين على التسلل والتغلغل داخل مجتمعات صغار المزارعين الأحرار رغم أنهم لايملكون أرضا زراعية فيها • ويذكر الامبراطور فى قانونه أن هذه العادة انتشرت فى كل الثيمات وأدت فى بعض الحالات الى اختفاء قرى بأكملها • ولقد نص الامبراطور فى قانونه على أن هذه الكنائس الصغيرة فى القرى لايمكن اعتبارها مؤسسات دينية تابعة للأسقفيات والكنيسة الأم فى العاصمة ، بل تعتبر ملكية ممنوع التصرف فيها للقرى أو لمجتمعات المزارعين فى هذه القرى • وحرم القانون على الكنيسة الأم أن تضع يدها عليها • (٥٩)

رابعا : تناول البند الرابع من هذا القانون حقوق الخزانة الامبراطورية • ونص القانون على أنه لايوجد حد زمنى تتوقف بعده الادارة المالية عن المطالبة بحقوقها واسترداد كل ملكية زراعية تنتقل حيازتها بطريقة غير مشروعة الى الأقوياء • ووضح القانون أن مطالب وحقوق الخزانة الامبراطورية يمكن أن تكون بأثر رجعى يعود الى الوراء الى زمن الامبراطور اغسطس • كذلك اذا قام موظفو الادارة المالية والخزانة الامبراطورية بأى عمل يخالف مصلحة الحكومة المركزية ، فأن أى انجازات من هذا القبيل تفقد صلاحيتها • ولقد اعترف الامبراطور بأن موظفى الادارة المالية لم يكونوا جميعا على مستوى المسئولية بل ان قلة منهم هى التى قامت بتنفيذ الاوامر والقوانين الامبراطورية بدقة • (٦٠)

لاشك أن قانون باسيل الثانى رقم (٢٩) كان يمثل تغيرا جذريا ولكن فى سنة ١٠٠٣/١٠٠٤م أتبع الامبراطور قانونه بمرسوم آخر اكثر قوة وتشددا ضد طبقة الاقوياء • فقد قرر باسيل أن الأغنياء فقط عليهم أن يتحملوا المسئولية الجماعية فى دفع الضرائب التى يتم تقديرها على كل منطقة ، أما الفقراء من دافعى الضرائب فقد أعفاهم هذا المرسوم من كل مسئولية فى المستقبل • (٦١) ورغم تشدد هذا المرسوم ، الا أنه كان عادلا ويتناسب تماما

---

(٥٩) JG-R., III, 312-14.

(٦٠) J G-R., III, 315-16.

(٦١) Kedrenos, II, 456; Cf. Zonaras, III, 561.

مع الظروف السائدة فى الريف • قد وضع الامبراطور مسئولية دفع الضرائب الجماعية على عاتق اولئك الذين يستطيعون الدفع ، مما اعطى للمزارعين الفقراء المطحونين فترة اعفاء طويلة •

لقد كان هدف هذا المرسوم رفع المعاناة عن المزارعين الفقراء ، الا انه لم يوضع أبدا موضع لتنفيذ • وقد يكون صحيحا أن نفترض أن هذا المرسوم الذى هدد مصالح الاقوياء بشكل مباشر ، قد أدى الى حدوث تواطؤ بين كبار الملاك ، والقضاة ، وجباة الضرائب للحيلولة دون تنفيذ هدف الامبراطور • وأن مثل هذا التحالف كان أقوى من ارادة باسيل الثانى وعنفه الذىاشتهر به والجدير بالذكر أن هذا المرسوم استمر بعد حياة باسيل الثانى لمدة ثلاث سنوات فقط ، كان فيها حبرا على ورق ، فقد قرر شقيق باسيل وأخوه قسطنطين الثامن ، الذى اعقبه على العرش ، الغاء هذا المرسوم • وتم هذا الالغاء بالفعل فى عهد الامبراطور رومانوس الثالث ارجيروس Romanos III Argyros زوج ابنة قسطنطين الثامن وخليفته • (٦٢)] وبهذا انتهت سلسلة طويلة من التشريعات التى أصدرتها الحكومة المركزية لوقف تعدى الاقوياء على ممتلكات صغار المزارعين •

ان مجموعة التشريعات التى صدرت فى القرن العاشر الملادى فى الامبراطورية البيزنطية استهدفت حماية مجتمعات صغار المزارعين من نعدى الاقوياء ، واقامة توازن فى ملكية الارض الزراعية • وان هذه التشريعات تروى لنا الكثير عن كبار الملاك وذوى النفوذ والسلطان كطبقة اجتماعية متميزة فى المجتمع البيزنطى • وطبقا لما ورد فى هذه التشريعات فان الأقوياء يمكن تحديدهم كأعضاء بارزين فى الجيش ، والكنيسة ، والجهاز الادارى • فمنهم مجموعة الموظفين الذين شغلوا المناصب الادارية ،واولئك الذين حملوا الالقاب الشرفية غير المرتبطة بوظائف •

بالنسبة للجيش فان كل من كانوا فى درجة ورتبة Protokentarches او أعلى (فى الثيمات) ، تم تصنيفهم ضمن طبقة الأقوياء • ويعتبر هذا تعميما تضمن معظم العسكريين المتمركزين فى القسطنطينية والمنطقة المحيطة بها ، وهم جند فرق الفرسان الاربع المعروفة باسم التجماتا tagmata

---

(٦١) Kedrenos, II, 486.

وهم القسم الأول من الجيش البيزنطى • كل هؤلاء الجند تم تصنيفهم ضمن الاقـوياء بسبب ارتفـاع اجورهم ولان الكثيرين منهم كـانوا ينتمون الى عائلات معروفة • (٦٣)

أما رق الثيمات ، فعلى عكس فرق التجماتا Tagmata ، كانت تتكون اساسا من الجندى المزارع • ولقد حددت التشريعات أن كل الضباط فى فرق الثيمات من درجة ورتبة Protokentarches فأعلى يجب تصنيفهم ضمن الأقوياء • ويعتبر هذا تصنيفا عريضا لأن رتبة Protokentarches ترتيبها الثانى عشـــر بعد رتبة ستراتيجوس Strategos (قائد الثيم) •

وعلى هذا فان كل الضباط من ذوى الرتب التى تعلو رتبة Kentarches ، تم تصنيفهم ضمن الاقوياء فى الاقاليم • (٦٤)

بالنسبة للادارة المدنية فان كل من شغل منصب سكرتير ادارة من ادارات الحكومة المركزية فى العاصمة أو الاقاليم فأعلى ، تم تصنيفهم ضمن طبقة الاقوياء ، لان سكرتير الادارة المدنية كان يتســاوى فى المــركز والمرتب مع Protokentarches كذلك تضمنت طبقة الاقوياء كل من حملوا ألقابـــا شرفية مثل البطارقة ومن حملوا لقب ماجســتير Magistroi فضــــــلا عن الشيوخ من اعضاء مجلس السيناتو القديم • (٦٥)

اما الأقوياء من رجال الدين فقد كانوا مجموعة اكبر ، فقد تضمنت رؤساء الاساقفة والاساقفة ومقدمى الأديرة فضلا عن عدد آخر من كبار رجال الدين

---

(٦٣) كانت فرق التجماتا فى القرن التاسع والعاشر من الميلاد تتكون من أربع فــرق فرســـــان هى : فرقة Skholai ، وفرقة Exkoubitoi ، وفرقة Arithmos ، وفرقة Ikanatoi • وكانت فرقة السخولاى Skholai أهمها ، وكان القائد الاعلى للجيش فى العادة هو قائد فرقة Skholai للمزيد عن هذا الموضوع انظر : Bury, Administrative System, 47-66.
وانظر ايضا : Ahrweiler, Recherches, 23-31.

(٦٤) Bury, Administrative System, 47-66.

(٦٥) Vryonis, Time of Troubles, 206.

في العاصمة • ويلاحظ ان هذه الفئة من الأقوياء كانت اقل خطورة من الفئات المدنية والعسكرية اذ لم تشكل اى تهديد سياسى للحكومة المركزية •

وباختصار فان الأقوياء كانوا كل اولئك الذين يبدأون من أقل الموظفين المدنيين ، ورجال الدين ، والضباط العسكريين ، الذين كانوا قادرين على استعمال مراكزهم والثروة المتاحة أمامهم بحكم مناصبهم من أجل الاضرار بصغار المزارعين واولئك المسجلين كجند ومزارعين فى الاقاليم • ولاشك ان فى هذا تحديد قانونى شامل • ؟

ويلاحظ ان الظروف قدمت لفئات الاقوياء المختلفة فرصة كبيرة كى يزيدوامن ملكياتهم الزراعية • فالشتاء القاسى لعام ٩٢٧ / ٩٢٨ م والمجاعة التى اعقبته تسببت فى حدوث اضطراب اجتماعى فى الاقاليم • وخلال تلك الفترة الصعبة أجبر الفلاحون على بيع أراضيهم بأثمان زهيدة • ورغم أن القوانين التى صدرت بعد عام المجاعة ، صدرت خصيصا من اجل عودة تلك الاراضى، الا ان المرجح ان معظم تلك الاراضى ظلت فى حوزة الاقوياء ولم يعيدوها • كان الفلاح • اما غير قادر على تعويض القوى من أجل استعادة أرضه ، او كان ببساطة قانعا بحياة الأقنان فى ضيعة السيد القوى حيث وجد هناك قدرا من الأمن فى اشد الحاجة اليه •

لقد هدد تعدى كبار الملاك على ممتلكات صغار الفلاحين ، بحرمان الدولة من قوتها العسكرية الدفاعية وقدرتها المالية • وأن الشىء الذى لم يذكر بالتحديد فى هذه التشريعات هو أن تعدى الاقوياء بهذه الصورة الصارخة قد هدد سيادة الحكومة المركزية نفسها • وعلى هذا يمكن القول ان التشريعات التى تناولت الملكية الزراعية كانت بهدف كبح جماح النمو الاقتصادى والسياسى لطبقة الاقوياء • لقد كانت هذه القوانين اجراءات دفاعية من جانب الحكومة المركزية ضد قوى تحاول الخروج على الادارة المركزية وهى قوى كانت لها صبغة اقطاعية • ولكن رغم هذه التشريعات والاجراءات الا أن الحكومة المركزية فشلت فى تحقيق هدفها ، لأن تطبيقها وتنفيذها كان فى يد افراد من نفس الطبقة التى صدرت ضدها التشريعات •

قائمة المصادر والمراجع وبيان المختصرات :

Ahrweiler, **Recherches**	H. Glykatzi-Ahrweiler, «Recherches sur l'administration de l'empire byzantin aux Ixé — XIe Siecles, Bulletin **Correspondance Hellénique**, 84 (1960), 1-109.
Andreades, **Petit Proprieté**	A. Andreades, «Floraison et décadence de la petit proprieté dans l'empire byzantin», **Mélanges Ernst Mohaim,** 1 (1935), 261-66.
Antoniadis-Bibicou, **Etudes**	H. Antoniadis-Bibicou, **Etudes d'histoire maritime de Byzance**, à propos du 'Thème des Caravisiens' (Paris, 1966, SE. and P.E.N.).
Bach, **Lois Agraires**	E. Bach, «Les lois agraires byzantines du Xe sciècle», **Classica et Medievalia,** 5 (1942), 70-91.
Bury, **Administrative System**	J.B. Bury, **The Imperial Administrative System in the Ninth Century**, with a **Revised Text of the Kletorologion of Philotheos** (British Academy Supplemental Papers, I), (London, 1911).
Charanis, **Monastic Properties**	P. Charanis, «The Monastic Properties and the State in

	the Byzantine Empire», **Dubarton Oaks Papers**, 4 **(1948)**, 51-118.
Danstrup, **Landed Property**	J. Danstrup, «The State and Landed Property in Byzantium», **Classica et Medievalia**, 8 (1947), 222-62.
Ferradou, **Monastères**	A. Ferradou, **Des biens des monastères à Byzance** (Bordeaux, 1896).
Gaignerot, **Des Bénéfices**	A. Gaignerot, **Des bénéfices militaires dans l'empire romain et specialement en Orient au Xe siécle** (Bordeaux, 1898).
Geoarg. Mon Con.	**Georgius Monachus**, in **Theoph. Cont.**, ed. I. Bekker (Bonn, 1838), 761-924.
J G-R.	**Jus Graeco-Romanum**, Pars III : **Novellae, Constitutiones**, ed. C.E. Zacharia von Lingenthal (Leipzig, 1857), 220-318. Reprinted by J. and P. Zepos (edd.) (Athens, 193 P. Zepos (edd.) (Athens, 1931) Vol. I.
Kedrenos	G. Cedrenus, **Histoirarum**

	Compendium, ed. I. Bekker (Bonn, 1888-39) 2 vols.
Lemerle, **Esquisse**	Lemerle, Esqiusse P. d é P. Lemerle, «Esquisse pour une histoire agraire de Byzance», Revue Historique, 219 (1958)', 32-74 and 254-84; 220, pp. 43-94.
Leo VI, **Les Nouvelles**	**Les Nouvelles de Léon VI le Sage, ed.** and trans. P. Noailles and A. Dain (Paris, 1944). (Société d'Edition les 'Belles Lettres').
Leo Grammaticus	Leo Grammaticus, **Chronographia,** ed. I. Bekker (Bonn, 1842).
Mitard, **Le Pouvoir Impérial**	M. Mitard, «Le pouvoir Impérial au temps de Léon VI», **Mélanges Charles Diehl,** I (Paris 1930), 217-23.
Ostrogorsky, **Agrarian Conditions**	G. Ostrogorsky, «Agrarian Conditions in the Byzantine Empire in the Middle Ages» **Cambridge Economic History of Europe,** 1, 2nd. ed. (Cambridge, 1966).
Ostrogorsky, **Pre-Emption Right**	G. Ostrogorsky, «The Peasant's Pre-Emption Right.

	An Abortive Reform of the Macedonian Emperors», **Journal of Roman Studies**, 37 (1947), 117-26.
Ostrogorsky, **Quelques Problèmes**	G. Ostrogorsky, **Quelques Problèmes d'histoire de la** Paysannerie byzantine (Brussels, 1956). (Corpus Bruxellense historiae byzantinae, Subsidia, II).
Ostrogorsky, **State**	G. Ostrogorsky, **A History of the Byzantine State,** Eng. trans. J.M. Hussey Oxford, 1968).
Ostrogorsky, **Steuergemeinde**	G. Ostrogorsky, «Die landliche Steuergemeinde des byzantinischen Reiches im X Jahrhundet», **Vierteljahrschrift fur Sozial-und Wirtschaftsgeschichte,** 20 (1928), 1-108.
Psellos, **Chron.**	M. Psellos, **Chronographie,** ed. F. Renauld (Paris, 1926, 1928), 2 Vols.
Pseudo-Symeon	Pseudo-Symeon Magister, **Chronographia,** in **Theoph. Cont.,** ed. I. Bekker (Bonn, 1838), 603-760.

Setton, **Land Tenure**	K.M. Setton, «On the Importance of Land Tenure and Agrarian Taxation in the Byzantine Empire from the 4th Century to the 4th Crusade», **American Journal of Philology,** 74 (1953), 225-59.
Svoronos, **Synopsis**	N.G. Svoronos, **La Synopsis major des Basiliques et ses appendices** (Paris, 1964). (Bibliotheque byzantine : Etudes, IV).
Syuzymov, **Le Village**	M.Y. Syuzyumov, «Le Village et la ville à Byzance aux IXe-Xe Siècles», **Recherches Internationales à la lumière du marxisme,** 79 (1974), 65-74.
Testaud, **Puissants**	G. Testaud, **Des rapports des Puissants dans l'empire byzantine** (Bordeaux, 1898).
Theoph. Cont.	Theophanes Continuatus, Ioannes Cameniata, Symeon Magister, Georgius Monachus, ed. I. Bekker (Bonn, 1938), 1-481.
Toynbee, **Constantine Porphrogenitus**	A. Toynbee, **Constantine Porphyrog-enitus** and his World (London, 1973).

Vryonis,**Time of Troubles** — S.Vryonis, **The Internal History of Byzantium during the 'Time of troubles' 1057-81 A.D.** (Dissertaton, Harvard,

Zonaras — I. Zonaras **Epitome Historiarum,** ed. M. Pinder, B. Buttner-Wobst (Bonn, 1841-97), 3 Vols.

ثانيا : الكتب والدراسات الجديدة

١ – تقرير عن معرض القاهرة الدولى ١٩٨٣م

٢ – عرض ونقد كتاب « تاريخ المغرب – محاولة فى التركيب »



تقرير عن معرض القاهرة الدولى للكتاب
واهم ما جد فيه من مصادر ومراجع تاريخية
تتعلق بتاريخ الوجود اللاتينى فى بلاد الشـــام
خلال مرحلة الصليبيات القرنين ٦ ، ٧ هـ / ١٢ ، ١٣م

شهدت أرض المعارض بالجزيرة بالقاهرة فى المدة الواقعة من ٢٧ يناير حتى ٧ فبراير عام ١٩٨٣ التقاء عدد من دور النشر العربية والأجنبية مجتمعة فى المعرض الدولى الخامس عشر للكتاب . ومهما يكن من أمر الاختلاف بيننا بشأن مقارنة حجم ونوعيات دور النشر ونشاطها فى المعرض وما احتواه من كتب جديدة فسأعرض هنا لما قد لفت نظرى واسترعى انتباهى فيما يتصل بدراسة الحروب الصليبية فى بلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع الهجريين الثانى عشر والثالث عشر ، الميلاديين .

أما بالنسبة للمصادر العربية ظهر فى المعرض كتاب **محيى الدين ابن عبد الظاهر الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، نشر وتحقيق د . عبد العزيز الخويطر ط . الرياض عـــام ١٩٧٦م** وتناول هـــذه المخطوطة الذى حققها الخويطر جوانب هامة فيما يتصل بدراسة عصر الظاهر بيبرس وسقوط امارة انطاكيـــة فى عهده عام ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م ، وكذلك موقفه من عناصر الاسماعيلية النزارية وسياسته تجاههم وكذلك عناصر الهيئات الدينية الحربية الصليبية أو فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشـــام حينذاك حيث القى اضواء هامة على ظروف ســـقوط قلاعهم على يد المماليك فى عهد بيبرس وبتفصيل تفتقر اليه المصادر التاريخية العربية الأخرى اللاحقة التى تناولت بالاشارة نفس المرحلة .

وقد حصل الباحث فى دراسته لمخطوطة ابن عبد الظاهر على درجة الدكتوراة من جامعة لندن عام ١٩٦٠م . الا أنها لم ترضوء النشر لأول مرة الا عام ١٩٧٦ عندما ظهرت فى طبعة مدينة الرياض ومن قبل نشرها اشار الى اهمية ذلك العمل العلمى الأستاذ المستشرق فرانسيسكو جابريلى

فقد أشار الى المخطوطة السالفة الذكر فى كتابه Francesco Gabrieli
الشهير عن مؤرخى الصليبيات العرب .
The Arab Historians of The Gusades
الذى ظهر بالايطالية فى أول الأمر ثم ترجم الى الانجليزية من جانب ج .
كوستيلو G. Costello (أنظر تناول المخطوطة فى نفس الكتاب
الكتاب .P. xxx 111 . أ وكذلك فى الفصل الذى كتبه الأستاذ جابريلى
ـ من **الدراسة التى ظهرت من جانب** جامعة أكسفورد Oxford عام
١٩٦٢ واشرف عليها الأستاذان ب . لويس B. Lewis وهولت Holt
تحت عنوان مؤرخو الشرق الأوسط Historians of the Middle East
حيث شارك جابريلى بموضوع يحمل عنوان : —
The Arabic Historiography of the crusades
الكتابة العربية للحروب الصليبية ..

فقد اشار فى المقالة الأخيرة ص١٦ هامش (٦) الى أن النص الكامل الذى ألفه ابن عبد الظاهر عن سيرة الملك الظاهر بيبرس قد حققه الخويطر كموضوع للدكتوراة وانه لا يزال تحت النشر .

واود هنا ان اشير فقط الى الخلط الذى وقع فيه سامى الدهان فى مقدمة تحقيقه للكتاب الأعلاق الخطيرة ، والحقيقة أن المخطوطة لابن عبد الظاهر كما تبين من قبل وان كان عز الدين ابن شداد له مخطوطة تتناول الظاهر بيبرس فى أدرنة — المسجد السليمانى تحت رقم ٢٣٠٦ وقد أشار الى ذلك الخويطر فى مقدمة التحقيق ص ٣٩ .

عن اشارة الأستاذ الدكتور سامى الدهان عن ذلك أنظر : —
عز الدين ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة بذكر أمراء الشام والجزيرة ط . دمشق ١٣٨٢هـ ١٩٦٢م ص١٨ مقدمة التحقيق .

من ناحية اخرى شهد المعرض لأول مرة ظهور كتاب **ابن طولون الصالحى ، القلائد الجوهرية فى تاريخ الصالحية . الجزء الثانى . ط « دمشق عام ١٩٨٣م ، تحقيق محمد أحمد دهمان ،** وكان الجزء الأول قد ظهر عام ١٩٤٩م . وهكذا فقد فصل بين الجزء الأول والثانى ما يزيد على الثلاثين عاما وقد حقق الجزء الأول نفس المحقق . والكتاب كما هو معروف

مصدر على قدر كبير من الأهمية بشأن الصالحية .

ويفيدنا فى تناول تطورها التاريخى والعمائر الدينية للمتصوفة على وجه الخصوص واشـــارات هامة عن الدور الحضارى الذى لعبته عناصر الصوفية وأسرة آل قدامة الجماعيلى على وجه خاص .

واود ان أشـــير هنا الى أنه من قبل قيام المعرض الدولى للكتاب فى القاهرة علمت بصدور الكتاب السابق من خلال النشرة التى اصـــدرها معرض المخطوطات العربية بالكويت فى عدد يناير ١٩٨٣م .

— هناك ايضا ما الفه ابن **نظيف الحموى فى كتاب التاريخ المنصورى تحقيق د. أبو العين دادو مراجعة د. عدنان درويش ط . مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٨٢م** ويشتمل على الأحداث التى وقعت ابان الفترة من عام ٥٨٩هـ / ١١٩٣م الى عام ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م . وهو مصـــدر هام للعصر الأيوبى فى بلاد الشام على وجه خاص فى تلك المرحلة .

— ظهرت فى المعرض طبعة جديدة لكتاب **ابن كثير ، البداية والنهـــاية ، ط . بيروت عام ١٩٨٢م** . ومن قبل كان الباحثون فى مجال الصليبيات يستعينون ، بطبعات قديمة مثل ط . القاهرة ١٣٤٨هـ / ١٣٥٨هـ . وكذلك طبعة بيروت عام ١٩٦٦م .

اما ما يتصل بالأعمال الحديثة والمراجع فقد احتوى المعرض عـــلى طبعة جديدة لمؤلفات **أ.د. جوزيف نسيم يوسف** . ظهرت فى بيروت عـــام ١٩٨١م . تحت عنوان مكتبة الحروب الصليبية .

واحتوت الطبعة الجديدة على المؤلفات الآتية : —

— **العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى ط . بيروت ١٩٨١م .** وكانت الطبعة الأولى لنفس الكتاب قد ظهرت فى القاهرة عام ١٩٦٣م ، فى سلسلة المكتبة التاريخية . دار المعارف بالقاهرة . الطبعة الثانية عـــام ١٩٦٧م .

— **الوحدة وحركات اليقظة العربية ابان العدوان الصـــليبى ط . بيروت .**

١٩٨١ • الطبعة الأولى فى القاهرة عام ١٩٦٧ • فى سلسلة المكتبة التاريخية ، دار المعارف بالقاهرة •

— **العدوان الصليبى على مصر ، هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور ط • بيروت ١٩٨١ •**

الطبعة الأولى بالقاهرة عام ١٩٦٩م • الناشر دار المعارف •

— **العدوان الصليبى على بلاد الشام ، هزيمة لويس التاسع على الأراضى المقدسة ط • بيروت ١٩٨١م •**

الطبعة الأولى بالقاهرة عام ١٩٥٦م ، الثانية ١٩٥٩ ، الثالثة ١٩٧١ • أما الطبعة التى ظهرت فى المعرض فهى الرابعة ، بيروت ١٩٨١ •

— من ناحية أخرى ظهر فى المعرض لأول مرة عدة مؤلفات جديدة للدكتور عارف تامر وهى : —

المعز لدين الله الفاطمى ، ط • بيروت ، العزيز بالله • ط بيروت • الحاكم بأمر الله خليفة وامام ومصلح • ط • بيروت ١٩٨٢م • الناشر ، دار الأفاق الجديدة •

وقد احتوى كتاب الحاكم بأمر الله رؤية مدافعة عن عقيدة الدروز أو الموحدين ودافع بشدة عن سلامة اعتقادهم •

— ظهرت فى المعرض مؤلفات د• اسامة زكى زيد مدرس تاريخ العصور الوسطى • جامعة طنطا • وهى : —

— **الصليبيون واسماعيلية الشام فى عصر الحروب الصليبية • القرن الثانى عشر م / السادس هـ • ط • الأسكندرية ١٩٨٠م •**

— **صيدا ودورها فى الصراع الصليبى الاسلامى • ط • الاسكندرية ١٩٨١م •**

— واحتوى المعرض لأول مرة رسالة الماجستير التى أخرجتها الجامعة الأردنية عام ١٩٨١م **لطه ثلجى الطراونة** تحت عنوان : —

« مملكة صفد فى عهد المماليك » .
الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٨٢م
الناشر ، دار الافاق الجديدة .

وقد تناول فى رسالته الحدود الجغرافية للملكة وتاريخها السياسى والمظاهر الحضارية فيها . ويرجع أهمية الكتاب على وجه الخصوص فى تناوله للجانب الحضارى خاصة توزيعات السكان والناحية الاجتماعية والاقتصادية وكذلك الجهاز الادارى .

وأود أن اشير الى نشاط الجامعة الأردنية التى اهتمت فى مجال الدراسات الاسلامية بتناول بعض المدن واخضاعها للدراسة العلمية الأكاديمية فهناك مثلا انتاج بعض الباحثين الذين انتسبوا لها . أنظر : —

محمد عدنان البخيت ، مملكة الكرك فى العصر المملوكى .
ط . عمان ١٩٧٦م
يوسف غوانمة ، تاريخ شرق الأردن فى عصر
دولة المماليك الأولى
ط . عمان ١٩٧٩م .

ومن الأمور المقررة أن جامعة الاسكندرية كانت قد خطت نفس الخطوة من قبل من جانب أ.د. جوزيف نسيم يوسف بحيث يمكننا القول أن مدن أنطاكية وطرابلس وصيدا وقيسارية قد تمت دراستها دراسة تاريخية خلال مرحلة الصليبيات أو فى مرحلة سابقة عليها كمدخل لدراسة الحروب الصليبية . أما جامعة القاهرة فقد تمت دراسة مدينة طرابلس وصور واتجه أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور الى تناول مواضيع ذات طابع سياسى أو تناول مظاهر حضارية خلال مرحلة الحروب الصليبية ولم يتوسع فى تناول المدن بالدراسة .

ظهر فى المعرض ما الفه د. ميشيل جحا عن حركة الاستشراق فى انجلترا والمانيا وايطاليا واسبانيا : —

ميشيل جحا . الدراسات العربية والاسلامية فى أوروبا

النشر من جانب معهد الانماء العربى — ليبيا

ط . بيروت عام ١٩٨٢م

وبحكم أن الباحث قد درس دراساته العليا فى المانيا فقد قدم فى كتابه تناولا موفقا لحركة الاستشراق فى المانيا على نحو يميز دراسته على نحو خاص . ومن خلال ثبت المراجع نجد أنه استعان ببعض الأبحاث التى كتبت باللغة العربية بالألمانية وترجمت الى العربية : —

— البرت ديتريش ، الدراسات العربية فى المانيا .
ط . فسبادن عام ١٩٦٢ ، ط ١٩٦٨ .

— روتر ، الدراسات العربية الاسلامية .
بجامعة توبنجن ت . كمال رضوان . ١٩٧٤ .

— صلاح الدين المنجد . المستشرقون للألمان
ط . بيروت ١٩٧٨ .

ومع ذلك فهناك بعض الدراسات الهامة والتى كتبت فى مجلدات متناثرة متعددة الاهتمام بالنواحى الأدبية والمباحث التاريخية ، ولم يطالعها الباحث على الرغم من أهميتها وصدور بعض منها قبل ظهور كتابه القيم فى عـــام ١٩٨٢م .

انظر مثـــلا : آخر بحث علمى باللغة العربية عن حركة الاستشراق الألمانى قام به أحد الباحثين الألمان هو : —

أولريش هارمان Ulrich Harmann

مدير المعهد الألمانى للأبحاث الشرقية فى بيروت

In stitut der Deutschen Morgen landischen Gesellschaft

— **أولريش هارمان ، الاستشراق الألمانى**
منجزات ومراجعة مواقف .
مقالة مستخرجة من مجلة الباحث

السنة (٥) العدد (٢٥) الصـــادر فى يناير — فبراير ١٩٨٣م • من ص١٤٣ — ص١٥١ •

قدم فيها هارمان عرضا رائعا لحركة الاستشراق الألمانى ودوافعها على نحو مختصر •

أيضا هناك دراسة أ . د. عز الدين اسماعيل .

— **عز الدين اسماعيل « ملخص الاستشراق فى المانيا » •**

مقالة مستخرجة من حوليات كلية الآداب — جامعة عين شمس م (٧) عام ١٩٦٢ من ص٢٤٩ — ص٢٥٤ •

— ثم أخيرا دراسة قام بها د. مراد كامل .

— **مراد كامل « العلماء الألمان والدراسات العربية »**

مقالة مستخرجة من مجلة « المجلة »

السنة (٨) العدد (٩٨) •

مايو ١٩٦٤ •

من ص٤٠ الى ص ٥١ •

تتناول فيها حركة الاستشراق الألمانى فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر وبدايات القرن العشرين وتمتــاز المقالة بتنوعها ، فلم تقتصر عــلى الدراسات التاريخية فقط بل احتوت مجهودات المستشرقين الألمان فى مجالات التاريخ الاسلامى ، والنقوش العربية والأوراق البردية والدراسات التاريخية بعامة ، والأدب الشعبى والشعر واللهجات العربية وتاريخ القرآن والفقه والحديث وكتب السيره . والجغرافية وحتى الطب والعلوم الطبيعية .

الباحثون الايطاليون ودراســة التاريخ العربى للمستغرب الابطالى للاستاذ اومبرتو ريتستانو

ترجمة عن الايطالية / عيسى الناعورى

مجلة مجمع اللغة العربية الأردنى

— ظهر فى المعرض كتاب **المؤرخة « هسى » العالم البيزنطى**

Hussey, The Byzantine World, London 1957.

فى ترجمة عربية وفى طبعة جديدة هى الطبعة الثانية .

ترجمة د. رأفت عبد الحميد أستاذ مساعد التاريخ الوسيط بكلية الآداب . جامعة عين شمس . كانت الطبعة الأولى قد ظهرت من دار نشر سعيد رأفت عام ١٩٧٧م .

أما الطبعة الأخيرة التي ظهرت في المعرض فهي **طبعة القاهرة ١٩٨٢م . الناشر دار المعارف بالقاهرة .**

أما الترجمة فتمتاز بالسلاسة والدقة وقد قام الباحث بتعليقات على النص الأصلي لهسي محيلا فيها القارىء الى المصادر الأصلية اليونانية واللاتينية للتاريخ البيزنطي . ويفيدنا الكتاب فيما يتصل بمشاركة الامبراطورية الرومانية المتأخرة The later Roman Empire في النشاط الصليبي وآثار الحملة الصليبية الرابعة بالذات .

— احتوى المعرض لأول مرة على الترجمة العربية لكتاب الأستاذ / ر — س سمايل R. C. Smail

Smail, Crusader warfare, Cambridge 1954

ترجمة سامي هاشم ، تحت عنوان الحرب الصليبية ،
ط بيروت ١٩٨٢ . الناشر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

ويعتبر هذا الكتاب من أهم أعمال سمايل وأول عمل يترجم له الى اللغة العربية .

أما أعمال سمايل فهي كالآتي : —

Smail, Military Methods employed by the latin states in Syria, 1097. 1192 -Diss. For ph. D., Cambridge 1947.

وهو مؤلفه الأساس الذى حصل على درجة الدكتوراة به من جامعة كمبردج .

وله دراسة عن القلاع الصليبية في القرن الثاني عشر ، انظر :

Smail, «Crusades Castles of The Twelfth Century» Cambridge Historical Journal Vol. X, 1951, pp. 133-149.

وأيضا له دراسة عن الصليبيين في سوريا والأرض المقدسة .

Smail, Thee Crusaeders in Syria and the Holy land, London 1973.

وهذه الدراسة هى أحدث ما وصلنا من أعمال الأستاذ سمايل .

مما سبق يتضح لنا أن هذا العمل الذى ترجمه سامى هاشم هو أول عمل له يترجم الى العربية . غير أن الترجمة أحيانا لا نجدها بصورة سلسلة متتابعة السياق ، ولم يضع المترجم أية تعليقات على نص سمايل ولم يحيل القارىء الى أى دراسة عن الصليبيات ، بل لم يقدم المؤرخ الانجليزى وكتابه للجمهور أو الباحثين . ومع ذلك فالثابت أن المترجم بذل جهدا فى نقل النص الانجليزى على صعوبته لاحتوائه على الكثير من التعبيرات الاصطلاحية والجوانب الأثرية الدقيقة التى يفيض بها الكتاب .

ذلك كان عرضا موجزا لأهم المصادر والمراجع التاريخية التى تناولت مرحلة الحروب الصليبية والأمل معقود على نشاط حركة النشر فى دور النشر العربية لتخرج الى الضوء العديد من الأبحاث الهامة التى تناولت تلك المرحلة الهامة والحيوية من تاريخ أمتنا العربية .



عرض ونقد كتاب تاريخ المغرب ــ محاولة فى التركيب
تاليف عبد الله العروى

سنوسى يوسف ابراهيم
مدرس مساعد بقسم التاريخ
كلية الآداب ــ جامعة عين شمس



ان محاولة عرض وتقييم واحد من الكتب التاريخية ــ فى اعتقادى ــ لمهمة شاقة تحتاج الى الكثير من المعرفة ، وبخاصة منهجية البحث التاريخى بدءا من هوية المؤلف ، ومرورا بالعلوم المختلفة التى تنير الطريق للباحث ، وانتهاء بشمولية الفكر لتفسير الأحداث ، وقبل كل ذلك لابد من أساس ضرورى وهو المعرفة الكاملة بالمصادر الأصلية التى كتبت عن الفترة التى يتناولها الكتاب ؛ كما أن عرض كتاب ونقده مثار جدل ؛ اذ يرى البعض أن الاختلاف مع المؤلف فى تفسير بعض الأحداث ، وعدم التأكيد على صواب تفسيراته وما وصل اليه من نتائج هو هجوم على المؤلف .

واذا كان الكتاب موضوع العرض متعلقا بتاريخ شمالى افريقيا (المغرب) الذى ما زال يحتاج الكثير والكثير من الجهد للتعرف على حقيقته ؛ كما أنه ليس تاريخا لفترة معينة ــ على عكس ما اعتاد المتخصصون فى حقل البحث التاريخى فى تآليفهم ــ وانما تاريخا للمغرب بمختلف عصوره ، منذ أن ترك لنا الانسان بعض آثاره اما حفرا ونقشا ، واما آثارا وكتابة ، وحتى العصر الحاضر الذى دونت أحداثه بالعديد من وجهات النظر حتى كادت الحقيقة أن تضيع بين هذه المفاهيم المختلفة ، مما زاد الأمر عسرا .

ولقد سرت مع المؤلف وصفحات كتابه الطريق كله ، بدءا بالمقدمة التى حدد فيها الهدف من تأليف الكتاب ، واخراج أفكاره من الظلمات الى النور عبورا بالأحداث فى سرعة ما اتفقت مع المصادر الأصلية ، وقوفا فى نقاش وحوار مع المؤلف اذا حاد فى تفسيراته ــ من وجهة نظرى ــ عن الحقيقة التاريخية الموثقة بالمصادر الأصلية ، أو اذ استخدم حدثا واحدا ليجعل منه نظرية تطبق على الفترة بكاملها ، غافلا غيره من الأحداث التى لا تخدم وجهة النظر التى يريد اثباتها ؛ فيشوه بذلك الحقيقة التاريخية ، ويحيد عن الموضوعية ؛ حتى نصل فى النهاية لما استخلصه المؤلف من الكتاب .

ولست فى حاجة الى القول أن مثل هذا العمل قد بذل فيه من الجهد والوقت الكثير ، كما أنه ، لا شك ، قدم فائدة كبيرة لكل المهتمين بدراسة تاريخ المغرب قديمه ووسيطه وحديثه ، ودليل صدق يؤكد بوضوح مدى ثقافة المؤلف وسعة اطلاعه ، وبخاصة على كتابات المستشرقين . فاذا كان تركيزى فى عرض الكتاب على الرد على بعض تفسيراته ؛ التى هى فى اعتقادى تجانب الصواب ، أو محاولته ثنى ذراع الحقيقة التاريخية

ليستقرئها ما يريد أن يثبت ، أو لتحقيق هدف أعد الكتاب من أجله ؛ فحاد بذلك عن حيادية المؤرخ وموضوعيته ، فان هـذا لا ينقص من قيمة الكتاب والجهد الذى بذل فيه ، وما قدمه لنا مؤلفه من أفكار جديدة وجريئة فى بعض الأحيان ؛ فان جانب بعضها الصواب ؛ فكفى أن البعض الآخر كان جديدا لم يسبقه اليه غيره ، حتى اذا كان هذا الجديد فكرة واحدة أو تفسيرا فريدا .

فلماذا وضع المؤلف كتابه ؟ يقول المؤلف انه وضع الكتاب للرد على المستشرقين الذين افترضوا فرضيات جريئة دون سـند حقيقى من أقوال المؤرخين المعاصرين (١) ، ثم تداول هذه الافتراضيات كل الذين جاءوا من بعدهم على أنها حقائق مؤكدة ، كما بالغوا فى تقديرها وبخاصة ما كتب منها بالفرنسية ، دون نقد أو تمحيص أو الاطلاع على المصادر الأصلية ؛ لأنهم يجهلون العربية والبربرية . ويشكك المؤلف فى مدى المستشرقين على البحث التاريخى ، لأن معظم من كتبوا منهم عن تاريخ المغرب — حسب قوله — اما موظفون ذوو طموحات علمية ، أو عسكريون اتخذوا من الثقافة هواية ، أو مؤرخون فى الفن وليس فى التاريخ ، وكلهم دون اعداد لغـوى ؛ واما لغويون وعلماء آثار بدون اعداد تاريخى ، ومن أجل هذا فكر المؤلف فى تقديم وجهة نظر أحد المغاربة فى تاريخ وطنه ، كما يقوم « بانتقاد المؤرخين الأجانب بقسوة شديدة » (٢) . ويحدد منهجية دراسته بأن كتابه ليس اعادة رواية التاريخ بقدر ما يعنى بابن المغرب اليوم فى محاولة لربطه بماضـيه عـلى مر العصور .

ويقسم المؤلف تاريخ المغرب منذ القديم وحتى الوقت الحاضر الى أربع حقب — متناسيا التقسيم الذى اتفق عليه مؤرخو الغرب والشرق — الحقبة الأولى يبدأها من عصور ما قبل التاريخ ، وتنتهى فى القرن الثامن

---

(١) رغم قوله هذا فانه يشكك فى مصـادر تاريخ المغرب بعصـوره المختلفة ؛ كما أن الموجود منها فيه نص كبير بدرجة لا يمكن الاعتماد عـلى هذه المصادر فى كتابة تاريخ المغرب ، وعلينا أن ننتظر حتى اكتشاف مصادر جديدة حتى يتاح لنا كتابة هذا التاريخ .

(٢) وان اسـتثنى من هؤلاء المؤرخين المستشرق الفرنسى جوليان **Julien** الذى كان للمؤلف صديقا ، ولمعظم المغاربة أستاذا ، وكـان ليبراليا ومناضلا ضد الاستعمار .

الميلادى ؛ حينما أخذ المغرب يتخلص من حالته كموضوع ، وتعرف على نفسه فى حركة أيديولوجية ذات خاصية دينية (ويعنى بها ثورة البربر على الولاة الأمويين سنة ١٢١هـ) فانطلق منها لتكوين المدن — الدول ، والامارات ثم الامبراطوريات ؛ فكان تاريخ المغرب منـــذ ذلك الوقت مختلطا بتاريخ تلك الحركات الايديولوجية ، وهى الحقبة الثانية ، التى تمتد عند المؤلف حتى القرن الرابع عشر الميلادى . أما الحقبة الثالثة ؛ فهى التى كان فيها نتاج المؤرخين متماشيا مع عواصم السلطات المتعددة (أى الدول المستقلة) التى قامت فى المغرب ، ولا تدين للانشـــقاقات الدينية بشىء ، واتخذ هـــؤلاء المؤرخين من حياة عواصم هذه السلطات فى فاس وتلمسان وتونس موضوعا لتأريخهم ؛ فى وقت بدأت فيه علاقات مع عالم جديد يتزايد خطره ، ثم تجىء الحقبة الرابعة مع بداية القرن التاسع عشر الميلادى حيث يظهر نتاج فئتى المؤرخين الاستعماريين والقوميين ، اللتين تتعارضان على الأقل فى تعبيرهما عن الحقيقة الواقعة . ويرى المؤلف فى تقسيم التاريخ الى أحقاب تبعا لنتاج المؤرخين السياسى كوسيلة لترتيب التاريخ وعرضه ؛ وليتخلص المؤرخ على الأقل من منهجية الازدهار والانحطاط ، وكتابة التاريخ على نظام الأسرات ، فلا يكون منطق العرض خاضعا أو ممزوجا بمنطق الوقائع نفسها .

ويبرر المؤلف اختياره لهذا التقسيم فى تاريخ المغرب على وجه الخصوص ؛ بأنه يتيح التفرقة بين المستويات المتعاقبة للاقتصاد والمجتمع ، والتنظيم المتعلق بالدولة والثقافة ، ويساعد المؤرخ فى تجنب عثرات عديدة منها تقسيم تاريخ المغرب الى عصور قرطاجية ، ورومانية وفندالية وبيزنطية وعربية وتركية وفرنسية ، وحتى لا يصور المغرب على أنه أرض المنازعات بين كيانين غير محددين هما الشرق والغرب ، وليس الدينان المسيحى والاسلامى ، واللغتان اللاتينية والعربية سوى مظاهر لهذين الكيانين .

ويعيب المؤلف على المؤرخين المحدثين تقسيم تاريخ المغرب الى فترات ثلاث فى اطارها الضيق المحدود ؛ فهم مثلا يميزون بين فترة كلاسيكية تمتد من القرن السابع مع انتشار الاسلام ، وحتى نهاية القرن الرابع عشر ، عن الحقبة الطويلة التى تتلوها ، وهى اختفاء المغرب عن المسرح ، والهزائم المتتالية فى اسبانيا ، وتعديات الدول على أرض المغرب ؛ ولهذا يرى اما أن يؤخذ بالتقســـيم الذى اختاره ، واما أن ننتظر حتى يتطور نتاج المؤرخين

اقتصادى واجتماعى حتى يمكن كتابة تاريخ المغرب وتقسيمه الى فتراته على هذين الأساسين .

وقد اختار المؤلف عناوين للحقب الأربعة ليست أكاديمية شاملة جامعة مانعة بقدر ما هى براقة ؛ فاختـــار للفترة الأولى عنوان : المغرب تحت السيطرة ؛ بداية من قبل التاريخ ، وانتهاء بقيام الدول المستقلة (الرستميين ، المدراريين ، الادارسة ، الأغالبة ، برغواطة) مرورا بالفتح العربى لبلاد المغرب ، دون تفرقة بين احتلال المغرب على أيدى سادة الغرب ، وتحول أهل المغرب الى الاسلام ، وأثر هذا الفتح الذى غير تاريخ المغرب كلية .

وتأخذ الحقبة الثانية : عنوان المغرب الامبراطورى ، وهى التى تبدأ بقيام الدول المستقلة وتنتهى بالقرن الرابع عشر الميلادى أى بعد فترة من قيام دولة بنى مرين ؛ معطيا تركيزا خاصا على الربط بين الاسلام والتجارة فى القرن التاسع الميلادى ، ثم عرض فى عجالة لتاريخ الدول المســـتقلة ، عارجا بعد ذلك على محاولتى المرابطين والموحدين ؛ ناعتا اياهما بمحاولة للوحدة ، ناهيا هذه الحقبة باخفاق هذه المحاولة .

أما الحقبة الثالثة فهى بعنوان : توازن الانحطاط ، وتبدأ حيث تنتهى الثانية ، وتنتهى مع بداية القرن التاسع عشر الميلادى ، ويناقش فيها بقية الفترة التى عاشتها الدول المستقلة ، وتعرضت فيها لمحاولات صليبية من الغرب المسيحى ؛ فاستجابت للتحدى حينا ، ثم ما لبثت أن شغلت بالصراع فيما بينها حتى أنهكت قواها فى الوقت الذى زادت فيه قوى الغرب ومحاولاته الاســـتيلاء عـــلى المغرب .

والحقبة الرابعة اختار لها عنوان : المغرب الاستعمارى ؛ حاول فيها توضيح المحاولات الاستعمارية للمغرب من دول الغرب المسيحى ؛ فصمد المغرب أول الأمر ، ثم ما لبث أن انتصر المســـتعمر ، ثم يعرض بعد ذلك لمحاولات التجديد فى المغرب بعد تحرره من الاستعمار .

ويبدأ المؤلف الحقبة الأولى بمناقشة آراء المستشرقين التى دارت حول البحث عن أصول سكان المغرب ، من أمثال س . قزال J. C. Gsell بالوت L. Balaut ، ج . كامبس G. Camps وغيرهم ، مبينا أن

مصـــادر هؤلاء هى النقوش الليبية الفقيرة فى معلوماتها ، والتى مازالت رموزها لم تفك حتى الآن ؛ الى جانب المصادر الأدبية اليونانية واللاتينية ذات التلميحات صعبة التفسير ، والتى تهتم بكل ما هو غريب وعجيب فى التاريخ ؛ لأن كتابها أدباء وليسوا مؤرخين ، وكذلك الاماكن الأثرية التى لم تلق عناية كافية للحفاظ عليها فحسب ؛ وانما عانت من عبث وتدمير الكثيرين من الهواة فى هـــذا المجـــال

أما ما يقدمه علماء الآثار ، وعلماء السلالات البشرية ، وعلماء اللغات من معلومات لتنير السبيل فى البحث عن أصول البربر ؛ فليست سوى فرضيات جزئية مشكوك فى صحتها . ويخرج من نقد المستشرقين ومناقشته لآرائهم بفرضـــية عن أصـــل البربر لا تعتمد على براهين من النوع الأخرى الذى لا يدحض ؛ والذى يطالب به كل من خاضوا فى بحث هذا الأمر ؛ ولنا الخيار فى أن نقبل هـــذا الافتراض ، واما أن ننتظر المســـتقبل وما يأتى به من اكتشافات تكون لنا عونا على كتابة تاريخ المغرب فى هذه الفترة .

ثم يأتى للفترة التى شملت فترات حكم الفينيقيين واليونانيين والرومان والفاندال والبيزنطيين ، ليؤكد أن هذه الفترة كاملة غير معروفة لنا الا من خلال الأدب اليونانى اللاتينى الذى اهتم فى الدرجة الأولى بالحاكمين ولبس بالمحكومين ؛ فيكون ما ذكر فيها تاريخا للقرطاجين وغيرهم من الذين احتلوا شمالى افريقيا ، وليس تاريخا للبربر ، وبذلك يكون البربر موضوعا لمعرفة غير مباشرة ؛ اذ يجرى التعرف عليهم من خلال القرطاجيين الذين نعبر عنهم أعين الرومان ؛ أما المصدر الوحيد فى هذه الفترة الذى يمكن أن يمدنا بمعلومات توضح القليل من الحقيقة هو التشريع الرومانى الذى يسمح بتكوين فكرة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى الجزء المحتل من البلاد — وهو الشريط الساحلى — وليس كلها ، وعلى وجه التحديد حياة كبار الملاك ورجـــال الكنيسة وبعض المدن فى هذا الجزء ، أما الساكن الأصلى ، الذى لم نجد وسيلة حتى الآن للتعرف عليه أو لسماع حكمه عن الدور الحضارى الذى قامت به روما ، وتغنى به كل من كتبوا عن هـــذه الفترة بحماس لا حد له ، فيمكن تخيله فى المراعى وفى أعالى الجبال أو محاصرا فى الأوراس ، أو مطاردا فيما وراء الحدود الرومانية ؛ باذلاً كل ما فى وسعه من جهد ليدفع ما عليه من المحصول كل حول .

ويجادل المؤلف المستشرقين الذين كتبوا عن هذه الفترة — وهم جميعا فى نظره أصحاب رؤية استعمارية ، وهم جميعا يسقطون فى تفسيراتهم أوضاعا لاحقة على الماضى الذى لا يملكون عليه دليلا — لأنهم عملوا على تأكيد « أن شعب البربر مجرد تماما من كل مبادرة » وأن كل ما عرفه أهل المغرب من زراعة وصناعة ، وكل مقومات الحضارة حتى الأبجدية نفسها جاءتهم من خارج الحدود ، وليست من ابتكارهم ، ويحاول اثبات — دون دليل وثائقى ، وباستخدام المنطق وحدة ، ورفض كل ما قدمته مصادر تلك الفترة ؛ لأن مؤلفيها قليلى الاطلاع على حد تعبيره — أن الضرورة هى التى ألجأت سكان الشمال الافريقى ودفعتهم الى معرفة الزراعة ، وانتاج الحبوب بكثرة ، وعلى استنتاجه هذا يمكن أن تقاس بقية الأشياء الأخرى من صناعة ومقومات الحضارة .

ويأتى المؤلف الى تحول البربر الى المسيحية مؤكدا انتشارها بينهم بدرجة كبيرة حتى غدت افريقية أرض المسيحية الممتازة أكثر حتى من اسبانيا أو بلاد الغال من نواح كثيرة ؛ وأن الاكتشافات الأثرية والكتابية تشهدان بتعميق العاطفة المسيحية لدى البربر ؛ الا أنه يناقض نفسه ثانية عندما أراد أن يقدم تفسيرا لحدث آخر ؛ فيقول بأن المسيحيين كانوا نادرين فى الشمال الافريقى ، ويخلص فى النهاية الى القول بسطحية التنصير وبنية المسيحية فى افريقية ، وأن المسيحية بها جذبت اليها جموعا من البؤساء سعيا وراء تبرير تعاستهم ، وأن المسائل الدينية لم تكن تحتل مكانا عظيما فى السياسة الامبراطورية وفى حياة الناس اليومية أيضا .

ويرى أن تحول البربر الى المسيحية ، وبخاصة العقيدة الدونانية مسألة وطنية بحتة ، وصبغة من الثأر ضد الأغنياء والامبراطورية ، ويؤكد أن كل ثورة أو تمرد قام به سكان الشمال الافريقى كانت للاسباب الاقتصادية وحدها ، وأن نجاح بعض هذه الثورات — ولو الى حين — ارضاء الميول العلمانيين والديمقراطيين من اليسار المعادى للاستعمار ؛ وكأن الوطنية كانت وقفا على هذين الحزبين دون غيرهما . ثم يقر فى النهاية بحقيقة أن الثورات فى تلك الفترة لا تدل على وعى قومى أو اجتماعى .

ثم يجىء الفاندال الفاتح الجديد ليطرد المستعمر القائم ، دون أن يغيروا فى البنى القائمة ، أو يزيدوا من رقعة الأرض ؛ اذ عاشوا فى نفس

نطاق افريقيا الرومانية الا أن قائدهم غير من أفراد الطبقات ؛ اذ كـان على الاريوسية ؛ فصادر أملاك كبار الملاك وكبار رجال الكنيسة لمصالح أنصاره ؛ فاستعدى عليه الأخيرون رجال الدين فى بيزنطة ؛ فضغط هؤلاء بدورهم على الامبراطور البيزنطى حتى أرسل جيوشه واسترد المغرب ، ومن ثـم أعاد للكنيســة أملاكها ، وللملاك الرومان اقطاعياتهم ، وبرث البيزنطيون نفس ما ورثه الفاندال عن الرومان بما فيه المصاعب السياسية والعسكرية . ويؤكد المؤلف أن أنظار رجال الدين فى افريقية ما اتجهت الى بيزنطة الا لأن مصالحهم الاقتصادية قد أضيرت ، دون أى اعتبار للخلاف المذهبى ، وأن جوستنيان ما استرد الشمال الافريقى الا رغبة فى ارضاء رجال الدين داخل عاصمته ، دون أسباب أخرى .

ويصور المؤلف العرب ــ دون ذكر اسمهم صراحة ــ بأنهم جماعة من البشر اتحدوا فى دولة حول عقيدة ، وعندما وصـلوا الى المغرب ليخلفوا السابقين ، ويتصرفون فيه كوارثين استخدموا نفس مناهج المستعمرين السابقين ، وحاكوا البيزنطيين ؛ فعانوا نفس المصـاعب مع السـكان الأصليين . ويرى فى الفتح العربى للمغرب انتصارا سهلا على الحكـام الأجانب ، وفتح عسير للمحكومين أهل البلاد الأصليين ، وأن العرب احتلوا نفس الجزء الذين سيطر عليه المستعمرون السابقون ، وأن هذا النحو لم يبتكر جديدا ، ولم يكن له أثر فى تشكيل سكان البلاد حتى منتصف القرن الثامن الميلادى ، وانتهى الأمر بالعرب الى التحديدات التى وضعها السابقون .

ولم يقدم لنا المؤلف أسبابا لطول مدة الفتح العربى للمغرب (الذى سماه فتحا عسيرا) سوى شدة وصلابة أهل البلاد ؛ مع أن طول مدة الفتح كان لها فى اضطراب أمور الخلافة مرات سببا ، وفى طبيعة سكان بـلاد المغرب وجغرافية أرضه آخر ؛ فالنظام القبلى الذى هو طبيعة البربر والذى يحاول المؤلف جاهدا نفيه عنهم ، وعدم وجود حكومة مركزية تسقط البلاد بسقوطها كان ضمن أسباب طول مدة الفتح ؛ فكلما قضى العرب على قوة قبيلة ظهرت لهم أخرى وهكذا دواليك . أما قوله بأن العرب احتلوا نفس الجزء الذى سيطر عليه المستعمرون السابقون ؛ فقد بعد بذلك عن الحقيقة ؛ فقد انساب العرب فى البلاد وتوغلوا فى الصحارى ، وعاشوا بين السكان الأصليين واختلطوا بهم ، واليهم يرجع الفضل فى ربط الصحراء بالشـمال الافريقى ، وقصة الفتح تملأ المصادر التاريخية ؛ وان كان المؤلف يشكك فى

صدق هذه المصادر . أما قوله بأن العرب عاملوا البربر نفس معاملة الذين استعمروا المغرب قبلَ ذلك من استغلال واذلال ؛ فماذا هو قوله فى مشاركة البربر للعرب فى فتح بقية المغرب وفى فتح الاندلس ، بضمهم جنودا فى الجيش العربى على أن يكون لهم ما للعرب ، وعليهم مثلهم ، وأن يكون من البربر قادة للجيوش من أمثال طارق بن زياد وغيره . أما أن يتخذ المؤلف من شواذ ولاة المغرب أساسا للقياس ؛ فقد عمم القليل على الكثير ، وحاد عن موضوعية المؤرخ . فان كان عبيد الله بن الحجاب أساء ، فان غيره من الولاة كثير احسنوا معاملة البربر ، وعاملوا من أسلم منهم على قدم المساواة مع العرب الفاتحين ، ومن امثال هؤلاء عقبة بن نافع وأبو المهاجر دينار ، وحسان ابن النعمان ، واسماعيل ابن عبيد الله الذى أسلم على يديه الكثير من البربر والذى كان حسن السيرة بشهادة غالبية المؤرخين المعاصرين .

ويستخلص المؤلف أن الغنيمة وحدها كانت غاية العرب الفاتحين ، ولم يكن فى النفوس سوى المال هدفا ؛ فلم يكن المغرب أكثر ثراء من مصر آنذاك ، وقد بدأ فتح المغرب فى عهد الخلفاء الراشدين حيث كانت الحمية الدينية ما زالت فى النفوس ، وشارك كثير من الصحابة فى هذا الفتح ؛ فاذا كانت الغنيمة واحدا من الأسباب أو غاية بعض العرب الذين شاركوا فى الفتح ؛ فلم تكن كل الأسباب أو غاية كل العرب كما يريد المؤلف أن يصور .

ويشكك المؤلف بالمنطق وليس اعتمادا على المصادر فى وصول عقبة بن نافع الى المحيط الاطلنطى أو بحر الظلمات رغم ما ذكرته المصادر التاريخية لهذه الفترة من حصار قبائل مسمودة التى تقطن هذه النواحى لعقبة وجيشه ، وما أنقذه من هذا الحصار الا قبائل بنى عبد الواد الزناتيين الذين تحولوا الى الاسلام من قبل ، ثم يناقض نفسه فيما أراد أن يشكك فيه حين تعرض لغزوات موسى بن نصير قائلا بأن سلك نفس الطريق الذى سلكه عقبة حتى طنجة ، ومن الثابت جغرافيا أن طنجة بالمغرب الأقصى المطل على المحيط .

ولم يكتف المؤلف بالتشكيك فى المصادر التاريخية لهذه الفترة وسابقيها ولاحقيها أيضا ، وانما أمدنا بمعلومات استنتاجية ليس لها فى المصادر التاريخية وجود حين يذكر أن هجوما بربريا مضادا أكره زهير بن قيس البلوى على اخلاء القيروان بعد أن استردها من الزعيم البربرى كسيلة وقضى على قوة البربر المناهضة آنذاك . فكيف يعتمد على المصادر التاريخية التى

كتبت عن الفتح العربى للمغرب ، وهى من وجهة نظره متأخرة وتستند الى أحاديث شفوية من أصول متنوعة ، كما أن كتب المغازى فهى من عمل فقهاء اهتموا فقط بالشروط التى اعتنقت بها الولايات الاسلام . ولذا فهو ينتظر النصوص البيزنطية التى لم تنشر بعد — رغم أنه شكك فى صدق هذه النصوص عندما تحدث عن المغرب تحت حكم البيزنطيين — لأنها اصدق قولا .

أما عن تحول البربر الى الاسلام ؛ فانه يرى أن الفتح العربى كان فى جوهره اعترافا بالسيادة ، ولم يعن لا الدخول فى الاسلام ، ولا التقريب بين الحاكمين والمحكومين ، وأن المسألة منذ بدايتها سياسية أكثر منها دينية ، ويلمح بأن البربر أجبروا على اعتناق الاسلام بقوله « ان الاسلام لا يقر الاكراه فى اعتناق الدين ، وبخاصة فيما يتعلق بأهل الكتاب ، وبالمقابل فان الوثنيين هم مجبرون على الاهتداء بالدين ؛ فاعتناق الدين الجديد أخذ شكل الاعتراف بالسيادة » (٣) وان العرب لم يقدموا جديدا لم يكن لدى البربر الا طريقة خاصة لعبادة الله ليس مؤكدا أن البربر احسوا بكل جدتها . ويرى العرب مستعمرين كالفاندال والبيزنطيين لم يتركوا أثرا فى المغرب (٤) ، ثم يناقض نفسه ليقول ثانية « ان التأثير العربى كان يتجاوز كثيرا تأثير البيزنطيين » (٥) .

ويعتقد أن المغرب استعاد استقلاله الذاتى بثورة البربر سنة ١٢١هـ / ٧٤٠م على ولاة بنى أمية تحت راية الانشقاق الدينى ، دون أن يحدد لنا مفهوم هذا الاستقلال — فهو يستعمل اصطلاحات حديثة كثيرة لم يكن لها وجود فى العصور الوسطى بنفس المعنى فى العصر الحديث مثل هذه الكلمة وكلمة اليسار وغيرهما — فهل الاستقلال الذى يعنيه هو التخلص من سيطرة الخلافة الأموية ، وذلك لم يكن هدف الثورة وقت قيامها (٦) أم التخلص من الوالى العربى ، واستبداله بآخر من أهل البلاد ؟ ؛ فاذا كانت الأولى فقد صدق ، أما اذا كانت الثانية فكيف يكون المغرب استعاد استقلاله ؟ وكان على رأس دولة الأغالبة فى افريقية والتابعة للخلافة

---

(٣) ص ٧٧ — ٧٨ .
(٤) ص ٩٠ .
(٥) ص ٩٢ .
(٦) أنظر بعده .

حاكم عربى وادارة عربية ، وفى تاهرت بالمغرب الأوسط عبد الرحمن بن رستم الفارسى ، وفى فاس بالمغرب الأقصى الادارسة وحولهم القرويين والاندلسيين من العرب ؛ وفى برغوطة بأقصى المغرب الأقصى فى بلاد تامسنا دولة صالح بن طريف غير معروف النسب .

ولأن المؤلف يرى أن المغرب استعاد استقلاله بهذه الثورة التى أنهى بها الحقبة الأولى من تاريخ المغرب ؛ فانه يعتبر كل ما سبقها من قرون وما تحتويه من أحداث هو تاريخ الأجانب على الأرض المغربية .

ونفتقل مع المؤلف الى الحقبة الثانية التى تمتد من القرن التاسع الى الرابع عشر الميلادى لنرى المغرب الامبراطورى كما يسميه ؛ اذ يرى أن هذه الحقبة تشكل وحدة لأن ارادة امبراطورية ظهرت الى الوجود ؛ فقد اتحد المغرب لأول مرة — بعد تجارب عديدة — تحت اسم فكرة دينية . فهل كانت هذه وحدة كما يسميها أم قبيلة زادت العقيدة الدينية من قوتها ، وقضت على العصبية القبلية بين بطونها ، والمنافسات بين زعمائها ؛ ففرضت سيطرتها على بعض القبائل الأخرى ، وضمت اليها مضاربها ، دون أن تذوب هذه القبائل مع بعضها ، وظل ولاء الأفراد للقبيلة وحدها ، دون احساس بوجود الدولة القائمة . وما أن انتقلت الخلافة الفاطمية الى مصر وأخذت معها الكثير من قبيلة كتامة حتى عاد المغرب الى طبيعته من تفكك وحياة قبائل كل تتبع زعيمها وتكون لها امارة بالسيطرة على قطعة من الأرض لمدة قرن من الزمان ، ثم أعادت قبيلة اخرى الكرة تحت فكرة دينية جديدة ومذهب مالكى لتسود على المغرب الأقصى وبعض المغرب الاوسط وتنطلق الى الاندلس ، وبعد قرن تضعف قوتها ليزيحها ائتلاف قبائلى آخر ويحل فى السلطة محلها ، ويضم مساحات وقبائل أخرى لسلطانه ؛ لتكون له نفس النهاية على أيدى قبائل داخل الدولة اشتد ساعدها ؛ فأقامت لها دولا على اجزاء من دولة الموحدين ، وحاول أحد سلاطين واحدة من هذه الدول أن يضم بقية الدول المستقلة لطاعته ويفرض الوحدة على المغرب من جديد ؛ فباءت المحاولة بالفشل ، ولم تقم لها قائمة مرة أخرى .

ويرجع المؤلف فشل المغرب فى وحدته الى عدم وجود مذهب اسلامى مستقيم الصحة ، ومحدد بوضوح — وليس الى النظام القبلى السائد فى المغرب بما فيه من ولاء للقبيلة وليس للدولة القائمة آنذاك ، وعدم ارتباط

بالأرض نفسها لأن طبيعة الكثير من قبائله حياة البداوة بما فيها من طعن. ونرحال — فهو يرى أن المذاهب الاسلامية جربت جميعها الواحد بعد الآخر من خارجى وزيدى وشيعى ومالكى وموحدى ، رغم أنه من الثابت تاريخيا أن القبائل البربرية لم تقم دولا الا بعد التفاف بعضها أو واحد منها حول مذهب دينى ثم تفرض الوحدة بعد ذلك على غيرها من القبائل ؛ فتكون محاولة الوحدة كما يسميها . فقد كانت دولة الخوارج فى تاهرت على المذهب الاباضى وقبيلتى نفوسة وبنى يفرن الزناتيين ، ودولة الخوارج فى سجلماسة على المذهب الصفرى وقبيلة مكناسة ودولة الادارسة على المذهب الزيدى وقبيلة أوربة ثم مغراوة ، والدولة الفاطمية على المذهب الشيعى وقبيلة كتامة ثم صنهاجة الشمال ، ودولة المرابطين على المذهب المالكى وصنهاجة اللثام ، ودولة الموحدين على المذهب الموحدى وقبيلة مصمودة .

والمؤلف يرى أنه مضطر الى تمييز المستوى السياسى الدينى لأنه المستوى الذى يمكن أنه يحظى بدراسة أفضل بالوثائق ، وهذه الوثائق من وجهة نظره لن تقدم — على أحسن وجه — الا نصف الحقيقة ؛ لأن التاريخ الاقتصادى هو وحده المفسر ، وهو متعذر التحقيق فى الوقت الحالى لعدم وجود مصادر تتناول الجانب الاقتصادى .

ولاهتمام المؤلف بالاقتصاد على اعتبار أنه المفسر الوحيد للتاريخ — فى منهج المؤلف — فانه يربط بين التجارة ونشر الاسلام فى المغرب بصلة وثيقة (٧) ، ويصور الدولة المستقلة (برغواطه ، الادارسة المدراريين ، الرستميين ، الاغالبة) على أنها مستعمرات تجارية . ويعرض لتاريخ كل منها فى ايجاز وبطريقته ، فيزعم أن ادعاء صالح بن طريف يرجع لايديولوجية شيعية ، على عكس ما ذكرته المصادر من أنه كان خارجيا عمل مع ميسرة المطغرى فى ثورته على ولاة بنى أمية ، وهى الثورة التى يقول المؤلف عنها أنها اتخذت من الخارجية ستارا دينيا وأيديولوجية ، ويركز على أن رغبة البربر فى استيعاب الاسلام كانت مشروطة بأن يكون هذا الدين متمشيا مع ماضيهم ، وأن تعديل صالح بن طريف فى سور القران وشرائعه وأحكامه دون نبذه كلية هو فى حد ذاته اعتراف بقيمة الاسلام التحضيرية . وكعادته يشكك

---

(٧) حقيقة أن الاسلام انتشر على أيدى التجار المسلمين فى وسط افريقيا وغربها وليس فى الشمال الافريقى كما يصور المؤلف .

شما كتب المؤرخـــون الذين ينعتهم بأنهم رسميون ، ورغم ذلك تابعهم فى عرضه لتاريخ دولة الادارسة بعد أن افاض عليه صبغة اقتصادية . وبالمثل عامل تاريخ دولتى الخوارج .

أما دولة الاغالبة فقد حظيت باهتمام المؤرخين المشارقة لأنها كانت فى طاعة العباسيين وأن الاغالبة ما قاموا بفتح صقلية الا لشغل الجنود بعد أن قامت تمردات كثيرة فى صفوف هؤلاء الجند ، وان أعطوا المشروع طابعا دينيا ، الا أنه ما يلبث أن يذكر الحقيقة بأن فتح صقلية كان قد أعد له منذ زمن طويل ، وأن محاولات فتحها بدأت مع السنوات الأولى لفتح افريقية . ويربط المؤلف بين سقوط دولة الاغالبة ، وسقوط الخلافة العباسية تحت حماية الديلم نصف الشيعيين ؛ فى محاولة من الشيعيين لتطويق المذهب السنى ، رغم ما بين الحدثين من بعد زمنى ، ووقوع خلفاء بنى العباس تحت سيطرة القواد قبل منتصف القرن الثالث الهجرى ، وضعف الدولة منذ ذلك الحين . ولأن المؤلف لا يرى للتاريخ مفسرا سوى العامل الاقتصادى ؛ فلم يجد لذهاب علماء المسلمين المشارقة الى المغرب تفسيرا سوى البحث عن الثروة .

ويرى المؤلف أن الشمال الافريقى عانى من أزمة اقتصادية عاثت فيه فسادا بدأت مع القرن الثالث واستمرت حتى الثامن الميلادى ، وما زادها الفتح الاسلامى الا سوءا ، مستنبطا ذلك من الحوادث السياسة وليس من الوثائق الاقتصادية التى لم يجد لها وجودا . أما القرن التاسع فكان عصر عودة الازدهار ، معتمدا فى استنتاجه على ما أمده به الجغرافيون العـــرب الذين جابوا المغرب من بيانات والاحصائيات رغم أنه يشك فى الوقت نفسه فى كتاباتهم لأنهم لم يروا ســـوى المدن (٨) ثم يعود فيذكر انهم عاشوا فى فى القرى وأمدونا بوصف كامل لها عندما يحتاج الى تفسير شيء ما (٩) بدافع الدفاع عن سكان المغرب الذى هو أحد أهدافه من تأليف الكتاب كما ذكر فى مقدمته .

ويرى المؤلف أن محاولات توحيد المغرب بدأت بالفاطميين وخلفائهم فى حكم المغرب ؛ ويعرض فى ايجاز سريع لقيام الدولة الفاطمية وتاريخها حتى

---

(٨) ص ١٢٣ .
(٩) ص ١٢٤ .

نقل خلافتهم الى مصر ، ويرجع هذا الانتقال الى مصر الى عدم قدرة الخلفاء الفاطميين على تنظيم البلاد أو استمالتها الى قضيتهم ، وهذا أحد الأسباب وليس كلها ، فمن المعروف أن غاية الفاطميين كانت مركز الخلافة العباسية ، ومصر المرحلة الأولى فى هذا الانجاز ؛ لذا أرسل الخليفة الفاطمى الأول أولى حملاته على مصر ، ولم يمض على قيام دولته بالمغرب سنون قليلة . أما السبب الثانى فكان لعدم ثقة الفاطميين فى البربر ، والدليل على ذلك ما قام به المهدى من بناء لعاصمة دولته — المهدية ، وفرضتها زويلة ، فكان يعزل بين الناس ومعاشهم وأموالهم بالليل ، وبينهم وبين أبنائهم وذويهم بالنهار لعدم ثقته بهم . كما أن المؤلف يقدم سببا واحدا لفشل الفاطميين فى توحيد المغرب ، وهو توازن القوتين الفاطمية والأموية ، وهو بالفعل سبب رئيسى وان كان هناك غيره من الأسباب أحدها طبيعة سكان البلاد ونظامهم القبلى ، واعتماد الفاطميين على قبيلة كتامة وهى التى لم تكن بالكثرة العددية حتى تتمكن من اخضاع المغرب لطاعة الفاطميين ، ووقوف بعض القبائل فى وجه الفاطميين فأقلقت راحتهم طوال مدة اقامتهم فى المغرب ، وعلى رأس هؤلاء المعارضين كانت قبيلة زناتة التى تحالفت مع الأمويين فى الاندلس عندما لم تستطع أن تقف وحدها فى وجه الفاطميين . فكان الصراع بين البتر والبرانس أو زناتة وصنهاجة الذى حاول الكثير من المؤرخين ايجاد تفسير له .

فقد رأى فريق من المؤرخين أن سبب هذا الصراع كان اجتماعيا واقتصاديا، ويرى آخرون أنه صراع عرقى بين جماعات البتر وهم البدو الرحل ، والبرانس وهم أهل الزراعة والاستقرار ، وعلى رأس هذا الفريق المستشرق الفرنسى جوتييه ، أما الفريق الثالث فيرى أنه الاختلاف فى الجنس بين هذين الجذمين هو أصل الصراع ، وأن الصراع قديم قدم وجودهما فى المغرب ؛ ويقدم لنا مؤلف الكتاب تفسيرا جديدا لهذا الصراع على أنه صراع بين أهل التجارة ، وأصحاب الزراعة ، واعتقد أنه فى ذلك أصاب كبد الحقيقة .

ويقدم لنا المؤلف تفسيرا جديدا وان كان بعيدا عن الصواب لمشاركة البربر فى حروب الاندلس فى فترة الاضطراب التى انتهت بسقوط الخلافة الأموية وتقسيم الاندلس الى خمس عشرة امارة ؛ بأنه كان انتقاما للمغاربة من الأمويين الذين لم يستطيعوا توحيد المغرب ، ولا تركوا هذه المهمة

الافريقية ، وأن حقد البربر الذى يفصلهم عن سكان المدن والصقالبة كـــان عنصرا حاسما فى تطور هذا الوضع . فالحقيقة أن البربر كانوا مضطرين الى المشـاركة فى هذا الصراع ؛ اذ انتقلت منهم أعداد كبيرة الى الاندلس منذ الفتح ، أما الأهم منهم الذين استجلبهم المنصـــور بن أبى عامر كجند مرتزقة لضرب العصبية العربية بالاندلس ، والاعتماد عليهم فى حروبه ضد النصارى ، وفريق ثالث خرج الى الاندلس فارا بنفسه نتيجة الصراع على السلطة ؛ فلم يكن أمام كل هؤلاء سبيل آخر للعودة الى شمالى افريقيا بعد أن عاشوا فى الاندلس . وذاقوا نعيمها وتمتعوا بخيراتها ، كما أنهم كانوا جندا مرتزقة يخدمون مع من يدفع لهم ، فلا انتقام هنا ولا حقد .

ولقيام دولة المرابطين يقدم تفســـيرا جديدا ؛ فيرى فى أبى عمران الفاسى ، وعبد الله ابن ياسين صاحبى الفضل الأول فى قيام دولة المرابطين سلسلة من الدعاة المالكيين العباسيين الذين أرادوا تطويق المذهب الشيعى من الجناحين ، السلاجقة فى الشرق والمرابطين فى الغرب ردا على ما قام به الفاطميون من قبل بتطويق الدولة العباسية باستمالة الفرس وأهل افريقية ؛ فيرى أن هناك ارتباط بين قيام دولة السلاجقة ونظرائهم المرابطين ، وعلاقة بين قيام الدولتين والخلافة العباسية التى بعثت دعاتها فى أرجاء العالم الاسلامى ؛ فنجحت مهمتهم فى قيام هاتين الدولتين .

وان كان بعد ذلك يرى قيام دولة المرابطين والموحدين من بعدهم من اجل السيطرة على الطرق التجارية عبر الصحراء والتى تربط الأطلس بالبحر المتوســـط ؛ فان صدق هذا القول على المرابطين الذين كانوا هم صنهاجة اللثام ، الذين كانوا يسيطرون قبل قيام دولتهم على الطرق التجارية عبر الصحراء ؛ فجاءتهم الدعوة الدينية ممثلة فى عبد الله بن ياسين ، واستطاعوا بها اقامة دولة ؛ فمدوا سلطانهم على بقية طرق التجارة التى عرفوها من قبل . وخبروا أهميتها ، وما تدر من خير وفير ؛ فكيف يصدق ذلك عـــلى الموحدين الذى اعتمد ابن تومرت عليهم وهم قبائل عاشت بعيدا عن هذا المجال التجارى فى جبـــال الأطلس .

وعلى نفس النهج الذى من أجله الف الكتاب الذى بين أيدينا ، يدافع عن مسلك ابن تومرت وممارسته وعنفه السياسى ، يدافع عنه كأحد أبناء الشمال الافريقى ، اذ يرى البعض أن عنفه هذا لكونه بربريا أما مؤلفنا فيرجع

ذلك للأثر اللاشعورى للسياسة الباطنية حتى على أولئك الذين يحاربونها ، وأن نزعة العنف السياسى فى مطلع القرن السادس الهجرى كانت خاصية العصر ؛ فدمغ بذلك العصر كله بالعنف حتى يجد لعنف ابن تومرت مبررا . حتى أنه يشبه التنظيم فى بداية دولتى المرابطين والموحدين بالتنظيم الاسلامى الأول على عهد الرسول ﷺ ، ويربط بينهما ويقارن ، ويخلص من ذلك أن الثلاثة كانوا على نســق واحد .

أما فى تفسيره لسقوط دولة المرابطين الذين قلدوا السلاجقة ؛ فكان بسبب عدم وجود الظهير الاحتياطى الكبير لديهم الذى كان يملكه السلاجقة ممثلا فى الشعوب التركية التى كانت تستطيع امدادهم بالجنود وقت الحاجة ، وكذلك لعدم قدرة المرابطين على تشكيل مذهب مالكى جديد ، أما بالنسبة لدولة الموحدين فيقدم لسقوطها أسبابا أتتها من داخلها ، وأخرى ســقطت عليها من خارجها ، وكلاهما تفسير مقنع يتفق والحقائق التاريخية .

وتستمر المحاولة فى اقامة امبراطورية مغربية بعد سقوط دولة الموحدين، حتى تقضى هــذه الفكرة نحبها تماما بعد المحاولة الأخيرة التى أقدم عليها السلطان المرينى أبو عنان ولم يكتب لها النجاح ، ويظل المغرب مقسما الى دول تتصارع فيما بينها فتضعف قوتها ، ويصبح همها مشاكلها الداخلية ولا تمد اليد الى مسلمى الاندلس فى الوقت الذى كانت فيه دول الغرب تقوى وتزدهر . وهذه هى الحقبة الثالثة التى تستمر قرنين من الزمان يمثلان حقبة من الانحطاط العميق التى كانت واحدة من أكثر حقب التاريخ المغربى مغزى ، فكانت الدول المغربية من الضعف الذى استدعى التدخل الخارجى من جانب البرتغاليين والأسبان ، ثم كانت الصحوة على أيدى السعديين الذين حققوا أول نصر على البرتغاليين ، وان كان ذلك بفضل مســاعدة خارجية وليس بقوتهم الذاتية وحدها ، فرأى المؤلف أن هذه الحقبة هى مرحلة توازن الانحطاط .

ثم تكون الحقبة الرابعة والأخيرة ليكون فى أولها الانحطاط الكامل ، اذ استعمر المغرب كله ، وهذه الحقبة تبدأ — من وجهة نظر المؤلف — فى مطلع القرن التاسع عشر أى أن التاريخ الحديث للمغرب يبدأ من ذلك الوقت وليس قبله كما اصطلح على ذلك مؤرخو الشرق والغرب جميعا ، وتنتهى بطرد المستعمر ، وبحث سكان المغرب عن شخصيتهم وعن أنسب الطرق

للحكم والقضاء على التخلف الاجتماعى والثقافى والاقتصادى ، ويتطلب ذلك مساءلة الماضى ، ومن أجل هذه المساءلة كان تأليف الكتاب هذا .

وبعد هذا العرض السريع للكتاب ككل والتركيز على ما هو جديد فيه اتفاقا أم اختلافا ؛ فلا يفوتنى أن أكرر بل وأركز على الجهد الكبير الذى بذله المؤلف والتحليل الموضوعى لكثير من الأحداث ، الا أنه أراد أن يصبغ كل ذلك بصبغة اقتصادية ؛ فصدق معه ما كان الاقتصاد سببه .

ويجب أن أنوه أن الكتـــاب لبس للقارىء العادى ؛ اذ لا يذكر المؤلف الكم الكافى من تفاصيل الأحداث ، وانما القليل الذى يستخدمه فى التدليل على فكرة أو رأى يريد أن يسوقه ، أو للرد على بعض المستشرقين بدون أن يذكر قولهم ؛ فعلى من يريد أن يتابع ما جاء فى الكتاب أن يكون لاحداث تاريخ المغرب عارفا ، وبآراء المستشرقين عالما . ولذا فان هذا الكتاب يعتبر محاولة تنظير من عل للاحداث رغبة فى استنباط نظريات توضـــح الاســـتمرارية والانقطاع فى تاريخ المغرب ؛ متخذا من تركيب السكان وتطورهم الاقتصادى والاجتماعى الخيط الذى يصل بين الفترات المتتالية من تاريخ المغرب حســـب تقسيمه لهذا التاريخ .

أما هذا التقسيم الجديد الذى قدمه لنا لم أجد له مبررا ؛ فانه يتناسى الأحداث العظام ، ويضعها ضمن حقبة دون أن يجعلها بداية لفترة كما اتفق المؤرخون على ذلك ، وكأنه ــ كما أراد أن يؤكد ــ لم يكن لها تأثير عـــلى تاريخ المغرب ؛ فدضع تحول المغاربة الى المسيحية ثم الى الاسلام ضمن الحقبة الأولى ، فان المغاربه وقفوا موقف المتفرج من المسيحية ، ومن اتخذها منهم عقيدة فليس عن ايمان ، وانما لتبرير تعاسة واقعة عليه ، أما الاسلام والعرب الفاتحين فلم يقدما شيئا أكثر مما قدم الذين سبقوهم فى حكم المغرب ، وأن الفتح العربى للمغرب لم يغير فيه شيئا أو يؤثر .

الا ان الأحـــداث التاريخية وما ذكره المؤرخون يؤكد غير ما يستنبطه المؤلف دون سند تاريخى أو وثائقى . فقد غير الفتح العربى فى بنى المجتمع المغربى اقتصاديا واجتماعيا وروحيا ؛ فقد شارك بعض البربر فى فتح بقية شمالى افريقيا وكذلك فى فتح الاندلس ونالوا من الغنائم نصيبا ، وفتحت أمامهم آفاقا جديدة ؛ فكان فتح الأندلس لهم بابا الى مجالات اقتصادية جديدة ،

كما كان لهذا الفتح أثره على تركيب السكان وكثافتهم فى شمالى افريقيا ؛ فقد شارك الكثير منهم فى الفتح ، واستقروا فى البلاد الجديدة ، وهجر آخرون المغرب ليلحقوا بمن سبقوهم ، ويبدو أن عدد هؤلاء كان كبيرا يتضح ذلك مما ذكره الجغرافيون وأصحاب معاجم البلدان من أسماء لمدن وقرى أندلسية تحمل أسماء قبائل بربرية . وكان لهذا التحول الى الاسلام أثره فى التنظيمات السياسية والادارية والاقتصادية أيضا .

ولا أدرى لماذا اختار ثورة البربر على الخلافة الأموية بداية لحقبة جديدة فى تاريخ المغرب ، هل لأنها غيرت فى تاريخه أكثر مما غير الفتح العربى وتحول البربر الى الاســـلام ؟ ويرى أن البربر اتخذوا من الدين ستارا لثورتهم رغبة فى الاستقلال عن الخلافة ؛ فيؤكد ذلك أن البربر تأثروا بهذه العقيدة وتفاعلوا معها وفهموا أحكامها ، وعرفوا ما لهم وما عليهم — على عكس ما يقول المؤلف بأن العرب لم يقدموا للبربر سوى طريقة جديدة لعبادة الله — ولم تكن هذه الثورة على الخلافة من أجل الاستقلال وانما قامت فى وجه وال تعسف مع البربر ، فذهب وفد منهم الى الخليفة الأموى شاكين أملا فى تغيير هذا الوالى وليس خلعا لطاعة الخليفة ، فلما لم يجدوا من الخليفة آذانا صاغية ، ثاروا فى وجه الوالى الأموى ، فى وقت كانت الخلافة الأموية فيه آيلة الى الزوال ، وشغلت بمشاكلها فى الشرق عن هذا الجزء من العالم الاسلامى . وذلك واضح تماما فى الرسالة التى تركها ميسرة المطغرى زعيم ثورة البربر هذه الى الخليفة هشام بن عبد الملك عندما ذهب اليه شاكيا ، فلم يستطع لقاءه فترك له الرسالة بكلّ ما جاء من أجله عله يصلح الأمر ، ولكن الخليفة أهمل فى الاصلاح ؛ فكانت الثورة التى يحملها المؤرخون أكثر مما تحتمل من التفسير .

ويحاول العروى فى كتابه الرد على ما كتبه المستشرقون ، وبخاصة الفرنسيين منهم والذى يسميهم المؤرخين الاستعماريين ، ويحاول المؤلف أن يكشف عن الروابط العضوية التى تربط المغرب بحوض البحر المتوسط وليس بالشرق أو الغـــرب ، ومحاولة منه للتنقيب فى الماضى واســـتقراء لأحداثه ، ونقد كلّ ما كتب فيه ، لأنه يريد أن يعبر عن علاقة مغرب اليوم القلق على مستقبله الحريص على دعم هذا المستقبل بربطه بماضيه الحقيقى .

ويرى المؤلف وجود عاملين هامين هما القاعدة الأســـاسية لكل من

يحاول دراسة تاريخ المغرب أولهما : ان هذه المنطقة لم تدخل التاريخ وهى نصف متوحشة كما يحاول أن يصورها المؤرخون ، وأن النظام القبلى والبداوة لا تمثل النظام الأساسى الذى لا يتغير فى حياة سكان المغرب ؛ وانما هو نظام دفاعى يلجأ اليه المغرب فى ظروف محددة ، ويتخلى عنه عندما تناسبه الظروف . وهذه الفكرة شغل المؤلف نفسه كثيرا بالدفاع عنها ؛ رغم ما أكده المؤرخون قدامى ومحدثين بأن النظام القبلى هو أساس حياة سكان المغرب حتى اليوم ، وأن الولاء للقبيلة أولا وقبل الدولة حتى فى القرن العشرين .

وثانيهما فيتمثل فى دعوته الى كتابة التاريخ المحلى لسكان المغرب الاصليين ، والتطور التاريخى للمنطقة ، بغض النظر عن تاريخ المستعمرين رومانا كانوا أم بيزنطيين ، عربا أم فرنسيين .

ويرى المؤلف أن تقسيم دراسة التاريخ المغربى كما حاول الأوربيون على ثلاث فترات زمنية توازى الفترات المأخوذة بها فى دراسات التاريخ الأوربى لا تتفق مع واقع المغرب ؛ ولذا قسمه هو الى أربع فترات حسب نتاج المؤرخين المعاصرين لهذه الفترات . وفى رأيه أن هذا التقسيم يمثل فى حد ذاته رؤيا جديدة للتاريخ المغربى ، تختلف عن تقسيمه الى قديم ووسيط وحديث ، وكذلك عن كتابة التاريخ بذكر العائلات الحاكمة واحدة بعد الأخرى دون أية دراسة للتطور السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى يعكس تطور المجتمع ككل . ويحاول المؤلف فى هذه الدراسة أن يبين المغرب ككيان حيوى رابطا ما بين الفترات التى مر بها المغرب مبينا العلاقات الأساسية فى تطور المجتمع مرحلة تلو أخرى وركز تركيزا كبيرا على أهمية ومركزية الدور الذى يلعبه العامل الاقتصادى فى تطور المجتمعات عبر التاريخ .

ويقدم العروى لنا تقسيما جديدا للمغرب غير ما اصطلح عليه غالبية المؤرخين والجغرافيين المسلمين وكذلك المحدثين ؛ فيقسمه الى منطقة الساحل والمغرب الأوسط الموازية لها ثم الصحراء اى حسب خطوط العرض ، وليس حسب خطوط الطول الى افريقية أو المغرب الأدنى ، والمغرب الأوسط ، والمغرب الأقصى ؛ ويركز على الدور الذى لعبته الصحراء فى تاريخ المغرب ، وربما كان اختياره لهذا التقسيم لأنه على حسب تعبيره لأن جزءه الاول يشمل مدن السواحل التى لم يتعدها المستعمر ، وبقيت محوره ، وانتقلت

فيه السيطرة من حاكم الى آخر ، أما المغرب الأوسط ؛ فهو المغرب الحر بلد الممالك المغربية ، ثم الصحراء التى كانت دائما منطقة تراجع المغربى ومركز الخطة الدفاعية .

ويرى العروى أن المغربى تبنى الاسلام كأداة أيديولوجية للوصول الى الاستقلال الذاتى ، وتبدو هذه الظاهرة — عنده — أكثر وضوحا فى دور ايديولوجية الخوارج بشمالى افريقيا ؛ وان كان المؤلف يعيب على المؤرخين المحدثين الذين يسميهم استعماريين أنهم يسقطون أحداث لاحقة علـــى اخرى سابقة ؛ فكيف له أن يعرف أن البربر تبنوا الاسلام للوصول الى الاســـتقلال ويســـتدل بثورة الخوارج ، رغم تحول الكثير من البربر الى الاسلام قبل ظهور حزب الخوارج الى الوجود بالمرة .

أما أهم اضافات المؤلف فانه التركيز على ضرورة اســـتيعاب حقيقة التناقض والصراع الاقتصادى والاجتماعى فى الفترة منذ بداية الاسلام وحتى سقوط الموحدين على أنه صراع بين أصحاب التجارة والزراعة وليس بين البدو والمستقرين كما افترض جوتييه وردد ما قاله الكثيرون الذين أتوا من بعده .

واخيرا فقد اعتمدت وبصفة أساسية على الترجمة العربية للكتاب ، وهى التى قام بها د. ذوقان قرقوط . والحق أقول انها سيئة للغاية فى اسلوبها ولغتها العربية أولا ، وما زادها سوءا عدم المام المترجم التام بكل شىء عن تاريخ المغرب ، وذلك واضح كل الوضوح فى ترجمته لأســـماء المدن والأعلام والقبائل ، وحتى أسماء مؤلفى المصادر الأصلية عن تاريخ المغرب ، وكفى على ذلك مثالا أنه يترجم Ibn Idhari أى ابن عذارى المؤرخ المغربى المشهور ، وصاحب واحد من عمد مصـــادر تاريخ المغرب القليلة : ابن أظهرى . وقد اضطرنى سوء الترجمة هذا الى الرجوع الى الكتاب بلغته الأصـــلية : مما يحدونى أن أنوه بل وأطالب بأن من يقـــوم بترجمة أحد الكتب لابد وأن يكون متخصصا فى نفس المجال حتى يقدم الفائدة المرجوة من الترجمة . وبذلك يحترم نفسه ، ولا يستهين بالقارىء .

رسائل الدكتوراه والماجستير المسجلة في
التاريخ الاسلامى والوسيط بالجامعات المصرية

١ ـــ احصاء قوائم رسائل الدكتوراه والماجستير حتى بداية سنة ١٩٨٢م .
٢ ـــ الرسائل التى نوقشت بين يناير ١٩٨٢ حتى ابريل ١٩٨٣ .

قائمة برسائل الماجستير والدكتوراه
التى نوقشت فى كلية الآداب جامعة عين شمس
فى موضوعات التاريخ الاسلامى والوسيط

أولا : رسائل الماجستير

١ ــ أحمد ابراهيم الشريف : مدينتا مكة والمدينة فى العصر الجاهلى وعصر الرسول (١٩٦٣م) .

٢ ــ أحمد عبد الله الحسن : تحقيق الذيل التام على دول الاسلام للسخاوى

٣ ــ أحمد محمود عدوان : علاقة الدولة الحمدانية بالدول الاسلامية المجاورة .

٤ ــ توفيق سلطان اليوزبكى : الوزارة نشأتها وتطورها فى الدولة العباسية .

٥ ــ جمال جرجس يوسف : القضاء فى العصر المملوكى تحقيق مخطوطة ابن قاضى شهبة نزهة النظار فى قضاء الأمصار (١٩٧٢م) .

٦ ــ حسين عبد الرحيم سليمان : تحقيق مخطوطة الاعلام بتاريخ أهل الاسلام (١٩٧١م) .

٧ ــ اقبال موسى : الحسبة فى المغرب مع بعض النصوص الخاصة بها (١٩٦٨م) .

٨ ــ توفيق جاسر أحمد : الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام (١٩٧٤م) .

٩ ــ عبد الجليل عبد الرحمن : العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس فى القرن ٢ ، ٣ هـ . (١٩٦٨م) .

١٠ ــ فتحى عبد الفتاح ابو سيف : الدولة الطاهرية ، التاريخ السياسى والحضارى (٢٠٥ ــ ٢٥٩ هـ) (١٩٧٦م) .

١١ ــ محسن سعيد رضا : الكيسانية وأثرها السياسى والاجتماعى فى المجتمع العراقى فى القرن ٣ هـ • (١٩٧٠م) •

١٢ ــ عبد المحسن رمضان : اشتوريس لحدى القوى المسيحية الاسبانية المناهضة لولاة الأندلس • (١٩٨٠م) •

١٣ ــ ــــــــــــ : ملوك غرناطة والخلافة الفاطمية ٢٩٦ ــ ٣٦٢ هـ •

١٤ ــــــــــــ : الحسبة فى الدولة الفاطمية الى آخــر ق ٤ هـ •

١٥ ــ ــــــــــــ : الفن الحربى المملوكى •

١٦ ــ محمد فيصل الكبيسى : تحقيق الحدائق الوردية فى قبة الأئمة الزيدية لأبى عبد الله الزيدى •

١٧ ــ محمود رزق محمود : العلاقات بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبى حتى موقعة حطين •

١٨ ــ ــــــــــــ غرناطة فى عهد ملوك بنى زيرى ٤٠٣ ــ ٨٣٠ هـ •

١٩ ــ فائق نجم مصــلح : طبقات المجتمع العراقى فى العصر العباسى الأول (١٩٧١م)•

٢٠ ــ عبد القادر طليمات : تحقيق مخطوطة دولة الانابكة ملوك الموصــل لابن الأثير الجزرى (١٩٦٨م) •

٢١ ــ عبد الله مهدى الخطيب : الحكم الأموى فى خراسان (١٩٧١م) •

٢٢ ــ محمد سعيد جمال الدين : دولة الاسماعيلية فى ايران مع تحقيق تاريخ جهانكشاى • (١٩٦٧م) •

٢٣ ــ عمر محمود سعيد : نظم بلاط العباســيين ورســومه فى بغداد (١٣٢ ــ ٦٥٦هـ) • (١٩٧٢م) •

٢٤ ــ مراجع عقيلة : قيام دولة الموحدين • (١٩٦٨م)•

٢٥ ــ رأفت عبد الحميد محمد : سياسة قسطنطين الأول تجــاه الفرق المسيحية (١٩٧٠) •

ثانيا : رسائل الدكتوراه

١ ــ ــــــــــــــــ : فهارس شيوخ العلماء فى الأندلس .

٢ ــ ــــــــــــــــ : الفرق الدينية فى الدولة العباسية ق ٣ ، ٥

٣ ــ ــــــــــــــــ : أصول خراسان الحضارية .

٤ ــ ــــــــــــــــ : العراق فى عصر بنى بويه دراسة اجتماعية .

٥ ــ عبد العظيم خطاب : قنصوة الغورى ونهاية للدولة المملوكية .

٦ ــ محمد أمين صالح : التنظيمات الحكومية لتجارة مصر فى عصر المماليك الجراكسة . (١٩٧٠م) .

٧ ــ ــــــــــــــــ : التنظيمات العسكرية المغولية الأولى .

٨ ــ عماد الدين خليل : امارة بنى أرتق .

٩ ــ عبد القادر طليمات : المؤرخ ابن الأثير (١٩٦٧م) .

١٠ ــ أكرم العمرى : موارد الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد (١٩٧٣م) .

١١ ــ اقبال موسى : دور قبيلة كتامة فى تاريخ الدولة الفاطمية (١٩٧٢م) .

١٢ ــ أحمد ابراهيم الشريف : تاريخ الحجاز فى القرن الأول والثانى (١٩٦٧م) .

١٣ ــ توفيق اليوزبكى : تاريخ أهل الذمة فى العراق ١٧ ــ ٢١٨ هـ . (١٩٧٢م) .

١٤ ــ مراجع عقيلة : سقوط دولة الموحدين (١٩٧١م) .

١٥ ــ شفيق جاسر : العلاقة بين المسلمين والمسيحيين بالقدس منذ الفتح الاسلامى حتى الحرب الصليبية . (١٩٨٠م) .

١٦ ــ فضيلة الشامى : الخلفية العقائدية لحركة القرامطة وتأثيرها الاجتماعى والسياسى فى المجتمع الاسلامى زمن الخلافة العباسية (١٩٧٣م) .

١٧ ــ محمد سعيد رضا : العراق فى عصر بنى بويه . دراسة اجتماعية على ضوء التطورات السياسية (١٩٧٤م) .

١٨ ــ رأفت عبد الحميد محمد : أثناسيوس .. فكرة وعلاقته بالدولة البيزنطية ، (١٩٧٤) .

١٩ ـ أحمد محمد عدوان : الوضـــع الاقتصـــادى فى مصر فى عهد الدولة المملوكية الأولى (١٩٧٢م) .

٢٠ ـ فاطمة مصطفى عامر : تاريخ أهل الذمة فى مصر الاسلامية من الفتح العربى الى نهاية العصر الفاطمى (١٩٧٢م) .

٢١ ـ فايد محمد عاشـــور : التنظيمات العســـكرية المغولية والمملوكية . (١٩٧٢م) .

قائمة رسائل الماجستير والدكتوراه التى نوقشت في كلية البنات جامعـــة عين شمس بمصر فى موضـــوعات التاريخ الأســـلامى والوســـيط

اولا : رسائل الماجستير :

١ ـ سهام مصطفى أبو زيد : الحسبة فى مصر الاسلامية من الفتح العربى الى نهاية العصر المملوكى .

٢ ـ سعدية محمد على : أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى .

٣ ـ فاطمة مصطفى عامر : ابن عبد الحكم المؤرخ المصرى (١٩٦٨م)

٤ ـ نادية هاشم حسن : تاريخ مدينة الطائف فى العصر الجاهلى وصـــدر الاســـلام (١٩٧٦م) .

٥ ـ الطالب محمد يوســـف : البحرين من الفتح الاسلامى حتى ســـقوط القرامطة .

٦ ـ راوية محمد حســـن : الدولـــة العامرية واثرها فى علاقات الأندلس الخارجية .

٧ ـ سميرة مختار الليثى : حركات الزنادقة فى العصر العباسى الأول ١٣٢ ـ ٢٣٢ هـ .

٨ ـ علية عبد السميع الجنزورى : الحياة السياسية فى بلاد الشام فى القرن الخامس هـ واثرها فى قدوم الحملات الصـــليبية (١٩٦٩م) .

٩ ـ جوزيف نجيب أسعد : الحركة الأدبية والعلمية فى الفسطاط منذ الفتح العربى الى نهاية الدولة .

١٠ ــ أحمد التكرورى : تحقيق نيل الابتهاج بتطريز الديباج .
١١ ــ رمزية الاطرقجى : بناء بغداد فى عصر أبى جعفر المنصورى (١٩٦٧م).
١٢ ــ زينب عبد المجيد رضوان : المنهج العلمى عند ابن خلدون .
١٣ ــ هيام عبد الرحمن سليم : شرق افريقيا عند الكتاب العرب من القرن ٣ هـ ــ ١٠ هـ .

ثانيا : رسائل الدكتوراه :

١ ــ علية عبد السميع الجنزورى : امارة الرها الصليبية (١٩٧٢م) .
٢ ــ نادية هانم صقر : الاتجاهات السياسية والحضارية فى الدولة العباسية فى عصر الخليفة المتوكل (٢٣٢ ــ ٢٤٧هـ) .
٣ ــ جهادية الفرغولى : التنظيمات الادارية والعسكرية فى العراق والشام فى العصر العباسى الأول ١٣٢ ــ ٢٣٢ هـ . (١٩٧٤م) .
٤ ــ رمزية محمد الاطرقجى : الحياة الاجتماعية فى مدينة بغداد فى العصر العباسى الأول (١٣٢ ــ ٢٣٢ هـ) (١٩٧٢م).
٥ ــ سميرة مختار الليثى : حركات الشيعة فى العراق والحجاز فى العصر العباسى الأول (١٣٢ ــ ٢٣٢هـ) (١٩٧٥م).
٦ ــ فاطمة مصطفى عامر : تاريخ أهل الذمة فى مصر الاسلامية منذ الفتح العربى الى نهاية الدولة الفاطمية .
٧ ــ سهام مصطفى أبو زيد : الدعوة الاسماعيلية ومدى نجاحها فى مصر للاسماعيلية .

قائمة رسائل الماجستير والدكتوراه التى نوقشت
فى كليـــة دار العلـــوم جامعـــة القـــاهرة فى
موضـــوعات التاريخ الاســـلامى والوســـيط

أولا ـ رسائل الماجستير :

١ ـ حامد غنيم أبو سعيد : قيــام دولة بنى بويه .

٢ ـ حسن عبد الجواد : دولة الادارسـة بالمغرب قيامها وتطورها الى منتصف القرن ٣ هـ .

٣ ـ رمزية عبد الوهاب : تجارة الخليج العربى واثرها فى الحياة الاقتصادية الاقتصادية فى منطقة الخليج والعراق منذ صدر الاسلام الى نهاية القرن الرابع هـ .

٤ ـ سـليمان العسـكرى : التجارة والمدحة فى الخليج العربى فى العصر العباسى .

٥ ـ سوسن محمد نصر : القاضى الفاضل وصـلاح الدين عماد الوحدة المصرية الشاملة . (١٩٧٦م) .

٦ ـ طاهر راغب حسين : دور القبائل العربية بالمغرب العربى منذ المسيرة الهلالية حتى نهاية حكم الموحدين .

٧ ـ عبد الاعلا الطحاوى : عز الدين بن عبد السلام ومدرسته السياسية (١٩٨١م) .

٨ ـ عبد الحليم عويس : دولة بنى حماد فى الجزائر .

٩ ـ عبد الحميد الدسوقى : موقعة عين جالوت واثرها فى حماية الحضارة العربيـة .

١٠ ـ عبد الخالق حسـين : القضاء فى مصر فى عهد الفاطميين والأيوبيين (١٩٧٥م) .

١١ ـ عبد الرحمن سالم : التاريخ السياسى للمعتزلة حتى نهاية ق ٣ هـ (١٩٧٤م) .

١٢ ـ عبد الرحمن حسـين العزاوى : المنهج التاريخى عنـد المؤرخين العراقيين فى العصر البويهى (١٩٧٩م) .

١٣ ـ عبد الرؤوف عون : تاريخ فن الحرب ونظمها عند المسلمين حتى نهاية القرن ٢ هـ .

١٤ ـ عبد المجيد أبو الفتوح : العلاقة بين سلاجقة آسيا الصغرى والدولة الأيوبية . (١٩٧٦م) .

١٥ ــ عبد الوسيط أوليس : القتال فى الاسلام .

١٦ ــ على محمود : هجرة القبائل العربية الى الشام وأثرها .

١٧ ــ على محمود عمر : دولة الظاهر برقوق وأسرته فى مصر .

١٨ ــ نهى عبد الجليل : التنظيم الاسلامى والأرض الزراعية حتى قيام الخلافة العباسية وصلته بتقنين الاقتصاد الاسلامى .

١٩ ــ محمد البلتاجى : منهج عمر بن الخطاب فى التشريع .

٢٠ ــ محمد عبد الحميد : الدولة الغزنوية .

٢١ ــ محمد عبد الله النقيرة : انتشار الاسلام فى شرق افريقيا ومناهضة الغرب له (١٩٧٦م) .

٢٢ ــ محمد عيسى صابر : الدولة الرستمية بالمغرب قيامها وتطورها (١٩٧٥م) .

٢٣ ــ محمد محمود عامر : دولة بنى عدوان فى ديار بكر .

٢٤ ــ محمد يوسف البحراوى : العلاقة السياسية والاقتصادية بفى الهند والخلافة العباسية .

٢٥ ــ أحمد كامل محمود : الحاكم بأمر الله وعدمره (١٩٨١م) .

٢٦ ــ مصطفى عباس : العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن الاسلامية فى العراق حتى نهاية القرن ٣ هـ .

٢٧ ــ نصارى فهمى : الدولة الزيادية فى اليمن .

٢٨ ــ وفاء جاعوس : بنو منقذ ودورهم فى زحف الحروب الصليبية (١٩٧٩م) .

٢٩ ــ يونس السامرتى : السفارات فى التاريخ الاسلامى حتى قيام الدولة العباسية .

٣٠ ــ السيد محمد أبو العزم : الأثر السياسى والحضارى للمالكية فى شمال أفريقيا حتى قيام دولة المرابطين .

٣١ ــ عبد العزيز حمادى : الحركة الفكرية والتعليمية بمدينة مراكش منذ تأسيسها حتى سقوط دولة الموحدين وأثرها على المراكز الثقافية الاسلامية جنوب الصحراء ٤٥٤ ــ ٦٦٨ هـ .

٣٢ ــ عمر عمران أحمد : دولة الاشراف السعديين فى مراكش (١٩٨١م).
٣٣ ــ طاهر راغب حسين : الدولة الحفصية بالمغرب .
٣٤ ــ محمد عبد الحميد الرفاعى : الدولة الغزنوية (١٩٧٥م) .
٣٥ ــ شفيق ابراهيم أبو الخير : الحركات السياسية والمذهبية فى الخليج العربى من منتصف القرن ٣ هـ الى نهاية القرن الرابع (١٩٧٧م) .

ثانيا ــ رسائل الدكتوراه :

١ ــ حسن عبد الحميد : العلاقات بين مصر والادارة الحكومية فى عصر الولاة من الفتح العربى الىقيام الدولة الطولونية.
٢ ــ سوزى محمد : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى اتابكيات الجزيرة العراقية وعلاقاتها السياسية فى القرن ٦ هـ .
٣ ــ سوسن محمد نصر : الاخوة الملوك الثلاثة أولاد العادل الأيوبى . الكامل والمعظم والأشرف (١٩٧٧م) .
٤ ــ عبد الخالق حسن : النظم القضائية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك (١٩٨١م) .
٥ ــ فهمى عبد الجليل : النزعة القبلية وتأثيرها فى التاريخ الاسلامى حتى نهاية القرن الثانى الهجرى (١٩٧٨م) .
٦ ــ محمد التاجى : مناهج التشريع الاسلامى فى الدين فى القرن ٢ هـ .
٧ ــ محمد عبد الحميد الرفاعى : الحركات الاستقلالية فى ايران فى القرنين ٣ ، ٤ هـ . (١٩٧٩م) .
٨ ــ محمد عبد الله النقيرة : التأثير الاسلامى فى السودان الغربى من بداية القرن ٦ هـ الى القرن ١٠ هـ . (١٩٨٠م).
٩ ــ محمد محمود عامر : المماليك المصريون الذين لمعوا فى ميدان الفكر (١٩٨٠م) .
١٠ ــ على محمد عمر : دولة الظاهر برقوق وأسرته فى مصر (١٩٧٨م) .
١١ ــ ياسين التكريتى : الأيوبيون فى شمال الشام والجزيرة ٦٤٨ هـ ــ ٥٦٤ هـ (١٩٧٨ م) .

١٢ ــ رمزية عبد الوهاب : تجارة الخليج العربى آثارها فى الحياة الاقتصادية فى منطقة الخليج والعراق من صدر الاسلام حتى نهاية القرن الرابع الهجرى (١٩٧٩م) .

١٣ ــ حسين عبد الحميد جبر : التيارات المذهبية والنزعات التحريرية واثرها فى توجيه السياسة فى مصر من منتصف القرن الثالث الى منتصف القرن الرابع هـ (١٩٨١م) .

قائمة رسائل الماجستير والدكتوراه التى نوقشت فى كلية الآداب جامعة الاسكندرية فى موضوعات التاريخ الاسلامى والوسيط

أولا ــ رسائل الماجستير :

١ ــ حلمى محمد سالم : السلطان الظاهر برقوق حياته ونشأته فى الديار المصرية .

٢ ــ أحمد جمال الدين عامر : الخلافة العباسية فى مصر .

٣ ــ محمد صالح قزاز : الحياة السياسية فى مصر فى العصر العباسى الأخير .

٤ ــ عماد الدين خليل : عماد الدين زنكى حياته واعماله السياسية ونظمه العسكرية .

٥ ــ حسان قوام السامرتى : المؤسسات الادارية فى الدولة العباسية خلال الفترة من ٢٤٧ ــ ٣٣٤ هـ .

٦ ــ نبيل عبد المنعم : نشأة الشيعة الامامية .

٧ ــ فوزى نجيب حسين : صلاح الدين وتوحيد الجبهة الاسلامية ضد الصليبيين .

٨ ــ كاظم ابراهيم : المآذن ونشأتها وتطورها فى آثار العراق الى نهاية العصر السلجوقى .

٩ ــ أحمد طه ابراهيم : تونس منذ سقوط الدولة الصنهاجية الى قيام الدولة الحفصية .

١٠ ــ رشيد عبد الله الجميل : دولة الاتابكة فى الموصل بعد عماد الدين زنكى (١٩٦٨م) .

١١ ـــ اسمت غنيم : العلاقات السياسية بين الدولتين البيزنطية والفاطمية (١٩٦٩م) .

١٢ ـــ أحمد عبد الحميد خفاجى : موقف مصر من الحجاز فى عصر المماليك الجراكسة (١٩٦٨م) .

١٣ ـــ محمد عبد العال أحمد : دولة بنى أيوب فى اليمن (١٩٦٨م) .

١٤ ـــ ابراهيم سليمان محمد : نظام الوزارة فى العصر العباسى الأول (١٩٦٩م) .

١٥ ـــ عدلى أحمد فريد : السلطان قنصوه الغورى وعصره (١٩٧٠م) .

١٦ ـــ محمد بدوى موسى : قصور القاهرة فى عصر دولة المماليك البحرية .

١٧ ـــ صلاح عبد الهادى : المجتمع العراقى فى العصر العباسى الأول

١٨ ـــ محمد عبد المنعم صالح : صقلية والنورمانيين وعلاقاتهم بالمسلمين (١٩٧١م) .

١٩ ـــ احمد الطوخى : مظاهر الحضارة فى مملكة غرناطة .

٢٠ ـــ نبيلة حسن محمد : انتشار الاسلام فى السودان الغربى من القرن الخامس حتى القرن التاسع هـ (١٩٧١م) .

٢١ ـــ أحمد القصاوى : البحرية الاسلامية فى مصر والشام بعد عهد صلاح الدين الأيوبى .

٢٢ ـــ ناجلا محمد عبد الغنى : العلاقات بين البندقية ومصر فى عهد الدولة المملوكية الأولى .

٢٣ ـــ مصطفى الحناوى : جماعة الاسبتارية ودورها فى الصراع الصليبى الاسلامى فى عصر الحروب الصليبية .

٢٤ ـــ ابراهيم خميس : جماعة الفرسان الداوية وعلاقاتهم السياسية بالمسلمين فى الشرق الأدنى حتى نهاية حكم صلاح الدين .

٢٥ ـــ على محمد الماضى : المغرب فى عصر السلطان أبى عثمان المراكشى .

٢٦ ـــ فريال قطان : نشأة الرق التركى والصقلبى فى المجتمع الاسلامى حتى نهاية القرن الرابع هـ .

٢٧ ـــ محمد توفيق بلبع : آثار السلطان قايتباى فى الاسكندرية .

٢٨ ـ بشير محمود عبد الله : ظاهرة الحرب فى المجتمع الجاهلى .

٢٩ ـ جوزيف نسيم يوسف : حملة لويس التاسع الصليبية على مصر .

٣٠ ـ محمد كمال أبو راية : الأمومة عند العرب فى الجاهلية .

٣١ ـ حسن رجب : المدرسة المستنصرية .

٣٢ ـ كمال الدين درويش : محمد بن عبد الوهاب والدعوة الوهابية .

٣٣ ـ ثابت اسماعيل الرواس : العراق فى العصر الأموى من الناحية السياسية والاجتماعية الادارية .

٣٤ ـ محمد سليمان أيوب : تاريخ الدولة فى عهد مملكة مروى .

٣٥ ـ كاظم ابراهيم : تخطيط مدينة الكوفة فى المصادر التاريخية الأثرية خاصة فى العصر الأموى .

٣٦ ـ مصطفى الكنانى : العلاقات بين جنوة والفاطميين فى الشرق الأدنى (٤٨٧ ـ ٥٦٧ هـ / ١٠٩٥ ـ ١١٧١ م) .

٣٧ ـ محمد محمد السيد : تاريخ القبائل العربية فى مصر فى عهد الدولتين الأيوبية والمملوكية (١٩٧٧م) .

٣٨ ـ عبد المنعم سلطان : الهجرة الاسلامية فى العصر الفاطمى (١٩٧٥م) .

٣٩ ـ محمد عبد المنعم صالح : صقلية النورماندية وعلاقتها بالمسلمين (١٩٧١م) .

٤٠ ـ درويش نخيلى : فتح الفاطميين فى الشام فى مرحلته الأولى ٣٠٨ ـ ٣٩٢ هـ . (١٩٧٢م) ٦

٤١ ـ محمود سعيد عمران : حملة حنادى برين الصليبية على مصر ٦١٥ ـ ٦١٨هـ / ١٢١٨ ـ ١٢٢١ م (١٩٧٣م) .

٤٢ ـ وسام عبد العزيز فرج : العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية فى عهد ليو الثالث الايسورى .

٤٣ ـ أسامة زكى زيد : العلاقات بين الصليبيين واسماعيلية الشام فى القرن الثانى عشر (١٩٧٤م) .

٤٢ ـ محمد عبد العزيز محمود : تطور الخط العربى فى عصر الأيوبيين والمماليك (١٩٧٤م) .

٤٥ ـ رضوان محمود رضوان : الجيش فى عصر الدولة الفاطمية (١٩٧٤م) .

٤٦ ــ أحمد محمد الطوخى : نشأة مملكة غرناطة الاسلامية فى اسبانيا (١٩٧٤م) .

٤٧ ــ مصطفى عمرو : القبائل العربية فى المغرب فى عصر الموحدين وبنى مرين .

٤٨ ــ يوسف سلامة : امارة الكرك ودورها السياسى والاقتصادى فى منتصف القرن السادس الهجرى حتى منتصف القرن السابع هـ . (١٩٧٥م) .

٤٩ ــ فايز نجيب اسكندر : فن الحرب والقتال لدى الصليبيين والمسلمين فى الشرق الأدنى فى النصف الأول من القرن السابع هـ . (١٩٧٦م)

٥٠ ــ حمدى عبد المنعم حسين : دولة بنى يوسف المرابطى فى المغرب والاندلس .

٥١ ــ كمال السيد أبو مصطفى : تاريخ مدينة بلنسية الاسلامية حتى سقوطها فى أيدى المرابطين .

٥٢ ــ وديع فتحى عبد الله : العلاقات السياسية بين الدولة البيزنطية والخلافة العباسية فى عهد الامبراطور دينوفيلوس ٨٢٩ ــ ٨٤٢م / ٢١٤ ــ ٢٢٨هـ .

٥٣ ــ عبد الهادى التازى : جامع القرويين من الناحيتين التاريخية والأثرية (١٩٧٥م) .

٥٤ ــ حسين محمد عطية : امارة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها السياسية بالدول الاسلامية المجاورة (١٠٩٨ ــ ١١٧١م) (٤٩٢ ــ ٥٦٧ هـ) .

٥٥ ــ حيدر محمد حسن : أبو عبد الله البكرى حياته وآثاره العلمية والتاريخية ٤١٣ ــ ٤٩٦ هـ .

٥٦ ــ سر الختم سيد فرج : الامارات العربية فى ساحل شرق افريقية فى العصور الوسطى .

٥٧ ــ حسن عبد الوهاب حسين : قيسارية تحت حكم اللاتين (١٩٨٢م).

ثانيا ــ رسائل الدكتوراه :

١ ــ عبد القادر محمد دسوقى : النظريات الاسلامية .

٢ ــ عثمان اسماعيل : الجديد فى حضارة شالة الاسلامية على ضوء المقابر الأثرية .

٣ ــ جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع فى سوريا ١٢٥٠ ــ ١٢٥٤ .

٤ ــ عبد الغنى ابراهيم : السلاجقة والصليبيون فى موقعة ملازجرد ١٠٧١م / ٤٦٥هـ .

٥ ــ سليمان اسحق ابراهيم : تاريخ التعليم فى فلسطين فى عهد سلاطين المماليك .

٦ ــ عبد الهادى التازى : دولة الموحدين فى المغرب وافريقيا والأندلس .

٧ ــ محمد المناوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى (١٩٦٨م) .

٨ ــ محمد سليمان أيوب : حربة تاريخها وحضارتها (١٩٦٨م) .

٩ ــ رضوان البارودى : الحياة الحربية فى عصر الدولة المرينية .

١٠ ــ جابر سلامة : السياسة الخارجية لملوك بنى أيوب فى الشام بعد صلاح الدين .

١١ ــ جميل حرب محمود : الحجاز واليمن فى العصر الأيوبى .

١٢ ــ عبد المنعم عبد الحميد : المجتمع المصرى فى عصر الدولة الفاطمية .

١٣ ــ فايز نجيب اسكندر : مملكة ارمنية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى .

١٤ ــ مصطفى الكنانى : العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الاسلامى .

١٥ ــ مصطفى أبو ضيف : القبائل العربية فى الاندلس حتى نهاية الخلافة الأموية .

١٦ ــ محمد أحمد سيد أبو الفضل : شرق الأندلس فى عصر دولة الموحديين .

١٧ ــ نبيلة محمد السيد : ابن تغرى بردى مؤرخا للمغرب والأندلس وموقفه من معاصريه دراسة مقارنة فى المصادر .

١٩ ــ اسامة زكى زيد : بارونية صيدا علاقاتها السياسية بالمسلمين فى الشرق الأدنى فى عصر الحروب الصليبية .

٢٠ — درويش محمود : مصادر المقريزى فى كتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء .

٢١ — محمود عونى : العلاقات السياسة بين الغرب اللاتينى والمغرب الاسلامى فى عصر الحروب الصليبية .

٢٢ — محمود عبد العزيز : الخط العربى فى الأندلس وتطوره .

٢٣ — حسن أمين : تاريخ العراق فى العصر السلجوقى .

٢٤ — محمود زكى : الممالك الاسلامية فى الهند .

٢٥ — يوسف درويه : تاريخ منطقة شرق الأردن فى عصر دولة المماليك الأولى .

٢٦ — رشيد الجميلى : امارة الموصل فى العصر السلجوقى ٤٨٩ — ٥٢١هـ .

٢٧ — عدلى حسن فريد : انهيار وسقوط دولة المماليك الجراكسة بمصر والشام .

٢٨ — ابراهيم شريف : مفرج الكروب بأخبار بنى أيوب لجمال الدين بن واصل .

٢٩ — جمال الدين الشيال : تحقيق مفرج الكروب لابن واصل .

٣٠ — محمد أحمد عبد المولى : القوى السنية فى المغرب منذ قيام الدولة الفاطمية حتى قيام الدولة الزيدية .

٣١ — أحمد عبد الحميد خفاجى : السلطان الظاهر جقمق وعصره ١٤٣٨ — ١٤٥٣هـ (١٩٧٢م) .

٣٢ — اسمت غنيم : العلاقات السياسية بين الدولة البيزنطية وجزيرة كريت الاسلامية (١٩٧٣م) (٨٢٧ ر ٩٦١هـ / ٢١٢ — ٣٥٠ هـ) .

٣٣ — بدرى محمد فهد : تاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير (٥٥٢ — ٦٥٦ هـ / ١١٥٧ — ١٢٥٨ م).

٣٤ — حسن طه ابراهيم : بنو غانية فى المغرب والأندلس .

٣٥ — محمد عبد العال أحمد : اليمن فيما بين الدولة الأيوبية والفتح العثمانى — دراسة فى العلاقات السياسة الخارجية (١٩٧٦م).

٣٦ — محمد عبد المنعم صالح : صـــقلية النورمانية وعلاقتها بالمســـلمين ٥٤٨ — ٦٤٨ هـ / ١١٤٥ — ١٢٥٠م (١٩٧٥م) .

قائمة رسائل الماجستير والدكتوراه التى نوقشت في كلية الآداب جامعة القاهرة فى موضوعات التاريخ الاسلامى والوسيط

أولا — رسائل الماجستير :

١ — ابراهيم حسن سعد : الجيش فى عصر سلاطين المماليك (١٩٧٣م) .

٢ — ابراهيم على طرخان : نظام الاقطاع فى العصور الوسطى الى نهاية عصر الايوبيين .

٣ — أحمد الياس حسين : الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن ١٦ كما عرفها الجغرافيون العرب .

٤ — أحمد جمال الدين حسن : الخلافة العباسية فى مصر .

٥ — أحمد رمضـــان احمد : شبه جزيرة ســـناء فى القرنين ١٢ ، ١٣ م (١٩٧٤م) .

٦ — أحمد عبد الرحمن الغوابى : عبد الرحمن الناصر ونظام الحكم فى عصره (٣٠٥ — ٣٥٠هـ / ٩١٢ — ٩٦١ م) .

٧ — أحمد عبد الكريم سليمان : الحياة الزراعية فى مصر فى العصر المملوكى (١٩٧١م) .

٨ — أحمد مختار العبادى : قيام الدولة المملوكية الأولى فى مصر .

٩ — أمينة على البيطار : موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس هـ .

١٠ — أيمن فؤاد سيد : المذاهب الدينية فى بلاد اليمن وأثرها على الجانبين العقلى والسياسى فى ق ٥ ، ٦ هـ .

١١ — بدر عبد الرحمن محمد : النشاط التجارى فى مصر فى العصر الفاطمى (١٩٧٧م) .

١٢ ــ تقى الدين عارف : علاقة صقلية بدول البحر المتوسط الاسلامية من الفتح العربى حتى نهاية الغزو النورمندى .

١٣ ــ جابر سلامة المصرى : الزراعة فى مصر فى العهد الأيوبى والملوكى (١٩٧٤م) .

١٤ ــ جرجس ميخائيل : السلطان حقوق وحالة مصر فى عصره (٨٤٢ ــ ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ ــ ١٥٤٣م) . (١٩٧٤م) .

١٥ ــ جهادية عبد الكريم : الحياة السياسية ومظاهر الحضارات فى مدينة سامراء خلال القرن ٣ هـ .

١٦ ــ حافظ حمدى : الدولة الخوارزمية وعلاقتها بالمغول .

١٧ ــ حامد غانم زيان : حلب فى العصر الزنكى ٤٨٨ ــ ٥٧٩ هـ .

١٨ ــ حسن أحمد متولى : عبد العزيز بن مروان وحضارة مصر فى عصره .
علاقات الفاطميين بالدول الاسـلامية وخاصـة

٢٠ ــ حسين محمد سليمان : ثقيف منذ ظهور الاسلام حتى سقوط الدولـة الأموية . (١٩٧٢م) .

٢١ ــ حمدان ابراهيم عبد الله : الامامة فى العراق الاسلامية حتى ق ٣ هـ .

٢٢ ــ فوزى نجيب حسـين : صـلاح الدين وتوحيد الجبهة العربية زمن الصليبيين .

٢٣ ــ قاسم عبده قاسم : نهر النيل وأثره فى الحياة المصرية فى عصر سلاطين المماليك . (١٩٧٢م) .

٢٤ ــ محمد على حيدر : الدولة الساسانية نشأتها وتطورها وحضـارتها حتى سنة ٣٣١ هـ .

٢٥ ــ محمد فتحى الشاعر : اقليم الشرقية فى عصر سـلاطين الأيوبيين والمماليك . (١٩٧٦م) .

٢٦ ــ محمد فتحى عثمان : الثغور الجنوبية الشامية الى نهاية عهد المتوكل .

٢٧ ــ محمد محمد أمين : السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ١٢٤٠ ــ ١٢٤٩م .

٢٨ ــ محمد محمد الشيخ : الجهاد الدينى ضد الصليبيين حتى سـقوط الرها . ١٠٩٧ ــ ١١٤٤م .

٢٩ — محمد محمود أحمد : الحياة الزراعية فى العصر الفاطمى الى نهاية عهد المستنصر بالله (٣٥٨ — ٨٤٧هـ) (١٩٧٧م) .

٣٠ — محمد محمود أبو زيد : أثر النيل فى الحياة المصرية حتى منتصف القرن ٤ هـ .

٣١ — محمد حسين الزهرانى : الوزرات فى العصر البويهى السلجوقى (٣٣٤ — ٥٩٠هـ / ٩٤٥ — ١١٩٣م) .

٣٢ — محمود اسماعيل عبد الرازق : السياسة الخارجية للاغالبة (١٨٤ — ٢٩٦هـ / ٨٨٠ — ٩١٢م) .

٣٣ — ليلى القاسمى : الفيوم فى العصور الوسطى بين القرن ١٢ ، ١٦م .

٣٤ — فيصل السامر : حركة الفرنج وأثرها فى تاريخ الدولة العباسية (ب — ت) .

٣٥ — محمود ابراهيم شلبية : علاقات المغول بسلطنة المماليك فى مصر والشام . (ب — ت) .

٣٦ — محاسن لبيب : الأزياء فى التصوير فى العصرين السلجوقى والمغولى .

٣٧ — محمود أحمد زيور : العلاقات بين الشام ومصر فى العصرين الطولونى والأخشيدى .

٣٨ — محمد بركات البيلى : الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى اشبيلية فى عصر بنى عباد (١٩٧٨م) .

٣٩ — محمد توفيق خفاجى : أثر الأتراك السياسى والاجتماعى فى اشبيلية فى القرن ٣ ، ٤ هـ .

٤٠ — محمد حسين عيد الزيدى : الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى الكوفة منذ نشأتها حتى نهاية الحكم الأموى .

٤١ — محمد زينهم عزب : الادارة المركزية للدولة الأموية (١٩٨١م) .

٤٢ — محمد صالح القزاز : الحياة السياسية فى العراق فى العصر العباسى الأخير .

٤٣ — محمد عبد الرحيم غنيمة : مقدمة لتاريخ التعليم الجامعى فى الاسلام .

٤٤ — محمد عبد الفتاح غلبان : قرامطة العراق فى القرن ٣ ، ٤ هـ .

٤٥ — نظير حسان سعداوى : نظام البريد فى الدولة الاسلامية .

٤٦ ـــ نعمت أبو بكر : المنابر الخشبية فى مصر حتى العصر المملوكى .
٤٧ ـــ مواهب عبد الفتاح ابراهيم : الحياة السياسية ومظاهر الحضـــارة فى دولة السلاجقة على عهد السلطان ملكشـــاه (١٩٨٢) .
٤٨ ـــ فوزى حمدى القيس : الفروسية فى العصر الجاهلى .
٤٩ ـــ هـــادى نهر : معارك نور الدين محمود بن زنكى فى عصر الحـــروب الصـــليبية .
٥٠ ـــ عبد الرؤوف عفيفى : الأشرف خليل بن قلاوون .
٥١ ـــ عبد العزيز محمد عبد الدايم : امارة طرابلس الصليبية فى ق ١٢ م.
٥٢ ـــ سامية مصطفى : العلاقات بين المغرب والأندلس فى عصر الخلافة الاموية (١٩٨٠م) .
٥٣ ـــ سر الختم عثمان : العلاقات بين مصر والسودان فى العصر الوسطى
٥٤ ـــ سعيد عاشـــور : قبرص والحروب الصليبية .
٥٥ ـــ سلام شافعى محمد : أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول . (١٩٧٦م) .
٥٦ ـــ سليمان اسحق عطية : تاريخ التعليم فى فلسطين منذ الفتح العربى حتى آخر عصر الأيوبيين .
٥٧ ـــ سليمان عبد الغنى مالكى : مرافق الحج والخدمات المدنية فى الأراضى الاســـلامية المقدسة من السنة ٨ هـ حتى سقوط الدولة العباسية . (١٩٧٨م).
٥٨ ـــ السيد الباز العرينى : تحقيق نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لعبد الرحمن الشـــيرازى مقدمة تاريخية لوظيفة المحتســـب وتطورها فى مصر .
٥٩ ـــ صابر دياب : تطور الحالة السياسية فى بلاد اليمن خلال القرن ٣ ، ٤هـ
٦٠ ـــ عبد الغنى رمضان : قصر الخلافة فى العصر العباسى .
٦١ ـــ عبد الغنى محمود عبد العاطى : التعليم فى مصر زمن الايوبيين والمماليك (١٩٧٥م).

٦٢ ــ عبد الله ناصر سيف : الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى الحجاز فى العصر الأموى من عام ٤٠ ــ ١٣٢ هـ .

٦٣ ــ عثمان عشرى : الأسطول والبحرية على عصر سلاطين المماليك ٦٤٨هـ / ٩٢٢ هـ .

٦٤ ــ عصام الدين الفقى : الحاله الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية فى مدينة دمشق من الفتح العربى الى نهاية العهد الأموى .

٦٥ ــ عفاف صبره : ديوان الانشاء وتطوره فى عصر الأيوبيين والمماليك ، تحقيق مخطوطة الدر الموشى فى صناعة الانشا للموصلى الكاتب .

٦٦ ــ عفيفى محمود ابراهيم : أحوال بلاد المغرب الاقتصادية فى ظل السيادة الفاطمية (٢٩٦ ــ ٤٤٣ هـ) . (١٩٧٧م) .

٦٧ ــ على احمد بيومى : قيام الدولة الأيوبية فى مصر .

٦٨ ــ على السيد على : المجتمع المسيحى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية (١٩٧٩م) .

٦٩ ــ على بن حسين السليمان : علاقة مصر بالحجاز زمن سلاطين المماليك (١٩٧٠م) .

٧٠ ــ على حسنى الخربوطلى : حركة عبد الله بن الزبير واثرها فى تاريخ الدولة الأموية .

٧١ ــ فاضل عبد اللطيف : تطور الحياة السياسية ونظم الحكم فى العراق خلال القرن ٥ هـ .

٧٢ ــ منى رضوان احمد : الأسرة الجمالية ودورها فى الحياة السياسية والاجتماعية فى عهد الدولة الفاطمية (١٩٨٢م) .

٧٣ ــ فاطمه مصطفى الحكيم : الاسكندرية فى العصر الأيوبى (١٩٨٠م) .

٧٤ ــ فرج محمد : النظم المالية والادارية فى الدولة العربية الاسلامية (١٩٧٦م) .

٧٥ ــ حمدان عبد الحميد : أسواق بغداد حتى العصر البويهى . ١٤٥ ــ ٣٣٤ هـ / ٧٦٢ ــ ٩٩٥م . (١٩٧٧م) .

٧٦ ــ حنفى محمود خطاب : الحركات الداخلية فى الدولة المملوكية الأولى .
٧٧ ــ حورية عبد الجيد سلام : الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مدينة الفسطاط فى العصر الفاطمى .
٧٨ ــ خاشع المعاضيدى : دولة بنى عقيل فى الموصل (٣٨٠ ــ ٤٨٠هـ) .
٧٩ ــ خطاب عطية : تاريخ التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى الأول . (٣٥٨ ــ ٤٦٥هـ / ٩٦٨ ــ ١٠٠٢م) .
٨٠ ــ خليل ابراهيم صالح : علاقات المرابطين بالممالك النصرانية فى الأندلس وبالدولة الاسلامية .
٨١ ــ خليل صابات : تاريخ الطباعة فى الشرق الأدنى .
٨٢ ــ الدرديرى اسماعيل البيلى : الربط فى بلاد المغرب انشائها وتطورها حتى منتصف القرن الخامس هـ . (١٩٧٨م) .
٨٣ ــ راضى عبد الله عبد الحليم : النظام الادارى والحربى فى الدولة العربية والاسلامية على عهد الخلفاء الراشدين (١٩٧٩م) .
٨٤ ــ رجب محمد عبد الحليم : دولة بنى حمود فى مالقة بالأندلس (١٩٧٦م) .
٨٥ ــ رضوان اغياتى : القبائل العربية فى مصر فى القرن ٣ ، ٤ هـ وأثرها على الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية . (١٩٧٦م) .
٨٦ ــ زاهر رياض : مظاهر العلاقات بين المسلمين والمسيحيين فى الحبشة فى العصور الوسطى .
٨٧ ــ زبيده محمد عطا : الشرق الاسلامى والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين . (١٩٦٨م) .
٨٨ ــ زين العابدين سراج : دولة كانم الاسلامية ق ٩ ــ ١٤م (١٩٧٥م) .
٨٩ ــ سامية توفيق : تطور الوزارة فى بداية العصر العباسى حتى نهاية القرن ٣ هـ . (١٩٧٧ م) .
٩٠ ــ عادل محمد شهاب : منهج البحث التاريخى عند البيرونى (١٩٨٠م) .

٩١ ـ ابتسام صالح عبد الحليم : بهادر شاه ظفر آخر سلاطين المغول . (١٩٨٠م) .

٩٢ ـ منى حسن محمود : العلاقات بين دولة الفرنجة والمسلمين فى الأندلس (١٩٨٠م) .

٩٣ ـ عادل بخيت رستم : مظاهر الحضارة الاسلامية فى الدولة السامانية (١٩٧٨م) .

٩٤ ـ عباده عبد الرحمن كحيلة : المولدون فى التاريخ الأندلسى (١٩٧٨م) .

٩٥ ـ أحمد محمود زيور : العلاقات بين مصر والشام فى العهدين الطولونى والأخشيدى . (١٩٧٦م) .

٩٦ ـ صالح مصطفى مفتاح : برقة وطرابلس من الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الى مصر (١٩٧٦م) .

٩٧ ـ شوقى عبد القوى عثمان : العلاقات الخارجية بين مصر والدول الافريقية فى عصر سلاطين المماليك (١٩٧٧م) .

٩٨ ـ جمال الدين الخولى : دراسة مقارنة لوثائق للاستبدال بمصر فى القرن العاشر الهجرى (١٩٧٤م) .

٩٩ ـ عادل سليمان زيتون : العلاقات بين القوى الايطالية وبيزنطة فى القرن ١٢م . (١٩٧٥م) .

١٠٠ ـ نوال عبد العزيز : العرب فى شرق افريقيا من القرن الثامن الميلادى حتى تدخل البرتغال فى القرن الثامن عشر م (١٩٨٠م) .

١٠١ ـ صالح حسين ناصر : تاريخ مشرق الجزيرة والخليج العربى فى فجر الاسلام حتى نهاية الدولة الأموية (١٩٨١م) .

١٠٢ ـ صفاء حافظ عبد الفتاح : الثغور البحرية منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى .

١٠٣ ـ عبد الجبار منسى : دور الخليفة المصرى العباسى فى اقرار النظم العباسية .

١٠٤ ـ عبد المجيد الشرقاوى : الملاحة البحرية الأندلسية فى القرن ٣ ، ٤هـ

١٠٥ ـ عبد الرحمن عبد الله الحاج : العلاقات بين بلاد المغرب وشرق السودان منذ ظهور الاسلام حتى ظهور الفرنج (١٩٧٦م) .

١٠٦ ـ هاشم اسماعيل هاشم : دراسات تاريخية عسكرية عن الدولة البيزنطية منذ الفتح العربى للشام حتى نهاية العصر العباسى الأول (١٩٧٧م) .

١٠٧ ـ هشام سليم عبد الرحمن : الحكم فى الأندلس فى عصر الخلافة (١٩٧٥م) .

١٠٨ ـ داود محمد فهمى رشوان : دار الخلافة الأموية فى دمشق نظمها ورسمها (١٩٨٠م) .

١٠٩ ـ محمد محمود عرفه : الجيش فى العصر الأموى (١٩٨٠م) .

١١٠ ـ محمود محمد الحويرى : أسوان فى العصور الوسطى .

١١١ ـ مزمل محمد حسين : نيابات الشام فى عهد الدولة المملوكية الأولى .

١١٢ ـ مصطفى عبد الخالق : هجرة بنى هلال للمغرب . (١٩٨١م) .

١١٣ ـ منى ابراهيم عبد الرحمن : السفارات الأجنبية فى مصر على عهد سلاطين المماليك (١٩٧٥م) .

١١٤ ـ منى حسن احمد محمود : العلاقات بين الفرنجة والمسلمين فى الأندلس ٧١٤ ـ ٨١٥م .

١١٥ ـ موسى عبد الغفار : الأحوال الاجتماعية والاقتصادية فى فلسطين فى العهد الأموى ٤٠ ـ ١٣٢هـ (١٩٧٩م) .

١١٦ ـ نبيل احمد عبد العزيز : دمشق ١٠٧١ ـ ١١٥٤م (١٩٦٨م) .

١١٧ ـ نبيلة ابراهيم مقامى : فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام فى القرنين ١٢ ، ١٣ م . (١٩٧٥م) .

١١٨ ـ نجله قاسم الصالح : بلاد الحجاز خلال العصر العباسى الأول .

١١٩ ـ نزيهة عبد العزيز : الحياة السياسية ومظاهر الحضارات فى العراق والمشرق فى عهد الخليفة القادر بالله العباسى (٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ) (١٩٨١ م) .

١٢٠ ـ عبد الحفيظ محمد على : الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين فى الشرق الأدنى (١٩٧٥م) .

ثانيا ــ رسائل الدكتوراه :

١ ــ آمال أحمد حسن : المنشآت التجارية فى القاهرة فى العصر المملوكى (١٩٧٥م) .

٢ ــ ابراهيم على طرخان : النظم الاقطاعية فى دولة المماليك الأولى والثانية (١٩٥٥م) .

٣ ــ ابراهيم راشــد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى العهد الفاطمى (١٩٤٤م) .

٤ ــ أبو النصر الخالدى : المختار بن عبيد الثقفى أسـباب ثورته ونتائجها دراسة اجتماعية .

٥ ــ احمد عبد الكريم سليمان : العلاقات بين الدولة البيزنطية والقــوى الاسلامية فى شرق البحر المتوسط فى ق ١٠ ، ١١م (١٩٨٠م) .

٦ ــ أمينة البيطار : الحياة السياسية أهم مظاهر الحضارة فى بلاد الشام منذ قيام الخلافة العباسية حتى الفتح الفاطمى (١٩٧٥م) .

٧ ــ بدر عبد الرحمن محمد : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى العراق والمشرق الاسلامى فى ق ٤ هـ منذ ظهور السلاجقة (١٩٨٠م) .

٨ ــ جاســم محمد الوهابى : النظام الادارى الفارسى وأثره فى الادارة الاسلامية فى عصر الراشدين والامويين .

٩ ــ حامد زيان غانم زيان : العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام ابان الحروب الصليبية (٤٩٠ ــ ٦٥٩ هـ / ١٠٩٦ ــ ١٢٦١م) . (١٩٧٣م) .

١٠ ــ حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين بالمغرب .

١١ ــ حسن الباشا : تاريخ الألقاب والمراسيم فى الاسلام .

١٢ ــ حسن سليمان محمود : الصليحيون فى اليمن وعلاقاتهم بالفاطميين فى مصــر .

١٣ ــ حسن على محمد : الحياة الادارية والاقتصادية والاجتماعية فى المغرب فى القرنين ٥ ، ٦ هـ .

١٤ ـــ حسنين محمد ربيع : النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين .
١٥ ـــ حسين محمد سليمان : مدينة دمشق منذ سقوط الخلافة الأموية حتى زوال السيادة الفاطمية ١٣٢ ـــ ٤٦٧ هـ .
(١٩٧٦م) .
١٦ ـــ حكيم عبد السيد : قيام دولة المماليك الثانية ١٣٨٢ ـــ ١٤١٢م .
١٧ ـــ حورية عبد الجيد سلام : علاقة مصر ببلاد المغرب منذ الفتح العربى حتى قيام الدولة الفاطمية .
١٨ ـــ خاشع عباده المعاضيدى : الحياة السياسية فى بلاد الشام خلال العصر الفاطمى ٣٥٩ ـــ ٥٦٧ هـ . (١٩٧٣م).
١٩ ـــ رجب عبد الحليم : العلاقات بين الممالك الاسلامية والنصرانية فى أسبانيا من الفتح العربى حتى نهاية ق ٥ هـ .
(١٩٨١م) .
٢٠ ـــ زاهر رياض : العصر الأول فى الأسرة السليمانية فى الحبشة ١٢٦٨ ـــ ١٤٦٨م .
٢١ ـــ زاهير قدورة : الشعوبية واثرها الاجتماعى والسياسى فى الحياة الاسلامية فى العصر العباسى الأول .
٢٢ ـــ زبيدة محمد عطا : تحقيق زبدة الفكر فى تاريخ الهجرة مع دراسة خصائص الكتابة التاريخية فى العصر المملوكى لبيبرس الدويدار (١٩٧٥م) .
٢٣ ـــ زكى النقاش : الحشاشون وأثرهم فى السياسة والاجتماع .
٢٤ ـــ زين العابدين السراج : دولة كانم الاسلامية فى ق ٩ ـــ ١٥م .
٢٥ ـــ سامى سلطان سعد : الاسبتارية فى رودس (١٣١٠ ـــ ١٥٢٢م) .
٢٦ ـــ صالح مصطفى : برقة وطرابلس من الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية فى مصر .
٢٧ ـــ عباس حلمى اسماعيل : السياسة الداخلية فى الدولة الأيوبية بعد السلطان العادل .

٢٨ ـ عبد الحميد الشرقاوى : الحياة الاقتصادية فى الأندلس خلال ق ٤ هـ .

٢٩ ـ عبد الشافى غنيم : حالة المسلمين الثقافية والاجتماعية فى جزيرة صقلية فى العصر النورمندى (٤٨٤ ـ ٦٦٧ هـ / ١٠٩١ ـ ١٢٦٨م) .

٣٠ ـ عبد العزيز عبد الدايم : الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر ، تحقيق نص مخطوطة بن منكلى المصرى ، مع دراسة فن القتال فى العصر المملوكى (١٩٧٤م) .

٣١ ـ عبد الغنى ابراهيم : السلاجقة والصليبيين فى موقعة ملازجرد ٤٦٥ ـ ٥٣٦ هـ / ١٠٧١ ـ ١٢٢٤م حتى سقوط الرها .

٣٢ ـ سامية توفيق : الحياة السياسية فى خراسان من بداية العصر العباسى حتى نهاية القرن ٣ هـ . (١٩٧٩م) .

٣٣ ـ عادل زيتون : النشاط التجارى للمدن الايطالية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط فى القرنين ١٣ ، ١٤م (١٩٧٨م).

٣٤ ـ سر الختم عثمان : مدينة صور فى القرنين ١٢ ، ١٣م (١٩٧١م) .

٣٥ ـ سعيد عاشور : دراسات فى الحياة الاجتماعية فى عصر سلاطين

٣٦ ـ سليمان اسحق : تاريخ التعليم فى فلسطين فى عهد سلاطين المماليك .

٣٧ ـ سليمان عبد الغنى مالكى : بلاد الحجاز منذ بداية عهد الاشراف حتى سقوط الخلافة العباسية فى بغداد فى منتصف القرن ٤ هـ ـ القرن ٧ هـ .

٣٨ ـ سليمان عطية : سياسة المماليك فى البحر الأحمر حتى نهاية عهد السلطان برسباى ١٢٥٠ ـ ١٤٣٨م .

٣٩ ـ السيد الباز العرينى : الفروسية فى عصر سلاطين المماليك ١٢٥٠ ـ ١٥٠٠م (١٩٥٥م) .

٤٠ ـ صابر محمد دياب : سياسة الدولة الاسلامية فى حوض البحر

المتوسط من أوائل ق ٢ حتى نهاية العصر الفاطمى (١٩٧٢م) ٠

٤١ ــ سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عهد الاخشيديين ٠

٤٢ ــ أحمد رمضان احمد : المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام وعصر الحروب الصليبية (١٩٧٧م) ٠

٤٣ ــ عبد المنعم نافع : الحياة السايسية ومظاهر الحضارة فى الشرق الاسلامى على عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ــ ١٢٥ هـ) ٠

٤٤ ــ عثمان عشرى : الاسماعيليون فى بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية (١٩٧٥) ٠

٤٥ ــ عصام الفقى : الحياة السياسية والتنظيمات الادارية والمالية فى دولة الاتابكة بالموصل والجزيرة ٠

٤٦ ــ عطية القوصى : التجارة فى البحر الأحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ٦٥٦ هـ (١٩٧٣م) ٠

٤٧ ــ عفاف صبره : علاقة البندقية بمصر والشام منذ بداية القرن ١٢ حتى القرن ١٤م ٠

٤٨ ــ عفيفى محمود ابراهيم : مظاهر الحضارة فى بلاد المغرب منذ انتقال الخلافة الفاطمية حتى منتصف القرن السادس هـ (١٩٨٠م) ٠

٥٠ ــ على حسنى الخربوطلى : تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى من النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية (١٩٥٧م) ٠

٥١ ــ على بن حسين السليمان : النشاط التجارى فى شبه الجزيرة العربية (١٩٧٤م) ٠

٥٢ ــ فاضل الخالدى : نظم الحكم فى العراق فى أواخر العهد العباسى ٤٤٧ ــ ٦٥٦ هـ ٠ (١٩٧١م) ٠

٥٣ ــ فيصل حربى : الدولة الحمدانية فى الموصل وحلب ٠

٥٤ ــ قاسم عبده قاسم : أهل الذمة فى مصر فى عصر سـلاطين المماليك دراسة وثائقية . (١٩٧٥م) .

٥٥ ــ محمد عبد الوهاب خلاف : الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى قرطبة خلال القرن الخامس هـ . (١٩٧٧م) .

٥٦ ــ محمد محمد أمين : تاريخ الأوقاف فى مصر فى عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ ــ ١٥١٧) . (١٩٧٢ م) .

٥٧ ــ محمد محمد الشيخ : الامارات العربية فى بلاد الشام فى القرنين ١١ ، ١٢ م .

٥٨ ــ محمد محمود : الكتابة فى مصر فى عصر الدولة الأيوبية .

٥٩ ــ محمود اسماعيل عبد الرازق : أثر الخوارج فى الحياة السياسية فى بلاد المغرب فى منتصف القرن ٤ هـ . (١٩٧٠م) .

٦٠ ــ محمد توفيق خفاجى : تطور النظم المالية والادارية فى بلاد العراق والفرس فى مستهل العصر العباسى الى نهايـة القرن ٤ هـ .

٦١ ــ محمد حسين عبد الزبيدى : التنظيمات السياسية والادارية والاقتصادية فى عصر حنا الثانى كومنفى (١١١٨ ــ ١١٤٣م) . فى العراق فى العصر البويهى ٣٣٤ ــ ٤٤٧ هـ . (١٩٦٨م) .

٦٢ ــ محمد ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية فى الاسلام حتى منتصف القرن ٣ هـ .

٦٣ ــ محمد عبد الفتاح عليان : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى عهد دولة بنى رسول باليمن (١٩٧٣م) .

٦٤ ــ عبد الحفيظ محمد على : السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية فى عصر حنا الثانى كومنين (١١١٨ ــ ١١٤٣م) . (١٩٨٣م) .

٦٥ ــ محمد صالح محيى الدين : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى العراق والمشرق فى عهد الناصر لدين الله العباسى ٥٧٥ ــ ٦٢٢ هـ . (١٩٧٤م) .

٦٦ ــ نبيل عبد العزيز : تحقيق ونشر مخطوطة نهاية السؤال والأمنية فى تعليم الفروسية فى عصر سلاطين المماليك .

٦٧ ــ ناجي معروف : المستنصرية وأثرها فى تطور المدرسة الى الجامعة .

٦٨ ــ مليحه محمد رحمه : الحالة الاجتماعية فى العراق فى القرن ٣ ، ٤ هـ (١٩٦٨م) .

٦٩ ــ محمود الحوير : الأوضــــاع الحضـــارية فى بلاد الشام فى القرنين ١٢ ، ١٣م (١٩٧٨م) .

٧٠ ــ مصطفى طه بدر : ايران فى عهد ملزان (٢٩٤ ــ ٣٠٧ هـ) . ١٢٩٤ ــ ١٣٠٣م وعلاقتها بمصر بوجه خاص .

٧١ نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى فى عهد صلاح الدين الأيوبى .

٧٢ ــ هاشم سـليمان أبو رجيلة : علاقات الموحدين بالممالك النصرانية بالدولة الاسلامية بالأندلس (١٩٧٩م) .

٧٣ ــ عبد الجبار العبيدى : دور الخليفة المهدى العباسى فى اقرار النظم السياسية . (١٩٧٠م) .

٧٤ ــ محمد محمود أحمد درويش : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى العراق والمشرق الاسلامى خلال العصر السلجوقى الأول . (١٩٨٠م) .

٧٥ ــ سلام شافعى سلام : أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى والأيوبى (١٩٧٩م) .

٧٦ ــ زاكية محمد رشدى : ميخائيل السريانى الكبير وتأريخه لصدر الاسلام والعصر الأموى (١٩٦١م) .

٧٧ ــ نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب فى أواخر العصور الوسطى (١٩٦٨ م) .

٧٨ ــ حافظ حمدى : الدولة الخوارزمية وعلاقتها بالمغول (١٩٤٧م) .

٧٩ ــ عبد الله ناصر سيف : الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى نجد والحجاز فى العصر الأموى (١٩٧٨م) .

قائمة بالموضوعات المسجل فيها لدرجتى الماجستير
والدكتوراه بكلية الآداب جامعة عين شمس

أولا – رسائل الماجستير :

– أحمد فؤاد سيد : نظام الحكم والادارة فى العصر الأيوبى بمصر .
تاريخ التسجيل ١٩٧٧م [نوقشت فى آخر ١٩٨٣] .

– ناريمان عبد الكريم أحمد : أحوال المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى .
تاريخ التسجيل ١٩٧٨م .

– كرم كمال الدين الصاوى : مظاهر التغير الحضارى فى مصر الاسلامية منذ الفتح العربى حتى نهاية الدولة الطولونية من خلال وثائق البردى .
تاريخ التسجيل ١٩٨٢م .

– نجوى عدلى بشاره : الحركة الفكرية فى مدرسة الاسكندرية فى القرن الثالث م .
تاريخ التسجيل ١٩٧٩م .

– محمد مؤنس أحمد عوض : التنظيمات الاسلامية والمسيحية فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية .
تاريخ التسجيل ١٩٨٠م .

– فاطمة فهيم حافظ خليل : التغيرات الحضارية التى طرأت على المجتمع الانجلو ساكسونى بعد موقعة هاستنجز عام ١٠٦٦م .
تاريخ التسجيل ١٩٧٨ م .

– عاطف مرقص بطرس : الأرمن وعلاقتهم بالبيزنطيين والمسلمين (١٠٧١ – ١١٧١ م) .
تاريخ التسجيل ١٩٨١ م .

– ايمان حسن خليل : العلاقات البيزنطية الفاطمية فى المدة من ١٠٢٥ – ١٠٧١ م .
تاريخ التسجيل ١٩٨٢م .

— حرب عبد المقصود : الحسبة فى الامارات الصليبية .

تاريخ التسجيل ١٩٨١ م .

— اسماعيل عبد المنعم قاسم : الأمراض الاجتماعية زمن سلاطين المماليك .

تاريخ التسجيل ١٩٨١م .

— لطفى أحمد سعيد : وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك .

تاريخ التسجيل ١٩٨١م .

ثانيا — رسائل الدكتوراه :

— سنوسى يوسف ابراهيم : دور زناتة فى المغرب الاسلامى بعد خروج الصليبيين وحتى قيام دولة المرابطين .

تاريخ التسجيل عام ١٩٨٠م .

— عبد المحسن رمضـــان : مملكة اشتوريس وعلاقتها بمسلمى الأندلس

تاريخ التسجيل ١٩٨٠م .

— محمود رزق محمود : المجتمع المصرى فى العصر الطولونى .

تاريخ التسجيل ١٩٧٩م .

— جمعة مصطفى الجندى : حياة الفرنج ونظمهم فى الشـــام خلال القرنين ١٢ ، ١٣ م .

تاريخ التسجيل ١٩٨٠م .

قائمة بالموضوعات المسجلة فى التاريخ الاسلامى والوسيط
لدرجتى الماجستير والدكتوراه بكلية الآداب
جامعة الزقازيق — مصر

١ — سامية مصطفى محمد : الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى اقليم غرناطة فى عهد المرابطين والموحدين ٤٨٤ — ٦٢٠ هـ / ١٠٩٢ — ١٢٢١م .

ك ١٩٨١/١٠/٢١
ج ١ /١٢/١٩٨١

٢ — على السيد على محمود : مدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك .

ك ١٩٨١/١١/٣٠
ج ٥ /١/ ١٩٨٢

٣ — محمد فتحى عوض الشاعر : السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية فى القرن السادس الميلادى .

٤ — زينب عبد المجيد عبد القوى : العلاقات الدينية والسياسية بين الامبراطورية البيزنطية وغرب أوربا فى الفترة من ١٠٧١ — ١١٠٤ .

ك ٢ /١٢/ ١٩٨٠
ج ١٩٨٠/١٢/١٦

٥ — حسين السيد متولى : العلاقات السياسية والاقتصادية بين دولة المماليك الثانية ودول البحر المتوسط الأوربية من سنة ١٣٨٨ — ١٥١٦م .

ك ١٩٨١/ ٢/١٣
ج ١٩٨٠/١٢/١٦

٦ ـ أحمد محمد عبد العظيم نادمر : الحياة الاقتصادية فى مملكة بيت المقدس في القرن الثانى عشرم .

ك ١٩٨١/٤/٢٩
ج ١٩٨١/٥/٢٥

٧ ـ بهى الدين محمود عوض : الحياة الثقافية فى مصر فى العصر الفاطمى .

ك ١٩٨٣/٣/١٣
ج ١٩٨٣/٤/٥

٨ ـ طارق محمد عبد القادر : التحصينات الحربيـة فى العصر الأيوبى والمملوكى فى شبه جزيرة سيناء .

ك ١٩٨٣/٣/٢٠
ج ١٩٨٣/٤/٥

٩ ـ حمدى أنور السيد : تحقيق ونشر ونقد للمجلد لثالث من مخطوطة ابن الفرات الحنفى .

ك ١٩٨٢/٢/٢١
ج ١٩٨٢/٢/٢٢

١٠ ـ فتحى عبد العزيز محمد : دور الكنيسة فى مملكة بيت المقدس اللاتينية حتى عام ١١٨٧م .

ك ١٩٨٢/٢/٢٧
ج ١٩٨٢/٢/٢٢

١١ ـ بلال محمود احمد محسن : علاقات الفاطميين بالقوى الاسـلامية والصليبية فى الشـام فى الفترة من ١٠٧١ ـ ١١٧١م .

ك ١٩٨٢/٣/ ٧
ج ١٩٨٢/٥/١٨

١٢ ـــ محمد محمد عبد القادر الشمبى : الأسواق فى المناطق الصليبية لبلاد الشام فى الفترة من ١٠٩٩ ـــ ١٢٩٩م .

١٣ ـــ سميرة عمارة محمد اسماعيل : العلاقات بين الدولة البيزنطية والدولة العباسية فى عهد أبى جعفر المنصور .

ك ١٦/١٠/١٩٨٢

ج ٧ /١١/١٩٨٢

١٤ ـــ صلاح الدين موسى : المواجهة العربية والاسلامية للصليبيين حتى عام ١١٩٢م .

ك ١٦/١٠/١٩٨٢

ج ٧ /١١/١٩٨٢

١٥ ـــ محروس عبد القدوس : جستنيان وسياسة الاسترداد .

ك ٢٨/١٢/١٩٨٢

ج ٧/١/١٩٨٣

١٦ ـــ محمد عبد القادر موافى : المنشآت المعمارية المملوكية فى شرق الدلتا .

ك ٢٨/١٢/١٩٨٢

ج ٧/١/١٩٨٣



رسائل الماجستير والدكتوراه
التى نوقشت منذ يناير ١٩٨٢ حتى ابريل ١٩٨٣ م

اعــــداد
محمد مؤنس عوض
المعيد بكلية الآداب جامعة عين شمس



قوائم رسائل الماجستير والدكتوراه
التى نوقشت على امتداد عام ١٩٨٢ والثلث
الاول من عام ١٩٨٣ م [حتى ابريل]

اولا : ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة : ـ

محمود عرفة محمود « الجيش العباسى خلال عهدى البويهيين والسلاجقة »

رسالة دكتوراه غير منشورة ـ ١٩٨٣ م ٠

اشتملت الرسالة على أربعة أبواب : ـ الباب الاول اشتمل على الجيش العباسى بعد دخــول البويهيين بغــداد ، اما الباب الثانى فقد كان عنوانه اضمحلال الجيش العباسى فى بداية العهد السلجوقى اما الثالث فقد تنــاول نهوض الخلفاء العباسيين لاعادة تكوين الجيش العباسى ودوره فى تحــرير البلاد من السيطرة السلجوقية واستعادة سلطان الخلافة ، اما الباب الرابع فقد اختص بتناول تنظيمات الجيش العباسى وأسلحته ٠

ويقرر الباحث فى ختام رسالته أن بنى بوية اهتمــوا بتنظيم الجيش واعداده وتجهيزه بكل ما يحتاج اليه من اسلحة ومؤن وعتاد ويرى ان على الرغم من نجاح البويهيين فى احلال جيشهم محل الجيش العباسى فان سياستهم أدت الى قيام النزاع والتنافس بينها طمعا فى السلطة مما أدى الى ازدياد حالة الخلافة سوءا فى اواخر العهد البويهى فى العراق ٠

وقد وضح الباحث من خلال دراستة حال الجيش العباسى فى بــداية العهد السجلوقى ومدى ما أصاب هذا الجيش من انحلال بسبب سياســة السلاجقة التى هدفت الى احلال جيشهم محل الجيش العباسى ٠

يمنى رضوان أحمد رضوان • الاسرة الجمالية ودورها فى الحياة السياسية والحضارية فى عهد الدولة الفاطمية •

رسالة ماجستير ـ عام ١٩٨٢ م

اشتملت الرسالة على خمسة فصول ، الفصل الاول تناولت فيه الباحثة الأحوال الاجتماعية فى مصر فى اوائل عهد المستنصر بالله الفاطمى ، الفصل الثانى تناولت من خلاله الدور الذى لعبته الوزارة فى عهد ذلك الامام الفاطمى ، أما الفصل الثالث فانها تناولت فيه ازدياد سلطة الوزراء فى ظل أسرة بدر الجمالى الذى استدعاه الخليفة من أجل القيام باصلاح أحوال مصر الاقتصادية المضطربة ، وبالنسبة للفصل الرابع فقد عالجت فية الباحثة موضوع جهود وزراء الأسرة الجمالية فى توطيد سلطان الخلافة الفاطمية ، وفى خاتم الفصول وهو الفصل الخامس بحثت فيه الأسرة الجمالية وآثارهم الحضارية فى عهد دولة الفواطم •

محمد بركات البيلى البربر فى الأندلس

منذ الفتح الاسلامى حتى نهاية عصر الامارات ٩٢ ـ ٣١٦ هـ / ٧١١ ـ ٩٢٩ م

رسالة دكتوراه غير منشورة ١٩٨٢

اشتملت الرسالة على بابين اساسيين انقسما بدورهما الى العديد من الفصول ، الباب الاول هو الأحوال السياسية للبربر فى الأندلس منذ الفتح الاسلامى حتى نهاية عصر الامارة ، اما الباب الثانى فقد تناول فيه الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والفكرية للبربر فى الاندلس حتى نهاية عصر الامارة الفصول العديدة التى شملتها الرسالة منها نذكر دور البربر منذ الفتح الاسلامى فى الاندلس والاحوال السياسية للبربر فى الأندلس فى عصر الدولة والاحوال السياسية للبربر فى الاندلس فى عصر الامارة وكذلك الأحوال الاجتماعية للبربر فى الأندلس منذ الفتح الاسلامى حتى نهاية عصر الامارة ، ثم الأحوال الاقتصادية ودور البربر فى الحياة الفكرية فى الاندلس خلال المرحلة الزمنية موضوع الدراسة •

بوبة مجانى ، أثر العرب اليمنية فى تاريخ بلاد المغرب فى القرون الثلاثة الاولى للهجرة

رسالة ماجستير غير منشورة ١٩٨٢ م

اشتملت الرسالة على خمسة فصول • الفصل الاول دور العرب اليمنية العسكرى خلال الرحلة موضع الدراسة اما الفصل الثانى فكان دور العـــرب اليمنية على عهد الخلافة الاموية وذلك فيما يتعلق بالناحية السياسية ، أما الفصل الثالث فقد اشتمل على دورهم السياسى على عهد الخلافة العباسـية والفصل الرابع احتوى دور العرب اليمنية فى الحياة السياسية خلال عهـد الدول المستقلة ، وفى الفصل الخامس عملت الباحثة على ابراز الدور الحضارى لهم •

وخلصت الباحثة فى ختام رسالتها الى تقرير بعض الحقائق منها أن العرب اليمنية لعبوا دورا كبيرا فى تاريخ العرب عسكريا وسياسيا وحضاريا ، فمن الناحية العسكرية مثلا شاركوا بقسط وافر فى عملية الفتح كجنود وكقواد ، أما دورهم السياسى فانهم بعد أن انتهت الفتوحات وأصـبح المغرب ولاية اسلامية شاركوا فى احداث السياسية بما فيها من صراعات قبلية ثم صراعات وحركات مذهبية ومن خلال ذلك ظهر دورهم العسكرى من جديد أما من الناحية الحضارية فقد ساهموا اسهاما كبيرا فى ادخل السند العلمى الى بلاد المغرب والذى قام بهذا الدور هم الصحابة والتابعين وعلى يد هؤلاء تأسست المدرسة الفقهية المغربية التى كان روادها من اليمنية •

يونس عبد الحميد السامرائى • الدولة المرداسية فى حلب

رسالة دكتوراه غير منشورة ١٩٨٢ م

اشتملت الرسالة على أربعة أبواب انقسمت بدورها الى العـديد من الفصول وقد قدم لها الباحث بتناوله لاسم حلب وموقعها وجغرافيتها بصفة عامة ، ثم تناول المرداسيين وأصلهم ودورهم فى حكم حلب ليصل ببحثه الى

تناول علاقاتهم بالقوى السياسية المجاورة لهم مثل علاقاتهم بالخلافة العباسية والخلافة الفاطمية والامبراطورية البيزنطية وعلاقتهم بالامارات والقبائل العربية المجاورة لهم ، ثم تناول أيضا المظاهر الحضارية فى المدينة ونظمها تحت حكم المرادسيين ، مثل ذلك تناوله لألقاب امراء الدولة الرواسية وولاية العهد والبلاط الرواسى والوزارة والجيش وحركة الأحداث فى المدينة وكذلك القضاء والمحتسب وغيرها من الوظائف ، ثم تناول أيضا النشاط الاقتصادى من زراعة وصناعه وتجارة وكذلك بحث فى الضرائب وحركة العمران والحالة الاجتماعية ٠

ومما يؤخذ على الرسالة ، ان الباحث لم يضع أية عناوين خاصـــــة بأبوابها على نحو أفقدها تحديد هوية المواضيع الكلية المرتبطة بالموضـــوع والتى تناولها فى صورة جزئية متمثلة فى الفصول ، وعلى حين وضع عنوانا لكل فصل فانة اغفل ذلك بالنسبة للأبواب على الرغم من أهمية ذلك

ثانيا : دار العلوم

أحمد مصطفى الصغير ، المصادر الجغرافية للتاريخ

المسعودى - الادريسى - ابن بطوطة

رسالة ماجستير - ١٩٨٢ م ٠

انقسمت الرسالة الى أربعة فصول ، الفصل الاول خصصه البـــاحث لدراسة المصادر المختلفة للتاريخ الاسلامى وهدف من خلاله الى القـاء الضوء على المصادر الجغرافية فى كتابة التاريخ الاسلامى ٠ أما الفصل الثانى فقد تناول فيه المسعودى وكتابته واسلوبه فى كتاباته الجغرافية والمصادر التى اعتمد عليها ، أما الفصل الثالث فقد خصصه لدراسة الادريسى والرابـــع لابن بطوطة

ويعاب على الرسالة عدم تناولها لمرجع واحد بأية لغة من اللغات الاوربية الحديثة ولا يستعين بأى عمل من أعمال المستشرقين بلغته الاصلية وخلت قائمة مصادره ومراجعه من أية اشارة لمرجع أجنبى واحد ٠

عبد المرضى محمد زايد ، دولة بنى زيان بالمغرب
رسالة ماجستير غير منشورة ١٩٨٢ ·

اشتملت الرسالة على اربعة فصول ، الفصل الاول الدولة الزيانية وظروف قيامها ومؤثرات العامل القبلى والجغرافى ، الفصل الثانى الدولة الزيانية بين الاتساع والانحسار من خلال مؤثرات العامل القبلى والصراع داخل البيت الزيانى والموقع الجغرافى · اما الفصل الثالث فقد اشتمل على تناول علاقة الدولة بجيرانها من حيث علاقاتها بالموحدين وبنى مرين وبنى حفص وعلاقاتهم بالاندلس ، اما الفصل الرابع فقد بحث فيه النشاط الحضارى للدولة الزيانية ·

محمود محمد زغروت ، الجيش فى عهدى المرابطين والموحدين
رسالة دكتوراه غير منشورة ١٩٨٢ ·

تناولت الرسالة أربعة أبواب هى كالآتى : الباب الاول تناول نشأة جيوش المرابطين والموحدين وتنظيمها والاشراف عليها ، اما الباب الثانى فانه اشتمل على أسلحة القتال وبالنسبة للباب الثالث فقد تناول الباحث فيه تنظيم القوات والباب الرابع خصصه لمرحلة مابعد المعركة ، اما الباب الخامس فقد خصصه لدراسة مقارنة لبعض المعارك ·

هذا ، وقد فضل الباحث أن يقسم الأبواب الى فصول والفصول الى أقسام مثلما حدث فى تقسيمه للفصل الثانى من الباب الثانى وعنوانه اسلحة القتال الدفاعية حيث قسم هذا الفصل الى القسم الاول واشتمل على آلات الدفاع الخفيفة والاسلحة الثقيلة ، اما القسم الثانى فانه انقسم الى وسائل الدفاع الثابتة ·

ومن ناحية أخرى فان الباحث كان قد قدم لرسالته بعرض للحياة العسكرية لبلاد العرب قبل ظهور المرابطين والموحدين ·

رقم الايداع / ٢٣٢٣ / ٨٤

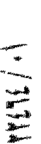
ترقيم دولى ٦ـ٨.٥٨.٧ـ٠٢ـ٩٧٧

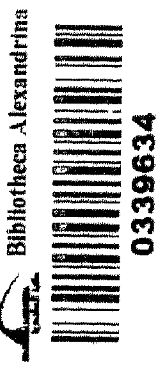
دار التضامن للطباعة

٢٢ شارع سامى ـ ميدان لاظوغلى

القاهرة • تليفون ٣٠٥٥٦






Bibliotheca Alexandrina
0339634